سيكلوچية الشك

تأليف

يوسف ميخائيل أسعد

الناشر
مكتبة غريب
٣،١ شارع كامل صدقي (الفجالة)
ت: ٩٠٢١٠٧

مقـــدمة

إن المتأمل لفهرس هذا الكتاب يجد أنه يتضمن موضوعات سيكلوجية من جهة ، وموضوعات فلسفية من جهة أخرى . وكما هو واضح فانه يضم خمسة عشر فصلا ، ويضم كل فصل منها خمسة موضوعات . فالكتاب يقدم إلى القارىء خمسة وسبعين موضوعا . وقد خصصنا سبعة فصول للشك وثمانية فصول للوسوسة . بيد أن الرابطة فى المعالجة بين الشك والوسوسة متوافرة وواضحة المعالم :

أما المنهج الذى استعنا به فى معالجة هذا العمل فهو المنهج الذى يحلو لنا أن نسميه بالمنهج الخبرى ، ونعنى به المنهج الذى يتحرى فى ضوئه المؤلف تقديم جماع خبراته بالمعنى العام للكلمة . فنحن نعتقد أن المفكر الخليق بهذه التسمية يتأثر بكل مايصل إليه من معلومات ومهارات وما يوجد به من مواقف وما يجيش فى صدره من انفعالات وما يتولد فى ذهنه من أفكار نتيجة تلاقح الأفكار داخليا فى جبلته الذهنية وفى طيات لاشعوره المجهول والذى ربما لم ينجح العلم بعد فى سبر أغواره وفتح مغاليقه واستكناه أسراره ؛ ناهيك عن المهارات التعبيرية التى يكون المفكر قد ألم بها وتمكن من فنونها .

وهذا المنهج الخبرى لايجب ولايتعارض مع المنهج البحثى أو المرجعى بل يتواكب معه ويتآزر . بيد أن الاعتماد على هذا المنهج الأخير والاجتزاء به يؤدى إلى الانحباس فى إطار أفكار الآخرين . فكيف يكون بين ظهرانينا مفكرون أصيلون ونحن نقدس ماكتبه غيرنا بحيث أن ذلك الأحساس بالتقديس يحول بيننا وبين التفكير لأنفسنا وبالاعتماد اعتمادا مطلقا على مانستوحيه من بواطننا مستلهمين ذواتنا ؟ إننا نعتقد أن احترامنا وممارستنا للمنهج البحثى أو المرجعى ينبغى ألا يعمينا عن الاستعانة بالمنهج الخبرى نعالج به بعض الموضوعات التى تسمح بهذه المعالجة الخبرية الشخصية البحتة .

واعتقادنا الراسخ هو أن الموضوع الذى يطرقه الكاتب هو الذى يحدد له نوع المنهج الذى يستعين به . ولقد يكون الأفضل من هذين الاختيارين أو هذين المنهجين فى بعض الأحيان القيام بترجمة عمل ما فى احدى اللغات الأجنبية إلى العربية ترجمة كاملة وملتزمة وأمينة .

ومن المتوقع جدا أن يناهضنا بعض النقاد أو بعض القراء قائلين : من أين تستقى المعلومات إذن إذا لم تكن تستعين بالمراجع وبما سبقك غيرك إليه من باحثين ؟ الواقع أننا سمعنا هذا السؤال الاستنكارى العديد من المرات بازاء كتب لنا سابقة عولجت بنفس هذا المنهج الخبرى . فالمدهش أن كثيرا من المثقفين ينكرون إمكان الابداع الفكرى الذى لايستعين فيه الكاتب بغيره من قريب أو بعيد . وهذا يذكرنا بتلك الدعوى التى ذاعت فى أذهان البعض من أن جميع جوانب الثقافة قد عولجت ، ولم يبق الا استيعابها وإعادة قراءتها وحفظ ما فيها .

ونحن نعلن العصيان التام على هذه الدعوى ، بل وعلى هذه الدعوة إلى الجمود الفكرى ، وننادى بالتخلص من العنعنة الثقافية التى يسارع المضغوطون تحتها — وقد أسلموا قياد فكرهم لها — إلى استرقاق أنفسهم لفكر غيرهم ، وقد أخذوا يسجدون أمام أوثان الفكر التى لاتقل خطورة فى استعبادها للمثقفين من الأوثان التى كان البدائيون يتعبدون لها فى الكهوف .

وعلى أية حال إنها معركة اخترنا بمحض الإرادة ولوج معمعتها وقد شد أزرنا ما صادفناه قبل ذلك من تشجيع وتعاطف من بعض من أطلعوا على أعمالنا السابقة . بيد أن عدم السماح باسترقاق فكرنا للغير لايعنى أنكارنا أفضال أساتذتنا الذين أخذنا عنهم وأفدنا من علمهم . ولكن الشكر العميق بصفة خاصة إلى أولئك الذين علمونا أن نفكر لأنفسنا وبأنفسنا والتحرر حتى من فكرهم الذى هو أعز شىء فى حياتهم .

يناير ١٩٨٣

يوسف ميخائيل أسعد

الفصل الأول

معنى الشك

المعنى العقلى :

قد يحدث أن ألمح شخصا مقبلا على وأنا سائر فى الطريق فأعتقد أنه أحد أصدقائى ، ولكن ما أن يقترب منى حتى أكتشف أنه ليس صديقى بل هو شخص يشبهه فحسب . فما العمليات العقلية التى استعنت بها فى هذا الموقف ؟ إن العملية الأولى بلا شك هى عملية الأدراك البصرى حيث وصلت صورة ذلك الشخص المقبل على إلى عينى ثم انتقلت الصورة إلى المخ حيث وجدت لها ترجمة معرفية معينة بمركز الابصار بذلك الجهاز المعقد . وما أن تمت الترجمة المعرفية حتى ارتبطت بخبرة معرفية قديمة ، فصرت أعتقد أن تلك الصورة الملتقطة بواسطة العينين ثم المترجمة فى المخ ، إنما هى صورة ذلك الصديق . وطبيعى أن يهتز وجدانى فيرتبط الحب بالمعرفة ، وأحس بالشوق يدفعنى إلى التقدم بسرعة نحو ذلك الشخص . ولكن سرعان ما يراجع المخ نفسه فيرسل إلى إشارة مستعجلة تقول« لقد وقع خطأ فى المطابقة بين الصورة المرئية وبين الصورة المتذكرة . فقد أعتقد مركز الترجمة بالمخ أن الصورة واحدة ومتطابقة فى الحالتين ، ولكن ما أن وردت إلى ذلك المركز مجموعة من الصور الادراكية الأكثر دقة وتعينا لذلك الشخص حتى تم أكتشاف أن ثمة تباينا مؤكدا بين المدرك والمتذكر ، ومن ثم فثمة أختلاف بين الشخص الموجود أمامك الآن وبين الشخص الذى تتذكره ، أعنى صديقك » .

ونستطيع فى الواقع أن نقرر أنى فى هذه الحالة وأمثالها قد مررت فى ثلاث مراحل عقلية : الأولى المرحلة الظنية التى هى على نحو ما مرحلة اعتقادية ثم مرحلة شكية حيث تكون الصور الواردة إلى مركز الترجمة بالمخ غير

كافية للبرهنة لى على أن الشخص الموجود أمامى ليس هو صديقى ، والمرحلة الثالثة هى مرحلة اليقين حيث أقرر وأحكم أن الشخص الموجود أمامى هو شخص آخر وإن كان يشبه صديقى فى بعض النواحى . على أن هذه المرحلة اليقينية التى أحكم فيها أنه ليس صديقى قد يعقبها مرحلة شك أخرى عندما أجد أن ذلك الشخص يحدق فى وجهى وقد علت وجهه ابتسامة . فى تلك اللحظة قد يتزلزل إيمانى القاطع بأنه ليس الصديق الذى مرت عدة سنوات لم أشاهده خلالها ، ويبدأ الشك يداعب ذهنى من جديد . فاذا ما افترضنا أن ذلك الشخص أقبل على معانقا إذ أنه هو بالفعل صديقى القديم ، فانى أعود بسرعة إلى المرحلة الأولى ولكن لا باعتبارها مرحلة ظنية اعتقادية ، بل باعتبارها مرحلة اعتقادية مؤكدة وقد قطع الشك باليقين تماما . ولكن افترض أن ذلك الشخص الذى تفرس فى وعلت وجهه ابتسامة تجاوزنى وذهب لحال سبيله كما ذهبت أنا أيضاً لحال سبيلى ، فماذا يعترينى إذن من فكر ؟ إنى أظل فترة من الوقت — تقصر أو تطول — وأنا فى حالة بينية لا هى باليقين بأن ذلك الشخص هو صديقى . ولا هى بالانكار بأنه ليس صديقى .

ولاشك أن مثل تلك الحالة البينية ترتبط بحالة وجدانية معينة تتسم بالقلق المستبد أو حتى بالتبرم الشديد . فلقد أتهم نفسى بالذاكرة الخائنة أو الضعيفة ولقد أصدر أحكاما أخلاقية على نفسى وعلى صديقى المزعوم ذاك . لقد أؤنب نفسى على عدم مصافحته لأنه ربما يكون هو ذلك الصديق ، ثم ما أكاد أصدر ذلك الحكم ، حتى أعود وأسأل نفسى : وماذا يكون إذن موقفى لو كنت قد صافحته بينما هو لايعرفنى وقد اكتشفت أنه ليس صديقى ؟ ولقد أسأل نفسى : ولكن لماذا لم يبادرنى هو بالتحية إذا كان هو ذلك الصديق القديم ؟ إنه بالتأكيد قد نسينى كما نسيته أنا . وهكذا أظل أمطر نفسى بتلك الأسئلة والأحكام الأخلاقية أصدرها على نفسى وعلى ذلك الشخص الذى لا أعرف إذا كان هو صديقى أم أنه شخص شبيه به .

وفى ضوء المثال السابق نجد أننا قد ركزنا الاهتمام على الجانب الأدراكى . حيث ينصب الشك على الترجمة المتعلقة بالواقع الحسى المحيط بالمرء والذى

يصل إلى المخ بطريق حاسة أو أكثر من حواسه الخمس . والواقع أن نطاق الشك يمتد إلى آفاق بعيدة فى المجالات الادراكية . فقد ينصب الشك على موقف ادراكي بعينه كما هو الحال فى المثال الذى ضربناه بالصديق . ولقد ينصب الشك على جميع أنواع المدركات الحسية فيكون إما شكا فلسفيا عقلانيا ، وإما شكا نفسانيا وجدانيا مرضيا .

ولقد ينصب الشك على بعض الصور الذهنية التذكرية . فلقد أحاول تذكر اسم ذلك الصديق الذى قابلته أو قابلت شبيهه فأجد صعوبة فى الوقوع على اسمه ، ثم ترد إلى ذاكرتى بعض الأسماء التى اختار من بينها اسما أعتقد أنه اسمه ، ثم لا ألبث أن أراجع نفسى وأشك فى صحة الاسم الذى وقع اختيارى عليه . ولقد تمر على لحظة أجد نفسى خلالها متأكدا من صحة الاسم الذى وقعت عليه ، ثم ماتفتأ تمر على لحظة أخرى أبدأ خلالها فى الاحساس بالشك فى صحة ذلك الاسم وقد أخذت أقارنه باسم آخر قريب منه . وقد ينسحب آعثر على الاسم الأول والاسم الثانى جميعا وأبدأ فى استحضار أسماء أخرى لعلى الشك على الاسم الحقيقى لذلك الصديق .

والواقع أن الشكوك المتعلقة بالصور الذهنية التذكرية لاتقتصر على الصور التذكرية الادراكية ، بل إنها كثيرا ما تتعلق بالصور الذهنية الرمزية المجردة . فالتلميذ أو الطالب فى الامتحان كثيرا ما يتلبس بالشك فيما يسرده من معلومات على ورقة الاجابة أو فى الامتحانات الشفوية . ولسنا نغالى إذا قلنا إن الشك واليقين قرينان لايفترقان ، إذ أننا مانكاد نشك حتى نصل إلى يقين ، وما نكاد نوقن حتى نشك .

ولقد يمتد الشك إلى مجال عقلى آخر هو المجال التذوقى . فأنت عندما تستمع إلى قطعة موسيقية أو عندما تشاهد عملا فنيا تشكيليا ، فانك تمر فى مرحلة شكية قبل أن تصل إلى قرار وقبل أن يصدر حكمك بجمال أو بقبح ما تستمع إليه أو مايقع عليه بصرك . فأشد الموضوعات وقعا واستحسانا على قلبك لابد أن يعتورها بعض الشك قبل إصدار الحكم عليها بأنها جميلة . وأكثر من هذا فان ما نحكم له بالجمال فى وقت ما قد نبدأ فى الشك فى جماله فى وقت

أو فى عمر آخر . فكثير من الموضوعات والأنغام والأشكال التى كنا نستحسنها ونحكم لها بالجمال فى طفولتنا صرنا نستقبحها أو لانرى فيها نفس القدر من الجمال الذى كنا نجده فيها فى تلك المرحلة العمرية . وطبيعى أننا نمر فى مرحلة شكية حيث نشك فى أحكامنا السابقة متهمين أنفسنا بأننا كنا مخطئين فيما سبق لنا إصداره .

ونفس الشيء يصدق بازاء تغيير البيئة أو تغيير الوظيفة أو المهنة أو الحرفة . فمثل تلك التغيرات التى قد تقع فى حياة المرء تؤثر تأثيرا بعيدا المدى فيما يصير متذوقا له . فما كان يراه القروى فى قريته جميلا لا يراه كذلك بل قد يراه قبيحا بعد أن يترك تلك القرية ويعيش بالمدينة عدة سنوات . وكذا الحال اذا ما قيض للمرء نوع معين من الثقافة كأن يلتحق أحد الاشخاص بكلية من كليات الفنون الجميلة أو بمعهد من معاهد الموسيقى ، أو عندما يغير وظيفته أو مهنته أو حرفته . فاذا ما ترك أحد الأشخاص وظيفته فى إحدى المصالح الحكومية والتحق باحدى الوظائف باحدى السفارات أو باحدى الشركات الأجنبية فانه يتأثر قليلا أو كثيرا فى تذوقه للأشكال والأنغام . وكذا الحال أيضا اذا ما تغيرت مهنة الشخص أو حرفته كأن يترك المرء مهنة التدريس لكى يشتغل فى التجارة ، أو عندما يترك أحد الموظفين الكتابيين وظيفته الكتابية لكى يشتغل كعامل بناء . لا شك أنه يتأثر أيضا فى أحكامه الجمالية التذوقية . وفى جميع الحالات فان الشخص يمر فى مرحلة بينية يكون خلالها فى حالة شك فيما سبق لك التلبس به من أحكام جمالية الى أن ينتهى به المطاف الى تغيير تذوقه وإحلال تذوق جديد محل تذوقه القديم .

ومن المؤكد ان الثقافة العامة وما يتواكب معها من اتساع فى الأفق لمما يعمل على الشك فى كثير من وسائل التفكير القديمة ، بل ويعمل على الشك فى كثير من المعتقدات الشعبية التى كان يعتنقها المرء قبلا . وثمة معارف انسانية تشيع الشك فى العقل من أهمها المنطق والفلسفة . فاذا ما تدرب الشخص تدربا جيدا على التفكير المنطقى وتشبع بروح التفكير الفلسفى ، فانه يأخذ فى الشك فى كثير من أفكاره التى دأب على التسليم بها وعدم الإرتياب .

فى صحتها . ذلك أنه يأخذ فى نشر ما تدرب عليه من مناهج فكرية لى ما اشتمل عليه فكره من أفكار دأب على التسليم بصحتها وعدم مناقشتها ، فيبدأ فى الشك فيها وتوجيه سهام الارتياب اليها .

الشك العلمى :

سبق أن قلنا إن الشك واليقين قرينان لا يفترقان فى الحياة العقلية للمرء . بيد أن المنهج العلمى يعمد الى تنظيم العلاقة بين الشك واليقين بحيث لا تترك تلك العلاقة للمصادفة أو لهوى المرء . فلا بد من تحديد الخطوات التى على من يريد أن يفكر تفكيرا علميا اتباعها حتى يأخذ كل من الشك واليقين نصيبهما من اهتمام وجهد الباحث . ولعلنا نقول بادىء ذى بدء إن التفكير العلمى يفسح مجالا واسع النطاق للشك . ولعل حجر الزاوية فى التفكير العلمى هو الشك وليس اليقين . ذلك أنك اذا ما بدأت بالتصديق والايمان بشىء ما مسبقا تفرضه على الظاهرة أو على القضية التى تتناولها ، فانك لاتكون اذن عالما على الاطلاق . على أن الشك الذى تتذرع به فى تفكيرك العلمى ليس ذلك الشك الإنكارى بل هو الشك الاستيضاحى . فأنت لا تكون فى موقفك العلمى منكرا لما قد يقع ولا تكون مصدقا أو مؤمنا بما سوف يقع ، بل تكون فى منطقة بين بين هى المنطقة الاستيضاحية حيث تضع علامة استفهام كبيرة أمام النقطة التى تريد بحثها بحثا علميا .

والواقع أن الشخص لا يستطيع أن يقف على عتبة التفكير العلمى قبل أن يتمرس بعادة ذهنية معينة هى عادة التفكير بطريقة موضوعية . وهذه العادة الذهنية تتسم بمجموعة من السمات أهمها :

أولا — عدم إصدار أحكام مسبقة على ما يتناوله المرء بالبحث . وهذا لا يتعارض مع افتراض مجموعة من الفروض المتنوعة مع فتح المجال على مصراعيه لتقبل ما يمكن أن يظهر من فروض جديدة .

ثانيا — التخلص من نير المعتقدات الشعبية الشائعة . من ذلك مثلا أن يقول الاعتقاد الشعبى الشائع بفائدة إحدى الوصفات العلاجية أو بضررها .

فاذا كنت تبحث فى تلك الوصفة بحثا طبيا علميا ، فعليك بعدم الوقوع تحت تأثير المعتقدات الشعبية الشائعة ببيئتك حول تلك الوصفات .

ثالثا — عدم الوقوع تحت تأثير ثقة أو ثقات فى المجال الذى تقوم بتناوله علميا . ذلك أن هناك نقاط ضعف لدى أى عالم. وشاهد ذلك أن العلماء يكتشفون خطأ أساتذتهم فى بعض النواحى ولا يحجمون عن إعلان أخطاء أولئك الاساتذة ولا يخضعون فكرهم لتأثيرهم ولا ينبهرون بعلمهم . بيد أنهم مع هذا لا يتخذون موقف المعاندين أو من يرغبون فى تخطىء غيرهم ، بل هم يرجحون كفة الموضوعية على كفة الذاتية ، وكفة الحيادية على كفة الانحيازية أو التعصبية .

رابعا — الخلوص من الشللية أو القطيعية خلوصا تاما فى التفكير العلمى . فالعالم الخليق بهذه الصفة لا يقع تحت تأثير الجماعة . وحتى اذا هو عمل فى فريق من الأفرقة العلمية — وهو ما يشيع فى العصر الحديث المعاصر وقد انقضى تقريبا وقت العمل فرديا فى البحوث العلمية — فانه لا يذوب فى إطار الفريق ولا يخضع لتأثير أى من أعضائه بما فى ذلك رئيس الفريق نفسه . واذا فرضنا أن ضغط وتأثير الفريق أو رئيسه قد أثر فى تفكير العالم أو فى انتحاثه وجهة معينة ، فانه يكون بذلك قد خرج عن نطاقه كعالم وقد مسخت شخصيته العلمية . والخط الواجب الاتباع بالنسبة للعمل فى فريق من العلماء هو المشاركة بقسط فى العمل بحيث يتحقق التكامل بين المناشط التى يمارسها الفريق ككل من جهة ، وبحيث يستقل كل باحث أو كل عالم بقطاع معين يعمل فى إطاره فى استقلال وحرية وعدم تقيده من قريب أو بعيد بآراء غيره مهما كان ذلك الغير من جهة أخرى .

بيد أننا نجد مع هذا أن العالم كانسان لا يستطيع أن يتخلص من انحيازاته ولا يستطيع أن يعيد تربية نفسه بحيث يكون كصفحة بيضاء لم يكتب عليها أى شىء . فما من مناص لأى إنسان من التلبس بمجموعة من الانحيازات التى بذرت بذورها منذ الطفولة الباكرة . ولكن مع هذا فان الشك العلمى هو محاولة يجاهد خلالها العالم ضد ميوله التى اكتسبها من بيئته . فهو شخص

ينحى ميوله وعواطفه الشخصية تماما كما يفعل القاضى وقد اعتلى منصة الحكمة . إنه لا يستطيع أن ينزع عن نفسه الميول والعواطف ، ولكنه يستطيع أن يروضها ، بل ويستطيع أن يحول بينها وبين الاعمال والفاعلية . فهو كمن يبطل مفعول إحدى الدوائر الكهربية بغير أن يلغيها أو يقضى عليها . فابطال إحدى الدوائر الكهربية لا يعنى القضاء عليها قضاء تاما ، بل يعنى إيقاف عملها بصفة مؤقتة وبشكل غير دائب . فالقاضى عند نظره احدى القضايا يجاهد نفسه بحيث يبطل القابلية للتأثر لديه . فبكاء المتهم أو استعطافه للقاضى يجب ألا يحولا بينه وبين إصدار حكمه طالما يرى أنه الحكم العادل . ونفس الشيء يصدق بازاء العالم فهو يصدر أحكامه على ما يعرض له من قضايا علمية . وتخليه عن تأثير عواطفه ضرورى ضرورة لازبة حتى يستطيع أن يدرج اسمه فى نطاق العلماء .

ويظل العالم متذرعا بالشك العلمي حتى بعد أن يصل الى قراراته العلمية التى أصدرها بازاء الظواهر أو القضايا التى قام ببحثها . فهو لا يقول « إنى اعتقد » ، بل يقول « إنى أرجح » . ذلك أنه يترك المجال مفتوحا أمام من يأتى بعده ليعيد بحث نفس الأمور التى سبق أن قام هو ببحثها . ولا يقول العالم الخليق بهذا اللقب « أنا أعتقد » إلا فيما يتعلق بالأصول المنطقية والرياضية . فهى الوحيدة التى يستطيع أن يقرر المرء بازائها الحتمية . فأنت تقول مثلا إن الكل أكبر من أى جزء من أجزائه ، وتقول إن وجود الشيء وانعدام وجوده لا يلتقيان ، وأن ضعف الشيء أكبر من ذلك الشيء نفسه الى آخر تلك القوالب المنطقية الرياضية . ولكن أى حقيقة علمية تتعلق بالوجود المادى أو الوجود النباتى أو الحيوانى أو الانسانى إنما هى حقيقة احتمالية وليست حقيقة مطلقة . فلقد كنا ندرس أيام كنا بالمرحلة الثانوية أن الذرة هى أصغر جزء من المادة وهى لا تقبل الانشطار . ولكن تلك الحقيقة العلمية التى كانت صحيحة فى ذلك الوقت فى ضوء ما توصل اليه العقل البشرى وقتئذ ، لم تعد كذلك وصار تلاميذ اليوم يدرسون أن النواة بالذرة قابلة أيضاً للانشطار .

على أن هذا لا يعنى أن العالم يقول بالنسبية التى لا تستند الى أى أرض صلبة ، بل يعنى أن العالم لا يغلق الباب أمام نفسه أو أمام غيره من علماء بل يتركه مفتوحا لأى اكتشاف جديد يمكن أن يعمل على تعديل النتائج التى توصل اليها . على أن العالم لدى توصله الى اكتشافاته لا يقول « انى أرى وربما غيرى يرى غير ما أرى » بل يقول « إنى أرى كذا ولابد أن غيرى يرى أيضا ما أراه » ولكنه يردف بالقول « ولكن ما أراه أنا أو يراه غيرى يكون متطابقا فى ضوء تطابق المعطيات والامكانيات المتوافرة . فاذا ما تغير الحال وزادت المعطيات والامكانيات ، فان ما أراه أو يراه غيرى سوف يتباين » ومثال ذلك ما كان عليه الحال قبل اختراع المجهر الالكترونى وما انتهى اليه الحال بعد اختراعه . فلا شك أن اختراع ذلك المجهر قد فتح نافذة جديدة. وصار بمقدور العلماء مشاهدة أشياء لم يكن لأحد أن يشاهدها لمنتهى صغرها . وطبيعى أنه قبل اختراع المجهر العادى فان احداً لم يكن ليستطيع أن يقرر وجود الميكروبات وجودا واقعيا بل كان ما يتقرر على سبيل الافتراض فحسب .

فالحقائق العلمية لا يمكن أن تسمى خرافات حتى اذا دخلت عليها تعديلات كثيرة وجوهرية . ذلك أن ما يجعل الحقيقة العلمية كذلك هو المنهج العلمى نفسه . فالعالم لا يعتبر عالما لمجرد وقوفه على الحقائق الموضوعية ، بل لتذرعه بالمنهج العلمى . وقد قلنا إن من أساسيات ذلك المنهج ذلك الشك المنهجى أو بتعبير آخر عدم القول المسبق بمقررات معينة وعدم محاولة البرهنة على معتقدات راسخة فى نفس العالم بوسائل علمية . فالعالم يجرى وراء الظواهر ولا يحمل الظواهر على الجرى وراءه . فاذا ما قسر العالم مشاهداته على أن تتخذ لها مجرى معينا ، فانه يكون بذلك قد استحال من عالم الى دجال . فالعالم يستنطق الظواهر ويفتش عن الحقائق أيا كانت ويسجلها ثم يقيم بينها روابط وعلاقات . وحتى بالنسبة لتلك الروابط والعلاقات ، فانه يستبعد حتى عقله كلما وجد الى ذلك سبيلا . فعندما تم اختراع الآلات الحاسبة الإلكترونية (الكومبيوتر) فان العلماء افسحوا لها المجال لتحل

محلهم فيما يتعلق بالعلاقات والروابط بين المقومات المعرفية . فالعلماء يعملون كفريق فى تجميع الحقائق وفى استنطاق عالم الأشياء والأحياء ، ثم يشربونها لتلك الحاسبات أو العقول الالكترونية ، ثم يتركون لها فرصة إقامة الروابط والعلاقات بين المقومات المعرفية التى قدمت اليها . وواضح أن ما تقرره تلك الحاسبات الالكترونية لا يغلق باب الاحتمالية بل العكس هو الصحيح . ذلك أن تيار المقومات المعرفية مستمر فى التدفق والتنوع مما يجعل النتاج الذى تقدمه تلك الآلات الحاسبة الالكترونية قابلا للتعديل باستمرار .

وعلى هذا فان الاحتمالية أو الشكية المنهجية تظل هى الديدن الذى لايحيد عنه العالم والا فقد اهمل سمة من سماته الجوهرية . وهذا يسوقنا الى التساؤل عن الفرق بين الشك العلمى وبين الشك الفلسفى ، وهو ما سوف نعرض له فى الموضوع التالى .

المعنى الفلسفى :

هناك فى الواقع ارتباط وثيق بين العالم والفيلسوف من حيث أن كلا منهما يتخذ من الشك وسيلة ومنهجا فى التفكير . فالعالم لا يضع فى حسبانه نتائج معينة وهو مقدم على بحوثه العلمية ، وكذا الحال بالنسبة للفيلسوف . على أننا نستطيع فى الواقع أن نميز بين نوعين من الفلاسفة : النوع الأول — الفلاسفة التقليديون ، والنوع الثانى — الفلاسفة العلميون . والواقع أن النوع الأول من الفلاسفة يتمثل فى عهد الفلسفة قبل استقلال العلوم عنها حيث كان الفيلسوف يقدم نظرة شاملة الى الوجود وقد ضم فى أبحاثه جميع المعرفة أو جل المعرفة التى كانت سائدة فى عصره . أما النوع الثانى من الفلاسفة فانهم يتمثلون فى أولئك الفلاسفة الذين يتناولون القوانين العلمية فى علم أو أكثر ويمتدون بها باعتبار أن تلك القوانين تشكل الخامة أو الجزئيات التى يبدأ منها الفيلسوف عمله . فبينما يبدأ العالم بالمحسوسات يجرى عليها تجاربه ، فان الفيلسوف العلمى يتناول القوانين العلمية وينظر اليها كما لو أنها خامات يجرى عليها تجاربه . وواضح أن ما يقصد اليه الفيلسوف العلمى هو نفس ما يقصد اليه العالم وهو جمع الكثير تحت مفهوم واحد . فالعالم الذى يقول « إن المعادن

تتمدد بالحرارة » يكون قد جمع الكثرة — وهى المعادن — تحت مفهوم واحد هو التمدد بالحرارة . ونفس الشيء يفعله الفيلسوف . ولنأخذ مثالا بفيلسوف تطورى ما . إنه يتخذ من نظريات التطور فى المجالات المتباينة كالمجال البيولوجى والمجال الجيولوجى والمجال الفلكى والمجالات الحضارية المتباينة كاللغات وغيرها نقط ارتكاز ينطلق منها فى تكوين فلسفة تطورية عامة تضم فى رحابها جميع المجالات المتباينة التى عكف علماء تطوريون متباينون على تناولها بالبحث والاستقصاء .

ونستطيع فى الواقع أن نميز بين نوعين من الشك الفلسفى كما سبق لنا أن ميزنا بين نوعين من الفلاسفة . فالفلاسفة السابقون على استقلال العلوم كانوا يتذرعون بنوع معين من الشك الفلسفى ، بينما يتذرع الفلاسفة العلميون بنوع آخر منه . ولعلنا نقول إن شك الفلاسفة السابقين على استقلال العلوم عن الفلسفة كان شكا حقيقيا وأصيلا . وكان الشك عندهم هو شك فى العقائد الشائعة ، سواء كانت عقائد دينية أم كانت عقائد اجتماعية أو عقائد سياسية . ومن هنا فان شكهم فى مجال ما من المجالات كان فى مقابله إيمان جازم وعميق يختصون به أنفسهم ويأخذون فى الدعوة اليه ويبثونه فى تلاميذهم والمقربين اليهم . ولنأخذ مثالين ندلل بهما على ما نقوله هنا هما أولا — سقراط ، ثانيا فيثاغورس . فكل منهما كان يناهض مجموعة من العقائد التى إستشرت وتمكنت من عقول وقلوب الناس ، وكل منهما قد اصطفى لنفسه مجموعة من التلاميذ يبث فيهم معتقداته الجديدة . وكل منهما كان يستخدم العقل ذريعة لتأكيد معتقداته والطعن فى المعتقدات السائدة فى عصره .

ولقد يصح لنا أن نقول إن هذه الفئة من الفلاسفة كانوا بمثابة أنبياء عقلانيين . والفرق بين النبى والفيلسوف من هذا النوع ، هو أن النبى لم يكن ليعزو ما يدعو اليه الى نفسه ولم يكن يزعم أنه توصل الى ما توصل اليه من كشوف إيمانية بجهده الشخصى ، بل إن تلك الكشوف كانت تنزل اليه بوحى أو إلهام ، وكانت الصلة بينه وبين السماء هى صلة من يسلم رسالة كلف بأن يسلمها الى الناس الذين كلف بأن يبلغهم بمضمون تلك الرسالة .

فالفضل إذن ليس لاجتهاد النبي من الأنبياء بل إنه مجرد رسول يحمل الى الناس توجيهات سماوية تسمو على فكره وتعلو على قدرته الذهنية بل وعلى القدرة الذهنية لجميع الناس قاطبة . ولكن الحال ليست كذلك بالنسبة للفيلسوف الجامع — إذا صح هذا الوصف نطلقه على الفلاسفة السابقين على العلماء — فهو يقرر أن ما يقدمه الى تلاميذه إنما هو من صميم فكره ومن عصارة ذهنه . وأكثر من هذا فانه يقول لهم ضمنيا إنه يزعم أنه أكثر ذكاء وإعمالا لعقله من أى شخص آخر . وشاهد ذلك أنه يفند العقائد الذائعة ببراهين عقلية لا تقبل الجب ولا تلين أمام قوى النقد الذهنية . فاذا ما أريد لتلك الفلسفة أن تمحق فليس إذن من سبيل الا بالقضاء على الفيلسوف نفسه . ولكن حتى قتل الفيلسوف سوف لا يجدى شيئا طالما استطاع أن ينشر فلسفته بين تلاميذ له اقتنعوا بها وكفروا بتلك المعتقدات الشائعة .

فالشك عند الفيلسوف الجامع هو شك موجه الى الذائع من الافكار والمعتقدات . ويقابل هذا الشك ايمان فيما يذهب اليه الفيلسوف وما ينادى به . على أن الفيلسوف لا يحمل أتباعه على الايمان الأعمى بما يقول ، ولا يوجه جهده الى عواطفهم يلعب عليها ويثيرها ، بل هو يحاول إقناعهم فحسب بل إنه يؤكد لهم فى كل موقف أنه مستعد للاستماع الى ما يخالف عن آرائه منهم ويأخذ فى إقناعهم ببطلان فكرهم وصلابة فكره . بيد أن تلميذا أو أكثر من تلاميذ الفيلسوف ربما ينشقون عنه وقد وجدوا فى أفكاره جوانب ضعيفة فأخذوا لأنفسهم وجهة مباينة للوجهة التى يتجه اليها أستاذهم . ومن ثم فانهم يبدأون فى انشاء مدرسة جديدة خاصة بهم ويجمعون حولهم أتباعا ومريدين وتلاميذ . وتبدأ الدورة من جديد حيث يأخذ تلميذ أو أكثر من التلاميذ الجدد فى الانشقاق والعصيان الفلسفى على الأستاذ الجديد ويعمدون الى إقامة مدرسة جديدة . وهكذا دواليك بالنسبة للأجيال من الفلاسفة . وهذا ما نلاحظه فى السلسلة الثلاثية التى بدأت بسقراط ثم أفلاطون ثم أرسطو وقد استمرت السلسلة بعد ذلك فى تلاميذ كل من أفلاطون وأرسطو على هيئة مدارس فلسفية تتوالد بعضها من بعض .

والواقع أن الشك الفلسفي عند الفيلسوف الجامع كان مفيدا للفلسفة على عكس الشك الديني الذى كان ضارا بالدين . ذلك أن الفيلسوف عندما يشك فانه يخرج بنظريات فلسفية جديدة تضاف الى التراث الفلسفي فى تاريخ الفكر الانسانى . أما الشك فى الدين فانه يعد هدما لكيانه وإضاعة لقوامه ومسخا لجوهرة . ولذا فان الشكاك الدينيين يرمون بالهرطقة تارة ، وبالالحاد والزندقة تارة أخرى ، ولا يتم الاعتراف بهم من جانب الجهات الدينية المسئولة عن قوام الدين ومعتقداته سليمة بغير أن يشككك فيها أحد وبغير أن يعدل أحد فى اصولها من قريب أو من بعيد .

وبالنسبة للفيلسوف من النوع الثانى — وهو ما أسميناه بالفيلسوف العلمى — فاننا نقول ان شكه من نفس نوعية شك العالم . فهو يجمع النظريات الجزئية ويتركها تلتئم فى ذهنه ثم يصيغها بقلمه بحيث يجعل من شتات النظريات ائتلافا والتقاء فى نظرية واحدة جامعة هى فى الواقع فلسفة ذلك الفيلسوف العلمى . وقد ضربنا مثالا على ذلك بالفيلسوف التطورى الذى يلائم بين نظريات التطور فى المجالات المتباينة بحيث يستخلص منها جميعا نظرية تطور واحدة جامعة مانعة لها جميعا .

بيد أن الفيلسوف العلمى لايقصر همه على إحداث تآلف وانسجام بين النظريات الجزئية التى يعمد إلى تناولها ، بل إنه يقوم أولا بعملية هدم ثم يقوم بعد ذلك بعملية بناء . فهو وان كان يتناول تلك النظريات بالدراسة والتفكير والتأمل ، فانه لايكون فى موقفه العقلى بازائها موقف المسلم بها بغير قيد أو شرط ، بل هو يكون فى نفس الوقت فى موقف الشاك فيها . ولعله يرفض بعض ما يقع عليه بل ويؤكد بطلانه وفساد الأساس الذى يقوم عليه . فكما أن العالم لايكون مجرد مستقرىء لما تبين عنه الخامات من ظواهر بل هو يحدث نوعا من التصادم بين مايحمله فى ذهنه من أفكار وبين مايشاهده أو يحسه بحيث يتأتى عن ذلك الاصطدام نظرية علمية ، كذا فان الفيلسوف العلمى لايكون على بياض بازاء مايتناوله من نظريات علمية جزئية . إنه إنه يحمل فى عقله أفكارا وفروضا ثم يحدث تصادما بين مايحمله فى ذهنه

مسبقاً وبين ما يقف عليه من نظريات . ويتأتى عن ذلك التصادم النظرية الأكبر — أعنى فلسفة ذلك الفيلسوف العلمى .

والواقع أن هناك قطاعا مشتركا من الشك بين الفيلسوف الجامع وبين الفيلسوف العلمى يتبدى فى تلك الشكوك التى يلقيان بها على الفلسفات والمعتقدات الشائعة وذلك بتحديد نقاط الضعف فيها وما وقع فيه الحاملون لها والمؤمنون بها من أخطاء . وشاهد ذلك مثلا ما أبان عنه فرنسيس بيكون من أوهام أخذ ينبه الناس من حوله اليها للحذر منها والتلخص من براثنها . فرسالة الفيلسوف رسالتان : الأولى — التشكيك فيما هو قائم وشائع لأنه لايقوم على أساس منطقى مكين ، والثانية — تقديم البديل لما هو قائم بعد بلورة فلسفة جديدة مباينة للفلسفة القديمة . ويصح للفيلسوف أن يعدل من الخطوط التى رسمها وسار عليها وابدال غيرها بها . فهو يشهر بسلاح الشك المنهجى حتى ضد فكره وفلسفته .

المعنى الأخلاقى :

بينما نجد أن الشك كما تناولناه فى الموضوعات السابقة قد انصب بصفة أساسية على الناحية العقلية ، فاننا نجد الشك فى هذا الموضوع يتسع من المجال العقلى إلى مجالين آخرين هما المجال الوجدانى من جهة ، والمجال التصرفى الأدائى من جهة أخرى . ومن الجدير بالذكر والتنبيه أن الشك بالمعنى الأخلاقى يرتبط بالعقل أيضاً . ذلك أننا نستبعد من مجال الأخلاق كل مايصدر عن الإنسان بغير وعى أو بغير إرادة من جانبه . فالمسئولية الأخلاقية تنتفى تماما من جميع ألوان السلوك التى تخرج عن إطارى الشعور والإرادة . بيد أن هذا لايعنى أننا لانصدر أحكاما أخلاقية على التصرفات التى تصدر عن الشخص وهو فى حالة فقدان الشعور أو فقدان الإرادة بل يعنى أننا نكتفى فى مثل تلك الحالات بالحكم على السلوك كموضوع وأداء ونتوقف فى نفس الوقت عن إصدار أحكام أخلاقية على صاحب السلوك باستثناء ما يكون فى مقدوره فعله أو توفير التدابير اللازمة قبل الإتيان بالسلوك وقبل

الانخراط في حالة اللا شعور أو حالة فقدان الإرادة . فالشخص المصاب بالتجوال النومى Smnambulism لايكون مسئولا عن تصرفاته التي يأتيها في أثناء تجواله . ولكن يمكن أن نحمله مسئولية أخلاقية سابقة لانخراطه في مثل ذلك التجوال . فاذاقام المصاب بهذا المرض بتناول سكين وطعن بها شخصا ما ، فاننا لانحمله مسئولية الفعل في أثناء تجواله النومى بل نحمله مسئولية أخلاقية أخرى سابقة على تلبسه بالحالة . فلقد كان من المفروض عليه أن يستبعد جميع مايمكن أن يعرضه أو يعرض غيره للخطر قبل توجهه إلى السرير .

ولعلك تلاحظ من هذا المثال أننا نتناول ألوان السلوك الأخلاقي بالعقل والموازنة الذهنية بحيث لانعطى حكمنا للشخص أو ضده الا بعد أن نتفحص حالته ونقف على جميع الظروف المحيطة به . فاذا ما عمد أحد المنومين المغناطيسيين إلى السيطرة على عقل أحد الأشخاص وجعله تحت تأثيره وطوع بنانه وقد جعله في حالة خضوع نفسى تقبلى لجميع ما يؤمر به بغير نقد أو مقاومة ، ثم أمره بأن يتوجه إلى شخص ما ويقتله ، فاننا لانستطيع أن نصدر حكما أخلاقيا أو قانونيا على تصرف مثل ذلك الشخص المنوم وقيامه بالقتل طالما أنه لم يعلم شيئا عن نوايا المنوم ، وطالما أنه لم يجد حيلة يقاوم بها التأثير النفسى الذى تذرع به ذلك المنوم المغناطيسى . وهناك في الواقع حالات هتك عرض كانت الضحايا فيها سيدات بريئات ولكنهن وقعن تحت تأثير منومين خطيرين سيطروا عليهن وقادوهن إلى طريق البغى بغير أن يكون في مقدورهن المقاومة أو الهرب .

ولعل أول موقف شكي أوضحناه بما قدمناه من أمثلة هو ذلك الموقف الذى نكون فيه بازاء إصدار أحكام أخلاقية على التصرفات التي تصدر عن الآخرين أمامنا . فبعد أن كنا نصدر حكما أخلاقيا مضادا للشخص الذى يصدر عنه سلوك ردىء من وجهة نظرنا ، فاننا بدأنا في ضوء ماسقناه قبلا

نتناول صاحب السلوك من زوايا متباينة ، بل إننا أخذنا فى توجيه الشك إلى مبدأ الارتكان إلى قاعدة مطلقة مهما كانت :

خذ قاعدة أخلاقية تقول « القاتل مذنب ومن ثم يستحق القتل » إن هذه القاعدة الأخلاقية بدأت تتزلزل بالشك فيها طالما أخذنا نقوم بدراسة من يقوم بالقتل . لقد نجد القاتل مجنونا أو متخلف العقل أو شخصا وقع تحت تأثير منوم أو غير ذلك من ظروف تجعلنا نزلزل القاعدة العامة التى تناولناها بادىء ذى بدء بشكل مطلق وعام وشامل . فالزلزال الذى أحدثناه هنا هو زلزال أصاب التعميم والاطلاق وشمول القاعدة الأخلاقية لجميع الحالات فى جميع الأماكن وفى جميع الأزمان .

وبتعبير آخر فان النسبية قد حلت محل الاطلاق ، ولم تعد القاعدة العامة التى تضم تحتها جميع الناس فى جميع الأماكن والأزمان صالحة للتطبيق ، بل صرنا ننزل من العموم إلى الخصوص ، ومن الحكم العام إلى الحكم الخاص ، ومن التصور المجرد إلى الواقع الحسى والظروف والملابسات التى ترتبط بالواقع الحى .

ولا شك أن أغلب المجتمعات تقاوم هذه النزعة النسبية : ذلك أنك إذا أفسحت المجال للنسبية وقمت باحلالها محل الاطلاق ، فانك سوف تخرج الغالبية العظمى من حالات الخطأ من مجال المسئولية الأخلاقية أو حتى من نطاق المسئولية القانونية . لقد تجد أن الوراثة لها دورها ثم تجد أن البيئة لها دورها الفعال ، بل إننا إذا ما سرنا وراء التفسيرات النفسية لسيكلوجية الجريمة ، فانك سوف تستبعد معظم الجرائم التى يقترفها الأفراد من نطاق الشعور الكامل والارادة الكاملة ، وسوف تحاول بالتالى انتحال المعاذير لكل من يقع فى خطأ أخلاقى أو قانونى .

ولكن القانون يستهدف الحفاظ على الجماعة واستتباب الأمن والطمأنينة للأفراد أكثر من تحرى العدالة المطلقة التى تتحرى الشعور والإرادة والعلم

بالصواب والخطأ . وشاهد ذلك أن القانون لايعفى الجاهل بالقانون من المسئولية ، كما أنه لايبرىء ساحة من يقع فى حالات القتل الخطأ أو من يبرهن للقاضى على أنه كان تحت تأثير شخص آخر غرر به . فأنت اذن كباحث نفسى تختلف تماما عنك كقاض ينفذ القانون . وأكثر من هذا فأنت كقائد لمجموعة من الأطفال أو المراهقين أو الشباب تختلف عن كونك رائدا اجتماعيا أو زعيما لمجموعة عنك كعالم نفس تفهم الديناميات النفسية التى تسوق المرء إلى التذرع بأساليب وأنماط سلوكية متباينة . فى موقفك كزعيم أو رائد لمجموعة تصدر أحكاما أخلاقية بل وتنفذ مجموعة من القوانين أو اللوائح التى تنصب على صورية الأفعال بغير نظر إلى الحالات الفردية أو الأعتبارات الشخصية أو إلى الظروف والملابسات والعوامل النفسية التى ساقت أحد أفراد المجموعة إلى الخروج على القاعدة العامة المفروضة على الجميع . ومن المؤكد أنك إذا اتخذت موقف عالم النفس وأخذت فى فحص كل حالة من حالات الخروج على النظام ، فالأرجح أنك سوف لاتصدر أى حكم أخلاقى تخطىء به أى شخص إلا فى النادر . ولعلك تعلق إصدار أحكامك الأخلاقية على غالبية الأفراد حيث تجد نفسك بحاجة إلى مواصلة الدراسة والغور فى باطن الشخصية للوقوف على الأسرار والديناميات التى دفعت بالمرء إلى الخروج على القاعدة المرسومة .

ومن الشكوك التى يمكن أن تلقى بظلالها على الأحكام الأخلاقية ما يتأتى عن الخروج من مرحلة الطفولة والانخراط فى مرحلة المراهقة ثم مرحلة الشباب ومن بعدها الرشد ، وكذا الخروج من إطار البداوة للانخراط فى اطار التحضر . فالطفل والبدائى ينحوان إلى الاطلاق فى أحكامهما الأخلاقية ، فيقولان إن الخير خير دائما بالنسبة لجميع الناس فى جميع الأماكن وجميع الأزمنة ، والشر شر دائما بالنسبة لجميع الناس فى جميع الأماكن وجميع

الأزمنة . أما الشخص وقد انخرط فى المراهقة ثم الشباب ثم الرشد ، وكذا الحال بالنسبة للشخص الذى يخرج من إطار البداوة إلى إطار التحضر ، فانهما يقولان إن الخير والشر نسبيان . فاذا سألتهما عن حكمهما بازاء شخص ما قتل شخصا آخر ، فانهما سوف يبادرانك بسؤال آخر : لماذا ؟ فهذا الاستفسار يعمل على زلزلة الاطلاق فى الحكم ويدفع بالشخص الناضج أو بالشخص المتحضر إلى الاستفسار عن الأسباب والدوافع والظروف سواء كانت أسبابا نفسية داخلية أم أسبابا وراثية أم أسبابا موقفية . ومعنى هذا بتعبير آخر أن الحكم الأخلاقى يصدر على مقاس الشخص صاحب السلوك وليس على مقاس عموم البشر بغض النظر عن أى اعتبار آخر .

ومن الشكوك التى يمكن أن توجه إلى الأحكام الأخلاقية العامة ذلك المجال النسبى الواسع فى القيم الأخلاقية التى تجعل ما هو خير فى أحد المجتمعات شراً فى مجتمع آخر . فتعدد الزوجات فى أحد المجتمعات دليل على مدى مايتمتع به الرجل من قدرة جنسية ، بينما يعتبر فى مجتمع آخر مؤشرا إلى تخلف الرجل عن ركب الحضارة . وكثرة الانجاب تعد مفخرة للمرأة فى أحد المجتمعات ، بينما تعد مؤشرا للتأخر ونقص الوعى فى مجتمع آخر . والعدوانية فى أحد المجتمعات دليل على الشجاعة ، وفى مجتمع آخر دليل على الهمجية . والصدق القراح يعد قمة الفضيلة فى أحد المجتمعات ، بينما يعتبر سذاجة مذمومة فى مجتمع آخر . وفى مقابل الشك فى جميع القيم الأخلاقية من حيث قدرتها على الثبات والتعميم ، فان هناك من يؤكدون أن هناك فرقا جوهريا بين المبدأ الأخلاقى وبين القاعدة الأخلاقية ، فالقواعد الأخلاقية نسبية ، ولكن المبادىء الأخلاقية مطلقة ولا يخالطها أى نوع من الشك فى عموميتها . والمبدأ الأخلاقى كأن تقول « كن عضوا مفيدا ومؤثرا فى مجتمعك ، أو أن تقول انصف المظلوم إذا كان دفع الظلم فى مقدورك » .. إلى غير ذلك من مبادىء أخلاقية تشكل دائرة أوسع من القواعد الأخلاقية التى يمكن إضفاء الشك عليها .

المعنى السيكلوجي :

بينما نجد أن الشك بالمعنى الأخلاقي ينصب بالدرجة الأولى على القيم والمعايير التي تقاس في ضوئها التصرفات وقد لقيت أحكاما تصدر بازائها ، فاننا نجد أن الشك بالمعنى السيكلوجي يرتبط بأحاسيس المرء وما يدور بخلده من مشاعر وعواطف وانفعالات . ولعل الحكم الذى يصدر في هذه الحالة إنما يتعلق بالمعقول والعادى من الشك وكذا الشاذ منه . فنحن نحكم على من يصادفوننا في الحياة من حيث مدى تمتع الواحد منهم بالصحة النفسية في ضوء مدى اعتمال الشك في حياتهم وفي علاقاتهم . فاذا كان الشك المعتمل لديهم مناسبا ، قلنا عندئذ إن الشخص متمتع بصحة نفسية جيدة . ولكن إذا زاد الشك عن المعتاد وعن الشائع بين الناس أو إذا قل أو انعدم لدى المرء ، فاننا نصدر إذن حكما عليه بأنه مريض نفسيا .

والشك السيكلوجي قد يتبدى في الشك في الذات . والشك في ذات الشخص يمكن أن يتخذ له أشكالا متباينة وموضوعات كثيرة . من تلك الموضوعات التي يمكن أن ينصب عليها الشك الذاتي خيرية المرء . ولعل كل واحد منا يسائل نفسه من وقت لآخر قائلا : هل أنا شخص خير أم أني شخص شرير ؟ ولعل الواحد منا أيضاً – وهو شخص متمتع بصحة نفسية جيدة – قد يتهم نفسه بأنه شخص شرير . ولكن اتهامه ذاك – طالما أنه شخص سوى نفسيا – ينصب على موقف واحد أو على حادثة معينة ، أو على سلسلة من الوقائع أو على نوع من التصرفات اليومية . وبمعنى آخر فان الأحكام التي قد يصدرها الشخص الصحيح نفسيا على نفسه بأنه شرير ، إنما ترتبط بالواقع أو بما يصدر عن الشخص من مواقف وليس على صميم الشخصية . أما الشخص المريض نفسيا ، فانه يصب شكه على صميم ذاته . فهو يعتقد أنه شرير أو دنس أو موصوم بالرداءة التي لاسبيل إلى التخلص منها . ومثل هذا الشخص المريض نفسيا لايحدد موقفا أو نوعية من التصرفات التي يكون شريرا فيها ، بل هو يعتقد أن شخصيته ذاتها هي الشريرة .

ولقد ينصب الشك السيكلوجي الذاتي على ناحية أخرى هي الناحية العقلية . والواقع أن جميع الناس يمكن أن يشكوا في ذاكرتهم بازاء موضوع ما أو بازاء اسم شخص أو بازاء أحد أرقام التليفونات التي دأبوا على استخدامها وقد حفظوها . ولكن الشكوك التي تنتاب الشخص السوى بازاء شيء ما من موضوعات التذكر ، إنما تنصب على موضوع أو مسألة محددة ، ولاتتخذ صفة التعميم . ولكن الشكوك السيكلوجية التذكرية لاتعتبر ظاهرة سوية إذا شملت قطاعا تذكريا بأكمله ، كأن يشك الشخص في صحة جميع أسماء الأشخاص الذين يتعامل معهم أو اسم أقرب الناس إليه . (وفي بعض الحالات يمكن أن يصيب الشك السيكلوجي التذكرى المرء بازاء اسمه هو . فيأخذ في التساؤل هل هذا الإسم أو ذاك هو اسمه الحقيقي أم أنه قد نسى اسمه الحقيقي) .

والشك السيكلوجي التذكرى يمكن أن ينصب على قطاع آخر هام هو قطاع الأرقام . وهذا يصح أيضاً ويكون ظاهرة صحية غير مشوبة بالمرض النفسي إذا كان متعلقا بعملية معينة من العمليات الحسابية ولكنه يكون دليلا على المرض النفسي إذا ما شمل جميع العمليات الحسابية حتى أبسطها وأيسرها : فالمرء هنا لايستطيع أن يؤكد صحة أى رقم يتذكره أو نتيجة أية عملية حسابية يجريها في ذهنه أو بقلمه . ولايكون السبب هنا النقص في استيعاب أوليات الحساب ، بل يكون سببا وجدانيا بحتا وقد وجدت الانفعالات موضوعا لها في العمليات الحسابية فانصبت عليها وألمت بها وتمركزت عليها . ومن ثم فان الشخص غير السليم وجدانيا وغير المنضبط انفعاليا يصاب بالعجز في ذاكرته الحسابية بحيث يصير غير قادر على إقامة علاقات فيما بين الأرقام التي يعرض لها ، بل إنه أكثر من هذا ينسى تلك الأرقام على قلتها وبساطتها .

ولقد ينصب الشك السيكلوجي الذاتي على ذكاء المرء وعلى قدرته على التفكير . ونعنى بالتفكير مجابهة المشكلات أيا كانت والخروج من تلك المواجهة العقلية بحل مناسب للموقف . والواقع أن أى انسان سوى يمكن أن تراوده بعض الشكوك في مدى نجوع تفكيره بإزاء مشكلة ما من المشكلات

التى تقابله ، ولكنه إذا ما أخذ فى التعميم الشكى ، بل إذا أخذ فى الشك فى قدرته العقلية ذاتها ، وصار يشعر بالعجز عن مجرد تحدى الموقف ، فصار بذلك فى حاجة إلى من يتولى قياده فى كل صغيرة وكبيرة ، فانه يكون إذن مصابا بالشك السيكلوجى المرضى .

ولقد يتجه الشك السيكلوجى وجهة أخرى غير الوجهة الذاتية فينصب على الأشخاص الآخرين من حول المرء وعلى أولئك الذين يتعامل معهم . وهنا نجد أيضاً أن جميع الناس يتقلبون على حالات من الشك فى غيرهم . ولكن الشك الذى ينتاب الشخص السوى الصحيح نفسيا يكون مستندا إلى وقائع محددة وإلى أسباب وجيهة . ولكن الشك الذى لايستند إلى وقائع موضوعية والذى يتخذ صفة العمومية فانه يكون إذن شكا سيكلوجياً انفعاليا بل ويعتبر شكا سيكلوجيا مرضيا وليس شكا سيكلوجيا من النوع السوى حيث يشترط فى هذا النوع الأخير من الشك أن يكون وجدانيا من جهة ، وموضوعيا من جهة أخرى .

ومن أمثلة الشك السيكلوجى الغيرى المرضى أن يتهم المرء كل من يتعامل معهم بأنهم لصوص ، أو بأنهم فاسقون أو زناة . ومن الطبيعى أن الواحد من أولئك المرضى بالشك السيكلوجى الغيرى لايستطيع أن يثق فى أى من أفراد الجنس الآخر لكى يرتبط بها (أو به) فى علاقة زوجية . فاذا ما تم الزواج فانه ما يفتأ يرتاب فى كل حركة وفى كل ابتسامة وفى كل كلمة تصدر عن الطرف الآخر . فالزوج من هذا النوع دائم الشك فى زوجته ، معتقدا أنها تتحين الفرص لخيانته . وكذا بالنسبة للزوجة المصابة بهذا اللون من الشك السيكلوجى الغيرى المرضى . إنها تعتقد أن أية امرأة يتعامل معها زوجها فى العمل لابد أن تكون قد أقامت معه علاقة جنسية مريبة .

ولقد يتخذ الشك السيكلوجى الغيرى منحى آخر هو الشك فى أن الآخرين يحيكون المؤامرات ضد المرء ويرسمون الخطط للعدوان عليه أو حتى لقتله . وقد يرتبط هذا الشعور الشكى بالاحساس بالاضطهاد . فالشخص المصاب

بهذا النوع من الشك السيكلوجي يجعل من نفسه محورا للاضطهاد والايذاء . فكل طلب لايستجاب له ، وكل جزاء يوقع عليه إنما يكون له تفسير واحد هو أن الناس من حوله يكيدون له ويتربصون به ويعتزمون الاستمرار فى ايذائه إلى أن يقضوا عليه تماما .

ومثل هذا الشخص يعتقد بالإضافة إلى هذا — أن أى بادرة سلام أو عطف أو حب ، إنما هى فى الواقع لون جديد متقن من التآمر وتخدير الأعصاب . فالشك الذى يلم بقلب هذا الشخص يكون قد أخذ به كل مأخذ بحيث لايسمح له بأن يخلع عن نفسه رداء الشك فى نيات الآخرين حتى إذا هم قدموا اليه البراهين على حسن نواياهم ، وحتى إذا هم عاملوه بغاية الرفق وقد أحاطوه بالحب ولم يوجهوا اليه أى نوع من الايذاء أو الاضطهاد .

ولقد يتخذ الشك السيكلوجي وجهة أخرى هى وجهة الخوف من التردى فى الخطيئة . والواقع أن الأشخاص الأسوياء يجب أن يحسوا بمثل هذا الخوف ولكن بشكل معقول وفى حدود الواقع ومتطلباته . ولكن إذا بالغ المرء فى التخوف من الوقوع فى الخطيئة نتيجة مخالفة ما استولى على مشاعره من محرمات فانه يكون قد استحال من الجانب السوى إلى الجانب المرضى . خذ مثالا لذلك الشخص الذى يشك فى أن اللحم المقدم إليه بأى مطعم يرتاده لم يتم ذبح الحيوان الذى أخذ منه اللحم بالطريقة الدينية السليمة ، ومن ثم فانه يحس بانه مقبل على الوقوع فى الخطيئة إذا هو تناول الطعام أو مسه ، فيرفض تناوله وربما ينصرف من ذلك المطعم إلى غيره ويحدث نفس الشىء بتواتر فى جميع المطاعم التى يرتادها . ولقد يشك بعض المرضى النفسيين بأن كل مايحيط بهم من أشياء قد أصابها شىء من النجاسة ، فيأخذ الواحد منهم فى تطهير تلك الأشياء بكافة وسائل التطهير . ولقد يمتد الشك إلى يدى الشخص فيدأب على الاغتسال أملا فى التطهر وتنقية اليدين من أدران الخطيئة . وفى مثل هذه الحالة يكون الشك المرضى قد استحال إلى وسواس ، وهو ما سوف نعود إلى تناوله لدى دراستنا للوساوس .

ولقد ينصب الشك السيكلوجى على المعتقدات الدينية ذاتها . فيأخذ الشخص السوى فى مثل تلك الحالات بالتفكير والبحث أو بالصلاة حتى يثبت الله إيمانه فى معتقداته الدينية . ولكن فى الحالات المرضية فان المريض نفسيا لايصل إلى بر الإيمان ولايستطيع أن يجب شكه بالاقتناع ، بل يظل فى حالة من الشك بحيث لايهدأ له بال . ويكون شكه مصحوبا بمجموعة من الانفعالات . فهو لايشك شكا عقليا فى المعتقدات الدينية ، بل يشك شكا وجدانيا . فهو يتهم الخالق بالظلم أو بأنه لايقدم إليه العناية التى يستحقها ، بل قد يصل فى شكه إلى حد الاعتقاد فى أن الاله يقف له بالمرصاد ويوقع عليه ألوانا من العذاب لا يستحقها .

الفصل الثانى

سيكولوجية الشك

الشك وانبثاق التفكير :

سبق أن قلنا إن التفكير هو مجابهة المشكلات التى تعترض المرء ومحاولة التوصل إلى مخرج من تلك المشكلات سواء كانت تلك المشكلات هى عقبات عملية أم كانت صعوبات اجتماعية أم كانت معضلات ذهنية . ولعلنا نضيف إلى هذا أن هناك شرطا أساسيا فى التفكير هو وجود اختيارات فى الموقف . فاذا لم يكن هناك سوى اختيار واحد على المرء الوقوع عليه والأخذ به وتقبله فان التفكير ينعدم إذن . ذلك أن التفكير هو جهد ذهنى يبذله المرء من أجل الوقوف على الوسيلة الناجعة الشافية فى الموقف . والوسيلة التى يختارها المفكر قد تكون أداة وقد تكون خامة وقد تكون حيوانا أو إنسانا أو علاقة اجتماعية أو فكرة أو رمزاً أو أى شىء آخر من بين اختيارات متعددة كثيرة ومتباينة . فاذا لم يكن أمامك سوى وسيلة واحدة بازاء الموقف الواحد ، وقد فرضت عليك أو فرضتها انت على نفسك أو آمنت بأنها الوسيلة الوحيدة الممكنة بغير إجالة الفكر بين الوسائل الأخرى المتباينة المتوافرة بالموقف ، فانك لاتكون اذن مفكرا من قريب أو من بعيد . فالفكر اذن هو بذل الجهد لاختيار الوسيلة المناسبة للتذرع بها فى أحد المواقف من أجل تحقيق هدف أو بلوغ غاية أو التغلب على مشكلة .

والواقع أن وجود اختيارات متعددة فى الموقف الواحد يجعل كل واحد من تلك الاختيارات موضع شك من جانب المرء . ولقد نقول إن وجود اختيار واحد فى الموقف يكون على المرء تقبله لايكون بالتالى إذن هناك مجال للشك فيه . فاذا هو شك فيه ، فان تقبله له لايكون عن حرية بل عن إجبار

وقسر وبذا تنتفى صفة الاختيار انتفاء تاما من جانب المرء . فالايمان تقبل لذلك الاختيار الواحد الموجود بالموقف ، أما الشك فهو إعمال الفكر بالمقارنة والمفاضلة بين اختيارات كثيرة متباينة للوقوع على أحسنها . وباختصار نقول إن الايمان تقبل والشك اختيار .

افترض أنك تقيم بأحد الشوارع فى إحدى المدن وأن مقر عملك يوجد بنفس الشارع على مسافة قصيرة بحيث لايكون عليك الا أن تسير بنفس الشارع على قدميك لكى تصل إلى مقر عملك وتعود بنفس الشارع إلى بيتك . انك فى هذه الحالة لاتفكر بل تسلك سلوكا شبه آلى فيما بين بيتك وبين مقر عملك . وهذا السلوك شبه الآلى هو فى الواقع نتيجة إيمان مطلق بأن ثمة اختياراً واحد أمامك هو ذلك الطريق الذى تسلكه بين بيتك ومقر عملك ، وأنه لايوجد أى اختيار آخر يمكن أن تقع عليه . وعلى هذا فيمكن القول بأن عدم وجود أى أختيار آخر سوى ذلك الطريق الذى تمشى فيه يوميا قد عمل على انتفاء التفكير فى هذا الموضوع انتفاء تاما : لأنك لاتفكر ولاتقارن ولاتفاضل لأن أساس التفكير والمقارنة والمفاضلة وجود أكثر من شىء واحد لإعمال التفكير والمقارنة والمفاضلة ، وهو الأمر الذى لايتوافر فى موقفك ذاك .

ولكن افترض أنك قمت بسياحة إلى إحدى البلاد الأوربية وقمت بجولة حرة فى إحدى المدن وقد سلمك المسئول عن الرحلة خريطة تستهدى بها . إنك ترغب فى زيارة أهم المعالم بتلك المدينة فى الوقت المتاح لك البقاء بها والقيام بجولتك الحرة . إنك ستبدأ أولا وقبل كل شىء فى تناول الخريطة لتأملها ، وسوف يقع بصرك على تلك المعالم السياحية الموجودة على الخريطة . وبعد أن تتصفح الخريطة فانك تأخذ فى إعمال فكرك بالمقارنة بين المعالم الموجودة عليها وما يمكن أن تقوم بزيارته خلال الوقت المتاح للجولة الحرة. إنك فى الواقع تظل مجيلا فكرك شاكا فى القيمة السياحية لكل معلم يقع عليه بصرك . فأنت تريد اختيار ثلاثة معالم من بين خمسين معلما سياحيا موجودة على الخريطة . من الواضح أنك إذا آمنت بالخمسين معلما جميعاً ، فانك تكون ملزما بزيارتها جميعاً . ولكن الوقت المتاح لك لايسمح لك الا بزيارة ثلاثة

منها . فماذا تفعل ؟ إنك تأخذ فى الشك فى قيمة البعض منها ، وتصل فى درجة شكك إلى حد النبذ والحذف . وعملية الاختيار التى تقوم بها لاتكون قائمة على أساس اختيار مسبق . فطالما أنك أجلت فكرك وقمت بالمقارنة والمفاضلة فانك تكون مفكرا وبالتالى فانك تكون قد انتحيت منحى الشك .

وإذا نحن تتبعنا الإنسان منذ أن يكون جنينا فى بطن أمه إلى أن يولد ثم ينمو ثم ينضج ثم يصير كهلا فشيخا فهرما إذا ما قدر له أن يعيش حتى الهرم ، فاننا نجد أن مدى تمتعه بالفكر يسير فى خط متواز مع مدى تمتعه بالقدرة على الاختيار من بين اختيارات متعددة ومتباينة . وواضح أن الجنين فى بطن أمه لايفكر على الاطلاق وذلك لأنه لايقوم باختيار أى شىء ، بل هو يضطلع . بعملياته الحيوية بطريقة آلية بحتة . ولسنا نجد اختلافا بينا فى التفكير فيما بين الجنين فى بطن أمه وبين الوليد والرضيع . فكل ما يقوم به الوليد أو الرضيع من نشاط إنما يكون مسوقا فيه بالغرائز . والغرائز عبارة عن مناشط مرسومة بشكل تطابقى بالنسبة لجميع أبناء النوع الواحد من أنواع الكائنات الحية . فلا فرق بين إقبال وليد أو رضيع هندى أو مصرى أو انجليزى على ثدى الأم وبين طفل آخر عاش منذ آلاف السنين فى إحدى القبائل البدائية . وأكثر من هذا فان الطفل البشرى لايختلف فى هذا عن الطفل الشمبانزى . فكلاهما لايختار بل يقبل على انتهاج سلوك تطابقى تماما مرسوم بشكل مسبق للنوع كله من أنواع الكائنات الحية وليس لفرد منها بالذات .

ولاشك أنه كلما قيض للواحد من أفراد الإنسان أو من أفرادالشمبانزى العمر والانخراط فى نطاق بيئة اجتماعية من نفس أبناء النوع أو من أبناء جنس قريب ، فان مدى الاختيارات يتسع . ولعلنا فى غنى عن ذكر المجال الواسع للاختيارات أمام جنس الإنسان عنها لدى نوع الشمبانزى . ونستطيع أن نقرر أن هناك مقومين أساسيين ميزا الإنسان عن جميع الكائنات الحية الأخرى وقد بسطا أمامه مجالا واسعا من الاختيارات : المقوم الأول — هو تمتع الإنسان بجهاز عضلى مرن وبخاصة تمتعه باليدين والأصابع المتحركة بأكثر حرية من أى كائن آخر بما فى ذلك الشمبانزى . وهنا نذكر أن تمتع

الشمبانزى بالقوة فى العضلات بحيث يستطيع أن يعلق نفسه فى فرع شجرة بقبضة يد واحدة ، يفضله بكثير دقة وتخصص أصابع الإنسان ومرونتها بحيث يتسنى له استخدامها بأكثر مرونة بكثير مما يستطيع الشمبانزى أو غيره من أنواع حيوانية قريبة من نوع الإنسان . أما المقوم الثانى الذى يتمتع به الإنسان عن الشمبانزى وغيره من أنواع حية فهو القدرة على استخدام الرمز محل الأصل الشيئى وقدرته على الترميز للعلاقات بل وقدرته على توريث الرموز لجميع الأجيال التالية مهما كانت بعيدة عنه . ناهيك عن النقل المكانى للرموز فى الزمن أو الجيل الواحد .

فالاختيارات أمام الجنس البشرى قد اتسعت وتدأب على الاتساع أكثر فاكثر بفضل هذين المقومين الأساسيين . وبتعبير آخر فان التراث التراكمى من جهة ، وتفاعل المقومات التراثية مع المؤثرات الآنية والعلاقات المتشابكة الكثيرة والمتدفقة قد أفضى ويفضى إلى الزيادة المستمرة فى مجال الاختيارات المتاحة أمام بنى البشر . وكلما زادت الاختيارات أمام الإنسان ، كان شكه أوسع نطاقا . ولكنه ليس شكا إنكاريا ، بل هو شك تفاضلى . فثمة فرق جوهرى بين أن تشك لتنكر ، وبين أن تشك لتختار . فاذا عرض التاجر أمامك نوعين من القماش لتختار واحدا منهما وتشتريه ، فان تفكيرك يكون شكيا بازاء النوعين ، ويكون شكك فى هذا الموقف شكا تفاضليا . وواضح أن التاجر إذا ما عرض عليك عشرة أنواع من القماش ، فان مجال اختيارك التفاضلى يتسع ، وبالتالى فان فكرك يشتد وتبذل طاقة ذهنية أكبر فى الاختيار . فمن المفروض عليك فى مثل هذا الموقف أن ترفض تسعة أنواع من أنواع القماش المعروضة أمامك وأن يقع اختيارك على واحد منها فحسب .

ونستطيع أن نخلص مما سبق إلى أن الإنسان الذى يقيض له مدى أكبر من الاختيارات يكون أخصب فكرا وأوفر بذلا للجهد العقلى . وعلى نقيض ذلك بالنسبة للشخص الذى تنحصر مجالات اختياره فى عدد ضئيل من الاختيارات . ومن هنا فاننا نستطيع أن نقرر باطمئنان أن إنسان الحضارة يجد أمامه مجالا أوسع من الاختيارات المتباينة مما يتاح للإنسان البدائى . ولكن يبدو أن

المدنية التي تعمد إلى تدليل أبناء الأجيال الجديدة قد حرمتهم فى نفس الوقت من كثير من الاختيارات التي كانت متاحة أمام أبناء الأجيال السابقة القريبة. وبالمناسبة فاننا ننعى على التربية التي تقرر كل شيء يكون على التلاميذ أو الطلبة كسبة بطريق مايسمى بالمناهج الدراسية والكتب المدرسية ،مما يقلص مجالات الأختيار أمامهم ويضيق بالتالى مجال تفكيرهم .

الشك ومراحل النمو :

قلنا فى الموضوع السابق ان الشك يتزايد اتساعا وشدة كلما زادت رقعة الاختيارات التى يختار المرء من بينها اختيارا واحدا أو أكثر من اختيار واحد. وقلنا أيضاً إن الجنين والوليد والرضيع لايشكون لأنهم لايختارون بل يندفعون بالغريزة نحو اتخاذ نمط أدائى واحد لايحيدون عنه تقريبا . وقلنا أيضاً إن السلوك المرسوم للمرء مسبقا لايكون قابلا للشك والا فانه يكون بذلك قد تجاور مع سلوك آخر ممكن ، فيكون بالموقف إذن اختياران على المرء أن يختار واحدا منهما .

وعلينا فى هذا المقام أن نتناول مدى ذيوع الشك فى مراحل النمو المتباينة . ولقد سبق أن قررنا أن الشك ينتفى انتفاء تاما فى الطفولة الباكرة ثم يأخذ فى البزوغ كلما أتسعت مجالات الاختيار أمام الطفل . بيد أننا نستطيع أن نقول إن ثمة اختيارا واحدا يتوافر أمام الرضيع هو الاختيار بين أخذ الثدى وبين النأى عنه . ولكن من الممكن أن نقول إن هذا لايعد اختيارا فى الواقع لأننا نعتقد أن الاختيار لايتم إلا بين الايجابيات أو بين السلبيات . فاذا أنت توجهت لزيارة أحد أصدقائك فسألك : هل تشرب كوب شاى أم فنجان قهوة ؟ فيكون أمامك الخيار بين هذين المشروبين . ولكن إذا سألت نفسك : هل أذهب اليوم إلى عملى أم أمتنع عن الذهاب إلى العمل ؟ فاننا نرفض أن يكون هناك خيار فى هذا السؤال ، وذلك لأنه مفاضلة بين اتيان شيء إيجابى وبين الامتناع عن القيام بنفس ذلك الشيء الايجابى . فالعلاقة بين الذهاب إلى العمل وبين الأمتناع عن ذلك ، شبيهة أو مطابقة للعلاقة بين الوجود والعدم . وطالما أننا لانعتبر العدم وجودا لأنه عدم ، فاننا ننفى الاختيار بين الوجود والعدم .

ومن المؤكد أن الكثير ممن يقرءون هذا الكلام سوف يعترضون مؤكدين أن الاختيار يمكن أن يقوم بين التصرف وبين الامتناع عن الاتيان بنفس ذلك التصرف ، كالخيار بين الصوم والافطار ، وبين تقديم الخير وعدم تقديمه ، وبين الالتزام بتنفيذ القانون ومخالفة أوامر القانون إلى آخر تلك الثنائيات التي لاتعدو أن تكون وجودا وعدم وجود . والواقع أننا نستبعد من مجال الاختيار جميع الأوامر بجميع أشكالها . فطالما أن من المفروض عليك أن تصوم أو أن تفعل الخير أو أن تنفذ القانون فانك لاتكون مخيرا بين الاتيان بالفعل أو الامتناع عن إتيانه ، بل تكون مأمورا بفعله ولايكون أمامك سوى التنفيذ . فاذا امتنعت عن الاذعان فانك تكون عاصيا .

وشرط الاختيار إذن يكون بين شيئين إيجابيين أو أكثر ، أو بين شيئين سلبيين أكثر . ولقد سبق أن ضربنا أمثلة للمفاضلة بين الايجابيات كأن تختار نوعا من القماش من بين أنواع كثيرة تعرض أمامك . والاختيار بين السلبيات كأن يخيرك أحد قطاع الطريق بين أن تعطيه حافظة نقودك وبين أن يقتلك . فكلا العملين سلبي وضار بك ، ولكنك ستختار واحدا من العملين السلبيين يكون أخف وطأة عليك وأقل ضررا لك .

وعلى هذا فاننا نستبعد ما قد يظن انه أختيار من جانب الرضيع بين أن يأخذ ثدى أمه وبين أن يعزف عنه . وقس على ذلك جميع أنواع المناشط التي يقدمها الكبار للصغار فيقبلون عليها أو يعزفون عنها . والواقع أن الاختيارات التي تتوافر حول الطفل بحيث تكون اختيارات مناسبة له ويكون بمقدوره أن يفاضل فيما بينها ، إنما تبعث فيه التفكير ، أو بتعبير آخر تجعله يتناولها بروح الشك النقدى حيث يعمد إلى تقييم كل منها ويفاضل فيما بينها لكي يقف على الأفضل فيأخذه والأقل فضلا فينبذه .

على أننا نقرر بصفة عامة أن هناك مراتب هرمية فى الاختيارات يمر بها المرء خلال مراحل نموه مع التنبيه إلى حقيقة هامة وهى أن كل مرحلة نمائية يمر بها المرء لاتستبعد المراتب الاختيارية السابقة بل تحتفظ بها وتضيفها إلى

المرتبة الاختيارية الجديدة التى تنحو اليها مرحلة النمو الجديدة التى يمر بها الشخص . ونستطيع القول بأن الطفولة برمتها ترتبط فى اختياراتها بالمحسوسات ولكن هذا لايعنى أن هناك فاصلا بين اختيارات الطفولة الحسية وبين اختيارات المراهقة العقلية . ولقد نقول إن السمة الشائعة فى اختيارات الطفولة هى سمة الحس ، بينما نقول إن السمة الشائعة فى المراهقة هى السمة العقلية . فعقل الطفل عقل حسى مباشر ومرتبط بالواقع الموضوعى المتوافر فى البيئة المحيطة به . ومعنى هذا فى الواقع أن عقل الطفل يكون أكثر قابلية للنمو كلما توافرت أمامه اختيارات أكثر خصوبة وأكثر تنوعا .

ولكن الذى يقصر مجال الاختيارات فى الطفولة على الموضوعات الحسية إنما يكون قد ظلمها وأجحف بحقها . ذلك أن الطفل يتمتع غالبا بقدر كبير من الخيال بحيث يستطيع أن يجعل الكبير صغيرا والصغير كبيرا هائلا ، والبعيد قريبا والساكن متحركا ، وما لايتكلم ينطق بالحكم والأمثال ، بل ويجعل الضعيف قويا بغير أسباب وجيهة تحيل ضعفه إلى قوة ، كما يجعل القوى ضعيفا واهنا ، بل ويجعل الشخص الكبير وقد استحال إلى شخص صغير ، كما يجعل الرضيع ناطقا وماشيا ومتسلقا الأشجار أو طائرا فى عنان السماء .

ولعل الطفولة تجد فى الخيال اختيارات لاتقل اتساعا وتنوعا عن تلك الاختيارات التى يجدها بازغة أمامه فى مجال الأشياء الحسية . والاختيارات التى تتأتى للطفل بخياله تكون من إنشائه واختراعه . فهو يستعرض بخياله مايمكن وليس ما هو واقع . والممكن أبعد شقة من الواقع . وطالما أنه فتح مجال الامكانية ، فان الأشياء تتكثر والحوادث تتزايد ، والواقع يتسع إلى ما لانهاية . وخيال الطفل مصحوب بالاختيار من بين تلك الأشياء العديدة التى يلبسها للواقع بالخيال . وهو يتخذ موقفا اختياريا فيفضل الخير على الشر أو المظلوم على الظالم ، والفقير على الغنى ، والطفل مثله على الكبير الذى يوقع العقوبات على الضعفاء من الأطفال .

وواضح أن الطفل بازاء اختياراته الحسية أو الخيالية إنما يكون متخذا موقفا شكيا وذلك حتى يتسنى له الوقوع على موقف اختيارى من بين تلك المتغيرات أو الاختيارات التى تعرض أمامه أو التى يعرضها هو على نفسه . وقد سبق أن قلنا إن المراهقة لاتلغى ما قبلها ، بل يزداد النمو الهرمى للشخصية علواً. فنى المراهقة نجد أنه بالإضافة إلى الاختيارات المحسوسة والاختيارات المتخيلة تنضاف اختيارات أو متغيرات جديدة هى الاختيارات أو المتغيرات التجريدية التى تتمثل فى المفاهيم أو التصورات الذهنية . فيبدأ المراهق فى تناول موضوعات مجردة أبعد شأوا من قطاع المحسوسات ومن قطاع المتخيلات. فالكثير ينخرط تحت القليل ، وكلمة واحدة تدل على ملايين الأشياء . وأول نوع من التصورات يعتمل فى عقل المراهق هو التصورات التى ترمز إلى المحسوسات . فاذا قلنا كلمة « برتقالة » فانها تضم تحتها بلايين البرتقال الموجودة الآن والتى وجدت قبلا والتى ستوجد فى أى عصر من العصور القادمة . وعلى الرغم من أن الطفل يستخدم هذه الكلمة وهو يعنى بها أى برتقالة تقدم إليه ، فانه لم يكن ليدرك تلك العلاقة الذهنية إدراكا واضحا كما هو حاله فى المراهقة. فهو فى المراهقة يستطيع أن يتعلم الجبر بدلا من الحساب ، بل ويستطيع أن يتسع ذهنه للنظريات العلمية والهندسية . ذلك أنه بعد أن يقف على هذا النوع من التصورات ، فانه يأخذ فى تفهم نوع آخر منها هو التصورات المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية والسياسية . فيصير شغوفا بالفاظ مثل الديموقراطية والدكتاتورية والرأسمالية ونحو ذلك من تصورات ذهنية علاقية يعبر عنها بكلمات تضم تحتها الكثير من العلاقات الاجتماعية والسياسية ، ويأخذ فى التساؤل عن مضمونها .

وواضح أيضاً أن المراهق فى هذه المرحلة النهائية يقبل اقبالا شديدا على الفلسفة وعلم النفس وعلوم الدين التى تقترب من الفلسفة ، بل إنه يميل إلى تناول موضوعات الدين بنظرة فلسفية بحيث يكون قريبا جدا من الفكر الفلسفى فى تناوله للمسائل الدينية . ويكون المراهق فى مرحلته هذه وقد انفتح على مجال واسع جدا من التيارات ومن التفكير الشكى ، وذلك بأن يتناول

المتغيرات أو الاختيارات العديدة بنظرة تقييمية وليس بنظرة تسليمية . فهو يبحث عن المثالب وعن أوجه النقص فيما يعرض له من أمور . ولعلك تلاحظ أن المراهقين يميلون بوجه عام إلى النقد والهدم ، ولعلهم يحاولون بذلك التأكيد على مبدأ الشك المنهجي ، ولكأنهم يقومون بثورة على ما ظلوا ينهجونه طوال مرحلة الطفولة من تسليم للكبار بما كانوا يقولونه لهم وبما كانوا يبثونه فى عقولهم وقلوبهم من قيم . فالمراهق يكتسح مبدأ الرضوخ التسليمى ، وما كان يدين به للكبار من استسلام ذهنى ووجدانى ، وقد أخذ يشهر سلاح الشك فى وجوههم حتى لقد يجادل فى أبسط الأمور وأكثرها بداهة فيثير ضجر الكبار منه ويتهمونه بالشغب الفكرى والعصيان الخلقى ولكن سرعان ما تهدأ ثورة المراهق الفكرية مع استمراره فى اختياراته بعد انخراطه فى مراحل العمر التالية .

الشك عند الجنسين :

سبق أن قلنا إن الجنين والوليد والرضيع لايجدون أمامهم فرصا للاختيار ومن ثم فاننا نستطيع أن نقول إن الواحد من الجنسين فى تلك المراحل لايقع على اختيارات فى تلك المراحل متباينة يختار بعضاً منها ويعزف عن بعضها الآخر ، ومن ثم فانه لايشك حيث أنه لايعرض الأشياء التى يتقبلها للنقد والتمحيص . ولكن ما أن يقيض النمو للطفل من الجنسين حتى تتفتح آفاق الاختيارات أو المتغيرات أمامه ، وبالتالى يتسع أمامه مجال الشك حيث أنه يأخذ فى تحديد قيمة نسبية لكل اختيار ممكن من الاختيارات الكثيرة المتوافرة بالموقف .

وكلما تقدم الطفل فى مضمار النمو ، فان الخصائص العقلية التى يتسم بها جنسه تأخذ فى التبلور والتمايز .

ونستطيع القول إن الذكر والأنثى يتمايزان بعضهما عن بعض من حيث الأجهزة الذهنية التى يشتركان فيها ويتمتعان بها . ولقد نقول إن الأجهزة الذهنية التى نعنيها تتمثل فى جهاز الادراك وهو يضم فى نطاقه جهازين فرعيين : أحدهما جهاز الإحساس المتفرع إلى خمس حواس ، ثم جهاز ترجمة

الأحاسيس التى تصل إلى المخ حيث تختص مراكز متباينة بالمخ بترجمة تلك الاحساسات التى تصل اليها كل فيما يخصه . أما الجهاز الذهنى الثانى فهو جهاز التذكر وهو الجهاز الذهنى المسئول عن تخزين الخبرات السابقة فى أنحائه بحيث يمكن إعادة سرد ما سبق تخزينه بها من خبرات . ولقد يصح لنا أن نقول إن ثمة فروعا لهذا الجهاز الذهنى التذكرى . فثمة فرع منه مختص بتذكر الأسماء وآخر مختص بتذكر الأرقام وثالث مختص بالأحداث والوقائع إلى آخر تلك الفروع التى يشملها هذا الجهاز التذكرى . وثمة جهاز ذهنى ثالث هو جهاز التخيل وهو يقوم بتركيب صور ذهنية جديدة من العناصر المعرفية الادراكية والعناصر الذهنية الخيالية . أما الجهاز الذهنى الرابع فهو جهاز التصور وهو يعمل على التجريد من الوقائع الجزئية من جهة ، والتعميم من جهة أخرى . فتصير هناك صورة ذهنية رمزية تشير إلى فئة برمتها من الأفراد كأن نقول « إنسان » لكى نشير إلى أى شخص مهما كان ، سواء كان حيا أم فى ذمة التاريخ أم فى طى المستقبل المجهول ، وسواء كان إنسانا بدائيا أم كان إنسانا متحضرا . أما الجهاز الخامس والأخير فهو جهاز التفكير وهو كما سبق أن ذكرنا الجهاز المسئول عن مجابهة المشكلات سواء كانت مشكلات واقعية أم كانت مشكلات تصورية علائقية . وهذا الجهاز الذهنى يستخدم جميع ما يتوصل إليه سائر الأجهزة الأربعة السابقة مستغلا العناصر المعرفية المتباينة التى تتأتى لها جميعاً .

وبالنسبة للجهاز الذهنى الأول فاننا نجد أن الجنسين يشتركان فى نفس النشاط الادراكى ، ولكن يبدو أن إدراك المرأة يتركز على الأشكال والألوان والأصوات والأحجام والعلاقات ، بينما يتركز إدراك الرجل على مقومات الأشياء المدركة وكيف تعمل وكيف تتحرك اذا كانت من الأشياء المتحركة . ومعنى هذا فى الواقع أن المرأة فى موقفها الشكى إنما تكون بازاء اختيارات متعددة وتكون مركزة نقدها وشكها على الأشكال والألوان والأحجام والعلاقات ، بينما يركز الرجل نقده وشكه على المقومات وطريقة التشغيل والحركات . ولكن يجب أن نذكر دائما أن المرأة والرجل جميعا

يشتركان فى جميع المقومات الادراكية ، وأن كل ما نريد إثباته هنا هو أن كل جنس من الجنسين يؤكد بعض الجوانب أكثر من تأكيده على الجوانب الأخرى التى يؤكد عليها الجنس المقابل .

أما بالنسبة لجهاز التذكر ، فاننا نعتقد أن المرأة تتمتع بذاكرة سردية أقوى بكثير مما يتمتع به الرجل . ولعلنا نزعم أن الرجل يميل الى تمزيق سلسلة الأحداث ويختار من بينها بحيث ربما يقدم حلقة تالية على حلقة سابقة من تلك السلسلة بحسب أهميتها فى نظره . أما المرأة فانها تهتم باستمرار التسلسل الحدثى فتقدمه حسب ترتيب وقوعه وهى ترفض فى الغالب تمزيق التسلسل الحدثى أو تقديم حلقة من سلسلة الأحداث وهى فى عزلة عما قبلها أو عما بعدها من حلقات حديثة . ولعل السبب فى هذا يرجع الى أن طبيعة المرأة تتسم بالنزعة السياقية ، حيث تهتم كل الاهتمام بالسياق وتداعي المعانى . ومعنى هذا أن فرصة الاختيار بين اختيارات كثيرة بازاء القصة الواحدة يكون منعدما بالنسبة للمرأة ، بينما هى متاحة أمام الرجل . ذلك أن الرجل يعمد إلى تقسيم أو قل تحليل السلسلة الحدثية الى حلقاتها ويجعل كل حلقة من تلك الحلقات كائنا قائما بذاته ، ويكون أمامه فرصة للخيار من بينها بحيث يعيد ترتيب تلك الحلقات لا من حيث ما يربط بينها من تسلسل زمنى ، بل من حيث ما ينوطه الرجل بكل حلقة من أهمية . فهو يعيد ترتيب تلك الحلقات بحسب أهمية كل حلقة منها . ويترتب على هذا أن الشك التذكرى لدى المرأة يكون أقل بكثير منه لدى الرجل ، وذلك بسبب ضيق نطاق الاختيارات عند المرأة فيما يتعلق بالسياقات التذكرية عنها لدى الرجل .

وبالنسبة للجهاز الذهنى الثالث الخاص بالتخيل ، فان الصور المتخيلة لدى المرأة تكون شديدة الشبه بالتسلسل التذكرى . فالمرأة تعمد الى تخيل قصة متصلة الحلقات ومتماسكة وعضوية بحيث لا يكاد يختلف تخيلها لاحدى القصص المؤلفة عن واقع الحياة أو عن قصص الحياة . أما الرجل فانه انتقائى أيضا فى خياله . فهو اذا ألف قصة أو إذا ما عمد الى رسم لوحة أو نحت تمثال فانه يسارع الى الانتقاء ، ولكأنه يختار من بين حلقات سلسلة أو أكثر من

السلاسل أو القصص التى سبق أن مرت فى حياته أو فى حياة غيره ، ثم يعمد الى تشكيل سلسلة جديدة لا تعتمد على التسلسل الزمنى بقدر ما تعتمد على التسلسل الذى يخلقه الرجل خلقا ويصنعه صنعا ويبتكره ابتكارا .

ويختلف الرجل والمرأة أيضا بازاء الجهاز الذهنى الرابع الخاص بالتصورات . فهنا نجد أن المرأة تكتسب أو قل تتفهم التصورات التى سبق أن توصل اليها جنس الرجال ، ولكنها لا تعمد الى خلق تصورات ذهنية مجردة ورمزية . ولعل السبب فى هذا يرجع الى أن المرأة تتشبث بالحياة كما هى فى الواقع وليس كما ينحو الرجل الى جعلها مجردة وخالية من الحياة . فالمرأة ترجح الواقع الذى يضم الجزئيات على الصورة الذهنية التى تشير الى فئات من تلك الجزئيات . ومن هنا فان المرأة التى تتمكن من المنطق بصوره الذهنية المجردة تتنازل عن استخدامه فى تفكيرها مفضلة على ذلك الواقع الحى والارتباط أشد الارتباط بالجزئيات وما يتعلق بها من أحداث ووقائع .

أخيرا فان المرأة تختلف عن الرجل فيما يتعلق بالجهاز الذهنى الأخير الذى يتعلق بالتفكير . فالمرأة ترغب فى التفكير التشبيهى بمعنى أنها تفكر فى المشكلة الراهنة فى ضوء ما وقع بنجاح بازاء مشكلة سابقة مشابهة . أما الرجل فانه يفكر تفكيرا آنيا ، وذلك بأن يجند ويحشد جميع الخبرات المعرفية السابقة سواء كانت خبرات إدراكية أم خبرات تذكرية أم خبرات تخيلية أم خبرات تصورية ويعمد إلى انتقاء العناصر المناسبة والناجعة للموقف ويستخدمها .

ويتضح مما سبق أن النزعة الشكية تتبدى لدى الرجل بأكثر من تبديها لدى المرأة وإن كانا يشتركان فى الواقع فى قطاع مشترك فيما بينهما . وأكثر من هذا فاننا نستطيع الوقوع على نساء أكثر شكية من الرجال ، بينما نجد بعض الرجال يتلحفون بالنزعة التقبلية أكثر من بعض النساء . ولعل السبب فى هذا يرجع إلى مايوجد من تداخل بين الجنسين فيما يتعلق بالهورمونات الذكرية والهورمونات الأنثوية . فالرجال لديهم هورمونات أنثوية ، كما أن النساء يشتملن على هورمونات ذكرية . وفى بعض الحالات تزيد نسبة

الهورمونات الأنثوية عند بعض الرجال ، كما تزيد نسبة الهورمونات الذكرية عند بعض النساء . وبالتالى تزداد الصفات النسوية عند أولئك الرجال ، كما تزداد الصفات الذكرية عند أولئك النساء .

ونود أن نذكر القارىء بمعنى الشك الذى حددناه قبلا ، وهو عدم التقبل والقيام بالمقارنات والموازنات والتقييمات لما يمكن أن يتوافر بالموقف من خيارات كثيرة أو قليلة بحيث يقع الاختيار على بعض الخيارات والنبو عن باقى الخيارات الموجودة بالموقف . ولقد أكدنا مرارا أنه كلما كان مجال الخيار أرحب فان مجال التفكير الشكى يتسع نطاقا ويحتدم نشاطا . وعلى العكس من ذلك فاذا لم يكن هناك سوى خيار واحد فى الموقف ، فان التفكير ينتفى وبالتالى فان التقييم والشك لايوجدان إطلاقا . وعلى هذا فاننا نستطيع أن نقرر أن المرأة تتسم بصفة عامة بالنزعة التقبلية ، بينما يتمتع الرجل بالنزعة التقييمية الشكية ، مع اعترافنا بالفروق الفردية من شخص لآخر من نفس الجنس فيما يتعلق بهذه النزعة الشكية .

الشك والمعرفة :

عندما نذكر المعرفة فاننا نأخذ فى اعتبارنا جانبين أساسيين : الأول — المضمون المعرفى ، والثانى — المنهج المعرفى بما يشتمل عليه من وسائل معرفية . وهناك فى الواقع تداخل فيما بين هذين الجانبين ، أو بتعبير آخر هناك نظرة نسبية اليهما . فنفس الشيء يمكن أن يعتبر وسيلة فى موقف ومضمونا معرفيا فى موقف آخر . فعندما نقوم بتعليم الطفل القراءة والكتابة والحساب ، فاننا نعلمها له كمضمون معرفى . ولكن هذا المضمون سرعان ما يستحيل إلى وسيلة لمضمون معرفى أبعد شأوا فيصير بالتالى وسيلة معرفية . فمادة مثل الجغرافيا نعلمها للطفل مستعينين فى تعليمه لها بالقراءة والكتابة ، فتكون المعلومات الجغرافية هى المضمون المعرفى ، بينما تعتبر القراءة والكتابة وسيلتين لبلوغ وتعلم ذلك المضمون المعرفى . ولقد يكون تعليمنا الجغرافيا للطفل وسيلة لمضمون معرفى آخر كالتفاهم بين الشعوب أو تربية الناشئة تربية قومية .

وهكذا دواليك بالنسبة لأى معرفة إذ تكون فى أحد المواقف وسيلة وفى موقف آخر مضمونا معرفيا .

وعلى الرغم من هذا التقسيم إلى مضمون ومناهج أو وسائل ، فاننا نستطيع أن نقرر أن الشخص الناضج ثقافيا يميز فى معرفته مضمونا معرفيا له صفة الثبات والاستقرار ، ومنهجا معرفيا له صفة الثبات والاستقرار أيضاً . ولقد يكون ذلك المنهج المعرفى منهجا مسبقا ، كما أنه قد يكون منهجا تلويا . والمنهج المسبق هو المنهج الذى يحدده المرء لنفسه ليستعين به فى تحصيل معرفة معينة . أما المنهج التلوى فانه المنهج الذى يضعه المرء لنفسه لكى يستعين به فى غربلة المعرفة التى سبق له أن حصلها بالفعل . وفى ضوء هذا المنهج الأخير يتم للمرء الفصل بين الغث والسمين ، أو بين الباطل الزائف والمكين الأصيل فيلقى بالغث والباطل الزائف بعيدا مستبقيا السمين والمكين الأصيل منها .

والواقع أن المنهج الأول هو المنهج الذى يتذرع به الدارسون والعلماء فى بحوثهم العلمية . فهم عندما يقبلون على دراسة مشكلة أو على تناول قطاع معرفى ، فانهم يبدأون بتحديد المنهج الذى سوف يراعونه فى دراستهم ، فيلزمون أنفسهم به . وإذا كان الدارس خاضعا أو مسترشدا بأحد الأساتذة أو الموجهين أو المشرفين ، فان المنهج الذى يتم الاتفاق عليه بين الطالب وأستاذه يكون بمثابة عقد علمى يتم التعاقد عليه فيما بينهما ، بحيث يكون على الطالب الالتزام به قبالة أستاذه . وفى هذه الحالة لايكون الأستاذ مسيطرا على على الطالب الا فيما يتعلق ببنود ذلك الاتفاق — أعنى المنهج — ولكنه لايكون مسيطرا عليه فيما عدا ذلك ، أى أنه لايسيطر عليه فيما يتعلق بالمضمون المعرفى ولا فيما يتعلق بالنتائج التى يتوصل اليها فى بحثه . فالمضمون والنتائج ملك شخصى للباحث ، بينما يكون المنهج شركة بين الدارس وأستاذه الموجه فى البحث .

أما المنهج الثانى التلوى فاننا نستطيع أن نسميه بالمنهج الفلسفى . ذلك أن الفيلسوف أو المفكر يهتم بالمنهج التلوى النقدى الذى يتسنى له بمقتضاه أن يغربل ما تم له تحصيله أو ما سبق أن علق بذهنه من أفكار . والواقع أن هذا

المنهج بمثابة محكمة تعقد جلساتها لمحاكمة ذهن الفيلسوف . والعجيب فى هذه المحكمة أن المتهم والقاضى هما ذات الفيلسوف . فالفيلسوف يضع نفسه فى قفص الاتهام أمام ذاته ليحاسبها عما اقترفته من ذنوب تقبلية غير متبصرة . ذلك أن الفيلسوف يعتقد أن الخطيئة الكبرى التى يقترفها المرء فى المجال المعرفى تتمثل أكثر ماتتمثل فى التقبل الأعمى لمعارف لاتقوم على أساس وطيد. ولعل المحاكمة التى تتم فى تلك المحكمة العقلية تتمثل فى المحاور الآتية : المحور الأول — التناقض المعرفى . فالفيلسوف يسائل المتهم الذى هو ذاته أو عقله عن المتناقضات الذهنية التى قد يكون حملها فى ذهنه أو تسربت إلى حصيلته المعرفية ، فاعترف بصحة الشىء ونقيضه وهو فى غفلة من أمره . المحور الثانى — مايمكن أن يكون الفيلسوف قد تقبله واقتنع به بغير أن يكون مدعما بالبراهين الكافية . فبينما تكون الأشياء بادية الاقناع لحظة تقبلها ، فانها تبدو عارية من الوجاهة وعلى غير أساس كاف لدى تسليط شعاع النقد عليها . المحور الثالث — هو التقبل الايحائى العاطفى بغير تقديم براهين على الاطلاق . فالفيلسوف يعنف نفسه على أنه قد تقبل جانبا معرفيا نتيجة الاستمالة والتأثر بالايحاء من جانب الكبار منذ نعومة الأظفار حتى الوقت الراهن . المحور الرابع — ماسبق للفيلسوف أن رفضه من أفكار الآخرين لا لشىء الا للعناد أو الكبرياء أو رغبة فى عدم الاعتراف لغيره بالتفكير السديد . المحور الخامس — النقص المعرفى وترك جوانب معرفية كانت أولى باهتمامه وجديرة بعنايته ، ولكنه أغفلها أو لم يولها الاهتمام الجديرة به .

وواضح فى كلا المنهجين : المنهج المسبق من جهة ، والمنهج التلوى من جهة أخرى مايستعين به كل من الدارس فى المنهج الأول ، ومايستعين به الفيلسوف فى المنهج الثانى من تفكير نقدى شكى . فبالنسبة للدارس بازاء المنهج المسبق ، فانه يعمد إلى مدارسة المناهج الموجودة ويأخذ فى الانتقاء من بينها . ولعلنا نتوه هنا إلى موقف يجب أن يتذرع به الدارسون وهو عدم أخذهم بأى منهج من مناهج البحث على علاته ، بل يجب أن يحاول الدارس تحديد ملامح المنهج الذى يأخذ به فكره ودراسته بحيث لايكون موقفه موقف

المتقبل لأى منهج برمته بغير تعديل أو إضافة أو حذف . فعلى الدارس فى أى فرع من فروع المعرفة أن يتصفح المناهج التى سبق لغيره الأخذ بها والاستعانة بذرائعها فى دراسته ، ولكن ذلك التصفح لايعنى التقبل الامتصاصى أو الايمان إيمانا أعمى بالمنهج الذى يروق له ، بل إن هذا الموقف الاعجابى معناه أن يقبل الدارس على ذلك المنهج لكى يدخل عليه التعديلات التى تناسب الدراسة التى يقوم بها . فمن حيث المبدأ فاننا نعتقد أنه لايوجد منهج مقدس لايجوز نقد جوانبه ، بل إن أى منهج يصلح للأخذ به ، إنما يكون مثل ذلك الأخذ أخذا نسبيا وليس أخذا مطلقا . ومن ثم فان على الدارس أن يتناول المنهج العلمى الذى يروق له كما يتناول الصانع الخامة لكى يصنعها . فما يتناوله الدارس من مناهج يستعين بها إنما يستحيل على يديه إلى منهج خاص به وقد تم تصنيعه بالتعديل والحذف والإضافة .

وواضح اذن أن الدارس فى هذا الموقف بازاء المنهج إنما يكون قد تذرع بالشك فى الموجود وليس موقف المتشرب والمتقبل والمستسلم لما يجده أو حتى لما يروقه ويستهويه . وإذا كان هذا هو حال الدارس فى أى مجال معرفى ، وقد استعان بالمنهج المسبق ، فانه بالأولى حال الفيلسوف الذى يعقد محاكمة لعقله أمام نفسه . فلا شك أن الفيلسوف الذى يأخذ عقله بهذا المنهج التلوى إنما يكون بالفعل قد اتخذ موقفا شكيا من نفسه . ولكن السؤال الجدير بالطرح فى هذا المقام هو ما إذا كان الفيلسوف يسدل ستار الشك على كل فكره أم أنه يشك فى جوانب معينة من تفكيره . لقد أجاب ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) عن هذا السؤال بأنه استطاع أن يشك فى كل شيء عدا قدرته على الشك نفسه . فهو اذن يرد الثقة إلى عقله مؤكدا أنه كائن عاقل ، بل هو فى أعلى مرتبة من مراتب الكائنات الدنيوية بحيث يستطيع الشك من جهة والحكم العقلى الصحيح والمنطق الخالص من جهة أخرى . فايمان ديكارت بعقله كان إيمانا مطلقا . ولعله كان بذلك أفلاطونيا . ومن المعروف أن أفلاطون قد شك فى العقل الذى غشته الأشياء المادية ، ولكنه فى نفس الوقت آمن بالعقل الذى إذا ما سبر أغوار تلك الغشاوة المادية بالتأمل والخلوص

من براثن المادة ، فانه يستطيع إذن بلوغ الحقائق المطلقة الأزلية والأبدية فى نفس الوقت . على أن الفارق بين أفلاطون وبين ديكارت يتبدى فى غاية التفكير . فبينما يجعل أفلاطون غاية التفكير الوصول إلى حال النقاوة الفكرية التى كان عليها الإنسان قبل السقوط من عالم المثل ، فان ديكارت يجعل التفكير من أجل الوصول إلى الحقائق الدنيوية الموجودة بالفعل هنا والآن ، وليس منذ الأزل وإلى الأبد . صحيح أن ديكارت توصل إلى معرفة الله بالعقل ولكن هذه المرحلة الميتافيزيقية من تفكيره كانت وسيلة لغاية دنيوية آنية تتعلق بالدنيا وليس بالآخرة .

وواضح أن ديكارت قد وضع أساس الفلسفة الحديثة التى تنبنى على أساس تنقية العقل من الشوائب التى علقت به ، أو بتعبير آخر توفير الحرية الفكرية للإنسان ، وذلك عن طريق التخلص من الشكائم والأصفاد التى تعوقه عن الوقوف على الحقائق . فالشك الفلسفى التلوى إذن هو الطريق إلى الحرية العقلية .

الشك والعادات العقلية :

يولد الطفل وهو خال من جميع العادات ، اللهم إلا إذا اعتقدنا أن الغرائز هى عادات غير فردية ، بل هى عادات اكتسبها النوع البشرى عبر ملايين السنين من تطور تكوينه وتبلور هذا التكوين . وبعد أن يضرب الطفل بسهم فى النمو ، فانه يبدأ فى التلبس بمجموعة من أنماط السلوك بحيث يأتيها وهو فى حالة شبه لاشعورية وكأنه مسوق إلى إتيانها سوقا . ولقد دأب الكتاب المتباينون على قصر استخدام كلمة عادة على العادات الحركية . وهذا فى الواقع مجحف بالحقيقة . ذلك أن العادات الحركية ليست سوى فئة واحدة من العادات التى يمكن أن يتلبس بها الإنسان ، وهى خمس فئات من العادات هى العادات الحركية والعادات الوجدانية الانفعالية والعادات اللغوية الكلامية والكتابية وجميع وسائل التعبير والابانة التعبيرية سواء كان التعبير هو تعبير عن معنى أم أنه تعبير عن احساس والعادات العقلية وأخيراً العادات الاجتماعية .

والواقع أن تتبع مايبين عنه المرء بكلامه أو كتابته أو فيما يقوم به من أعمال فنية يمكن أن يقف المتأمل على ماسبق أن تلبس به صاحب التعبير من عادات وجدانية وعادات عقلية . وإذا نحن أجتزأنا بالكلام فحسب نتفحصه فإننا نستطيع أن نستكشف ما يخبئه التعبير الكلامى من عادات عقلية . ويمكن القول بصفة عامة ، إن الناس ينقسمون إلى فئتين أساسيتين : فئة النمطيين ، وفئةالمجددين. والواحد من فئة النمطيين يغلق عقله على مجموعة من العادات العقلية أو قل القوالب العقلية التى لايحيد عنها قيد أنملة . أما أفراد الفئة الثانية فانهم وان كانوا يتمرسون بمجموعة من العادات العقلية ، فانهم يفتحون المجال أمامهم لاكتساب عادات عقلية جديدة ولتعديل ماسبق لهم أن اكتسبوه من عادات عقلية .

ونستطيع أن نسمى النزعة التى ينحو اليها أفراد الفئة الأولى بالنزعة إلى القولبة العقلية . فهم يؤمنون بمجموعة محدودة من العادات العقلية لايريمون عنها ، بل إنهم يحاربون غيرهم إن هم لم يأخذوا بما يأخذون به ، وان لم يصبوا عقولهم وكلامهم فى تلك القوالب العقلية اللغوية . ولعلنا نقول أكثر من هذا إن أفراد الفئة الأولىلايجعلون منالعادات العقلية قوالبها الرئيسية،بليجعلون من الكلام نفسه قوالب ينصب فيها الفكر برمته . من هنا فان الشخص القولبى يسد أمام نفسه وأمام غيره حرية نمو العادات العقلية أو تعديلها ، وذلك بأن يركز عاداته العقلية فيما يسجن نفسه فى إطاره من ألفاظ وعبارات .

أما أفراد الفئة الثانية — وهم كما قلنا فئة المجددين فانهم لايجعلون من اللغة سيداً يخضعون له ، بل إنهم يجعلون من اللغة خادما يخضعونه من أجل تحقيق الأهداف العقلية المتجددة لديهم . فبينما يرتكز أفراد الفئة القولبية على الكلام يجعلون منه سجنا يحبسون أنفسهم وغيرهم فيه ، فان أفراد فئة المجددين يجعلون اللغة مجرد أداة للفكر يستغلها بمرونة شديدة بحيث يتسنى لهم العثور على ألفاظ ومصطلحات وعبارات جديدة نتيجة التوسع الذهنى المستمر .

ونستطيع القول بأن فئة القولبة الفكرية اللغوية لايفتحون أمام عقولهم فسحة من الاختيارات ، بل هم يغلقون عقولهم بحيث لاتتسع لأى اختيارات

جديدة . وكيف يختارون وقد اكتفوا إلى الأبد بمجموعة محدودة من المفاهيم تكبل اجتهاداتهم العقلية ، وبمجموعة محدودة من الكلمات أو الألفاظ والعبارات يصفدون بها قدرتهم التعبيرية التى كانت لتتسع لولاها للعديد الجديد منها ؟ وعلى النقيض من ذلك فان فئة المجددين يجعلون أمامهم الباب مفتوحا لكسب عادات عقلية جديدة ، بل وعادات لغوية متجددة لتلبية المطالب الذهنية المتدفقة أبدا .

ومعنى هذا أن فئة القولبة لاتنحو إلى الشك ، بل تنحو إلى الاعتقاد بل وإلى الخضوع والخنوع الذهنيين ، بينما ينحو فريق المجددين إلى الشك العقلى بل وأيضاً الشك اللغوى ، وذلك لأنهم يقومون بصفة دائبة بتصفح العديد من الاختيارات العقلية واللغوية المتاحة أمامهم والمتجددة باستمرار فى أنظارهم . فهم يختارون ، أو بتعبير آخر يشكون فيما يقومون باختياره من ممارسات عقلية ومن تخير متجدد للاستخدامات اللغوية .

بيد أننا نستطيع القول مع هذا إن فئة المجددين لايكتفون بالتجديد دون إحالة مايكتسبونه من أفكار ولغة إلى عادات عقلية وعادات لغوية ، بل إنهم يفعلون ذلك . فهم يجمعون بين شيئين يبدو أن بينهما تناقضاً ظاهرياً . الشىء الأول — هو التجديد ، والشىء الثانى هو إحالة الجديد المكتسب إلى عادات عقلية وعادات لغوية . والواقع أن العادات ليست بصفة عامة قوالب سلوكية لا فكاك من إسارها ، ولاسبيل إلى تعديلها ، بل إن من المؤكد أن العادة أيا كانت سواء كانت عادة حركية أم عادة وجدانية انفعالية أم عادة عقلية أم عادة تعبيرية أمعادة اجتماعية —إنما تكون مسيطرة على المرء ولكن سيطرتها ليست سيطرة مطلقة ، بل هى سيطرة نسبية بحيث يكون هناك مجال واسع للتعديل والحذف والابدال . فبمستطاع المرء أن يعدل فيما سبق له اكتسابه من عادات أيا كان نوع تلك العادات ، وكذا يكون بمستطاعه أن يحذفها تماما أو أن يبدل غيرها بها ، فيحل عادة جديدة محل عادة قديمة . عمد علماء النفس إلى التمييز بين العادات وبين ما أطلقوا عليه اسم الأفعال القهرية أو الوسوسة الأدائية .

ولقد سبق أن ألمعنا إلى مايعنيه علماء النفس بالأفعال القهرية . فالعادة وإن كانت سلوكا شبه لاشعورى ، فان الباب يظل مفتوحا لتطويعها وتليينها وادخال عناصر التغيير عليها . أما الفعل القهرى فهو أداء لايمكن علاجه إلا بالوسائل العلاجية لأنه مرض نفسى يتبدى فى مجموعة من الأعراض العصابية من بينها داء الوسوسة الأدائية التى تسمى بالفعل القهرى .

ولعلنا نسأل بعد هذا عن السمات التى يتصف بها المنهج الشكى لدى المجددين بازاء ما يتمرسون به من عادات عقلية . إننا نستطيع أن نلخص تلك السمات فيما يلى :

أولا — يعمد المجددون إلى مقارنة الموجود لديهم من عادات عقلية ولغوية قديمة بما يمكن اكتسابه من عادات عقلية ولغوية جديدة . والمقارنة فيما بين الموجود والممكن يجعل أمامهم خيارات لاعداد لها ، ومن ثم فان استمرارهم فى تلك المقارنة والتقييم بين المكتسب والممكن يجعلهم دائبين على تعديل ما سبق لهم كسبه من عادات عقلية .

ثانيا — يضيف المجددون إلى ماسبق لهم اكتسابه من عادات عقلية عادات جديدة مستحدثة . ذلك أن من أهم مايتصف به المجددون هو القدرة على التطور والتقدم فى معارج الامكانيات العقلية ومن بينها توسيع آفاق العادات وإضافة الجديد إلى القديم .

ثالثا — بيدأن مايكتسبه المجددون من عادات جديدة لايصل اليهم كماهو ولايظل منفصلا أو متمايزا من العادات القديمة التى سبق لهم كسبها ، بل إنه يدخل فى إطار تفاعلى شديد . والواقع أن مثل ذلك التفاعل هو العمود الفقرى لتكامل العادات العقلية فيما بينها . ولقد ظن البعض خطأ أن كسب المرء لمجموعة من العادات الجديدة معناه شيء من شيئين : إما أن تظل العادات الجديدة مجاورة ومتعايشة جنبا لجنب مع العادات القديمة ، وإما أنها تتعارك معها بحيث تعمل على إبعادها تماما من نطاق الشخصية . والواقع غير ذلك إذ أن العادات الجديدة تتفاعل مع العادات القديمة بحيث يتأتى عن ذلك التفاعل نشوء قوام جديد للعادات لدى المرء . وهذا التفاعل يتأكد فى المبدأ التجديدى

لدى الشخصية المجددة . وهذا يفرق فيما بين الشخص المجدد والشخص المتقولب ، إذ أننا بينما نجد أن المجدد يتفاعل مع الجديد بما لديه من عادات قديمة ، فان المتقولب لايسمح بنشوء مثل ذلك التفاعل الخبرى . فما يتسنى للمرء اكتسابه يظل لدى المتقولب سيداً عليه بحيث لايسمح لأى جديد بالدخول إلى نطاق الشخصية والتفاعل مع تلك العادات الموجودة من قبل بها .

ونذكر أخيراً أن الشك النقدى الذى نعنيه هو ذلك الشك الانتقائى ، أعنى الشك الايجابى الذى ينتهى بانتقاء شىء من بين أشياء ، أو قل تفاعل شىء بأشياء والوصول نتيجة ذلك التفاعل إلى الجديد . على أن على المرء أن يختار لنفسه فلسفة أو فريقا من الفريقين ينضم إليه بعقله ووجدانه ثم يأخذ فى تدريب نفسه على أسلوب الفئة التى اختارها للسير فى ركابها . فاذا هو اختار لنفسه أن يكون ضمن فئة المتقولبين فان عليه أن يأخذ نفسه بمجموعة محدودة من العادات العقلية . وعلى عكس ذلك إذا ما اختار لنفسه أن يكون فى فئة المجددين ، إذن يكون عليه أن يتذرع بالشك الانتقائى بازاء مايكتسبه من عادات عقلية متباينة .

الفصل الثالث

الشك والصحة النفسية

الشك عند العقلاء :

يعتبر الشك – كأى وظيفة ذهنية – ظاهرة صحية ودلالة على تمتع المرء بالعقل إذا ما مارسه بغير إفراط وبغير تفريط . فاذا ما مارس المرء الشك بإفراط فصار يشك فى أى موقف أو فى أى تصرف أو فى أى فكرة مما لا يستوجب الشك فيه ، فانه يعتبر شخصا غير عاقل . وكذا يقال نفس الشىء بازاء الشخص الذى لاتساوره الشكوك فى المواقف أو التصرفات أو الأفكار التى تستوجب الانتحاء إلى الشك وعدم التصديق . فالإمع – وهو الشخص المصاب بداء الامعية أى التصديق الساذج بغير إعمال الفكر وبغير لجوء إلى النقد – إنما هو شخص غير متمتع بالصحة النفسية الجيدة .

ولعلنا نبادر إلى القول بأن الصحة النفسية إما أن تتعلق بقطاع الجسم المتمثل فى الأعصاب وعلى رأسها المخ والغدد الصماء بما تفرزه من هورمونات واما أن تتعلق بالعقل والتفكير المنطقى ، واما أن تتعلق بالوجدان وما يتأتى عن تبلوره حول موضوعات معينة من عواطف ثابتة نسبيا . وفى ضوء هذا التقسيم المنهجى العام يمكن أن نقول إن شرط التمتع بالاعتدال فى الشك هو أيضاً وفى نفس الوقت التمتع بالصحة العصبية والصحة العقلية والصحة الوجدانية السليمة من جهة ، والتمتع بتربية جيدة من جهة أخرى . ذلك أن الخروج عن إطار السوية يمكن أن يتأتى إما عن مؤثر داخلى أصاب بنية المرء البيولوجية أو العقلية أو الوجدانية ، واما أن تلك البنية الثلاثية تكون سليمة ولكن طبعها على مجموعة من العادات العقلية يكون هو السبب فى الالتواء والخروج عن إطار السوية .

ونحن لانقصر استخدام لفظ « بنية » على الجانب البيولوجى من الشخصية بل نتوسع فى هذا الاستخدام لكى نضمنه بنيتين أخريين هما البنية العقلية والبنية الوجدانية . ذلك أن العقل والوجدان ليسا مجرد انعكاسين — كما يظن البعض — لواقع بيولوجى كما ينعكس الضوء على المرآة ، بل انهما كيانان يتكونان منذ الطفولة الباكرة بحيث يصير لكل منهما كيان قائم بذاته . وشاهد ذلك أنك لاتفكر فى أى أمر من الأمور بداءة ، بل إنك تفكر بما صار لديك من جهاز عقلى وجهاز وجدانى متمايز عما صار لغيرك من اشخاص . وعلى الرغم من أننا لانزعم أن جهاز العقل وجهاز الوجدان شىء محسوس ولانزعم فى نفس الوقت بأن العقل والوجدان مفارقان للجسم ويمكن استغناؤهما عنه ، فاننا نعتقد أن لكل منهما كياناً متمايزاً قائماً بذاته . والشأن هنا كالشأن بالنسبة للضوء المنبعث من المصباح الكهربى . فذلك الضوء له كيان مستقل عن كيان الكهرباء التى يمكن أن تتبدى فى أشكال متباينة كالحرارة والحركة وغير ذلك من أشكال .

ولقد نقول أكثر من هذا إن المسألة أقرب ما تكون إلى المركب الكيميائى الذى يتكون من عناصر مباينة فى خصائصها ومظهرها لخصائصه ومظهره : فاذا شبهنا المقومات البيولوجية الجسمية بغازين مثل الأوكسجين والأيدروجين فاننا نشبه الجهازين العقلى والوجدانى بالماء الذى هو فى الحقيقة ليس سوى هذين الغازين وقد تم لهما التفاعل بعضهما ببعض والاتحاد بعضهما ببعض . فعلى الرغم من أن الماء لايستمد شيئا خارجيا عن نطاق هذين الغازين ، فاننا لانستطيع أن نزعم أن الماء هو مجرد مجموع أو مجرد محصلة هذين الغازين . وهكذا نجد أن التفاعل الكيميائى قد أفضى إلى كيان جديد هو كيان الماء . وعلى نفس المنوال نقول إن ثمة مركبا عقليا وآخر وجدانيا يتأتيان عن تفاعلات معينة بحيث يصير للمرء عقل مركب أشد التركيب ووجدان مركب أو قل بتعبير أصبح مجموعة من العواطف المركبة التى تتمايز — كما يتمايز العقل — من تلك المقومات البيولوجية التى انبثقا عنها .

وبعد هذا الاستطراد الضرورى لإيضاح كيف أن لدى الواحد منا جهازين يتأثران بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر بالحالة الجسمية ، فاننا نقول إن الحالة الشكية التى يكون عليها المرء ، إنما تكون متأثرة بكل من الجسم والعقل والجهاز الوجدانى وهى كما اتضح لنا من الاستطراد السابق بمثابة كيانات متمايزة ولكل منها قوامه الخاص به .

وحرى بنا أن نعرض بعد هذا للأسس التى يقوم عليها الشك عند العقلاء وشروط الشك السوى الذى يتمتع به الأشخاص الحاصلون على صحة نفسية جيدة . وتتلخص الأسس أو الشروط فيما يلى :

أولا — اعتماد الشك على واقع موضوعى خارج إطار ذات الشخص الشاك . وبتعبير آخر يجب أن يجد الشاك فى الموقف مايجعله يشك . خذ مثالا لذلك ما ينحو اليه الشخص من شك فى ورقة مالية تعرض عليه ، أو فى صحة مشروع يعرض عليه للمشاركة فيه . إن الشك الذى ينحو إليه العاقل فى مثل تلك الحالات لابد أن يستند إلى واقع خارجى موضوعى . فمثلا بالنسبة للأوراق المالية ربما يجد فيها شيئا شاذا عما ألف أن يراه فيها ، وربما يجد فى طريقة أصحاب المشروع من إلحاح أو من علامات وامارات ترتسم على وجوههم أو تظهر فى نظراتهم مايجعله يشك فى صحة المشروع أو فى شرعيته .

ثانيا — عدم المبالغة فى الشك . فاذا وجدنا شخصا يتناول كل عملة مهما صغرت قيمتها بالفحص والشك بحيث لايقبل التعامل مع أحد ماليا إلا بعد فحص كل قرش فحصا جيدا مشوبا بالشك ، فاننا نشك عندئذ فى سوية مثل هذا الشك . فالشك السوى يجب أن يكون معتدلا بغير مبالغة .

ثالثا — يجب أن يكون الشك عقليا وليس وجدانيا . والعقل مرتبط بالواقع الخارجى ، بينما يرتبط الوجدان بذات الشخص . فاذا كان الشك مجرد تفكير منطقى خال من الحالات الوجدانية ، كان بالتالى شكا موضوعيا بعيدا عن الذات . أما إذا اصطبغ الشك بالوجدان والانفعال فانه يكون إذن إسقاطا لما يعتمل بدخيلة المرء من اعوجاجات وانحرافات نفسية .

رابعا — يجب أن يكون الشك وظيفيا وليس شكا لذات الشك . فاذا كان الشك مجرد وظيفة تنتهى بانتهاء الموقف ، فانه يكون إذن شكا موظفا من جانب المرء بازاء الموقف . أما إذا أستحال الشك إلى غاية تقصد لذاتها ، فانه يكون إذن دلالة على مرض نفسى ألم بالمرء .

خامسا — وهذا الشرط السابق يرتبط بهذا الشرط الأخير وهو أن يكون الشك متخصصاً وليس عاما . ونقصد بالتخصص هنا أن ينصب الشك على حالة واحدة أو على شخص واحد أو على فكرة واحدة أو على نوعية واحدة . أما إذا انسحب الشك على جميع الحالات أو الأشخاص أو الأفكار أو النوعيات ، فانه يستحق أن ينعت إذن بأنه شك مرضى . ومن ذلك الشك المرضى أن يشك المرء فى ذمة جميع من يقابلهم من أشخاص معتقداً أنهم لصوص أو يريدون النصب والاحتيال أو التآمر عليه أو نحو ذلك من شك يتخذ صفة العمومية بازاء جميع الناس . وكذا الحال بالنسبة للشخص الذى يشك فى صحة جميع الآراء أو جميع الكلام الذى يترامى إلى سمعه أو يقوم بقراءته فى صحيفة أو كتاب . أن شكه ذاك العام ينعت باللاسوية وبالانحراف عن خط العقل السديد .

وجدير بنا بعد أن هذا أن نعرض بسرعة لأهمية الشك السوى بالنسبة للفرد والمجتمع على السواء :

أولا — إن الشك وسيلة لازبة للنمو العقلى . وقد سبق أن قلنا إن الشك هو الوسيلة الوحيدة لاحراز المرء خلال مراحل نموه المتعاقبة للنمو العقلى المطرد والسوى فى نفس الوقت .

ثانيا — يعمل الشك على تنقية الفكر مما يكون قد شابه من أفكار أو معتقدات خاطئة ، كما أنه يعمل على إحلال أفكار ومعتقدات أفضل محل الأفكار والمعتقدات الأقل قيمة أو الأقل فاعلية .

ثالثا — يعد الشك السوى الوسيلة الوحيدة التى تحرز بها الإنسانية تقدما فى مضامير الحضارة المتباينة . ويكفى أن نقول إن العلم الوضعى برمته لايقوم

على أساس التسليم المسبق بالمعتقدات أو بالنتائج ، بل هو يتذرع بالشك العلمى الوظيفى من أجل التوصل إلى نتائج أفضل ولاحراز منجزات أنجع وأغزر .

رابعا — ان عملية التقييم برمتها وبآفاقها الواسعة فى شتى مجالات الحياة إنما ترتكز بالدرجة الأولى على الشك الوظيفى . فالغث والسمين ، والخير والشر ، والنافع والضار ، إلى غير ذلك من ثنائيات تنبنى أساسا على الشك والتقدير الموضوعى غير المسبق ، إنما تشكل الأساس فى الحضارة الإنسانية

خامسا — إن الشك السوى يشكل قواما رئيسيا فى العلاقات الاجتماعية . فنحن لانسلم قيادنا لكل من هب ودب ، بل نثق فى الآخرين مع الاستمرار فى الشك الوظيفى فيهم على نحو ما من الأنحاء .

الاتزان الهورمونى والشك :

لقد وجد العلماء والمفكرون منذ عهد بعيد أن ثمة صلة وثيقة بين الحالة الجسمية من جهة ، وبين الحالة النفسية من جهة أخرى . بيد أن هناك جوانب جسمية معينة يكون لها تأثير أكبر فى الناحية النفسية من جوانب جسمية أخرى . وعلى رأس تلك الجوانب الجسمية ذات الفاعلية والتأثير القوى فى الناحية النفسية ماكان متعلقاً بالأعصاب وبالمخ بصفة خاصة باعتبار أنه المهيمن على جميع أعصاب الجسم ، وما كان متعلقا بالغدد الصماء وماتفرزه من هورمونات فى الدم مباشرة . وهناك بعض الأمراض التى تصيب الإنسان فتقعده عن مزاولة مناشطه اليومية التى دأب على ممارستها ، ولكنها مع ذلك لاتؤثر فى حالته النفسية تأثيرا قويا ، بل ربما تؤثر فيه تأثيرا إيجابيا . وشاهد ذلك ما تؤثر به بعض العاهات وبعض الاصابات وبعض الأمراض الجسمية . فهناك عباقرة يقررون فى مذكراتهم — أو يقرر عنهم غيرهم — بأن الفضل فى إبراز عبقرياتهم انما يرجع إلى ما أصيبوا به من عاهات أو ماابتلوا به من أمراض أقعدتهم عن مشاركة من حولهم فى الأمور التى تعمل على تشتيت الفكر واللهو والدعة ، وقد نحت بهم إلى الابتكار أو الإختراع أو التفكير العميق .

ومن الحقائق الثابتة أن ثمة علاقة بين الاتزان الهورمونى – أعنى كفاية كمية كل هورمون من الهورمونات المتباينة التى تفرزها الغدد الصماء بالقدر المناسب من جهة ، والحفاظ على النسب بين كميات الهورمونات بعضها إلى بعض من جهة أخرى – وبين الأتزان النفسى . وواضح أن من ضمن مظاهر الاتزان النفسى اتخاذ الموقف الوسط بين الامعية (التصديق الساذج لكل ما يقال) وبين الإنكار لكل مايقال واتخاذ موقف المتشكك فى كل شىء أو الاصابة بالشكوك المرضية .

والواقع أن المعالجين النفسانيين يعمدون إلى قرع ثلاثة أبواب فى العلاج النفسى ، أو بتعبير أدق إنهم ينتحون إلى الباب المناسب من الأبواب الثلاثة التى نعرض لها هنا : الأول ما كان متصلا بالمخ والأعصاب ، والثانى ما كان متصلا بالغدد والاتزان الهورمونى ، والثالث هو العلاج بالايحاء والتأثير فى الجهاز العقلى والوجدانى وطريقة التفكير أو طريقة النظر إلى الحياة وتغيير بيئة المريض نفسيا أو إبعاد بعض الأفراد عنه وإضافة أفراد جدد إلى حياته ونحو ذلك من عوامل تأثير تتعلق بالعلاج بالعلاقات والكلمات .

وفى حالات كثيرة يجد المعالجون النفسانيون أن حالات الشك غير السوية ترتبط ارتباطا مباشرا بنقص الاتزان الهورمونى .

ولقد لاحظ الكثيرون – سواء كانوا أطباء معالجين أم أصحاب المرضى – أنه بعد أن يعالج المريض بالهورمونات لسبب أو آخر ، فان ثمة آثارا واضحة تتبدى فى سلوكه . وأكثر من هذا فان المريض المصاب بزيادة فى إفراز غدة كالغدة الدرقية ، إنما يكون مصابا فى نفس الوقت بالقلق وبالتشكك فى كل مايحيط به من أشياء وأشخاص . وتنعدم ثقته فى الحاضر والمستقبل جميعا . ومن جهة أخرى مقابلة فقد لوحظ أن أولئك الأشخاص المصابين ببلادة فى إفراز غددهم الدرقية لهورمون الثيروكسين ، انما يكونون ميالين إلى الامعية ، فيسهل إقناعهم وقيادتهم وبث الأفكار فيهم بسهولة .

ومن المؤكد أن ثمة علاقة وثيقة فيما بين مانلاحظه لدى المراهق والمراهقة من تشكك فيما سبق لهما تصديقه والأخذ به من أفكار ومعتقدات بثها فيهما

الكبار من حولها أيام الطفولة وبين التغيرات الجسمية وعلى رأسها تلك التغيرات الهورمونية التى تواكب مرحلة المراهقة حيث تنشط الغدد الجنسية الداخلية فتقوم بافراز هورمونات بالدم لم تكن تفرز — على الأقل بنفس القدر — خلال الطفولة .

ومن المؤكد أيضاً أن مايسمى بسن اليأس الذى تمر بها المرأة عندما تبلغ حوالى الخامسة والأربعين أو الخمسين وتنقطع لديها الدورة الشهرية ، وما يصاحب ذلك الانقطاع من تغيرات جنسية داخلية تتعلق بالنقص فى إفراز الهورمونات الأنثية ، وما يصاحب ذلك من تغيرات نفسية ومن تغيرات فى النظرة إلى الحياة وفى تفسير ما يترامى إلى سمعها من كلام أو ما تشاهده من تصرفات ، انما يرجع فى الواقع إلى فقدان المرأة فى تلك السن لما كانت تتمتع به قبل ذلك من اتزان هورمونى .

وفى الحالات التى يصاب فيها الرجل أو المرأة بالعنة — أى الاصابة بمرض يقعدهما عن ممارسة الحياة الجنسية الزوجية على نحو سوى ، — حيث يصير الرجل عنينا والمرأة عنينة فان الواحدمنهما يبدأ فى الشك فى سلوك الآخر. وقد تصل به الدرجة فى الشك إلى حد الاعتقاد بأنه يخونه مع أفراد من الجنس المقابل من المعارف أو الجيران أو الأصدقاء أو الأقرباء .

وواضح أن العنة التى يصاب بها الرجل أو المرأة ، انما تعود فى الغالب إلى فقدان الاتزان الهورمونى . وهناك حالات ليست بالنادرة تزداد فيها الهورمونات الأنثوية عند الرجل أو تزداد فيها الهورمونات الذكرية عند المرأة ، فيفقد الرجل ميلهجنسيا إلى النساء ، كما تفقد المرأة ميلها إلى الرجال. وأكثر من هذا فان الرجل من هذه الفئة يحس بميل جنسى مثلى ، كما تميل المرأة من هذه الفئة إلى الجنسية المثلية أيضاً . ومن الحقائق البيولوجية المعروفة أن لدى كل من الرجل والمرأة هورمونات ذكرية وأنثية ، ولكن الهرمونات الذكرية تكونهى الغالبةوالسائدة لدىالرجلالعادى، بينما تكون الهورمونات الأنثويةهى الغالبة والسائدة لدىالمرأة العادية . فاذاما وقع خلل فى

الاتزان الهورمونى الجنسى ، نتج عن ذلك آثار سلوكية ظاهرة وباطنة ، ولا تقتصر تلك الآثار على البادى من السلوك الظاهرى ، بل تتجه أيضاً تلك الآثار إلى الأفكار والعواطف جميعاً .

وهناك بعض تفسيرات للعبقرية وماتتضمنه من شك فى الواقع القائم والبحث عن واقع جديد يحله العبقرى محل الواقع القائم بما يكون العبقرى مصابا به من عدم اتزان هورمونى . فلقد يكون العبقرى مصابا بافراط فى إفراز بعض الهورمونات ، كما أنه قد يكون مصابا بالنقص الكبير فى إفراز بعض الهورمونات الأخرى . من ذلك مثلا ما يقال عن الكاتبة جورج صاند التى كانت تميل إلى تقليد أفراد جنس الذكور بما فى ذلك الاسم نفسه ، حيث أنها نبذت أسمها الأصلى وصارت تلقب نفسها باسم جورج صاند ، بل انها كانت تتخذ الأصدقاء لها من الرجال وتجالسهم . وعلى نقيض ذلك كان أوسكار وايلد الشاعر والروائى الأيرلندى الشهير . لقد كان غريب الأطوار تماما . فقد كان شعره طويلا كشعر النساء ، كما كان يكره سلوك الرجال ، وقد حكم عليه سنة ١٨٩٥ بالسجن سنتين لجريمة أخلاقية تتعلق بالشذوذ الجنسى . ومن المؤكد أنه كان مصابا باضطراب فى الهورمونات .

ومن العباقرة الذين ترتبط عبقريتهم بالاضطرابات فى قوامهم البيولوجى وبخاصة فيما يتعلق بافراز الهورمونات– الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو. لقد كانت حياته الجنسية مضطربة وكان فى نفس الوقت يظن أن كل إنسان فى الوجود منافس له حتى إنه كان يخشى البرق والرعد ويظن أن حدوثهما موجه ضده ، وهو نوع من انتقام السماء ، وكان لايأكل الا الطعام الذى يجهزه بنفسه لأنه كان يخشى إذا أكل طعام طاهيته أن يكون أحد منافسيه قد أغرى الطاهية ودس له السم فيه . ويكفى أن تقرأ أية صفحة من كتابه « الاعترافات » لتدرك لتوك أن روسو كان إنساناً أسيراً لأحاسيسه الوجدانية المضطربة ، وكان اضطراب غدده وما تبع ذلك من سوء صحته المزمن مؤثرا فى شكوكه المرضية .

وإذا كان هذا هو حال العباقرة ، فانه بالأولى حال المجانين (١) . والواقع أن الفرق بين العبقرى والمجنون فى رأينا هو فرق فى المنفذ والصياغة للانفعالات والأفكار . فالعبقرى شخص استطاع أن يصوغ عواطفه وأفكاره فى صيغ معقولة وفى سلوك يعتبر أعلى من سلوك الأشخاص العاديين ، بينما ينظر إلى المجنون باعتبار أن صيغه فى مستوى منحط عن صيغ الشخص العادى. ولكن لاشك أن الكثير من حالات الجنون ترتبط بالاضطراب الهورمونى . ولكن السؤال الذى يحير الأطباء النفسانيين هو ما إذا كانت الاضطرابات الهورمونية هى المسئولة عن الجنون، أم أن الجنون هو المسئول عن الأضطرابات الهورمونية . صحيح هناك حالات لاتحتمل الشك وتكون معزوة بالتأكيد إلى الاضطرابات التى أصابت غدة صماء أو أكثر ، ولكن هناك حالات أخرى محيرة حيث لايمكن تحديد السبب والنتيجة . فالشخص إذا غضب مثلا زادت افرازات الأدرنالين لديه . ولكن من جهة أخرى إذا زادت نسبة الأدرنالين لأسباب عضوية ، فان الشخص المصاب يكون غضوبا وغير منسجم مع واقعه الاجتماعى .

حالة الجهاز العصبى والشك :

سبق أن قلنا إن الجهاز العصبى المركزى — وعلى رأسه المخ — يسيطر على الشخصية برمتها ، بل إن هذا الجهاز هو المشرف على الجهاز العصبى السمبتاوى الذى يقوم بتنظيم أجهزة الجسم الداخلية بطريقة لاشعورية بما فى ذلك الغدد الصماء التى تقوم بافراز الهورمونات فى الدم مباشرة .

والواقع أن المخ البشرى — بما يتضمنه من أجهزة معقدة — يعد المسئول عن جميع المناشط الذهنية والعاطفية ويقوم بتنظيمها وتوجيهها . وهناك عمليتان أساسيتان يضطلع بها المخ . العملية الأولى هى عملية التأثرية التقبلية excitatory والعمليــة الثانية هى العمليــة الكفية أو المنعية Inhibitory . فبمقتضى العملية الأولى يكون الإنسان قابلا لاستقبال المثيرات الخارجية والتأثر بها ،

(١) انظر كتاب «العبقرية والجنون» للمؤلف — مكتبة غريب بالفجالة — القاهرة.

وبمقتضى العملية الثانية يكون الإنسان فى موقف الرافض أو فى موقف المعارض للتأثر والاستجابة للمثيرات الخارجية .

ولعلنا نترجم هذا مرة أخرى بأن نقول إن العملية الأولى تؤيد الموقف الاقتناعى الايمانى ، بينما تؤيد العملية الثانية الموقف الشكى الرفضى . ذلك أن المخ وهو يضطلع بالعملية الأولى يخضع ويتقبل ، بينما يكون فى العملية الثانية مقاوما للخضوع والتقبل .

ولنا أن نقول إن تحقيق التوازن بين هاتين العمليتين يؤدى إلى نشوء موقف ثالث هو مانسميه بالموقف التخيرى أو الشكى . ولقد سبق لنا أن عرفنا الشك بأنه القدرة على الانتقاء من بين عدة اختيارات متاحة فى الموقف الواحد . فالشك — حسب تعريفنا السابق له — ليس رفضا وليس تقبلا ، بل هو المنزلة بين منزلتين ، أو هو الموقف البينى الواقع بين الرفض والتقبل أو هو مرحلة التردد أو مرحلة التبصر والمقارنة والمفاضلة بين تخيرات متباينة فى الموقف يكون على المرء أن يقع على واحد منها .

ونستطيع القول بأن إدراك المرء للأشياء المحسوسة المحيطة به — سواء كانت منظورات أم مسموعات أم ملموسات أم متذوقات أم مشمومات — إنما يمر بمرحلتين أساسيتين : المرحلة الأولى تتسم بأنها مرحلة تأثرية تقبلية ، وهى ما تعرف بمرحلة الإحساس . والاحساس يتم بطريقة استقبالية بواسطة حاسة أو أكثر من الحواس الخمس . فلقد أشاهد أحد الأشخاص وأسمع صوته فى نفس الوقت ، فتكون ثمة حاستان مشتركتان فى ادراكى ، وهما حاستا البصر والسمع معا . وعندما أتناول الطعام ، فان ثلاث حواس تشترك فى ادراكى له ، هى حاسة الأبصار وحاسة الشم وحاسة الذوق . وعندما أذهب لشراء قطعة من القماش ويعرض على التاجر بضعة أنواع لأختار من بينها ، فانى أرى القماش وأتحسسه بأصابعى لكى أكتشف القماش الأنعم أو الأسمك ، وأقارن كل نوع مع الأنواع الأخرى ، وعندئذ تشترك حاستان فى هذا الموقف هما حاسة البصر وحاسة اللمس .

بيد أن الاحساس قد يترجم بمراكز المخ وقد لايترجم . فنحن فى نعاسنا نستقبل الأصوات التى تدور حولنا ، وقد ندرك بعضها ونسقط من إدراكنا بعضها الآخر ، بل إننا قد نترجم ما يصل إلى أمخاخنا من أصوات ترجمة مباينة تماما للترجمة الواقعية . لقد نترجم النقر على أحد الأبواب بأنه قنابل تنفجر أو مدافع تنطلق أو طبول تدق ، وقد نستخدم بطريقة لاشعورية تلك الترجمات الموهومة بحيث تتساوق وتنسجم فى إطار حلم مخيف نكون قد انخرطنا فى اطاره . وكثيرا ما تستقبل حواسنا انطباعات حسية ، ولكنها تظل فى طور الاحساس دون أن تجد لها أية ترجمة بالمخ .

ومعنى هذا فى الواقع أن الاحساس فى حد ذاته يمثل تمثيلا تاما وأصيلا لما يتصف به المخ من استقبالية . ذلك أن المخ — وقد قلنا إنه المشرف على الجهاز العصبى السمبتاوى — يعد المسئول عن ذلك الميل الاستقبالى الذى تتسم به الحواس . ولعلنا نضيف أيضاً إلى هذا أن الترجمة التى يمكن أن يقدمها المخ بطريقة لاشعورية — فى أثناء النوم مثلا — لما يصل إليه ، إنما تنهج هى الأخرى نهجا استقباليا سلبيا . ومعنى هذا أن الأحساس والادراك اللذين يتمان والمرء نائم ، أو وهو مركز ذهنه فى أشياء أخرى ، أو وهو ساه وقد أخذ يسرح الطرف فى أمور بعيدة عن الموضوعات التى يتم الاحساس بها وادراكها بطريقة غير واعية ، انما يتمان وفقاً للعملية التأثرية التقبلية .

ولكن ماالشأن بازاء الموضوعات الادراكية ونحن فى حالة من الوعى والشعور الكاملين ؟ اننا نعتقد أن الادراك فى أثناء الوعى والشعور والأنتباه انما ينخرط فى إطار الموقف الشكى ، وذلك بمساعدة المرحلة أو العملية الثانية التى يضطلع بها المخ فى مقابل المرحلة أو العملية التأثرية التقبلية ، أعنى العملية الكفية أو المنعية . فعندما يعرض علينا موضوع إدراكى ، فاننا نحاول ترجمته ذهنيا فى ضوء ماسبق لنا إدراكه ، وماسبق لنا تخزينه بالمخ من معرفة . فاذا ما رأينا ذئبا ، حسبناه كلبا . ولكن بعض العناصر الادراكية الجديدة تجعلنا نتوقف عن التصديق ، فنعلق حكمنا بأنه كلب . ولعلنا نستعيد معارف قديمة مرت بنا ، كأن نقارن بين الحيوان الموجود أمامنا بالذئب

الذى شاهدناه ذات يوم بحديقة الحيوان . وبعد فترة من التردد - تقصر أو أو تطول - نصدر حكمنا بأنه ذئب أو بأنه كلب من فصيلة الوولف .

فالادراك الواعى إذن يمر فى ثلاث مراحل أساسية : الأولى مرحلة الاحساس : وهى مرحلة تقبلية بحتة . والثانية - مرحلة الشك أو المرحلة البينية التى تقع بين التصديق والانكار ، والثالثة - مرحلة إصدار الحكم الشعورى الادراكى التى تحدد نوعية المدرك الحسى الموجود خارج حواسنا.

واذا كان للشك موضع يحتله فى الادراك ، فان له مواضع أيضا يحتلها فى جميع العمليات الذهنيةالأخرى التى يقوم بها المخ وهى على النحو التالى :

أولا - العمليات المعرفية التى تتفرع الى عملياتإدراكية وعمليات تذكرية وعمليات تخيلية وعمليات تصورية (تتعلق بالمفاهيم المجردة كتصورى للقلم وأعنى به أى قلم)

ثانيا - العمليات الوجدانية وهى تتفرع الى عمليات الحب وعمليات الكره .

ثالثا - عمليات النزوع أو الارادة وهى تتفرع الى نوعين من العمليات هما الاقبال والادبار بكل ما يحملهما هذان اللفظان من معان .

فاذااتفقنا علىأنالمخ يضطلع بهذهالنوعياتالثلاثمنالعمليات الأساسية ، فاننا نجد فى كل نوعية منها مكانا للشك كما سبق تعريفنا له فى ضوء الاختيارات المتباينة ، وفى ضوء المرحلة البينية وذلك قبل الاضطلاع بالسلوك ، سواء كان سلوكا باطنيا لا يخرج الى الاطار الخارجى للشخصية ، أم كان سلوكا ظاهريا وهو ما يعرف بالابانة الرمزية أو العملية . والابانة الرمزية تكون منطوقة أو مكتوبة أو مرسومة أو منحوته ، والابانة العملية تكون باتيان تصرفات معينة تؤثر على نحو أو آخر فى البيئة المحيطة بالمرء .

فالانسان فى جميع العمليات السابقة يمر فى المرحلة البينية حيث يكون بازاء اختيارات عديدة يقع على واحد منها يتعرف عليه أو يختاره وجدانيا

بقلبه أو أدائيا بالتصرف الى الخارج والتأثير فى البيئة من حوله وأخيرا فان المسئول الأول عن تلك المواقف الشكية الاختيارية هو مخ المرء وما يتصف به جهازه العصبي من صحة أو مرض ، أو من قوة أو ضعف .

ونستطيع القول بأن الفترة البينية أو الاختيارية يجب أن تكون مناسبة للمقام ولمدى صعوبة أو تعقد الموقف . ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا إنه فى بعض حالات ضعف المخ أو عند اصابته بالمرض ، فان تلك الفترة البينية قد تستمر بحيث يظل المرء غير قادر على الوصول الى قرار يتخذه أو الى رأى حاسم يصل اليه . ولقد تجد الواحد ممن أصيبوا بالمرض أو الضعف فى جهازهم العصبي وقد صار الشك هو سمته الأساسية . فهو يجعل من شكه المرحلة النهائية التى تنتهى اليها بغير أن يصعد الى المرحلة التالية التى يقع فيها على أحد الاختيارات . ومن ثم فان سلوك الشخص من هذا النوع يتسم بالدوران فى دائرة مغلقة لا يستطيع منها انفلاتا . ولقد يصل الحال به الى الوقوع فى دوامة الوسوسة . خذ مثالا لذلك الشخص الذى يظل طوال الليل متردداً بين السرير وباب الشقة للتأكد من أنه قد أحكم اغلاقه . فهولا يستطيع الوصول الى حكم قاطع بأنه أحكم اغلاقه برغم تأمله لقفل الباب من الداخل : فهنا فى مثل هذه الحالة لا يكون الخطأ فى الاحساس ، بل يكون الخطأ فى الوقوع على اختيار من اختيارين ذهنيين : هما احكام الاغلاق من جهة ، وعدم إحكام الاغلاق من جهة أخرى . ونفس الشيء ينطبق على الشخص الذى يقع فى مرحلة بينية مستمرة بين أن يكون اللصوص قد سرقوا نقوده وبين ألا يكونوا قد سرقوها . ولا يخفى على أحد ما لسيطرة تلك الحالة البينية واستمرارها فى سيطرتها على ذهن المرء المريض من إرهاق نفسى . فالقلق يستبد بالشخص الموسوس كل الاستبداد بحيث يصير فى شقوة دائمة وفى تعب نفسى مستمر . فالشك وان كان ظاهرة سوية اذا كان مجرد خطوة أو مرحلة يصل بعدها الشخص الى قرار يصل اليه ، فانه يعد حالة مرضية اذا كان مصحوبا بحالة من العجز عن الخروج من إطاره الى المرحلة التالية حيث الحكم والقرار .

أمراض الوجدان والشك :

نود أن ننبه بادىء ذى بدء الى أن الانسان كل متكامل وأن التقسيم الذى ننحو اليه فيما نعرض له من موضوعات بازاء الموضوع الواحد كموضوع علاقة الشك بالصحة النفسية ، إنما هو بمثابة تطلع الى نفس الشىء من زوايا متباينة . فنحن كمن يقف أمام تمثال ثم يبدأ فى الدوران حوله ليراه من جوانبه المتباينة بغير أن يفلت أى جانب من ملاحظته . بيد أن مشاهدته للتمثال من زوايا متباينة لا يفقد ذلك التمثال وحدته وتكامليته . فاذا نظرنا الى علاقة الشك بالصحة النفسية وقد بدأنا من الزاوية الجسمية بما تشتمل عليه من هورمونات وجهاز عصبى وأثر الغدد والمخ فى الشك لدى المرء فان هذا لا يكفى لتغطية الزوايا الممكن أن ننظر منها الى هذا الموضوع . فثمة زاويتان باقيتان يجب أن نتناول الشك والصحة النفسية من خلالهما ، ألا وهما أمراض الوجدان ثم أمراض العقل وذلك لأن ما يمكن أن تصاب به الشخصية قد يكون ذا طبيعة بيولوجية ، كما أنه قد يكون ذا طبيعة وظيفية أو قل ذا طبيعة مكتسبة من العوامل البيئية التى ينخرط المرء فى ظلها وما للوسائل التربوية فى تأثير فى الوجدان والعقل على السواء .

وإذا نحن ركزنا الحديث هنا على الوجدان وما يمكن أن يصاب به المرء من أمراض وجدانية ، وأجلنا الحديث عن العقل وما يمكن أن يصيب المرء من أمراض عقلية ، فاننا نبادر بالقول بأن هناك ما يمكن أن نسميه بالجوع الوجدانى . ذلك أن الإنسان بحاجة إلى أن يحب غيره من جهة ، وإلى أن يجد من يحبونه بصدق من جهة أخرى . فاذا ما وجد الطفل أنه يقدم حبا إلى الناس من حوله ، بينما هم يكرهونه ويرذلونه ، وأنه شخصية منبوذة غير مرغوبة فانه يصاب بالتالى بما نسميه بحالة الجوع الوجدانى . وكما أن الجوع الجسمى إذا ما استمر فترة طويلة من حياة الطفل ، فانه يصاب اذن بمجموعة من الأمراض التى لايتسنى علاجها بسهولة بتقديم الطعام بوفرة أمامه ، لأن التعويض بالكثير من الطعام لايمكن أن يسد النقص أو الفجوة التى أحدثها طول الجوع وشدته خلال طفولة المرء ، كذا فان الشخص الذى حرم العطف

فترة طويلة من حياته ثم كفل له العطف بعد ذلك ، فان العطف الجديد مهما كثر ، فانه لايكفى فى جميع الحالات — أو فى معظمها — لسد الثغرة أو الفجوة التى نشأت عن استمرار الجوع العاطفى لفترة طويلة .

وجريا وراء نظرية الاختيارات واعتبار الشك هو الوقوف بازاء مجموعة من الاختيارات ، وأن مرض الشك هو استمرار تلك الحالة الشكية أو الحالة الاختيارية بحيث لايتسنى للمرء الوصول إلى قرار أو الوقوع على اختيار معين ، فاننا نقول إن حالة الجوع العاطفى المستمرة لفترة طويلة من العمر تجعل المرء فى حالة من الشك أو فى حالة من محاولة الاختيار من بين الأشخاص المحيطين به ليقرر من من أولئك الناس يحبه ومن منهم لايحبه أو يكرهه . والمرض الوجدانى فى مثل هذه الحالة يتبدى فى عدم قدرة الجائع وجدانيا على الوصول إلى قرار يصل إليه أو إلى اختيار يقع عليه بسهولة . فهو يظل معلقا الحكم بصفة مستمرة دون أن يقدر على أجتياز هذه المرحلة الشكية إلى ما عداها ، أعنى مرحلة إصدار القرار والوقوع على أختيار معين .

والواقع أن الفرق بين مثل هذا الشخص الذى استمر جوعه العاطفى فترة طويلة من حياته وبين الأشخاص العاديين الأسوياء الذين وجدوا غذاء عاطفيا يغتذون به وينشأون عليه إنما يتبدى فى أن هذه المرحلة الشكية أو الاختيارية لاتظل قائمة مستمرة لديهم ، بل إنهم يتمكنون من اجتيازها إلى المرحلة التالية التى يقررون عندها من يحبون ومن يكرهون ، بل إنهم فى هذه المرحلة يستطيعون الوصول إلى قرار بازاء من يحبونهم حقا ومن لايحبونهم أو يكرهونهم . فالشخص السوى يستطيع أن يصدر قراراً وأن يخرج من الشك إلى اليقين ، ومن فرص الاختيار المتاحة أمامه إلى إصدار حكم وانتقاء واحد من الاختيارات المتاحة أمامه .

ومن أمراض الشك الوجدانى أيضاً التذبذب فيما بين الحب والكراهية بالنسبة للشخص الواحد أو بالنسبة للمجموعة من الأفراد . فما يكاد المصاب بالمرض الوجدانى يحب أحد الأشخاص ويتعلق به ، حتى ينقلب حبه له إلى كراهية ، ثم ما تفتأ الكراهية أن تستحيل إلى حب من جديد . فالشك هنا

يتبدى فى عملية الانتقاء من جهة ، وفى عدم الاستقرار على حالة واحدة ، أعنى النكوص من الحب إلى الكراهية والعكس من جهة أخرى . فالشك هنا هو تذبذب فى الاختيار ، أو قل انه العجز عن الأختيار والثبات على تخير واحد لمدة معقولة .

ومن أمراض الوجدان التى لها صلة بالشك فقدان الثقة بالنفس . والواقع أن الشخص الذى يفتقد الثقة فى نفسه ، إنما يتذبذب بين قطبين متناقضين هما أحتقار الذات من جهة ، وتأليه تلك الذات من جهة أخرى والتعالى بها إلى أرفع مستوى ممكن . ويتبدى الشك فى حالة فقدان الثقة بالنفس — أو بتعبير أدق فى حالة التذبذب فى تقدير الذات — فى عدم القدرة على الاختيار بين احتقار الذات وبين تأليهها .

ومن أعراض الشك عند الإصابة بامراض الوجدان ما كان متعلقا بالتقلب بين التفاؤل والتشاؤم ، أو بين نشوة الفرح وتوقع الشر . ففى هذه الحالة يكون الشخص فى موقف شكى أو اختيارى مستمر حيث لايستطيع التوصل إلى قرار يتخذه ولايستطيع أن يقع على حالة وجدانية يستقر عليها . فهو لايستطيع أن يختار التفاؤل أو أن يختار التشاؤم . ومن هنا — وبسبب عجزه عن الاختيار — فانه يكون واقعا تحت رحمة الحالة الوجدانية التى تصادفه . فهو يتفاءل لحظة ثم يتشاءم لحظة أخرى . ويبدو تفاؤله فى ابتسامات أو ضحكات يطلقها ، كما يبدو تشاؤمه فى رغبته العارمة فى البكاء كما ترتسم على محياه علامات الحزن والابتئاس .

ومن أمراض الوجدان أيضاً ما كان متعلقاً بلذات الحياة من طعام وملبس وجنس . فعندما يكون الوجدان مريضاً فان الشخص لايستطيع أن يتخذ لنفسه فلسفة فى الحياة يسير وفقها ، أو قل إنه يظل فى موقف شكى أو اختيارى مستمر بازاء الاتجاهات الوجدانية . فهو يقف حائرا بين التقشف وبين الارتماء فى ملذات الحياة . فهل يصوم أم يفطر فى أوقات الصيام ؟ وهل يرتدى الثياب العادية أم يرفل فى الحلل الغالية ؟ وهل ينبذ الملذات الجنسية ولايقيم علاقات غرامية ، أم يرتمى فى تيار الملذات الجنسية ؟ إننا فى الواقع

نجد الناس ينقسمون بازاء هذه الأسئلة الثلاثة إلى ثلاثة أقسام : فثمة فئة من الناس قد أجابت وقررت الأخذ بالتقشف فى المأكل والملبس والجنس ، وثمة فئة ثانية اختارت الملذات والتنعم مذهبا لها فهم يقبلون على الأكل ونبذ الصيام والتنعم بأبهى الحلل واقامة علاقات غرامية كلما تسنى لهم ذلك . أما الفئة الثالثة — وهى فئة المتشككين — فان أفرادها لايقعون على اختيار محدد : فلاهم بالمتقشفين ، ولا هم بالملتذين . فهم يقعون فى مرحلة بينية ، أو قل إنهم يظلون فى حالة اختيار بغير الوصول إلى قرار وبغير إصدار حكم يقطعون به الشك باليقين .

والواقع أن الإنسان السوى — سواء كان خيرا أم شريرا — هو ذلك الشخص الذى لايظل فى هذه الحالة البينية ، بل هو يمر بها ويخرج من اطارها لكى ينخرط فى المرحلة التالية ، أعنى مرحلة إصدار القرار والوصول إلى حكم واضح صريح . والأمر هنا شبيه — كما سبق أن قلنا — بمن يكون أمامه طريقان حيث يتفرع الطريق السائر فيه إلى هذين الطريقين . فلابد له من اختيار واحد منهما ليكمل مسيرته . فمن الطبيعى أن يتردد ذلك السائر لحظة فيقارن بينهما ويعمل ذهنه لكى يصل إلى الأقصر منهما والموصل إلى غايته التى يرومها . بيد أن تلك الفترة التى يختار خلالها لاتظل مستمرة ، بل تنتهى ويصل إلى قرار . ولكن إذا وقف ذلك الشخص عند مفترق الطريقين وهو عاجز عن الاختيار ، ويظل على هذه الحال على طول الخط ، فاننا نتهمه عندئذ بالجنون . وهذا فى الواقع هو حال المصاب بمرض الشك الوجدانى . فمثل ذلك الشخص لايستطيع أن ينضم إلى فريق المتقشفين أو إلى فريق عشاق اللذة .

ويتضح مما سبق أن التعريف الذى قدمناه للشك بأنه العجز عن الخروج من مرحلة الاختيار من بين الاختيارات أو المتغيرات المتاحة فى الموقف إلى مرحلة اتخاذ القرار والوقوع على الاختيار بغير رجوع عن ذلك الاختيار وبغير تذبذب بين عدة اختيارات ، إنما ينطبق أيضاً بازاء ما يبدو من أعراض

شكية فى حالات أمراض الوجدان . وهكذا نجد أن تعريفنا للشك على هذا النحو قد صلح للتطبيق على جميع الحالات التى عرضنا لها حتى الآن بما فى ذلك حالات أمراض الوجدان .

أمراض العقل والشك :

سبق أن قلنا إن أمراض الشخصية متداخلة أشد التداخل ، وأن النظر إلى الشخصية لدراستها يشبه النظر إلى تمثال من زوايا متباينة . ومعنى هذا أن تناولنا لأمراض العقل لاينفصل عن تناولنا لأى جانب من جوانب الشخصية سواء كان تناولنا بقصد إبراز جوانب الصحة ، أم بقصد ابراز جوانب المرض والانحراف عن السوية .ونحن إذ نتناول أمراض العقل ، فانما نقصد ما كان متعلقا بقطاع التفكير . ولقد نحدد أمراض العقل فى الجوانب الأساسية التالية :

الجانب الأول — خاص بمنطق التفكير . فمن الأمراض العقلية ما يجعل التفكير متناقضاً بعضه مع بعض بحيث يشتمل على المتناقضات فى ذات الوقت أو فى لحظات متتالية مستمرة . فالمصاب بالمرض العقلى فى هذه الحالة لايضع فاصلا بين الموجود وغير الموجود ، ولايضع فاصلا بين الصفات المتناقضة أو المتضادة . فهو قد يصف الشىء بأنه جيد وردىء فى نفس الوقت أو فى لحظات متعاقبة ، وقد يصف الطقس بأنه بارد جدا وحار جدا ، ولامانع لديه من أن يكون الشىء الواحد موجودا وغير موجود فى نفس الوقت ، أو أن يكون الجزء من الشىء أكبر من الشىء نفسه .

الجانب الثانى — خاص بترابط الكلام . ففى بعض حالات المرض العقلى يكون الكلام مفككا بحيث لايكون جملا مفيدة . وطبيعى أن يكون تفكك الكلام صدى ونتيجة لتناقض التفكير وتفكك روابطه .

الجانب الثالث — ما كان متعلقاً باصدار الأحكام . فالأحكام التى يصدرها المريض عقليا تكون أحكاما فجة وخاطئة حتى بالنسبة لأبسط القضايا اليومية . فاذا سألت أحد الطلبة المصابين بالمرض العقلى : لماذا

لاتستذكر دروسك ؟ فانه قد يجيبك بقوله : « لأن الفئران يمكن أن تأكل الكتب وبالتالى فان المعلومات التى أستذكرها تضيع». فمثل هذه الإجابة لاتربط السبب بالمسبب ، بل تدل على تفكك فى التفكير وعدم ربط العلة بمعلولاتها .

الجانب الرابع – ما كان متعلقا بالأفكار الثابتة . وهنا نجد أن المريض عقليا يتشبث بفكرة أو بالأحرى بمحور فكرى لايريم عنه . فقد يدير محور تفكيره كله حول نوع من الأشعة التى تصدر عنه أو يمكن أن تصدر عنه فتحقق ما يريده بغير أن يكون بحاجة إلى استخدام أية أداة . فهو يعتقد أن بمقدوره أن يفعل أى شيء أو أن يمنع حدوث أى شيء بواسطة تلك الأشعة. فاذا ضايقه أحد من أفراد الأسرة ، فانه يهدده باستخدام تلك الأشعة الخرافية بل إنه يعتقد أنه يستطيع تحقيق أية أمنية تخطر بباله بواسطتها . فاذا ضيق أحد الخناق عليه بتحديه إذا فعل كذا أو كيت بواسطة تلك الأشعة ، فانه يسارع بقوله : « إنى لا أئتمر بأمرك ، وحين يأتينى الأمر من قوة خارجية خارقة معينة ، فانى أفعل ماتأمرنى هى به » .

الجانب الخامس – العجز عن إصدار أى حكم والوقوف أمام الاختيارات المتعددة بالموقف دون القدرة على إصدار قرار بازاء المفاضلة أو المقارنة بين أشياء أو أفكار فى الموقف . ولعلنا نضرب مثالا لذلك بالشخص الذى يوضع أمامه الطعام ، فيقف حائرا بأى شيء يبدأ ، هل يبدأ بتناول الخبز أم يبدأ بتناول الملعقة أم يبدأ بشرب كوب الماء الموجود أمامه ؟ إن المصاب بالمرض العقلى يجد فى هذا الموقف مشكلته الكبرى ، فيصير عاجزا عن ترتيب الأولويات فى هذا الموقف العادى . ومن ثم فانه يتوقف عن إصدار الحكم ويظل حائرا أمام مائدة الطعام حتى لو مات جوعا . ولقد تصل الحالة بالمصاب عقليا الى درجة التوقف عن ممارسة أى نشاط . فحتى لدى نزوله من السرير يأخذ فى التساؤل : هل ينزل بكلتا قدميه أم يلامس الأرض بقدمه اليمنى أولا أم بقدمه اليسرى ؟ فثمة اذن فى هذا الموقف ثلاثة اختيارات لايستطيع أن يقع على واحد منها ويبدأ فى تنفيذه .

واذا كان المصاب عقليا طالبا فانه قد يجد مشكلته الكبرى بازاء أى مادة يبدأ بها فى الاستذكار . فهل يبدأ بما أخذه بالمدرسة اليوم ، أم يبدأ بما سوف يأخذه غداً ؟ إن مثل هذه المشكلة قد تصادف الطالب السوى ، ولكنه سرعان ما يتخذ قرارا بازائها . فهو يحسم أمره ويختار واحدا من الاختيارين السابقين . ولكن الطالب لا يكون سويا اذا هو ظل فى حالة من العجز عن حسم الرأى والوقوع على اختيار من الاختيارين المتاحين بالموقف . فالحالة البينية تعبر عن نوع من العجز الارادى المتعلق بالناحية العقلية .

ولكن هل هناك علاقة ما بين قوة الإرادة وبين الاختيار العقلى ؟ إننا فى الواقع نتوسع فى استخدام كلمة إرادة ونجعل لمفهومها مجالا أكبر من مجال الأداءات العملية والممارسات الاجتماعية التى تتسم باقامة علاقات معينة أو حذف علاقات أخرى بين الأفراد من الناس . فنحن نعتقد أن الانتحاء العقلى الى اختيار من بين أكثر من اختيار واحد إنما هو نوع من الفعل الارادى . فطالما أنك وجهت فكرك أو طالما أنك استطعت أن تقع على رأى أو أن تتخذ قرارا ، فانك بذلك تكون قد استعنت بقدر ما من قوة الارادة .

ومعنى هذا فى الواقع أن قوة الإرادة يمكن أن تتخذ لها خمسة منافذ متباينة : المنفذ الأول هو المنفذ الجسمى الأدائى ، والمنفذ الثانى — هو المنفذ اللغوى التعبيرى ، والمنفذ الثالث — هو المنفذ الاجتماعى المتعلق بالعلاقات الاجتماعية . والمنفذ الرابع — هو المنفذ الوجدانى حيث يقع المرء على منحى عاطفى معين يتجه اليه ويتلبس به . والمنفذ الخامس والأخير هو المنفذ العقلى حيث يختار المرء فكرة أو مذهباً من بين أفكار أو مذاهب كثيرة ويعطيها صوته .

ولقد نقول إن امراض الارادة — ومنها مرض العجز الارادى — انما تنشر عباءتها على العقل بحيث تجعل المرء فى حالة شك دائمة . ولقد سبق أن

قلنا عدة مرات ان تعريفنا للشك هو أنه حالة مستمرة من الاختيار بغير وصول الى قرار حاسم بازاء ما يمكن للمرء الوقوع عليه واختياره دون سواه من بين المتغيرات الكثيرة بالموقف . فالشخص المصاب بالعجز الارادى لا يستطيع أن يتخذ لنفسه قرارا عقليا حاسما بازاء الاختيارات الكثيرة المطروحة أمامه . إنه يظل مجيلا البصر فى الأفكار المعروضة أمامه يمر عليها ولا يستطيع أن يتوقف عند واحدة منها . ومن هنا فان المصاب بالعجز الارادى العقلى يكون ضحل التفكير . ذلك أنه ما يكاد تمر بعقله فكرة حتى يتحول الى غيرها بغير أن يسبر أغوارها أو بغير أن يتصفح جوانبها المتباينة . إنه كمن يمر بسيارة بسرعة فى أحد الشوارع فيلمح لافتات المحال التجارية التى يمر بها بغير أن يفكر فى مضمون أى من تلك اللافتات وما عسى أن ينم عليه المكتوب على اللافته من سلع أو مناشط تجارية . فكما أن مثل ذلك الشخص يكون سطحيا فى معرفته بما تحتويه تلك المحال التجارية وما يضطلع به أصحابها من مناشط تجارية أو صناعية ، كذا يكون حال المصاب بالعجز الارادى العقلى . ان مخه يكون بمثابة شريط سينمائى يعرض أمام عقله أفكارا متباينة سريعة بغير أن يكون قادرا على الامساك بتلابيب أى منها لكى يتفحصه ، ومن ثم اختياره من بين الأفكار الأخرى التى يتم له تفحصها .

ولعلنا نقول إن مرض الفصام (الشيزوفرنيا) هو خير مثال على هذا النوع من العجز الارادى العقلى ، فالمصاب بهذا المرض لا يستطيع أن يحسم أمره وأن يقع اختياره على فكرة بالذات يختارها من بين مجموعة من الأفكار ليعبر عنها . فهو يسرح الطرف فى العديد من الأفكار دون أن ينتهى الى قرار عقلى يتخذه ، وبالتالى دون أن يقدر على الابانة بالكلام عما كان يمكن له أن يختار من أفكار . فهو يظل فى حالة من التوقف الفكرى وفى حالة من العجز الارادى العقلى التام .

ولقد يتبدى العجز الارادى العقلى والتردى فى هوة الشك أو التوقف عن الاختيار العقلى فى سرد لمحات خاطفة تتعلق بالأفكار التى تمر كهيئة شريط فى ذهن المريض عقليا . فهو كما قلنا كمن يركب سيارة ويمر بها أمام المحال

التجارية ويرى بسرعة خاطفة الأشياء المكتوبة على لافتات تلك المحال .. فالمريض عقليا قد يعمد الى الافصاح بلسانه عن بعض ما تتضمنه تلك اللافتات. العقلية التى تمر على ذهنه المريض . فهو لا يكاد يركز ذهنه على أية لافتة منها ، بل هو يقتبس شذرات من هنا ومن هناك يفوه بها ، فيأتى كلامه مفككا غير مترابط ولا يدل على التكامل الذهنى . فالتعبير اللفظى هنا إنما يدل على الشك الضارب بجذوره فى شخصية المريض ، كما يدل على استمرار العجز عن التركيز الذهنى فيما يمر بعقله من أفكار .

الفصل الرابع

الشك والاعتقاد

الاعتقاد الأولى :

لقد سبق أن عرفنا الشك بأنه التواجد فى موقف به أكثر من اختيار واحد . فالفترة التى يمر بها المرء للاختيار من بين الاختيارات المتاحة بالموقف تعتبر فترة شك . وقد قلنا أيضا إن تلك الفترة الشكية يمكن أن تقصر أو تطول ، بل إنها فى حالة بعض الأمراض النفسية تظل قائمة لا يريم عنها المريض نفسيا . وعلى هذا فاننا نستطيع أن نجد هناك نوعين من الاعتقاد — طالما أن الاعتقاد ضد الشك — فثمة اعتقاد أولى وهو التقبل الذى يتأتى عن عدم وجود سوى اختيار واحد بالموقف ، أو قل بتعبير أدق عدم وجود سوى شىء واحد يكون على المرء تقبله . أما النوع الثانى من الاعتقاد فهو الاعتقاد الثانوى. وهذا النوع الأخير من الاعتقاد ينقسم الى أربعة أنواع فرعية هى الاعتقاد الاقتناعى ، والاعتقاد الرفضى ، والاعتقاد الغيبى ، وأخيرا الاعتقاد الايحائى. ولسوف نعرض لكل نوع من هذه الأنواع الأربعة من الاعتقاد التى تندرج جميعا تحت فئة أو نوع واحد هو الاعتقاد الثانوى فيما يقبل من موضوعات اعتقادية .

ولعل أول خطوة فى الاعتقاد الأولى يخطوها الوليد هى تقبل الثدى يمتصه للاغتذاء بلبن الأم . ففى هذا الموقف لا يكون أمام ذلك الوليد خيارات ينتقى من بينها ، بل يكون عليه أن يقع على هذا الاختيار الوحيد — أعنى الثدى — كمصدر وحيد لغذائه . وطالما أن الكبار يتناولون الطفل ويضعون الغذاء فى فمه ولا يكون له فرصة للانتقاء من بين وجبات متباينة ، فان تقبله لما يقدم اليه يكون اذن من قبيل الاعتقاد الأولى . ولقد يقول قائل « وما دخل

الاعتقاد فى تناول الطعام ؟ » إننا فى الواقع نعتقد أن هناك نوعين من الاعتقاد : نوع شعورى يبدو فى الأعمال الارادية وبضمنها الاقتناع — وقد سبق أن أدرجنا ما يختاره المرء بعقله من أفكار ضمن الأعمال الارادية — ونوع لاشعورى كما هو الحال فى الاعتقاد الايحائى ، وأيضا فيما يتعلق بجميع مناحى السلوك التى يأتيها المرء عن غير وعى. وفى ضوء هذه النظرة الواسعة للاعتقاد اللاشعورى الأدائى ، فاننا نستطيع القول بأن العمليات الحيوية والمناشط العضوية التى يقوم بها النبات والحيوان ، وأيضا أجهزة الجسم الداخلية لدى الانسان كالمعدة فى تقبلها للطعام وهضمه ، انما تعد واقعة فى اطار الاعتقاد الأولى . فلا فرق فى الواقع بين تناول الرضيع لثدى الأم ، وبين امتصاص الجنين للدم من قلب الأم بواسطة الحبل السرى مباشرة . وليس هناك فرق بين هذا الامتصاص الذى يقوم به الجنين وبين تقبل المعدة للطعام الوارد اليها من الفم بعد أن يجرى عليه عمليات اختبارية وهضمية مبدئية قبل أن تقوم المعدة بعمليات اختبارية وهضمية كبرى .

ولسنا نذهب شططا فى هذا الشأن . فعلماء النفس التطوريون سبق أن قالوا بالذكاء الفسيولوجى حيث أناطوا بأجهزة الجسم — بل وبالنبات والحيوان ابتداء من الأميبا — قدرة على التقبل والرفض ، وقد اعتبروا أن ذلك الذكاء الفسيولوجى إنما هو ذكاء لاشعورى . فلنا الحق اذن أن نقول أن هناك اعتقادا لاشعوريا (بالمعنى العام لكلمة لاشعور وليس بالمعنى الفرويدى الشائع) حيث يمارس الكائن الحى نوعا من التقبل بازاء موقف ليس فيه سوى اختيار واحد عليه أن يتقبله أو يرفضه ، ولكن لا يكون فى مقدوره أن يضع أمامه عدة اختيارات ينتقى من بينها .

واذا كان هذا هو حال الاعتقاد فى المجال الحيوى ، فانه أيضا الحال فى المجال الوجدانى . فلا شك أن الرضيع يرتبط وجدانيا بثدى الأم ، ثم بالأم نفسها وقد بدأ ارتباطه بهما ارتباطا حيويا بادىء ذى بدء . فالاعتقاد الحيوى بالاقبال على الثدى يتدرج الى اعتقاد وجدانى حيث يجد أنه متعلق بتلك المخلوقة ومرتبط بها أشد ارتباط وأقواه . ولعلنا نزعم فى نفس الوقت

أن الطفل يعتقد أيضا فى أشيائه التى يلامسها ولا يرى سواها وقد وفرت له الدفء أو استخدمت فى تناوله للطعام كأن يتعلق بطبقه الخاص وبملعقته وسريره وعربته ودميته ونحو ذلك من أشياء ، فنقول ان الطفل صار معتقدا فى تلك الاشياء .

وجدير بنا بعد هذا أن نتناول المجال الثالث من مجالات الاعتقاد الأولى ألا وهو الاعتقاد العقلى.ونحن نخطىءإذا فصلنا هذا المجال عن مجال آخر ملازم أو هو فى الواقع صنو له ، ألا وهو المجال اللغوى الكلامى . ومن الأسئلة المحيرة التى تصادف المرء وهو بصدد الحديث عن العقل والكلام عند الطفل هو هذا السؤال : هل يفكر الطفل لأنه يتكلم ، أم أنه يتكلم لأنه يفكر ؟ لقد يظن البعض أن فكر الطفل سابق على كلامه ، ونحن نعتقد العكس . فالطفل يتكلم أولا كتعبير فسيولوجى أو لأن أجهزة النطق لديه تريد أن تعمل كما تعمل أنت بازاء جهاز التلفزيون أو الراديو وقد شغلته بغير أن يكون هناك إرسال من محطات التلفزيون أو الاذاعة . فالجهاز يشتغل حتى اذا لم يكن هناك إرسال . ولكن عمله يكون بلا معنى . وهكذا حال الطفل الوليد وقد صرخ صرخته الأولى . انه فى تلك الحال لا يعبر عن وجدان معتمل بدخيلته ، ولا عن فكر مختمر فى دماغه ، وإنما هو يصرخ لتشغيل أجهزة الكلام لديه ، ولإطلاق الشرارة الأولى للكلام .

ولكن هذا المستوى الفسيولوجى من الكلام — إذا صح التعبير وأجزنا استخدام كلمة « كلام » بازاء صراخ الطفل — ما يفتأ أن يصير له مضمون وجدانى . فالطفل يصرخ ويبكى لأنه متضايق ومتبرم لسبب أو لآخر . ولكن هذا المضمون الوجدانى سرعان ما يتلبس بمضمون ذهنى ، حيث يكون لبكاء الطفل معنى أو قل حيث يكون البكاء تعبيرا عن ثلاثة اضلاع أساسية : ضلع يمثل للمستوى الحيوى الفسيولوجى وضلع يمثل للمستوى الوجدانى العاطفى ، وضلع يمثل للمستوى الذهنى :

على أن نقطة الانطلاق هذه المتمثلة فى الصراخ والبكاء ما تفتأ أن تتطور الى جميع التعبيرات الوجدانية الأخرى كالضحك والابتسام والعبوس ولوى الشفة ، والى جميع التعبيرات الذهنية التى تتمثل فى الكلام المعقول .

ونحن نرى أنه فى المستويات الدنيا من الكلام يكون الطفل متلبسا بالاعتقاد الأولى ، حيث لا تكون أمامه فرص للاختيار من بين متغيرات متعددة . فهو يكتسب لغة الكلام من الناس المحيطين به كقوالب تعبيرية ينقلها عنهم نقلا بغير اختيار من جانبه . ولعلك تلاحظ الفرق الشاسع بين لغة الكبير الناضج وبين لغة الطفل الصغير من حيث القدرة على الاختيار الكلامى . فأنت تجد أمامك الكثير من المترادفات تنتقى من بينها فى أثناء كلامك ، أما الطفل الصغير فانه لا يجد — اذا وجد — إلا كلمة واحدة للفكرة الواحدة ، بل إنه ينمو عقليا فى تواز مع نموه الكلامى . وصدق من قال إن النمو اللغوى خير شاهد على النمو العقلى لدى المرء . فمن تضمحل حصيلته الكلامية يكون بالتالى ضحلا فى فكره .

أخيرا فاننا نجد المجال الرابع من مجالات الاعتقاد الأولى — أعنى المجال الاجتماعى — فالطفل يتشرب القيم والعرف والتقاليد الاجتماعية من حوله بحيث يكون معتقدا فيها اعتقادا أوليا . ولسنا نخطىء إذا قلنا إن الاعتقاد الأولى له أبعد الشأن فى حياة الناس ، بل قل إنه أقوى من جميع الاعتقادات التى يكتسبها المرء طوال حياته . ونذكر بأن الخمس سنوات الأولى تشكل المرحلة الرئيسية فى تكوين شخصية المرء ، بل إننا نقرر أكثر من هذا أن ما يكتسبه الطفل وهو فى الرابعة يكون أدعم وأرسخ فى شخصيته مما يكتسبه وهو فى الخامسة ، وأن ما يكتسبه وهو فى الثالثة أقوى مما يكتسبه وهو فى الرابعة ، وقل نفس الشىء بالنسبة للسنتين الأوليين من عمره . ولكن يجب فى نفس الوقت مراعاة الزوايا الأخرى التى تتعلق بما يمكن للطفل اكتسابه وما لا يستطيع اكتسابه . فالمبدأ العام هو أنه كلما اقتربنا من نقطة البداية فى عمر المرء كان الاعتقاد الأولى أقوى ، ولكن النمو له أكبر دخل فى قدرة

المرء على اكتساب الخبرات . فطفل العام الأول لا يكون قد حاز نموا يمكنه من الكلام كحاله بعد ذلك خلال سنوات طفولته الأولى التالية .

ونختتم حديثنا عن الاعتقاد الأولى بأن نقول إن الاعتقاد الأولى لايقتصر على الطفولة ، بل انه يتوافر أيضا لدى القبائل البدائية . وأكثر من هذا فاننا نجد أن هذا النوع من الاعتقاد الأولى يوجد حتى لدى أكثر الناس ثقافة . فالمثقف المريض عندما يعرض نفسه على الطبيب ، فأشار عليه الطبيب بمجموعة من الأوامر الطبية وتقبلها ، فان تقبله لها يكون بمثابة اعتقاد أولى لأنه لا يشك فى كلام طبيبه ولا يضع أمامه مجموعة من الاختيارات ينتقى من بينها ، بل ينفذ أوامر طبيبه تنفيذاً أعمى بناء على اعتقاده الأولى .

الاعتقاد الاقتناعى :

ثمة فرق أساسى بين الاعتقاد الأولى وبين الاعتقاد الاقتناعى ، فى أن النوع الأولى من الاعتقاد غير مسبوق بمرحلة شكية اختيارية ، بينما يتسم النوع الثانى من الاعتقاد بوجود تلك المرحلة الشكية .ولقد سبق أن قلنا ونكرر القول بأن الشك حسب مفهومنا هو الاختيار أو بتعبير أوضح هو الوقوف فى موقف الاختيار من بين متغيرات أو من بين اختيارات متاحة بالموقف . والاقتناع فى الواقع لا يتأتى للمرء الا بعد أن يجد أمامه أكثر من اختيار واحد .

وعلينا بادىء ذى بدء أن نتناول معنى الاقتناع . إن مثل هذا المعنى يتبدى اذا نحن تفحصنا المواقف الاقتناعية المتباينة التى يمكن أن نجابهها فى حياتنا اليومية . ولعلنا نجد خمسة أنواع من تلك المواقف على النحو التالى :

أولا — اقتناع يتعلق بوجود شىء محسوس . فاذا ما دق جرس الباب وأنت بداخل الشقة ، فانك تقتنع بوجود شخص خارج الشقة يدق الجرس على الرغم من أنك لا تشاهده وأنت بالداخل . واذا كنت قد اتفقت مع زوجتك على أن تدق جرس باب الشقة دقات معينة ، وسمعت تلك الدقات ، فانك تقتنع بأن الشخص الواقف خارج الشقة والذى لا تراه قبل فتح الباب هو زوجتك . والاقتناع فى هذه الحالة هو اقتناع يتعلق بالحاضر . ولكن

الاقتناع الوجودى قد يتعلق بالماضى كما هو الحال بازاء الحقائق التاريخية المستخلصة من الاكتشافات الأثرية لعهود قديمة ، وقد يتعلق الاقتناع بالمستقبل كما هو الحال بالنسبة للتنبؤات الطقسية والفلكية والحضارية . فشواهد الحاضر يمكن أن تلقى بالضوء على وقائع المستقبل .

ومن الواضح فى هذا النوع من الاقتناع الوجودى أن ثمة اختيارين أو أكثر فى كل موقف . ولا شك أن أصغر عدد من الاختيارات فى أى موقف اختيارى وجودى حسى هو الخيار بين وجود الشيء وعدم وجوده . فأنت إما أن تقتنع بوجود شخص خارج باب شقتك أو عدم وجود أحد . ولكن قد يتضمن الموقف الواحد عدة اختيارات كثيرة . من ذلك مثلا ما يجد الطبيب نفسه بتجاهه عندما يقوم بالكشف على أحد مرضاه بمرض معقد . إنه قد يكون أمام العديد من الاختيارات . فلقد يحتمل التشخيص قيام الطبيب باستعراض أكثر من عشرين أو أكثر من تلك الأمراض يمكن أن يكون واحد منها هو مرض ذلك المريض . وتكون مهمة الطبيب عندئذ هو الوقوع على اختيار واحد فقط من بين هذا العدد الكبير من الأمراض . وبتعبير آخر فان الطبيب — وأيضا الشخص الذى سمع جرس باب شقته — لا يعتقد الا بعد المرور على المرحلة الاختيارية أو الشكية حيث يجد نفسه فى مواجهة عدة اختيارات ويكون عليه الانتقاء من بينها .

ثانيا — اقتناع يتعلق بالعلاقات بين الأشياء أو الأشخاص . والعلاقات قد تتعلق بالحجم أو بالشكل أو بالمساحة أو أو بالمسافة أو باللون أو بالنغمة أو بالصلابة أو بغير ذلك من خصائص تقارن بعضها ببعض . وقد تتعلق العلاقات بنتائج تترتب على نشوء العلاقات كما هو الحال بالنسبة للعلاقات الرقمية وما يمكن أن يتأتى عن العمليات الحسابية من نتائج. وكذا الحال بالنسبة للعلاقات المنطقية . ففى جميع تلك العلاقات يمر المرء بمرحلة شكية ينتهى منها الى اعتقاد معين هو فى الواقع الوقوع على اختيار من بين اختيارات كثيرة متباينة .

ثالثا — اقتناع يتعلق بالتذوقات . فهنا يكون الموقف متضمنا لاختيارات تتعلق بثلاث ثنائيات قيمية : الثنائية الأولى هى ثنائية الخير والشر ، والثنائية الثانية هى ثنائية الجميل والقبيح ، والثنائية الثالثة هى ثنائية اللذيذ والمؤلم . وينبع من تلك الثنائيات الثلاث المفاضلات بين الأكثر خيرا من بين عمليات خيرية متباينة ، والأكثر جمالا والأكثر لذة من بين أشياء جميلة وأشياء لذيذة . ومن الواضح أن المرء وهو فى مرحلة المفاضلة يكون مارا فى نفس الوقت بمرحلة شكية ، اذ يكون عليه أن يجيل بصيرته فى الاختيارات العديدة المتاحة بالموقف قبل الوقوع على اختيار من بينها .

رابعا — اقتناع يتعلق بالحب والكراهية(١).وهذا النوع من الاقتناع يرتبط ارتباطا قويا بالنوع السابق وقد افردنا له قسما لاهميته وللتركيز عليه . بيد أننا نجد أيضا فرقا بين هذا النوع من الاقتناع وبين النوع السابق يتبدى فى الجانب الموضوعى للحب والكراهية . ففى التذوق نجد أن الجانب الموضوعى إن وجد — لا يحتل مكانة ذات بال . أما بالنسبة للحب والكراهية فان الجانب الموضوعى يحتل أهمية بالغة . وليس يعزب عن البال أن السلوكيين فى علم النفس قد أقاموا الحب والكراهية على أساس الفعل المنعكس الشرطى حيث ترتبط الموضوعات المحبوبة بموضوعات أخرى كانت محبوبة قبل أن تصير محبوبة . فالحب يتأتى للأشياء بالارتباط بأشياء أخرى محبوبة . فالحب يسرى الى الأشياء كما يسرى المغناطيس من قطعة حديد الى قطعة أخرى بالتجاور والاحتكاك.وما يقال عن الحب ينسحب أيضا بازاء الكراهية . فالحب والكراهية يسريان الى الاشياء التى لم نكن نحبها أو نكرهها بتجاورها مع الأشياء التى نحبها أو نكرهها . وما يقال عن الاشياء يقال بنفس الدرجة من الصدق أيضا عن الأشخاص . فنحن نحب أو نكره الأشخاص لارتباطهم بأشياء نحبها أو نكرهها ، أو لارتباطهم بأشخاص نحبهم أو نكرههم .

---

(١) أنظر كتابنا « الحب والكراهية » بمكتبة غريب بالفجالة .

ونحن نزعم أن هناك مرحلة شكية نمر بها قبل ان نحب أو نكره شيئا أو شخصا .وفى تلك الفترة ــ قصرت أو طالتــنكون فى موقف اختيارى حتى ولو كان ذلك الموقف لا شعوريا . وعلينا ألا نقلل من شأن المواقف الشعورية الكثيرة والمتنوعة التى نمر بها قبل أن نأمر قلوبنا بالحب أو بالكراهية . فثمة اعتبارات موضوعية نقيم أحكامنا على أساسها ، ومن بعدها يأتى دور العاطفة .

ونحن نزعم أن هناك مرحلة شكية نمر بها قبل أن نحب أو نكره شيئا أو شخصا . وفى تلك الفترة ــ قصرت أو طالت ــ نكون فى موقف اختيارى حتى ولو كان ذلك الموقف لاشعوريا . وعلينا ألا نقلل من شأن المواقف الشعورية الكثيرة والمتنوعة التى نمر بها قبلأن نأمر قلوبنا بالحب أو بالكراهية. فثمة اعتبارات موضوعية نقيم أحكامنا على أساسها ، ومن بعدها يأتى دور العاطفة . صحيح هناك حالات يصعب تحديد تلك الاعتبارات الموضوعية فيها ولكن بالتحليل والتمحيص فاننا نستطيع أن نقف على تلك الاعتبارات ونحددها بدقة . ويجب ألا نغفل عامل النسيان الذى يغشانا فننسى الأسباب الموضوعية التى ارتكزنا عليها فى حبنا أو كراهيتنا . وطبيعى أننا بعد أن نحب أو بعد أن نكره نكون قد صرنا إلى مرحلة اعتقادية بعد اجتياز المرحلة الاقتناعية المتعلقة بالموضوعات المحبوبة أو الموضوعات المكروهة .

خامسا ــ اقتناع يتعلق بالمفيد والضار . ونستطيع القول ونحن بصدد هذا النوع من الاقتناع أنه يضم فى رحابه القطاع الأكبر من الحضارة الإنسانية . ذلكأن التكنولوجيا بدءا من المحراث اليدوى والعصا أو الحجر وغيره المستخدمة فى الهجوم على الوحوش والأعداء حتى التكنولوجيا الحديثة التى تعتمد على أشد الالات الحاسبة تعقدا والقنابل النووية التى يمكن أن تحصد ملايين البشر دفعة واحدة ، إنما تعتمد جميعاً فى مراحل نشوئها وتبلورها على مبدأ الاقتناع بالمفيد والضار . ولاشك أن العلماء فى معاملهم ، والصناع فى ورشهم ، والتجار فى تجاراتهم ، بل والكتاب والمفكرون ، إنما يعتمدون على هذا المبدأ

الاقتناعى . وحتى بالنسبة للشعراء والفنانين فانهم يقولون إن الفائدة قد لاتكون فائدة واقعية ، بل قد تكون فائدة نفسية . والواقع أن علماء النفس ورجال الدين يؤيدون ذلك ، بل إنهم يؤكدون أن الفوائد النفسية أبلغ أهمية من الفوائد المادية أو هى الأساس لأنك لاتستطيع أن تحس بقيمة الوجود من حولك الا إذا كنت سليما من الناحية النفسية .

وهكذا نجد أن مجرد المفاضلة بين الفائدة المادية وبين الفائدة النفسية يعد نوعا من الشك أو من الاختيار من بين متغيرات فى الموقف . وطبيعى أن هذا ينسحب بالنسبة للاختيارات المتوافرة بالموقف الواقعى المحسوس . فالاعتقاد العلمى أو العملى لايتأتى الا بعد المرور بمرحلة الشك ومشاهدة أكثر من اختيار واحد بالموقف على المرء أن يقع على واحد منها دون سواه .

وهكذا نجد — بعد استعراضنا للأنواع الخمسة من الاقتناعات — أن الإنسان يمر بمرحلة شكية تجريبية قبل أن يصل إلى مرحلة الاعتقاد الاقتناعى. ولعلنا نلاحظ أن هذا النوع من الاعتقاد متطور وقابل للتبدل . فالإنسان لايقف عند حد بغير إحراز تقدم جديد وهو بصدد هذا النوع من الاعتقاد. بل هو ما يكاد يصل إلى اعتقاد اقتناعى فى المواقف الخمسةالتى عرضنا لها حتى تبزغ أمامه مجموعة جديدة من الاختيارات أو المتغيرات بالموقف ، الأمر الذى يحمله أو يدفع به إلى المفاضلة والمقارنة حتى يتسنى له التوصل إلى أعتقاد أقتناعى جديد . ولعل السر يكمن فى هذا النوع من الأعتقاد الأختيارى ويفسر فى ضوئه ما أحرزه ويحرزه وسيحرزه الإنسان من تقدم فى مضامير حياته المتباينة .

الاعتقاد الرفضى :

سبق أن قلنا بصدد حديثنا عن الأعتقاد الأقتناعى إن الاختيار قد يكون بين وجود الشيء وعدم وجوده . والواقع أن الأعتقاد فى المنفيات أو السلبيات هو ما نقصده عندما نتحدث عن الأعتقاد الرفضى . فاذا كنت

بصدد قضية يتساءل فيها مثيرها قائلا : هل الخصائص التى يكتسبها الواحد من الأفراد من البيئة تورث لأبنائه وأحفاده ؟ فاذا أنت أجبت بأنك لاتعتقد فى امكان توارث الخصائص المكتسبة ، فانك تكون بذلك قد حملت فى ذهنك أعتقادا رفضيا .

ونستطيع فى الواقع أن نعرض للمناحى التى يمكن أن يشملها الاعتقاد الرفضى حتى نكون على بينة من جوانبه المتباينة التى يتضمنها فى أنحائه . فالاعتقاد الرفضى يشمل الجوانب الآتية :

أولا — إنكار وجود ماليس بموجود . من ذلك المثال الذى سقناه آنفا خاصا بتوارث الصفات المكتسبة . ومن ذلك أيضاً إذا كنت بصدد التساؤل عن استتباب الأمن فى لبنان . أنك قد تجيب عن مثل هذا التساؤل بقولك « إنى أعتقد أن الأمن غير مستتب هناك » ، أو بقولك بتعبير آخر إنى أرفض القول بأن الأمن مستتب فى لبنان » فما تقرره هنا هو رفض التسليم بوجود شيء ما ، هو الأمن فى هذا المثال فى حيز معين هو لبنان . ولاشك أن تقدم العلوم يعزى فى قطاع كبير منه إلى هذا النوع أو هذا القطاع أو المنحى من الأعتقاد الرفضى . لقد نشأت الكثير من النظريات العلمية التى يأخذ بها العلماء عن هذا الأعتقاد الرفضى الوجودى . من ذلك إنكار العلماء أن تكون الأرض مسطحة ، وانكارهم أن تكون الأرض ثابتة ، وانكارهم أن تكون الأرض مركز الكون وأن الشمس تدور حول الأرض . وكذا إنكار علماء التطور لفكرة ثبات الأنواع وعدم حدوث تغيرات فى قوامها من جهة وفى الوظائف المنوطة بمقوماتها من جهة أخرى . وقل نفس الشيء بالنسبة لكل المعتقدات التى كانت سائدة ثم أتى علماء برهنوا على بطلانها وزيفها ، وبالتالى إحلال معتقدات جديدة منافية للمعتقدات التى كانت شائعة قبلهم محلها .

ثانيا — اعتقـــاد انكارى يتعلق بعلاقة اجتماعية معينة . من ذلك مثلا إنكار البعض مساواة المرأة بالرجل واقتناعهم بأن المرأة أقل مقاما من مقام الرجل . ومن ذلك أيضاً إنكار مساواة الجنس الأسود بالجنس الأبيض . واعتبار أن السود أقل مقاما وذكاء عن البيض كما هو شائع لدى

كثير من الأمريكيين والأوربيين بوجه عام . والواقع أن الأعتقاد الانكارى المتعلق بالعلاقات الأجتماعية له أهمية كبرى فى تنظيم العلاقات الأجتماعية ، بل ينسب إليه القيام بالثورات الأجتماعية . فلقد قامت الثورة ضد الرق كفكرة ثم كعلاقة بين الناس بعضهم وبعض ، ثم كتجارة بناء على الأعتقاد الرفضى القائل بأن هناك من أبناء الجنس البشرى من لايستحقون التمتع بالحرية ، بل يجب استعبادهم واستغلالهم بغير أن يشار إلى ذلك بأنه ظلم أو قسوة . نلقد كان يعتقد أن الرق من النساء والرجال لايحسون كما يحس سائر البشر ، وأنهم قد خلقوا من معادن رخيصة بحيث يجوز أستخدامهم كما تستخدم الحيوانات لراحة الأحرار من الرجال والنساء والأطفال .. نقول إن الأعتقاد الرفضى يرفض مثل هذا الزعم وينقض الرق من أساسه وما يترتب على الأعتقاد فى شرعيته من علاقات وممارسات وبيع وشراء واستخدام . وقل نفس الشيء بالنسبة لاستعباد الشعوب بعضها ولبعض وما يقوم عليه الأستعمار من نظريات وادعاءات ومزاعم .

ثالثا — اعتقاد إنكارى يتعلق بمبدأ أخلاقى معين . من ذلك مثلا أن ينكر منكر إطلاقية بعض المبادىء الأخلاقية مثل الصدق . فمن يحمل أعتقادا إنكاريا يتجاه هذا المبدأ الأخلاقى يقول « إنى أنكر أن يكون الصدق حقاً دائما فى كل موقف وفى كل مكان ، على أساس أن مفهوم الصدق يعنى مطابقة الكلام لما حدث أو يحدث . فبعض الكذب اللفظى أفضل من بعض الصدق اللفظى »

رابعا — أعتقاد انكارى يتعلق بخيرية الطبيعة البشرية وهى على الفطرة ، أو يتعلق بشريتها وهى على تلك الطبيعة الفطرية . فالأعتقاد الأنكارى هنا ينكر الرأى القائل بالخيرية أو بالبشرية يولد الطفل بواحدة منها ، فيحل محل هذا الأعتقاد أعتقاد آخر هو الاعتقاد فى حيادية الطبيعة البشرية . ولكأن الطفل يولد صفحة بيضاء لم يكتب عليها شيء من الخير ولا شيء من الشر .

خامسا — أعتقاد إنكارى يتعلق بشعب أو بفئة أو بجنس . من ذلك مثلا أن ينكر معظم المثقفين قدرة العطار على علاج الأمراض . فالأنكار هنا

لاينصب على هذا العطار أو ذاك فيما يتعلق بمجال العلاج الطبي ، بل ينصب على فئة العطارين جميعاً . ونفس الشيء بالنسبة لفئة أخرى هي فئة المعالجين بالشياطين والسحر ونحو ذلك من وسائل غيبية . ومن المعتقدات الأنكارية أيضاً ما يذهب إليه بعض المدرسين من أن فكرة الحكم الذاتي للمدرسة أو للمعهد أو الكلية إنما هي فكرة فاسدة ولا تؤدى إلا إلى إشاعة الفوضى وتشجيع التلاميذ والطلبة على التعدى على من يقومون بتعليمهم وقلب موازين القوى في نطاق المدرسة أو المعهد أو الكلية .

والواقع أن بعض الناس يجعلون من الاعتقاد الرفضى فلسفة حياتية يستهدون بها في نشاطهم الذهنى وفي العلاقات الأجتماعية . فهم لايخرجون عن الإطار الرفضى إلى ما هو جديد أو إيجابى . وعندنا اليوم من بين مفكرينا من لقوا ذيوعا وشهرة نتيجة المواقف الرفضية التى أتخذوا منها نبراسا وهدفا فيما يعلنونه على الملأ فكرا بالقول أو بالكتابة . فاذا أنت قمت بمدارسة أعمالهم وتناولت مشوار حياتهم الفكرية ، فانك لاتجد فيها الا تلك النغمة الرفضية لما هو قائم . فاذا سألت الواحد منهم : اذن ماذا بعد الرفض ؟ فانه يقول لك — أو هكذا يهيأ لنا أنه يقول — يكفينى أن أرفض الموجود وليس على أن أقيم بناء جديدا . فمهمتى أن أتناول معولا أهدم به ماأراه فاسدا . أما أن أقوم باقامة بناء جديد ، فهذا ليس من شأنى . فكما أن هناك من أختص نفسه بقطع رقاب المحكوم عليهم بالإعدام ، وآخر من الأطباء أختص نفسه بايلاد النساء بحيث لاتجد الجلاد يولد النساء ، ولاتجد الطبيب يقطع الرقاب ، هكذا تجدنى قد تخصصت في هدم ما هو قائم تاركا لغيرى إقامة الأبنية الفكرية الجديدة .

وأكثر من هذا فاننا نجد في مجال السياسة أيضاً فئة من الدول العربية أطلقت على نفسها اسم « جبهة الرفض » . فتلك الدول التى أختارت لنفسها هذا الاسم قد آلت على نفسها أن ترفض ، ولكنها لم تضع في حسبانها شيئا إيجابيا جديدا تضطلع به . حسبها أن ترفض ما لم يعجبها مما تم أو يتم انجازه من خطوط سياسية .

ولاشك أنك تقابل فى حياتك اليومية أناسا لا هم لهم الا الرفض . وإذا قمنا بتصفح الجرائد اليومية ، فاننا نجد أن بعض الصحفيين لم يجدوا طريقاً ألذ لهم ، وأكثر جلبا للقراء وذيوعاً لشهرتهم من هذا الطريق الرفضى . فهم يفصحون كل يوم عن اعتقاداتهم الرفضية . فكل همهم أن يقولوا لقرائهم « ان هذا أو ذاك الشىء لايعجبنا » ، أو أن يشيروا إلى تصرف أو قرار ويعلنون سخطهم عليه ورفضهم له . فاذا ما سألتهم عن البديل لما يرفضونه ، فانهم يقولون لك « ليس هذا من شأننا . ان مهمتنا تنحصر فقط فى رفض ما لا يعجبنا » . ونخشى أن يكون من بين أساتذة الجامعات من يتخذون منهج الرفض نبراسا لهم فى علاقاتهم الثقافية بطلابهم . فهم يبرزون العيوب والمآخذ والمزالق التى وقع فيها الطلاب والدارسون ، ولكنهم لايريدون — أو لا يعرفون — كيف يوجهون النظر إلى الايجابيات ، ولايجعلون من واجبهم تقديم الأفكار الإيجابية إلى أبنائهم الطلاب والدارسين .

ونستطيع أن نقول إن منهج الرفض أيسر بكثير من منهج البناء . وأكثر من هذا فان الناس يلتفون حول أولئك الذين أمسكوا بالمعاول فى أيديهم أو بالسياط يذيقون بواسطتها العذاب للآخرين.ولعل مما يبهر الشباب تلك السياط النقدية التى يمسك بها بعض المتزعمين للرأى سواء فى الصحافة أو الاذاعة . ولعلك إذا قمت بدراسة ما يدور بخلد الكثيرين من المراهقين والشباب عن مفهوم الرأى فى أذهانهم ، فانك واجد أن ذلك المفهوم ينحصر فى أذهانهم فى الهدم لا البناء ، وفى الرفض لا فى القبول . ولقد يخشى المراهق أو الشاب من الإذعان خشية أن يتهم بالخنوع والجبن حتى ولو كان إذعانه لما يمكن أن يقبله العقل ولما لايصح مناهضته أو حتى مناقشته . من هنا فان الاعتقاد الرفضى يحتل رقعة أوسع بكثير من الرقعة التى يحتلها الأعتقاد الأقتناعى وبخاصة لدى المراهقين والشباب ولدى قليلى الخبرة من العامة . ولسنا بهذا نعلن الحرب على المعتقدات الرفضية أيا كانت ، بل مايعنينا هو تحقيق التوازن بينها وبين غيرها من معتقدات .

الاعتقاد الغيبي :

يختلف الأعتقاد الغيبي عن الأعتقاد الأولى فى ناحية أساسية هى مرور المرء فى الأعتقاد الغيبي بمرحلة شكية بالمعنى الذى سبق أن سقناه ، أعنى الوقوف فى مقابل أكثر من أختيار واحد بقصد الوقوع على أختيار واحد من بين الاختيارات المتوافرة بالموقف . ولقد سبق أن أوضحنا أن الأعتقاد الأولى يتأتى دفعة واحدة بغير وجود مرحلة بينية شكية فى الموقف . أما الفرق بين الاعتقاد الغيبي وبين الأعتقاد الأقتناعى ، فهو أن الأعتقاد الأقتناعى يعتمد على وجود اختيارات موضوعية بالموقف يكون على المرء أن يقع على واحد منها . والأختيارات الموضوعية قد تكون محسوسة وقد تكون أفكارا مجردة أو علاقات كما سبق أن ذكرنا . أما الأعتقاد الغيبي فان المرحلة البينية الشكية به تكون متضمنة التصديق وعدم التصديق فحسب . من ذلك مثلا وجود الله أو عدم وجوده ، أو وجود آخرة وحياة بعد الموت أو عدم وجود آخرة وعدم وجود حياة للروح بعد الموت . فعلى المعتقد فى هذه المرحلة الشكية أن يقع على الايجابى لا السلبي فيختار وجود الله والحياة الآخرة وحياة الروح بعد الموت وأن يرفض السلبيات التى تقول أن لا وجود لله وأن لا آخرة ولا حياة للروح بعد موت المرء .

ويخطىء من يعتقد أن الناس فى الأعتقاد الغيبي لايمرون جميعاً بالمرحلة الشكية . فالواقع أن لا مفر من المرور بهذه المرحلة الشكية . بيد أن الناس يختلفون بعضهم عن بعض من حيث الفترة التى يقضونها فى هذه المرحلة الشكية . وأكثر من هذا فان بعض الناس يعودون إلى هذه المرحلة الشكية المرة تلو المرة بعد أن يتم لهم الأختيار والوقوع على الايجابيات. فهؤلاء الناس يكونون مصابين بالتردد بين الأعتقاد الايمانى الغيبي وبين الشك الأرتيابى الغيبي . فهم يمرون فى مرحلة يكونون خلالها معتقدين أشد الأعتقاد فى وجود الله وما يتبع ذلك من مسائل إيمانية غيبية ، ثم يمرون بعد ذلك فى مرحلة أخرى يكونون فيها فى حالة اختيار من جديد إذ يكونون بازاء أختيارين هما

التصديق بالغيبيات وانكارها . وثمة فى الواقع بعض الناس يظلون على هذه الحال من التردد بين الأعتقاد والشك مما يجعلهم فى حالة نفسية غير سوية .

ويجب علينا أن نميز بين الشك وبين الألحادبصدد حديثنا عن الأعتقاد الغيبي . فالملحد هو شخص تم له الأختيار بالفعل بين وجود الله وعدم وجوده وقد أختار بالفعل الجانب السلبي واعتقد فى عدم وجود الله . بيد أن هناك نوعين من الملحدين : نوع عقلى منطقى وآخر وجدانى أنفعالى احتجاجى يكون بمثابة إيمان مقلوب كما هو الحال بإزاء الحب المقلوب والبادى فى هيئة كراهية . أما النوع الأول من الملحدين — وهو قلة قليلة من الناس — فان حياتهم لاتكون قد تغلغلت بالايمان الدينى ولم يمروا فى مراحل الخبرات الروحية الدينية ، بل يكونون قد نشأوا منذ نعومة أظفارهم على نوع من التربية لايعرض للألوهية من قريب أو من بعيد . ونحن نستبعد وجود مجتمعات إنسانية الحادية . وشاهد ذلك أنك تجد أشد القبائل البدائية بعدا عن الحضارة وقد أخذت تعبد الها أو أكثر حتى ولو كان فى شكل صنم أو كان طوطما أو حيوانا مفترسا . ولقد لانخطىء إذا قلنا إن التدين غريزى فى الإنسان . فالاحساس بالألوهية يعتمل فى باطن الإنسان كاحساسه بالجمال يتسرب فى أوصاله النفسية .

فاذا قلنا إن الإنسان يمكن أن يفقد الأحساس بالجمال إذا هو خضع لنوع من التربية تهمل هذا الجانب أو تحاربه أو تطفئه ، فاننا على نفس النحو نقول إن الإنسان يفقد الأحساس الغيبي والنزوع إلى التدين والعبادة إذا ما أهمل هذا الجانب من شخصيته أو حورب أو توافرت حوله عوامل التقليص والأطفاء . وبناء على هذا الزعم فاننا يمكن أن نقول إن الحضارة البشرية بضغوطها على الغرائز وعلى ماجعل فى فطرة الإنسان يمكن أن تنحرف بالطبيعة البشرية إلى أنحاء بعيدة عن مسارها الطبيعي الذى كانت قد غرزت عليه وفطرت وفقه . فالأصل هو النزوع إلى التدين وليس إلى الالحاد .

ومعنى هذا فى الواقع أن الإنسان على الفطرة لم يكن بحاجة إلى المرور بالمرحلة البينية الشكية . ذلك أن الأعتقاد الغيبي لديه كان أعتقادا أوليا . فهو

كان يجد نفسه مدفوعا إلى التلبس بالإيمان بغير أن يختار بين وجود للإله أو عدم وجوده كما هو الحال بالنسبة للإنسان الحضارى .

فانسان ما قبل الحضارة لم يكن يفكر بالطريقة النقدية الشكية التى نفكر نحن بها . وكان هذا يعزى إلى عاملين أساسيين : الأول — عامل التكوين الفسيولوجى ، والثانى — عامل التكوين الاجتماعى . فبالنسبة للعامل الأول فان مخ الإنسان القديم كان يضطلع بالوظائف الوجدانية الانفعالية بالدرجة الأولى ، بينما كان اضطلاعه بالوظائف العقلية بالمعنى الذى نعرفه اليوم ضئيلا لايكاد يذكر . فكانت مناشطه العملية مرتبطة بمناشطه الوجدانية والأنفعالية . ومن جهة أخرى فان عامل التكوين الأجتماعى وبنية المجتمع الذى كان قائما كانا يعملان على الأحساس جماعيا لا فرديا . فلم تكن المشاعر الفردية فى استقلال أو فى تباين أو تعارض فى أية ناحية من النواحى عن المشاعر الجمعية فكان الفرد يقتبس مشاعره من مشاعر الجماعة التى قيض له وكتب عليه أن ينخرط فيها .

أما إنسان الحضارة وبخاصة الإنسان الحديث فانه صار يمر بالمرحلة البينية الشكية لفترة طويلة بل أنه صار أكثر من هذا يتقلب بين الأعتقاد الغيبى وبين النكوص إلى المرحلة البينية الشكية لأكثر من مرة خلال فترات متعاقبة من حياته . ويرجع هذا فى الواقع إلى خمسة عوامل أساسية نعرضها على النحو التالى :

أولا — التغيرات الفسيولوجية التى وقعت بالمخ الإنسانى عبر ثاريخ تطوره وقد كان ذلك التطور لصالح المناطق الذهنية بالمخ ولغير صالح المناطق الوجدانية الأنفعالية به . وثمة فى الواقع علاقة تأثيرية متبادلة بين المناشط والأهتمامات الإنسانية وبين التكوين الفسيولوجى الوظيفى للمخ . فمن الحقائق المعروفة أن العضو الذى يهمل عبر الأجيال المتعاقبة يأخذ فى الذبول والضعف . فاهتمامات الإنسان الواقعية الموضوعية وما ترتب على ذلك من طمأنينة وايمان بالوجود الواقعى يركن إليه ويفيد منه ويعتقد أنه كفيل

بحمايته ، قد عمل على تقوية المناطق المسئولة عن الادراك والتفكير على حساب المناطق المسئولة عن الوجدان والأنفعال بالمخ الإنسانى . ومن الطبيعى أن ما يقيض من قوة للمناطق الذهنية بالمخ تنعكس بدورها فيما يقوم به الإنسان من مناشط ذهنية .

ثانيا – العوامل التربوية . ومن الواضح الذى لايحتاج إلى برهان أن الإنسان الحديث يحفل ويكلف بالرموز يضعها نصب عينيه فى المقام الأول . والرموز صنو للتفكير أو هى ثمرته من جهة ومحركته من جهة أخرى . والرمز يتمثل فى الكلمة المنطوقة والكلمة المكتوبة والصورة والتمثال وغير ذلك . وطالما أن الإنسان يعتمد على الرمز يستند إليه فى حضارته ، فانه بالتالى يجيل ذهنه وقد وضع نصب عينيه الاختيارات التى يقع على بعضها ويرفض بعضها الآخر . وبالتالى فان الإنسان يمر بالضرورة فى المرحلة البينية الشكية قبل التوصل إلى اختيار محدد . وانك لتجد مؤسساتنا بدءا بالأسرة واستمراراً بالمدرسة بجميع مسمياتها ثم بالمؤسسات المتباينة إنما تعتمد على الرمز تجعله فى المقام الأول وتمكن أفرادها منه وتشربهم ما يستجد من رموز جديدة .

ثالثا – أخذ رجال الدين بمناهج رجال العلم والتفكير الوضعى فى سوقهم للمعتقدات الدينية . فلم يعد رجل الدين يعتمد على الغريزة التعبدية تسير سلوك الناس ، بل صار يجادل الناس أو يحاول اقناعهم منطقيا بصحة المعتقدات الغيبية . ومعنى هذا بشكل آخر أن رجل الدين صار يعترف بالمرحلة الشكية البينية ويخوض مع أتباعه فيها محاولا إخراجهم منها وقد وقع اختيارهم على الجوانب الإيجابية التى ألمعنا اليها كوجود الله وخلود الروح والثواب والعقاب فى الآخرة ونحو ذلك من مسائل غيبية .

رابعا – ارتباط الكثير من المسائل الغيبية بمسائل إنسانية ليست غيبية ووجود اعتماد من جانب المسائل الإنسانية على تلك الغيبيات . من ذلك التشريع الجزائى والتشريع الأقتصادى والأخلاق والتعامل بل وبعض مناحى الفكر كالفلسفة الدينية والأدب والفن فى بعض جوانبها . والواقع أن مثل هذا

الارتباط جعل من المحتم مرور المرء فى جميع المسائل الغيبية ومايتشعب عنها بالمرحلة الشكية البينية

خامسا ــ لقد صار إنسان الحضارة يعتمد على ركيزتين أساسيتين فى تفكيره : الأولى ــ الفوائد المتأتية عن الأشياء وبضمنها الأفكار والمشاعر ، والثانية ــ البرهان على صحة الأفكار واتساقها وعدم تناقضها . وطالما أن هاتين الركيزتين متوافرتان عند المرء ، فانه يمر بالضرورة فى المرحلة البينية الشكية قبل الاعتقاد الغيبى .

الاعتقاد الايحائى :

الايحاء هو الاقتناع بشىء بغير برهان على الأطلاق أو بما يشبه البرهان وهو ليس من البرهان فى شىء . فثمة أعتبارات أخرى غير المنطق والتفكير المتجرد عن الهوى لها شأن بعيد المدى فى الموقف الايحائى . ويحسن بنا أن نعرض لتلك الاعتبارات لأن فى ضوئها يمكن أن نستبين أنواعا متباينة من الايحاء .

ولعل الأعتبار الأول فى الإيحاء يتعلق بمرحلة النمو . فمن الممكن أن نقول بصفة عامة إن الطفولة تخضع إيحائيا لأصحاب الأعمار الأكبر . فالطفل مستعد للتلقى عن الكبار والاقتناع بما يقولونه له بغير أن يقدموا إليه براهين ناجعة تؤيد ما يقولونه له . وحتى فى المراهقة والشباب فان المرء يكون مستعدا للأخذ عن الكبار وتلقى ما يوحون به إليه بغير برهان ناجع طالما أن الكبير يحتل مكان التقدير من جانب المراهق أو الشاب . فالاستيلاء على قلوب المراهقين والشباب له اليد الطولى فى إقناعهم إيحائيا لا عقليا بما يقال لهم من أفكار أو أوامر أو مقترحات .

أما الأعتبار الثانى فى الإيحاء فانه يتعلق بالخبرة فى المجال الذى يتم فيه الايحاء . فالتلميذ يكون مستعدا لتصديق مدرسه ، والمريض يكون مستعدا لتصديق ما يقوله له الطبيب عن مرضه . وقل نفس الشىء بالنسبة لجميع المواقف التى يكون المرء فيها أقل خبرة من غيره . فشأنك أمام الترزى وقد

حملت له القماش لتفصيل حلة جديدة لك هو القابلية للايحاء بما يقوله لك عما يناسبك وما لايناسبك من أشكال وأطوال وأنماط . ولك أن تقول نفس الشيء بالنسبة لجميع الخبرات . فالأقل خبرة فى شأن ما من شئون الحياة يكون أكثر قابلية للايحاء من صاحب الخبرة الكبيرة فى ذلك الشأن .

والاعتبار الثالث يتعلق بالمكانة الأجتماعية . فالزعيم والرئيس أكثر قدرة على الايحاء للتابعين والمرءوسين من قدرة الأعضاء والزملاء بعضهم لبعض . فما يقوله الزعيم لأتباعه لايكاد يجد مناقشة أو جدالا ، وكذا حال الرئيس فى العمل . بيد أن الزعماء يختلفون من واحد لآخر فى مدى ما يتمتع به كل واحد منهم من زعامة ، وكذا الحال بالنسبة لما يتمتع به كل رئيس من موهبة رئاسية قيادية فى مجال عمله وبازاء من يقوم بقيادتهم وتوجيه دفتهم فى العمل . والأغلب أن يكون الزعيم أو الرئيس صاحب قدرة إيحائية كبيرة بفضل ما يتمتع به من حب وخوف فى نفس الوقت . فاذا اجتمع هذان العنصران فى شخص الزعيم أو الرئيس ، فانه يكون عندئذ صاحب قدرة ايحائية كبيرة . ولكن الملاحظ أنه إذا أفتقد أحد هذين المقومين وذلك بأن يكون مخوفا وغير محبوب ، أو يكون محبوبا وغير مخوف ، فان قدرته على الايحاء لمن يقعون تحت إمرته تكون ضعيفة وغير ذات فاعلية .

أما الاعتبار الرابع فانه يتعلق بالحصول على قوة غيبية روحانية . فرجل الدين والساحر فى القبائل البدائية لهما قدرة ايحائية بعيدة المدى . وفى مجتمعاتنا الحديثة أيضاً نجد أن رجال الدين يتمتعون بتلك القوة الايحائية ، فلا يلقون نقدا بازاء ما يقولونه بفضل إيمان المؤمنين بدينهم بأن ما يستندون إليه ليس فكرهم البشرى ، بل هو فكر لدنى استلهموه بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر من الكتب المقدسة ومن الالهام الالهى بفضل انصرافهم إلى التعبد والتقرب من الله .

والاعتبار الخامس والأخير يتعلق بالمواهب الايحائية الشخصية لأسباب تتعلق بالجمال الشكلى أو جمال الصوت أو جمال الحركة . فالمرأة الجميلة يمكن

أن تخضع الرجال لتأثيرها الايحائى فتستلب ألبابهم وتبطل قدرتهم على النقد . والواقع أن الجمال يمكن أن يلعب دوراً كبيرا فى جميع شئون الحياة . فلقد يساعد صوت الخطيب أو المحاضر وبلاغته وجمال لفظه وبهاء طلعته على اقناع مستمعيه بما يقوله من كلام غير معقول أو حتى بكلام محشو بالمتناقضات والذى لايقوم على أساس من الموضوعية أو الفكر الثاقب . وكذا فان جمال اللون يمكن أن يصرف النظر عن الخامة فى أحد الأقمشة أو عند اختيار الأثاث فالجمال يلعب دورا خطيرا فى الايحاء وحمل الناس على الأعتقاد بما يشيع به من أشياء وأشخاص بغير إجالة للفكر النقدى ومحاولة كشف العيب أو الزيف .

وفى ضوء هذه الاعتبارات الخمسة السابقة — أعنى مرحلة النمو والخبرة والمكانة الأجتماعية والقوة الغيبية وأخيرا الجمال — فاننا نستطيع أن نقرر أن الأعتقاد الايحائى يرتكز على أسس غير عقلانية وغير منطقية . وليس من شك فى أن الأعتقاد الايحائى يلعب دورا بعيد المدى فى العلاقات الأجتماعية وفى تنشئة الفرد وفى تماسك المجتمع . وعلينا فيما يلى أن نعدد جوانب الأهمية فى الأعتقاد الايحائى على النحو التالى :

أولا — يعمل الأعتقاد الايحائى على المساهمة بأكبر قدر فى تنشئة الأجيال الجديدة . ومن المعروف أن الأطفال لم يهيأوا بالتفكير المنطقى الموضوعى ولم يقيض لهم رصيد من الخبرة يسمح لهم بتمحيص ما يقدم اليهم من أفكار أو ممارسات. فلو لم يهيأوا بهذا النوع من الأعتقاد يصل بهم إلى التقبل والتشرب بغير إجالة للفكر وبغير اعتراض بالنقد ، فلم يكن لهم اذن أن يحصلوا على خلاصة خبرات الكبار ، ولما كانوا قد امتصوا قيمهم ، أو قل لم يكن لهم أن يحصلوا على الركائز المعرفية الأساسية التى يمكن بعد ذلك أن ينبنى عليها ما هو عقلانى وما هو منطقى . ويخطىء فى الواقع من يعتقد أن ما هو معرفى عقلى وموضوعى ينبنى على أسس عقلية منذ بواكير العمر ، كما يخطىء من يعتقد أن التربية الحقيقة بالاعتبار هى تلك التربية العقلية المنطقية التى لاتفسح

مجالا للأعتقاد الايحائى . فمن الحقائق المعروفة أن المنطق ينبنى على الوجدانى ، كما أن الوجدانى ينبنى على البيولوجى . فالشخصية الإنسانية هرمية البناء . وقاعدة الهرم تتمثل فى القوام البيولوجى ، والطبقة الأولى التى تقوم على القاعدة البيولوجية العريضة هى الطبقة الوجدانية ، والطبقة الثالثة هى الطبقة العقلية وأخيرا تأتى الطبقة الاجتماعية : على أن تلك الطبقات متداخلة بعضها مع بعض ولا تنتهى منها طبقة لكى تبدأ طبقة تالية فى الظهور ، بل هناك تكامل واستمرار فيما بين الطبقات المتباينة .

ثانيا — الأهمية الثانية هى الحفاظ على التراث والقيم والعادات والتقاليد الاجتماعية : ولاشك أن القيم والمعتقدات الدينية لم يكن لها أن تنتقل راسخة من جيل قائم إلى جيل نابت لولا توافر الأعتقاد الايحائى فى الجبلة البشرية منذ نعومة الأظفار . وثمة فى الواقع فى الحضارة الإنسانية مقومات ايمانية وتذوقية ربما تفسد إذا ماخضعت للنقد والتمحيص العقلى ، وليس من سبيل للتشرب بها والتشبع بمقوماتها الا السبيل الايحائى التقبلى غير النقدى . فحتى بالنسبة للكبار فان الطريق إلى تثبيت القيم الدينية فى قلوبهم ليس المدارسة المنطقية الموضوعية ، بل إدخالهم فى الاطار الوجدانى الايمانى بالاستمالة والايحاء الايمانى .

ثالثا — تسيير الأمور المصلحية والمسائل اليومية ذات الجوانب المعقدة نوعا أو كثيرا ، والتى لايتسنى للمرء تمحيصها بعقله والقاء أشعة النقد عليها لأنها ذات أساس خبرى يحتاج إلى طول إعداد وإلى نوع من التخصص . وقد ضربنا أمثلة على ذلك بالمريض بازاء الطبيب وبغير ذلك من علاقات بين الأقل خبرة والأكثر خبرة . وواضح أن مواقف الحياة اليومية لاتحتمل التمحيص والمدارسة ، بل هى ترتكز على الثقة فى صاحب الخبرة والاعتماد على الأعتقاد الايحائى فى الاستناد إلى مالديه من خبرة .

رابعاً — نستطيع القول بأن هذا النوع من الأعتقاد الايحائى هو الذى يكفل التواقف الاجتماعى والتكافل بين أبناء المجتمع الواحد ، بل إنه هو

الذى يضمن استقرار المجتمع وترابطه وخضوع الصغار للكبار — بكل ما تحمله كلمة صغار وكلمة كبار من معنى ومن زوايا كثيرة .

خامسا — أخيراً فان التقدم الاجتماعى منوط فى جانب كبير منه بهذا النوع من الايمان الايحائى. ذلك أن هذا الأعتقاد الايحائى يقدم تلخيصا للخبرة البشرية فى جرعة واحدة أو فى موقف واحد بحيث لايكون على المرء أن يبدأ من الصفر فى كل موقف . فهو يحصل — أو قل يحظى — بآخر مستوى حضارى توصلت إليه البشرية فى شأن ما من الشئون . فعن طريق هذا النوع من الأعتقاد تستطيع أن تقفز من لاشىء إلى كل شىء ، وذلك بمجرد تقبلك لما يقدم اليك من أفكار أو معتقدات أو ممارسات . ولعل الفضل كل الفضل يرجع إلى هذا النوع من الأعتقاد فى النقل الحضارى بين المجتمعات بعضها وبعض ، سواء فى العصر الواحد أم خلال العصور المتعاقبة منذ القدم .

الفصل الخامس

الشك والعلاقات الأسرية

الشك عند اختيار شريك الحياة :

دأبنا فى الفصول الأربعة السابقة على ترديد معنى الشك من وجهة نظرنا. ولعله أن يكون معنى مستحدثاً ، وهو أن الشك يعنى الوقوف بصدد أكثر من اختيار واحد فى الموقف بحيث يحس المرء بشيء من الحيرة إلى أن يقع على أختيار من بين الاختيارات المتوافرة بذلك الموقف . ولقد قلنا إن أقل عدد من الأختيارات يمكن أن تتوافر بالموقف هو اختياران ، أعنى الأختيار بين إيجابية الشيء وسلبيته ، كأن يكون بين حكمين على شخص ما من الأشخاص : هل هو صالح أو ردىء ، أو هل هو خير أو شرير ؟(١)

وبالنسبة لأختيار شريك الحياة يكون هناك نوعان من المواقف الاختيارية أو الشكية : النوع الأول — وهو النوع البسيط — ويكون الشك فيه منصباً على شخص واحد ، ويكون الشك أو الموقف الأختيارى عندئذ هو : هل هذا الشخص مناسب للأقتران به أم أنه لايصلح ؟ أما النوع الثانى فهو النوع المركب حيث يكون الأختيار من بين شخصين أو أكثر ، فيكون أمام المرء أن يفاضل بين هذين الشخصين أو أولئك الأشخاص ، وعندئذ لايكون الأختيار كليا ودفعة واحدة ، بل يكون بمقارنة جوانب متباينة بعضها ببعض فى الأشخاص المعروضين بالموقف جميعاً . من ذلك مثلا شكل الشخص وثقافته وأخلاقه والعمل الذى يمارسه وأسرته إلى غير ذلك من جوانب يمكن

---

(١) عدلنا هنا عن الرأى الذى سبق أن سقناه بصفحتى ٣١ ، ٣٢ حيث قلنا بأن الخيار ينتفى بازاء إيجابية الشيء وسلبيته ونقرر أن هذا ممكن فى مواقف الحياة العملية .

عقد مقارنات فيما بينها لدى الأشخاص المتباينين المتاحين بالموقف الشكلي أو الأختياري .

بيد أن ما يحدث فعلا فى الواقع العملى شىء وما يمكن رسمه على الورق والتأكيد عليه شىء آخر . فمن الممكن أن نخطط لقائمة تقييمية ونوزع عليها درجات بنهاية عظمى ونهاية صغرى بحيث تتضمن تلك القائمة التقييمية معظم النقاط الأساسية التى يجب اخضاع جميع الأشخاص المتوافرين بالموقف الاختيارى لعملية التقييم فى ضوئها بقصد الحصول على قياس موضوعى إلى أبعد حد ممكن ، ثم المفاضلة أخيراً بينهم فى ضوء ما يحصل كل منهم من درجات . ولكن هل توفر مثل هذه الطريقة التقييمية فرص التوفيق فى الأختيار بحيث تكون الحياة مع ذلك الشخص كشريك عمر سعيدة ؟

إننا نشك فى ذلك ، بل إننا نرفض هذه الطريقة التقييمية الموضوعية لمجموعة من الأسباب يحسن بنا أن نعرضها ملخصة فيما يلى :

أولا — إن كل واحد منا نحن البشر يهتم بناحية أو أكثر بدرجة بالغة الأهمية بحيث تكون تلك الناحية أو تلك النواحى بمثابة الاهتمام المحورى بالشخصية . فالواحد منا يكون على أستعداد للتنازل عن جميع النواحى الأخرى مهما بدت هامة فى أنظار الآخرين ، ولكنه لايكون مستعدا للتنازل عن تلك الاهتمامات المحورية الجوهرية التى يجعلها نبراسا له يهتدى به فى الأختيار . فاذا أنت ألزمت الشاب أو الشابة بمثل تلك البطاقة التقييمية ، فان أهتماماته المحورية لاتكون قد حظيت بنصيب الأسد فى التقييم ، بل ربما تكون تلك الأهتمامات المحورية مجرد جوانب ثانوية لايكون واضع البطاقة التقييمية قد أناطها الا باهتمام ضئيل وثانوى .

ثانيا — ومن جهة أخرى فان تلك الجوانب المحورية تختلف من شخص لآخر ، ومن ثم فان عليك لدى وضع البطاقة التقييمية أن تمتنع عن توزيع الدرجات على العناصر التى تتضمنها البطاقة ، ومن ثم فان صفة التعميم — وهى صفة ضرورية — سوف تتزايل من تلك البطاقة ، وبالتالى فانها تكون قد ألغت نفسها بنفسها .

ثالثاً — بعض مقومات الشخصية التى يحكم عليها بأنها صفات رديئة قد تصادف هوى فى بعض القلوب . خذ مثالا لذلك العنف أو القسوة . إنك وأنت تضع بطاقة التقييم ، ربما تعتبر أن العنف أو القسوة صفة تنم على النقص والرداءة ، ولقد تضع فى بطاقة تقييمك صفة مضادة هى الدماثة والليونة : وأنت لاتدرى أن بعض الناس يتعشقون الشخصيات العنيفة أو القاسية وينبون عن الشخصيات الدمثة أو اللينة .

رابعا — إن بطاقة التقييم التى يمكن أن تضعها أنت أو غيرك ربما تغفل جوانب غير ذات أهمية فى رأيك ، بينما هى بالغة الأهمية لمن تقدم اليهم تلك البطاقة لكى يختاروا شركاء حياتهم فى ضوئها . لقد تسقط من حسابك مثلا لون الشعر أو نعومته ويكون الشخص الذى يقبل على استخدام بطاقتك مهتما بتلك الناحية التى ربما تكون قد أعتبرتها نواحى تافهة ولاتستحق أن تذكر .

خامسا — الواقع أن تقييمنا الفعلى لايسير من الأجزاء إلى الكل كما قد يظن بعض واضعى مثل تلك البطاقات ، بل هو يسير من الكل إلى الأجزاء . فأنت عندما تقابل شخصاً لأول مرة فانك تسارع بمجرد ادراكك له بتقديم حكم تذوقى كلى عليه ، وذلك بأن تتقبله أو لاتتقبله . وعلى الرغم من أنك تأخذ فى استبانة جزئياته وجوانبه الفرعية ، فانك لدى إصدار أحكامك التالية عليه ، تتشبث بالنظرة الكلية إليه . ولعلنا نترجم هذه الفكرة مرة أخرى وبطريقة أخرى فى ضوء مايسمى بالحدس ، وهو مقوم ذهنى مباين تمام التباين للعقل . فالعقل منطقى استدلالى ، بينما الحدس وجدانى كشفى . فأنت بالحدس تقف على حقيقة الأشياء والأشخاص دفعة واحدة بغير تمييز لمقومات أو أجزاء . انك تحكم على شخص ما بأنه مناسب لأن يكون شريكا لك فى الحياة أو غير مناسب بتلك الموهبة الحدسية الطفرية .

ونستطيع فى الواقع أن نقسم الناس جميعاً إلى فئتين كبيرتين : فئة العقلانيين ، وفئة الحدسيين . وأفراد الفئة الأولى يعتمدون على التقييم العقلى المنطقى ، بينما يعتمد أفراد الفئة الثانية على الحدس الطفرى فيقعون على أحكامهم فجأة وبشكل كلى وباحساس داخلى عميق . وبينما نجد أن العقلانيين

يختارون شركاء الحياة وفق معايير منطقية وموضوعية مستخدمين ما يشبه بطاقة التقييم التى ألمعنا اليها قبلا ، فاننا نجد أن الحدسيين يعمدون إلى اختيار شركاء حياتهم بالحدس الطفرى الذى لايعتمد على مقدمات واستدلالات عقلية .

والواقع أن الشك بالمعنى الذى سقناه قبلا يتوافر فى موقف الفئتين السابقتين جميعاً . فهو متوافر لدى العقلانيين ولدى الحدسيين . بيد أن توافره لدى العقلانيين يكون بشكل شعورى منطقى ، بينما يكون توافره لدى الحدسيين بشكل ضمنى وبغير مرور فى عمليات عقلية شعورية . فبينما نجد أن العقلانى يفاضل بين من يقابلهم من شخصيات ليختار من بينها شريك الحياة بالتقدير المنطقى الموضوعى ، فان الحدسى يفاضل بين من يقابلهم ليختار من بينهم بما يحسه ، أو بمقدار ما يحسه قبالة كل منهم . فالمفاضلة التى يعقدها الحدسى مفاضلة طفرية وكلية وبغير مرور فى التفاصيل والجزئيات .

وسواء كنت عقلانيا أم كنت حدسياً ، فان الواجب عليك أن تجعل مرحلة المفاضلة معقولة بحيث يتسنى لك الخروج من إطارها إلى إطار إصدار الحكم بالاختيار للشخصية التى تقبل أن تكون شريكة حياة أو بالأحرى ترغب فيها . وهناك من بين الشخصيات التى نعرفها أولئك الذين يتعذر عليهم الخروج من مرحلة الشك إلى مرحلة اليقين . إنهم يظلون محبوسين فى اطار المفاضلة العقلية أو الحدسية لايريمون عنها ولايتخلصون من إسار أسوارها العالية . والحقيق بك أن تحيل مرحلة الشك إلى مرحلة إرادة . والشك موقف عقلى والقرار الذى تتخذه موقف نزوعى . فأنت لاتظل محلقاً فى أجواء الفكر أو الحدس ، بل تهبط إلى أرض الواقع فتختار وتصدر قرارا حاسما بالأختيار .

ولكن قد يكون أختيارك مجابها بالرفض من الطرف الآخر . فبينما تكون أنت قد حسمت الموقف وأصدرت القرار ، فان الطرف الذى تكون قد أخترته لايكون قد حزم أمره . فماذا تفعل اذن ؟ ان عليك أن تحضه على الاختيار والخروج من مرحلة الشك إلى مرحلة اليقين حتى ولو لم يكن ذلك اليقين لصالحك وحتى لو لم تكن أنت الشخصية المختارة دون الآخرين . فاذا ظل ذلك الطرف الآخر معلقاً فى سماء الشك ، فان عليك أن تحدد أنت موعدا

نهائيا له لكي يختار بغير تردد أو تذبذب . فاذا حل الموعد المحدد ، وظل ذلك الطرف الآخر فى حالة من الشك ، فانك تكون حرا إذن فى البدء من جديد منخرطا فى مرحلة شكية جديدة تصل بعدها أنت وطرف آخر إلى قرار نهائى وحاسم .

الشك بين الزوجين :

من المفروض أنه ببداية الحياة الزوجية فان مرحلة الشك أو الأختيار تكون قد انتهت إلى غير رجعة . ذلك أن المفترض أن يتم الزواج بعد فترة أختيار — وقد وحدنا بين معنى الأختيار ومعنى الشك — حيث تكون هناك أختيارات متباينة يقع الشاب أو الشابة بنهايتها على شريك الحياة بغير تبديل أو تغيير . ولكن ما يفترض شىء وما هو واقع شىء آخر . ولعلنا نعرض فيما يلى لحالات الشك التى تنتاب الزوجين بعضهما فى بعض :

أولا — عقد مقارنة بين الطرف الآخر وبين شخص آخر من جنسه . فلقد تقوم الزوجة بمقارنة زوجها برجل آخر ، أو يقوم الزوج بمقارنة زوجته بامرأة أخرى . والواقع أن مثل تلك المقارنة تحمل فى طياتها معنى الأختيار أو المفاضلة . فكأن لسان حال الزوجة فى هذه المقارنة يقول « أى الرجلين كنت أختار لكى يكون زوجا لى لو لم أكن قد أخترت بالفعل وتزوجت بزوجى هذا ؟ ونفس الشىء بالنسبة للزوج . فلسان حاله فى أثناء المقارنة بين زوجته وأمرأة أخرى يقول « من كنت أختارها زوجة لى من بين المرأتين لو لم أكن قد تزوجت زوجتى هذه بالفعل ؟ ولقد تكون المقارنة مستمرة من جانب الزوج أو الزوجة ، وذلك بأن تعقد المقارنات باستمرار بين شريك الحياة وبين كل رجل يعجبها أو كل أمرأة فى مواقف الحياة المتباينة تعجب الزوج .

ثانيا — مقارنة الميزات والعيوب لدى الزوج أو الزوجة للوقوف على القيمة التى يتمتع بها . ولكأن السؤال المثار فى هذه المقارنة هو : « هل المزايا المتوافرة فى شريك الحياة تفضل عيوبه وترجح عليها ؟ والواقع أن مثل

هذه المقارنات بين المزايا والعيوب لدى شريك الحياة إنما تعبر عن قلق نفسى بازائه . فلسان حال الزوجة أو الزوج هو « هل أنا تورطت فى هذا الزواج وكان يجب ألا أربط حياتى به أم أنى وفقت فى ذلك ؟ » ومعنى هذا بتعبير آخر أن مجال الأختيار يظل مفتوحا ولو فى الذهن فحسب .

ثالثا — عقد مقارنة بين شريك الحياة وبين صورة ذهنية لشخص خيالى أو لمثل أعلى ارتسم فى ذهن المرء قبل الزواج ومنذ طلائع المراهقة يكون قد استمده من الأشخاص المحيطين به أو يكون قد ركبه من عدة أشخاص قابلهم أو عاشرهم أو تعامل معهم وأعجب بجوانب معينة بشخصياتهم . ومعنى هذا أن المقارنة الشكية هنا تكون بين الواقع وبين ما كان يجب أن يكون وليست بين الواقع وواقع آخر .

رابعاً — المقارنة بين ظاهر السلوك وبين المشاعر الحقيقية التى يكنها الطرف الآخر للمرء . فهنا نجد أن الزوجة تقول لنفسها « هل الكلام الحلو والمغازلة التى يبديها زوجى لى تعبر عن رصيد وجدانى يحتفظ به لى فى قلبه ، أم أن كلامه ومايبديه لى من عواطف إنما هو زيف من الزيف ؟ » ونفس الشيء فاننا نجد أن الزوج قد يقول لنفسه « هل ماتبديه زوجتى لى من إعجاب وحنان يعبر عن مكنون نفسها وعن حقيقة مشاعرها نحوى ؟ » فالمقارنة هنا هى بين الظاهر والباطن ، أو بين السلوك الخارجى وبين اللاشعور المدفون فى طيات الشخصية .

خامسا — المقارنة بين الصورة الذهنية التى رسمها المرء لشريك الحياة فى ذهنه وبين الصورة الذهنية التى رسمها الناس والمتعاملون معه عنه فى أذهانهم . لقد تقول الزوجة لنفسها « هل بالغت فى رسم صورة ذهنية لزوجى ليست بنفس الروعة فى أذهان الناس ؟ أو بتعبير آخر : هل أحمل لزوجى صورة ذهنية وتقريرا عظيما بينما يحمل له الناس فى أذهانهم صورة باهتة ولايحملون له فى صدورهم أى تقدير ؟ » وعلى نفس المنوال قد يقول الزوج لنفسه « هل أرى زوجتى جميلة بينما يراها الآخرون دميمة الخلقة ؟ وهل يمكن أن أكتشف

فجأة ما هى عليه من قبح حيث تتطابق الصورة الذهنية عندى مع الصورة الذهنية عند الآخرين ؟ »

ولنا أن نزعم أنه إذا وصلت العلاقة بين الزوج وزوجته إلى حد الأتهام بالخيانة الجنسية أو مايشبه الخيانة الجنسية فان المسألة فى رأينا تكون قد تعدت حدود الشك إلى حدود الاتهام الصريح . ولقد سبق أن حددنا الشك بأنه الوقوف فى مجابهة اختيارات على المرء أن يختار من بينها . فاذا بلغ المرء حد أتهام الطرف الآخر بأنه خائن ، فانه يكون قد جاوز حد الشك إلى إصدار حكم محدد بأن الطرف الآخر خائن بالفعل . وطالما خرج المرء من حدود الموقف الأختيارى إلى الموقف الحكمى ، فانه يكون اذن قد خرج من اطار الشك إلى أطار اليقين . واليقين هنا هو الاتهام بالخيانة .

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن هناك بعض الفوائد للشك بين الزوجين بالمعانى الخمسة التى عرضناها قبلا ، كما أن هناك بعض المضار التى تنجم عنه . وفيما يلى أهم تلك الفوائد التى تتأتى عن هذا النوع من الشك :

أولا — إن الواقع النفسى يتباين عن الواقع الأخلاقى . فاذا كانت الأخلاق تأمرنا بأن نتوقف عن المفاضلة بين شريك الحياة وبين من قابلهم من شخصيات حقيقية أو خيالية أو مقارنة شريك الحياة بنفسه ، أو مقارنة مزاياه بعيوبه ، فان الواقع النفسى يتباين عن ذلك تماما . فالإنسان بطبعه كائن دائب التقييم لكل شىء مما فى ذلك من يرتبط بهم من أشخاص وعلى رأسهم شريك الحياة . ولاشك أن عقد مثل تلك المقارنات لدليل واضح على أهتمام المرء بشريك حياته . فمن المعقول أن يتغاضى المرء عن تقييم الأشخاص الذين لايعبأ بهم فيتخذ موقف اللامبالاة بازائهم . ولكن الحال ليس كذلك بالنسبة للأشخاص الذين يحتلون مكان الصدارة فى اهتمام المرء .

ثانيا — ليس من المفترض أن يكون شريك الحياة كاملا لاتشوبه أية نقيصة من أى نوع . ومثل هذا الافتراض لايعتمل الا فى أذهان السذج أو المجانين . ومن يفترض أن يكون شريك حياته كاملا والا فانه يكون قد

أفتقد صفة من له قيمة ، فانه يكون اذن شخصاً غرا غير واقعى . فلا مانع اذن من التقييم حتى يحصل المرء على صورة ذهنية واقعية لشريك العمر .

ثالثا — إن مثل تلك المقارنات الشكية يمكن أن تشكل باعثا لدى شريك الحياة يدفع به إلى تحسين سلوكه وتغيير الجوانب الرديئة فى شخصيته وإحلال جوانب جيدة محلها . وأكثر من هذا فان إبراز ما هو حسن فى شخصية الطرف الآخر لما يشجعه على الاستزادة من تلك المزايا والتشبث بها والتقدم خطوات دائبة إلى الأمام .

رابعاً — لاشك أن المقارنات التى يمكن عقدها بين شريك الحياة وبين الآخرين قد تكون لصالحه مما يعمل على زيادة قيمته فى نظر من يقوم بعقد مثل تلك المقارنات سواء كان الزوج أم الزوجة . ولعلنا نتساءل : وكيف يتسنى للمرء أن يقف على قيمة شريك الحياة الا إذا هو قام بعقد مثل تلك المقارنات ؟

خامسا — إننا نجد أنه فى ضوء ما نعيش فيه من واقعية فى جميع مناحى الحياة ، فان موقفنا بازاء شريك الحياة لايمكن أن يختلف عن موقفنا بازاء كل مايحيط بنا من أشخاص وأشياء ومواقف . فطالما أننا اعتدنا فى ظل حضارتنا الراهنة أن نكون واقعيين لا رومانسيين ، فان أتخاذ الموقف الشكى — بالمعنى الأختيارى الذى طالما سقناه قبلا — يكون منسجما مع واقع حياتنا وما أعتدناه من مواقف واتجاهات .

على أننا لاننكر ما للموقف الشكى من مضار أو أخطار ، وبخاصة إذا كان سبيلا إلى إصدار قرار بعدم صلاحية أو بعدم قيمة الطرف الآخر . فلا شك أن تغليف الحياة الزوجية بالرومانسية يكسبها قدسية وروعة ، بينما نجد أن خلع الهالة التى تحيط بها وتجريدها من الجو العاطفى الجديرة به ، لما يفقدها ما يجب أن تتسم به من جلال ومايحيط بها من خيال .

وخلاصة القول إن الشك فى الحياة الزوجية إذا كان وسيلة لابراز مزايا شريك العمر فانه يكون شكاً مفيداً وذا فاعلية . أما إذا أستخدم لتعرية ذلك

الطرف الآخر من المزايا بالمقارنة إلى الآخرين فانه يكون إذن معول هدم للحياة الأسرية والنكوص بها عن آفاق السعادة والاعتزاز .

الشك بين الأسرتين النسيبتين :

من الملاحظ أن الدراسات التى كرست للوقوف على العلاقات الأسرية لم تول اهتماما ذا بال بالأسرتين النسيبتين ، بل ركزت جل الجهد على العلاقة بين الخطيبين أو الزوجين ثم بين الآباء والأبناء . والواقع أن ثمة علاقة هامة تقوم فيما بين الأسرتين النسيبتين سواء فى فترة الخطوبة أم بعد ذلك خلال الزواج . ونحن نرى أن العلاقات التى تقوم بين الأسرتين النسيبتين على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة للخطيبين ثم بالنسبة للزوجين بعد إتمام الزواج ، بل إن تلك العلاقات تنعكس على نحو أو آخر على العلاقات الأسرية المتباينة إن بالإيجاب وإن بالسلب .

ومن الجدير بالملاحظة أن العلاقات التى تقوم بين الأسرتين النسيبتين هى من النوع المعقد أشد التعقد . فاذا أفترضنا أن كل أسرة من الأسرتين النسيبتين تتكون من خمسة أفراد ، فانك لاتستطيع أن تحصر العلاقات التى يمكن أن تقوم فيما بين أفراد الأسرتين . إننا إذا ما أتخذنا علاقات التوافيق والتباديل فى الحسبان ، فاننا نجد أن العلاقات الممكن قيامها بالآلاف . ويمكن أن نتخيل أن كل علاقة فردية بين فرد وآخر يمكن أن تتلون بأطياف متباينة إذ تحدث تقلب فيما بين الحب الشديد والكراهية الشديدة . وطبيعى أن كل علاقة من تلك العلاقات الفردية تؤثر على نحو أو آخر فى العلاقات الفردية الأخرى ، بل إنها قد تؤثر فى العلاقات التى يشترك فيها أكثر من فرد واحد .

وإذا نحن رجعنا إلى مفهوم الشك الذى حددناه وبنينا عليه كل ماذهبنا إليه فى الجزء الذى قطعناه من مشوار هذا الكتاب ، فاننا نجد أن الفترة السابقة على الخطوبة ، بل وأيضاً فترة الخطوبة إنما تكونان فترتى شك من جانب الأسرتين اللتين تزمعان الأقتران بعضهما ببعض . فقبيل الوقوع على الإختيار تكون هناك بدائل كثيرة أو قليلة أمام كل أسرة من الأسرتين . وحتى فى

أشد المجتمعات استقلالا توفره لأبنائها وبناتها ، فان هناك قدرا معينا من تأثير الأسرتين فى الأبن والبنت اللذين يزمعان عقد خطوبة فيما بينهما . ويخطىء من يعتقد أن الخطوبة والزواج يتمان بين شاب وشابة فحسب ، وأنه لا دخل لأسرتيهما فى ذلك . ناهيك عن المجتمعات الشرقية — كالمجتمع المصرى — حيث يكون تدخل الأسرتين فى الاختيار بعيد المدى .

والموقف الاختيارى أو الشكى يتبدى فى موقف الأسرتين خلال الخطوبة أو قبلها فى المواقف الاختيارية المتعددة التى تتبدى لديهما . ولعلنا نحصر الموقف الشكى فى أضيق نطاق إذا ما تناولنا الاختيار بازاء شخصية واحدة هى العروس أو العريس ، وبالتالى الموقف بازاء أسرتها أو أسرته . فهنا يكون الموقف الشكى متبديا فى الحكم بأنها أسرة جيدة أو أسرة رديئة . ولاشك أن الحكم على الأسرة التى يعتزم الزواج منها إنما هو المحصلة الناجمة عن العديد من الأحكام التى تصدر عن جميع أفراد الأسرة التى يمكن اعتبارها شخصية معنوية واحدة .

ولايصح لنا أن ننسى مالبعض الشخصيات الأسرية من تأثير بعيد المدى فى الحكم الكلى . فثمة زعامات أسرية تستولى على جماع الرأى بالأسرة . لقد تكون أم العريس أو العروس ، وقد تكون الزعامة فى هذا المضمار معقودة للأب ، وقد تكون معقودة لإحدى الأخوات أو لأحد الأخوة ، أو غير ذلك من أقرباء الأسرة . بيد أن الشخصية الزعيمة لاتحاول غالباً فرض الرأى على باقى أفراد الأسرة ، بل هى تؤثر فى توجيه الآراء الأخرى والتأثير فيها بأنواع متباينة من التأثير . ويتم هذا بذكر المحاسن أو ذكر العيوب بشىء من المبالغة والتهويل . وتلك الشخصية الزعيمة تكون قد حازت فى الغالب على قدرة كبيرة على الايحاء وحمل جميع أفراد الأسرة على الضرب فيما تضرب هى فيه من مشاعر وانتحاءات نفسية وجدانية .

ومن المفروض فى الواقع أن يكون العريس أو العروس هما النجمين المؤثرين فى أسرتيهما . بيد أن المفروض شىء والواقع شىء آخر . صحيح أنه

أول الخيط ربما يكون فى يديها ، ولكن باقى الخيط لايكون بالضرورة فى قبضتها . ذلك أن الأسرة — سواء كانت أسرة العريس أو أسرة العروس — يكون لها تكوين أجتماعى معين . فالزعيم المؤثر فى كل أسرة من هاتين الأسرتين لايكون بالضرورة هو العريس أو العروس . والأغلب أن يكون الشخص المؤثر فى أسرة العريس هو أمه أو إحدى أخواته كما أن الشخص المؤثر فى أسرة العروس يكون فى الغالب هو والد العروس أو أحد أخوتها .

ومن أكثر الأمور إيلاما للعريس وللعروس نكوص أسرة الواحد منهما عن حالة اليقين إلى حالة الشك. فبعد أن تكون الأسرة قد أستقرت على أختيار شريك حياة أبنها أو أبنتها وأسرته أو أسرتها ، فانها تعود من جديد إلى حالة الشك أو المفاضلة ، سواء كانت المفاضلة بين خيرية الأسرة أم شريتها ، أم كانت المفاضلة بين تلك الأسرة وغيرها من أسر ، أو بين شريك الحياة المرتقب وبين شخص أو أشخاص آخرين يمكن الوقوع على واحد منهم ونبذ الطرف الذى سبق أختياره وتفضيله .

ولايقتصر هذا الحال من التذبذب على مرحلة الخطوبة ، بل قد يمتد إلى ما بعد الزواج . فمن المفروض أن تستقر الحياة الزوجية وعدم انسراب الشك — أو العودة إلى الأختيار — بعد عقد القران . ولكن المفروض شىء والواقع شىء آخر . فنى كثير من الأحيان ، وبالنسبة لكثير من الزيجات تجد أن ما كان يسود العلاقة بين الزوجين الحديثين من انبهار واعجاب وتعلق واقبال قد أخذ فى الانقشاع ليحل محله جو آخر من الاحتقار والأشمئزاز والنفور والادبار النفسى . ومن الطبيعى أن يصاحب مثل هذا التحول الجديد شعور آخر هو إعادة النظر فيما سبق الوقوع عليه واختياره ، أو بتعبير آخر إحلال الشك محل اليقين .

ونحن نستطيع فى الواقع أن نتخيل وجود محصلة لموقف كل من الأسرتين النسيبتين ، بل نستطيع أن نتخيل وجود محصلة لما تشعر به الأسرتان جميعاً بحيث يمكن أن نقول إن تلك المحصلة المتخيلة انما تشير إلى ما يمكن أن يوجد

من شك فى الموقف بينهما . ومن الطبيعى أن توجد بعض الغضاضة لدى الزوجين تعتمل فى قلب كل منهما قبالة الآخر ، ومن الطبيعى أن توجد بعض الأختلافات فى المزاج وفى وجهات النظر وفى تفسير الأشياء وتقييمها ، ولكن هناك فرقا بين مثل تلك التباينات أو المضايقات وبين الوصول إلى حالة الشك أو إلى حالة إعادة النظر فى الموقف بتجاه الطرف الآخر . ونفس الشيء يصدق بازاء الأسرتين النسيبتين . فمن غير الطبيعى ألا تكتشف كل أسرة شيئا أو أشياء تضايقها من الأسرة الأخرى أو لاترضى عنها ، ولكن اكتشاف مثل تلك الأشياء أو الجوانب شيء وإعادة النظر والتلبس بالشك بتجاه الأسرة الأخرى شيء آخر . فتجد أفراد أحدى الأسرتين يقولون لك أشياء لاتعجبهم فى أفراد الأسرة الأخرى ، ولكنهم يعقبون بعد ذكر النقائص والعيوب ، بأن تلك الأسرة فى مجموعها معقولة وأن الأرتباط بها جيد ولا غبار عليه أو مقبول أو معقول ، وأن طلب الكمال فى كل شيء من المحالات . ولكن إذا كانت تلك المعايب جوهرية ، فان الحال يختلف ويبدأ أفراد الأسرة يطالبون بالرجوع عما سبق أن ضربوا فيه ، بل إنك تجد من ينادى منهم بوجوب فصم عرى الخطوبة أو بتر العلاقات الزوجية للبحث عن أسرة جديدة تصلح للارتباط بها .

وفى كثير من الحالات تجد أن الاسرتين النسيبتين وقد اعتورهما الشك أو حتى النزاع ، بينما تجد أن الخطيبين أو الزوجين وقد ارتبطا بعضهما ببعض ارتباطا وثيقا . وأكثر من هذا فقد يجد الخطيبان أو الزوجان قوة دافعة لحبهما وتأييدا وتأكيدا لذلك الحب والتفاف الوجدان حول قلبيهما بسبب الشك والارتياب والنزاع الذى يخيم على الأسرتين النسيبتين . فهنا تجد أن الخطيبين أو الزوجين وقد أعلنا سخطهما على موقف الأسرتين ، وقد شقا عصا الطاعة عليهما مؤكدين أنهما يشكلان عالما مستقلا خاصا بهما بحيث لا يسمحان لأى انسان — حتى ولو كان أبا أو أما — الولوج فيه وهتك أستاره والاعتداء على مقدساته . فالشك بين الأسرتين النسيبتين لا يشيع بالضرورة بين الخطيبين أو الزوجين ، بل إن العكس هو الذى قد يحدث ؛ أو قل إن الشك بين

الأسرتين ربما يكون بمثابة الطعم المحصن ضد داء الشك لدى الخطيبين أو الزوجين . ولقد تجد فى مثل تلك الحالات أن الشك لدى الخطيبين أو الزوجين وقد خرج عن نطاقهما والتصق بذويهما . فتجد أن الخطيب أو الزوج وقد تحصن نفسيا ضد ما يعتمل فى قلوب ذويه ، وكذا يكون حال الخطيبة أو الزوجة قبالة ذويها . وبذا يخرج اليقين الى الوجود من أحضان الشك ، وتشتد روابط الخطوبة أو الزواج بين الخطيبين أو الزوجين .

الشك بين الوالدين والأولاد :

لا يبدأ الأبناء والبنات فى الشك فى الوالدين بالمعنى الذى سقناه طوال الفصول والموضوعات السابقة إلا بعد بلوغ مرحلة المراهقة . ذلك أن مرحلة الطفولة يمكن أن تعتبر مرحلة انصياع — أو قل بغير تحفظ — إنها مرحلة تقديس الوالدين والايمان بكل ما يصدر عنهما من أقوال وأفعال . ولكن مع بزوغ المراهقة ومن بعدها الشباب ، فان القدرة النقدية لدى الابن أو البنت تأخذ فى التوهج فلا يعود الابن أو البنت يرى فى الأب أو فى الأم تلك الشخصية التى لا تخطىء ، بل يأخذ فى التربص بالوالدين ، وقد صوب نحوهما سهام الشك ، وصار يعقد المقارنات العديدة بينهما وبين غيرهما من أترابهما ، أعنى بينهما وبين الآباء والأمهات الآخرين . والشأن كذلك بازاء مدرسيه ومدرساته وقد ترك المدرسة الابتدائية وانخرط فى ركاب المدرسة الاعدادية ومن بعدها بالمدرسة الثانوية . فبينما نجد أن أطفال الابتدائى يسيرون وفق ما يرتئيه المعلمون والمعلمات ، فان تلاميذ الاعدادى وكذا تلاميذ الثانوى وقد صاروا يخرجون على ما يرسمه لهم المعلمون والمعلمات ، بل انهم يتابعون عمل مدرسيهم ومدرساتهم بالنقد ، وقد أخذوا يعقدون المقارنات بين المدرسين بعضهم وبعض أو بين المدرسات بعضهن وبعض .

ونحن لا نزعم أن مراحل النمو منفصلة بعضها عن بعض ، كما أننا لا نزعم أن السن الزمنية تشير الى ما يتصف به المرء من سمات عقلية ووجدانية . فنحن نعترف بأن مراحل النمو متداخلة أشد التداخل فيما بينها ، كما أننا نعترف بأن هناك أعمارا أخرى غير العمر الزمنى بالنسبة للشخص الواحد .

فهناك العمر العقلي والعمر اللغوى والعمر الوجدانى والعمر الاجتماعى ، وأن تلك الأعمار تؤثر من قريب أو من بعيد فى الاتجاهات التى يتذرع بها الشخص بازاء الآخرين وبضمنهم الوالدان . فلقد يكون الطفل فى الثامنة حسب شهادة ميلاده ، ولكن نموه العقلي أو نموه اللغوى أو نموه الوجدانى أو نموه الاجتماعى يشير الى عمر آخر أكبر أو أصغر من ثمانى سنوات . لقد نجد ذلك الطفل البالغ من العمر الزمنى ثمانى سنوات ، بينما يكون عمره العقلي قرابة ضعف عمره الزمنى .

وهكذا نجد أن الأبناء والبنات يتباينون فى نموهم . وأكثر من هذا فان الذكور يتباينون عن الإناث فيما يتعلق بالشك والمقارنة والمفاضلة . ولعلنا نزعم بأن الذكور بوجه عام أكثر شكا من الاناث بوجه عام . وهنا أيضا نتحفظ بأن ندخل الفروق الفردية فى الاعتبار بمعنى أننا نجد بعض الذكور أقل رغبة أو ميلا الى الشك والمقارنة من بعض الاناث .

والواقع أن الانسان بصفة عامة — كما سبق أن قلنا — ينشأ على الإيمان ثم يتحول الى الشك ، وكلما بعد المرء عن نقطة الانطلاق التى بدأ منها حياته وهى حجر أمه وحضن أبيه ، فانه يجد نفسه أكثر ميلا الى وضع أفراد أكثر عددا وأخصب تنوعا نصب عينيه لمقارنتهم بعضهم ببعض . فتجده يقارن بين والده ووالدته وبين آباء وأمهات الآخرين . ومن الطبيعى أن تتسع أوجه المقارنة كلما اتسعت المجالات أمامه . فكلما كان المرء أكثر ثقافة وأخصب لغة وأرهف وجدانا وأوسع أفقا وأغزر وقوفا على العلاقات الاجتماعية ، كان بالتالى أكثر قدرة على عقد المقارنات بين والديه وبين الآباء والأمهات الآخرين .

على أن المسألة لا تقتصر على مجرد المقارنة يعقدها الابن أو تعقدها البنت بين الوالد أو الوالدة وبين الآباء والأمهات الآخرين ، بل إن المسألة تصل الى حد أبعد من ذلك بكثير . فثمة ما يمكن أن نسميه باصطدام الرغبات . فبعد أن كان الابن والبنت فى عهد الطفولة يعمدان الى المطابقة بين رغباتهما

ورغبات والديهما ، فاننا نجدهما بعد انخراطهما فى المراهقة والشباب وقد أخذا يتباينان فيما يرغبان فيه وما ينحوان اليه ويميلان الى تذوقه أو ممارسته . وبتعبير آخر فاننا نجد أن ثمة فروقا فردية تتبدى فيما بين الحياة الوجدانية للأبناء والبنات وبين الحياة الوجدانية لدى الوالدين . وهذا أمر طبيعى حتى فى ضوء اعتبارات السن والاهتمامات والمثل العليا والخبرات وما تتميز به الأجيال من صراع وتنابذ فى الميول والعواطف والاتجاهات .

ونستطيع أن نقرر أن العوامل والوسائل التربوية والاجتماعية والدينية تحاول دائبة التقليل والتخفيف من حدة التصادم والتنابذ والشك بين الأولاد والوالدين . ذلك أن المجتمع الحضارى يحاول ترجيح كفة الكبار على كفة الصغار كما أنه يحض الصغار مهما بلغوا من النمو فى الثقافة وفى أسباب القوة على أن يرضخوا ويذعنوا للكبار مهما بلغوا من الضعف والوهن والتخلف . واكرام الوالدين قيمة أساسية مقدسة من قيم مجتمعاتنا الحديثة . ولكن مع هذا كله وبرغم الضغوط الاجتماعية الحضارية فان الصراع بين الأجيال سوف يظل قائما ، ولسوف تظل الرغائب متصارعة والميول غير متجانسة والشك والمقارنات دائرة فى عقول المراهقين والمراهقات والشبان والشابات وعلى ألسنتهم وأقلامهم .

ولعل هناك محورين أساسيين ينشأ حولهما الشك بين الأولاد والوالدين : المحور الأول — هو المحور الاقتصادى ، والمحور الثانى — هو المحور الجنسى . وبالنسبة للمحور الأول فاننا نجد أن الأولاد من الجنسين يأخذون بدءا بالمراهقة والشباب فى نقد الوالدين فيما يتعلق بتنظيم مواردهما الاقتصادية وفيما يقدمان اليهم من مصروف يومى أو أسبوعى أو شهرى . ولقد نصوغ هذا النوع من الشك فيما يتعلق بالضروريات والكماليات . فالكثير مما يراه المراهقون من الجنسين ضروريات يراه آباؤهم وأمهاتهم كماليات ، والعكس أيضا صحيح . فالكثير مما يراه الوالدان ضروريات يراه الأولاد كماليات .

وهكذا يبدأ الشك فى الاحتدام بين تقييم الأولاد من جهة وبين تقييم الوالدين من جهة أخرى فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية .

أما بالنسبة للمحور الجنسى فاننا نجد نقاط تباين أو شك أو صراع بين الأولاد والوالدين تتبدى أولا — فى الاختلاط بين الجنسين وحدوده وما يسمح به وما لا يسمح وما يجب تجنبه وما يجب الاقبال عليه . وبتعبير آخر هناك اختلاف حول الحقوق الجنسية . فبينما يرى جيل المراهقين والشباب بعض الأشياء أو الممارسات حقوقاً مكفوله لهم ، فان الوالدين يخشيان من مغبة ترك الحبل على الغارب للأبناء والبنات فيما يتعلق بالمسائل الجنسية أو حتى فيما يتعلق بالاختلاط بين أبنائهم وبناتهم وبين الآبناء والبنات الأخرين من نفس الجنس أو من الجنس الآخر . ويبدو الاختلاف أيضا فى إطار هذا المحور فيما يتعلق بالحب . فثمة اختلاف فى التقييم الجمالى والاجتماعى بين الأولاد والوالدين . فيما يراه الأب أو الأم من جمال قد يكون فى نظر الابن أو البنت قبحا . وهكذا ينتج عن هذا الاختلاف اختلاف بصدد ما يمكن أن يحبه أو يفضله الابن أو البنت من أشخاص يحبهم ويتعلق بهم . فالابن يحب ابنة الجيران مثلا ، ولكن أمه تكرهها ولا ترى فيها شيئا يستحق أن يحب.والعريس الذى تختاره الأم لابنتها وتشاهد فيه جميع مواصفات العريس الممتاز قد لا تشاهد فيه ابنتها سوى الرداءة والقبح وعدم اللياقة لأن يكون زوجا لها .

وعندما ينفصل الأبناء والبنات عن الوالدين وقد صار لكل منهم أسرة جديدة مستقلة ، فان نوعا من الصراع أو التنافس ينشأ بين كل من تلك الأسر الجديدة الناشئة وبين الأسرة الأم . وشاهد ذلك أن الأسرة الأم تلح على جذب انتباه واهتمام وعاطفة الأبناء والبنات المتزوجين اليها والارتباط بها وعدم النأى عنها ، بينما تعمل الأسرة الجديدة الناشئة على تحقيق الاستقلال لنفسها والانفطام الكامل عن ثدى الأسرة الأم . ومن ثم فانك قد تسمع نغمات تصدر عن الآباء والأمهات يوجهونها الى الأبناء والبنات المتزوجين تحمل اليهم اتهامات بالخيانة والتقصير والجحود وغير ذلك من اتهامات تنم

على الغيرة عليهم والرغبة فى إعادة ضمهم الى الأسرة الأم . ولا شك ان مثل ذلك الصراع أو النزاع بين الأسر الجديدة الناشئة وبين الأسرة الأم إنما يعد شاهدا على روح الشك والمفاضلة بين صورة ذهنية ترتسم فى أذهان الآباء والأمهات والأبناء والبنات وبين الواقع الذى يحيونه ويمارسونه . ولقد يظل مثل هذا الشك فى حدوده الطبيعية فيكون شكا سويا ، كما أنه قد يخرج عن نطاق تلك الحدود الطبيعية مشكلا اتهامات صريحة متلبسة بموضوعات فعلية محسوسة ونزاعات تكون بحاجة الى تدخل أطراف من خارج نطاق الأسرة الأم والأسرة الناشئة لتسويتها والقضاء عليها .

الشك بين الأسرة والعالم الخارجي :

تمثل الأسرة — أى أسرة — وحده أو كيانا عضويا فى مقابل وحدات أو كائنات عضوية كثيرة أخرى تحيط بها هى تلك الأسر العديدة المحيطة بها من كل جانب . فالأسرة — فى هذه الحالة — لا تعتبر مجموعة من الأفراد ، ولا ينظر اليها باعتبار أنها مكونة من زوج وزوجة وأولادهما ، بل باعتبارها شخصا معنويا واحدا له محصلة فكرية واحدة واتجاه وجدانى عام وارادة متسقة تنتهج بواسطتها سياسة محددة المعالم ومتعينة القسمات .

على أنه يجب أن نلاحظ — كما سبق أن قلنا — أن ثمة شخصية نجمية مؤثرة فى كل أسرة ، ولا تكون تلك الشخصية هى الأب أو الأم بالضرورة ، بل قد تكون بنتا أو ابنا . ذلك أن روح الزعامة تتمثل فى أشخاص معينين بغض النظر عن سنهم أو ثقافتهم أو وضعهم الاجتماعى بالمجموعة . فلقد توجد فى بعض الحالات شغالة باحدى الأسر ذات صفة الزعامة ، فتجدها بعد وقت يقصر أو يطول وقد أخذت بعنان الأسرة كلها وصارت تحركها فى الاتجاهات التى تريدها وقد أخذت تحدد لتلك الأسرة السياسة التى تتخذها قبالة الأسر الأخرى .

ومهما يكن من شيء فان ما يمكن أن ننتهى اليه فى جميع الحالات ، وبغض النظر عن الشخصية المؤثرة فى تحديد اتجاهات الأسرة ورسم سياستها

قبالة الأسر الأخرى ..، هو أن لكل أسرة بالضرورة سياسة ما تتخذها بازاء الأسر الأخرى المجاورة لها . وأكثر من هذا فثمة سياسة ما تتخذها الأسرة قبالة العالم كله والمجتمع بأسره تنبثق عما يشيع بها من قيم وعما تتلبس به اتجاهات وعواطف عامة وتفسيرات للمجتمع والوجود ، وعما يشيع بين أفرادها من أخلاق ومثل عليا ومعتقدات وثقافة وعما يسود بها من عادات تتبدى فى تصرفات أفرادها وفى المناحى التى دأبوا على الضرب فيها سواء كانت تلك المناحى وجدانية أم عقلية أم كلامية أم اجتماعية .

وبتأمل الأسرة الحديثة — وبخاصة الأسرة التى تقطن مدينة كبيرة كمدينة القاهرة — فاننا نلاحظ أنه على الرغم من التجاور والتزاحم والتلاصق فى المكان ، فان هناك تباعدا وانفصالا وتفككا فى الوشائج العاطفية بين الأسر . والعجيب أن يكون الاقتراب المكانى مرتبطا فى نفس الوقت بالتباعد الوجدانى ، وأن يكون العكس أيضا صحيحا ، أعنى أن يكون التباعد المكانى مشفوعا بتقارب وجدانى . ذلك أنك تلاحظ أن الريف حيث التخلخل وحيث تعيش كل أسرة فى بيت مستقل من بابه ، فان كل أسرة تحس وتتجاوب وتتناغم مع جميع الأسر الموجودة بالقرية ، سواء كان ذلك الاحساس بالحب أم كان بالكراهية . أما بالمدينة حيث تضيق الشقق من جهة وتتجاور جدا فى نفس الدور من العمارة وتتزاحم — وقد تراصت أكثر من أربع شقق فى الطابق الواحد ولا يزيد بعد الشقة عن الشقة المجاورة عن شبر واحد — فانك قد تجد أن سكان كل شقة لا يكادون يعرفون شيئا عن السكان الملاصقين لهم تماما . وهم الذين يشتركون معهم فى نفس الجدار .

ونستطيع فى الواقع أن نزعم أن العلاقات بين الأسر فى الريف هى علاقات إيمانية ، بمعنى أن كل أسرة قد انتهت بالفعل الى اختيار أو تقبل الأسر المجاورة لها . صحيح أن ذلك الاختيار أو التقبل لم يتم بطريقة شعورية بل تم بطريقة لا شعورية ، ولكنه على أية حال موقف إيمانى تقبلى حيث لا تكون هناك اختيارات بالقبول أو بالرفض بازاء الأسر الموجودة بالقرية . فلا تكاد أية أسرة بالقرية تجرؤ على قطع العلاقات بالاسر المجاورة أو تجاهلها ، لأن

ذلك ليس من طبيعة العلاقات التقبلية الايمانية بالقرية . وكيف يكون هناك اختيار وقد تم تركيب القرية عضويا فتفرعت الأسر بها عن صلب واحد ولهم فى الغالب جد واحد وثمة شجرة عائلة واحدة أو ثمة عدد قليل من شجرات الأسر المتباينة ؟ وحتى أولئك الذين لم تجمعهم قرابة بالقرية فان السنوات الكثيرة المتعاقبة تجمعهم منذ الطفولة ومرورا بالمراهقة والشباب والكهولة . فالعلاقات بين الاسر بالقرية أشبه ما تكون بعلاقة الذراعين فى جسم الشخص الواحد بعضهما مع بعض . فليس هناك خيار لكل ذراع فى انتقاء الذراع التى تعجبها ، بل ثمة نشأة مشتركة وهناك بالتالى تقبل إيمانى من جانب كل ذراع للذراع الاخرى .

أما بالنسبة للأسر فى المدينة فانها تتسم بفقدان التاريخ الذى تجتمع حوله أسر القرية . فثمة ما يمكن أن نسميه بالاحساس بالاغتراب . فكل أسرة بأى عمارة من العمائر الشاهقة بالمدينة تحس بأنها غريبة بتلك العمارة مهما طال بقاؤها بها.ومن جهة أخرى فانها تحس بأن الأسر الأخرى المجاورة لها والقاطنة بنفس العمارة أو بالعمائر المجاورة ، إنما هى أسر غريبة ووافدة على المكان ، وأنه لايوجد جذر مشترك يجمع أياً منها بالأخرى ، أو أنه لا يوجد جذع مشترك يجمعها واياها وقد تفرعت منه ، بل ان لكل منها قوامه الذاتى المنفصل تمام الانفصال عنها .

بيد أن ثمة فى قوام الانسان ما يدفع به الى التجاور النفسى والتبادل الاجتماعى وتحقيق التجانس وملاشاة الفوارق وحذف الفواصل . ومثل هذا الاحساس يدفع بكل أسرة الى الاحساس على نحو ما بالأسر الأخرى . ولعلها فى تصفحها للأسر المحيطة بها تكون فى موقف الاختيار . ولكن كيف لها أن تختار من بين تلك الأسر لكى تندمج فيه أو لكى تقيم وشائج متينة معها وهذا الاحساس بالاغتراب من جهة وعدم وجود تاريخ مشترك وجذع واحد يجمعها واياها ؟

هناك إذن حل واحد هو الحل البينى ، أعنى إقامة علاقات سطحية هامشية بالأسر الأخرى وتعليق الأختيار إلى أجل غير مسمى . فحالة

الأختيار المستمرة هى التى تخيم على أسر المدينة . وهذه الحالة الاختيارية هى ما أسميناها بحالة الشك ، لأننا طابقنا بين الشك وبين الموقف الأختيارى قبل الوقوع على الشيء المختار من بين المتغيرات المتاحة بالموقف .

ولقد نزعم أن الأسر بالمدينة تتسم بسمة معينة تميزها عن أسر القرية وهى العودة إلى حالة الشك إذا ماقيض لأسرتين أن ترتبطا بحالة اليقين أو بحالة الارتباط الوجدانى والذهنى المكين . وهذا يبدو أكثر ما يبدو فى العلاقات الأقتصادية والعلاقات الزيجية . فبالنسبة للشركاء فى عمل تجارى واحد ، فان ذلك العمل محكوم عليه منذ اللحظة الأولى لإنشائه بالتفكك . ناهيك عن أن معظم الشركات التى تنشأ بالمدينة ليس لهاصاحب معين ، بل هى تابعة لبنوك أو مؤسسات عامة أو مايسمى بالقطاع العام . والواقع أن الأسر التى ترتبط بروابط أقتصادية وقد تأتى عنها روابط وجدانية مكينة سرعان ماتنفصل بعضها عن بعض وتتبخر علاقات الود والحب التى كانت تظللها .

وبالنسبة للزيجات بين الأسر بالمدينة ، فاننا نزعم أن الرابطة الزوجية — إذا قيض لها أن تستمر — فانها بالنسبة للأسرتين النسيبتين تكون علاقة مؤقتة ، أو قل تكون علاقة رسمية لاتشيع بها العاطفة الدافئة أو الوشائج القلبية المكينة . فما يكاد الزواج يتم حتى تبدأ العلاقات التى كانت قوية بين الأسرتين النسيبتين فى الأضمحلال والضمور بل أنها كثيراً ماتصير علاقات مشوبة بالكراهية والنفور .

أما عن علاقة أسرة المدينة بالعالم الخارجى ككل فاننا نستطيع أن نسمها أيضاً بأنها علاقة شك . على أن الشك فى هذه الحالة هو المفاضلة بين الخير والشر ، أو قل بين الفائدة والضرر فى هذا العالم الخارجى الواسع . فأنت لاتستطيع أن تستشف فى موقف أسرة المدينة حقيقة علاقتها بالمدينة ككل أو بالعالم كله . انك لاتستطيع أن تتأكد من حقيقة شعور أسرة المدينة تجاه مايحيط بها . هل هى تحمل الحب لما يحيط بها أم أنها تكره المدينة والعالم كله ؟ الواقع أن ما يعتمل فى أوصال أسرة المدينة هو ذلك الموقف البينى أو بتعبير أدق الموقف الشكى الأختيارى الذى ينم على عدم الوصول إلى قرار أو على

عدم إصدار حكم على العالم المحيط بها . فهى تستمر حائرة وقد وقفت مشدوهة أمام هذا العالم المحيط بها المشحون بالمتناقضات . فهو عالم يجمع بين الخير كله والشر كله ، أو بين الحضارة والوحشية ، أو بين الترابط والتفكك ، أو بين النظام والفوضى ، أو لعله يجمع جميع مقومات الرعاية وجميع أنواع الأهمال والرذل . وهل يمكن أن يعمل أى حساب لأى أسرة والمدينة تحمل عبء ملايين الأسر ؟ وكيف تطمئن أسرة المدينة إلى مستقبل غامض يمكن أن يعصف بكل ماسبق لها كسبه عبر سنين عديدة فى لمحة بصر وفى غمضة عين ؟ إن المدينة التى تشاهد بها ملاجىء الأيتام وبيوت المسنين هى ذاتها المدينة التى تهمل الأيتام والمسنين . فلماذا لا تشك الأسرة فيها إذن ؟

الفصل السادس

أخلاقيات الشك

الشك والحرية الأخلاقية :

تعتمد المسئولية الأخلاقية بصفة رئيسية على الأختيار من بين بعض المواقف المتباينة . فلا يوصف الشخص بأنه أمين إلا إذا أختار موقف الأمانة وكان بمقدوره أن يسرق ، ولايوصف الشخص بأنه عفيف جنسيا إلا إذا كان بمقدوره أن يمارس نشاطا جنسيا خارج نطاق الشرعية . وقل نفس الشيء بالنسبة لجميع المواقف الأخلاقية المتباينة والعديدة . فشرط الحكم الأخلاقى بالخيرية أو بالشرية توافر أكثر من موقف واحد فى الوقت الواحد وبشرط أن يكون بمقدور المرء أن يختار وأن يتلبس بالسلوك الذى يقع عليه أختياره بغير إجبار من أحد .

وطالما أننا عرفنا الشك بأنه التواجد فى موقف يتضمن أكثر من أختيار واحد وأن أنتقاء واحد من تلك الاختيارات يخرج بالمرء من نطاق الشك إلى نطاق اليقين ، فاننا نستطيع إذن أن نقرر أن الشك بهذا المعنى الذى حددناه هو الشرط اللازب والذى لامناص منه للحرية الأخلاقية . فأنت لاتوصف بأنك حر أخلاقيا الا كنت أمام مجموعة من الاختيارات ، أو بتعبير آخر الا إذا كنت فى موقف شكى . فالشك هو السبيل الوحيد للحرية الأخلاقية .

وإذا نحن أخذنا فى تطبيق هذا المبدأ وقلنا إن كل حالة لايتوافر فيها الشك فانها تكون بالتالى خالية من الحرية الأخلاقية ، فاننا نجد إذن أن الطفل الصغير يكون أقل حرية أخلاقيا من الشخص الذى أشتد عوده وبلغ رشده . وكذا فاننا نقول إن المرأة فى معظم المجتمعات الإنسانية أقل حرية من الرجل ،

وأن السجين أقل حرية أخلاقيا من الشخص الذى لم يدفع به إلى السجن. وقل نفس الشيء بالنسبة لكل شخص لاتتوافر له نفس الكمية من الاختيارات .

ولعلنا نتساءل عن مدى الحرية التى يتمتع بها المرء فى أحلامه . فهل الرجل المتزوج الذى يحلم بأنه يعانق امرأة حسناء يكون مضطرا لمثل هذا الحلم بحيث يستطيع أن يدفع عن نفسه مسئولية الخيانة الزوجية ؟ اننا نعتقد أن الاختيارات فى حالة النوم والانخراط فى الحلم أوسع نطاقا منها فى حالة اليقظة والوجود فى أحضان الواقع الأجتماعى . ومعنى هذا من زاوية أخرى أن حالة الشك فى المنام أقوى منها فى حالة اليقظة . وبالتالى فان الحرية الأخلاقية فى أثناء الحلم تكون أوسع نطاقا منها والمرء فى حال اليقظة . ولعل السؤال الملح هنا هو : هل الشخص مسئول عن أحلامه مسئولية أخلاقية ؟ إننا لكى نجيب عن هذا السؤال فان علينا أن ننظر من زاويتين : زاوية نظر الشخص لنفسه ، ثم زاوية نظر الآخرين إلى الشخص . وحيث أن الحلم هو حالة شخصية بحتة لايشارك المرء فيها أحد ، وليس بمقدور إنسان أن يخترق حجاب الشخصية فى أثناء الحلم أو حتى بعد الاستيقاظ والخروج من إطار النوم إلى إطار اليقظة لذا فان المسئولية الأخلاقية عن الأحلام لاتتأتى الا فى حالة واحدة هى أن يعرض المرء أحلامه على الملأ ويقصها على غيره . ولكن طالما أن الحلم فى النطاق الشخصى ، فان المسئولية الأخلاقية تكون محصورة بين ذات الشخص ونفسه .

ويخطىء من يقيم فاصلا بين حياته فى اليقظة وبين حياته فى المنام . ذلك أن حياة الإنسان بمثابة نهر واحد متدفق ، يظهر سطحه للرائى ، ويختفى باقى مجراه تحت ذلك السطح . ولكن الظاهر والباطن من النهر يسيران فى نفس الاتجاه ولايختلف الماء الظاهر عن الماء الباطن من حيث طبيعتها أو خواصها . فأنت فى حال يقظتك هو أنت فى حال انخراطك فى النوم ومشاهدتك للأحلام . ولقد نستطيع القول بأن الطبيب فى أحلامه يكون أيضاً طبيبا ولا يكون ضابطاً أو مدرساً . وكذا الحال فى السلوك الأخلاقى . فنحن لانستطيع أى نتخيل الصراف الأمين وقد مد يده إلى الخزينة يسرق منها أو يختلس المال

الذى أو تمن عليه فى الحلم ، ولا نستطيع أن نتخيل شخصاً يحب زوجته ولا يتمنى أن تواتيه الفرصة لخيانتها ثم أنخرط فى حلم يتسم بالخيانة لتلك الزوجة مع امرأة أخرى . فاذا ما حلم الزوج بأنه يخون زوجته ثم ينكر امكان قيامه بذلك فى حال اليقظة ، فيجب علينا ألا نصدقه . فعدم اقباله على الخيانة الزوجية فى حياته الواقعية لايكون نتيجة عدم الرغبة فى ذلك ، بل يكون نتيجة عجزه عن ذلك وعدم مواتاة الفرصة له . وبتعبير آخر فان نية الخيانة فى مثل هذه الحالة تكون متوافرة ، ويكون التنفيذ فى الحلم بديلا نتيجة العجز وعدم المواتاة فى حال الواقع الاجتماعى اليومى .

وعلينا أن نقوم بتحليل الموقف المتسم بالحرية الأخلاقية . إننا نجد أولا الجانب المعرفى . فلابد من تدخل الأدراك أو التذكر فى الموقف . فأنت فى حال اليقظة تستخدم إدراكك للمقومات الموجودة بالموقف لكى يقع أختيارك على واحد منها . أما وأنت فى حال النوم وانخراطك فى حلم ما ، فانك لاتستخدم العناصر الادراكية فى الغالب بل تستخدم المقومات المتذكرة. على أنك فى بعض الحالات وأنت نائم وتحلم تستخدم بعض ما يمكن أن يصل إلى سمعك من أصوات فتأخذ فى أستخدامه كخامات فيما تنخرط فيه من أحلام .

أما الجانب الثانى فى الموقف المتسم بالحرية الأخلاقية فهو الجانب الوجدانى . فأنت توجه شحنات وجدانية إلى تلك المقومات المعرفية المتواجدة أمامك فى المكان أو المتواجدة بذاكرتك وقد أختزنها المخ واستطعت استعادتها والطفو بها على المستوى المعرفى فى اليقظة أو فى أثناء الحلم . وثمة نوعان من الشحنات الأنفعالية : ثمة أولا — الشحنات الانفعالية الإيجابية المتصفة بالحب والاقبال ، وثمة الشحنات الأنفعالية السلبية المتسمة بالكراهية والادبار . ففى الموقف الواقعى وأنت فى حال اليقظة ، وكذا فى الموقف التذكرى وأنت فى حال النعاس والأنخراط فى الأحلام تكون هناك موضوعات محبوبة وموضوعات أخرى مكروهة . فبالنسبة للموضوعات المحبوبة فانك توجه اليها شحنات

وجدانية إيجابية ، وبالنسبة للموضوعات المكروهة فانك توجه اليها شحنات وجدانية سلبية .

أما الجانب الثالث فهو المقارنة والمفاضلة . فأنت تقوم بالموازنة فيما بين ماتحبه وماتكرهه ، ثم تقارن الأشياء المحببة إلى نفسك من حيث شدة حبك . فثمة موضوعات تحبها أكثر من حبك لموضوعات أخرى . بيد أن أختيارك لايتم فى ضوء مبدأ الحب والكراهية فحسب ، بل يدخل فى الأعتبار ما يتعلق بالخير والشر ، والمناسب وغير المناسب ، والجميل والقبيح .

وهذا يدفع بنا فى الواقع إلى تناول الجانب الرابع فى الموقف المتسم بالحرية الأخلاقية . فأنت هنا لاتعتمد على مايعتمل فى أنحائك من عواطف فحسب ، بل تأخذ فى المقارنة بين ماتستشعره من حب أو كراهية وبين ما سبق لك أكتسابه من قيم أخلاقية منذ نعومة أظفارك . فأنت فى حبك تصدر عن الأشياء الأكثر جلبا للذة ، وفى كرهك تصدر عن مدى إحساسك بالألم. ولكنك لاتقتصر على مستوى اللذة والألم بل ترتفع إلى مستوى آخر هو مستوى الخير والمناسبة والجمال . ولقد تجد أن ما يلذ لك ويستهوى قلبك ليس من الخير أو من المناسبة أو من الجمال فى شىء ، بل لقد يكون منافيا للخير والمناسب والجميل . وعلى العكس من ذلك فانك قد تجد المؤلم والمكروه متمشيا ومنسجما مع الخير والمناسب والجميل . وهنا يتسع المجال أكثر فأكثر أمام الأختيارات ، أو بتعبير آخر يتسع المجال لاعمال الشك فى أنحائك .

أما الجانب الخامس فى الموقف المتسم بالحرية الأخلاقية فهو جانب الإرادة . فأنت لاتقف موقف المتفرج على ما يدور بخلدك من مشاعر ، ولاتحبس نفسك فى إطارى المعرفة والعاطفة ، بل إنك تتقدم خطوة إلى الأمام هى الخطوة أو المرحلة الثالثة ، وذلك بأن تعمل ارادتك فى الموقف وتقع على اختيار معين من بين المتغيرات الموجودة بالموقف . على أن الارادة تنشعب شعبتين : شعبة القرار وشعبة التنفيذ . فأنت تصدر قرارا بالاختيار ويكون هناك صورة للفعل فى خلدك ثم تقبل فعلا على التنفيذ. ولقد يظن البعض أن الارادة والفعل شىء واحد . ولكن الواقع أن الارادة ذات

شعبتين : أحداهما داخلية يمكن أن نسميها نزوعاً ، والأخرى خارجية يمكن أن نسميها تصرفا . والتصرف لايقتصر على ما يتم فعله ونحن فى حال اليقظة ، بل قد يتم التصرف بالخيال ونحن فى الحلم . فالصراف الذى اختلس فى الحلم أموال الدولة يكون قد مر فى حلمه فى مرحلتى النزوع والتصرف وان كان تصرفه قد تم فى الخيال فحسب ولم يتلبس بالواقع المحسوس وبذا فانه يكون قد اختار وخرج من إطار الشك إلى اليقين بحرية أخلاقية تامة .

الشك وتوظيف الذكاء :

إذا نحن أقررنا بأن الذكاء معناه الوقوف على العلاقات التى توجد بالموقف والقدرة على خلق علاقات بين عناصر الموقف ، وهى العلاقات التى لم تكن موجودة من قبل ، فاننا نستطيع اذن القول بأن الشخص الأعلى ذكاء هو فى نفس الوقت الشخص الأكثر شكاً . ولقد سبق أن وصفنا الشك بأنه إجالة الفكر فى المتغيرات أو الاختيارات المتوافرة بالموقف . فالشخص الذكى لايكتفى بأن يجيل الفكر فى العلاقات القائمة بالفعل فى الموقف ، بل هو يضيف إلى هذا أيضاً عملية جديدة يضطلع بها هى خلق العلاقات الجديدة ثم إجالة الفكر فيها ليختار من بينها . فهو شخص خالق للعلاقات ومنتق من بينها فى نفس الوقت .

ولنأخذ مثالا بالعالم أو المخترع أو المفكر . إنه ليس كما يعتقد البعض يقع على الحقيقة العلمية أو على الاختراع أو على الفكرة مباشرة ، بل هو فى الواقع شخص يكتشف مجموعة هائلة من المتغيرات ، بل هو يضيف إلى ما يكتشفه متغيرات جديدة من خلقه وابتكاره. ولكنه يطرح جميع تلك المتغيرات المتوافرة عن طريق جهود الآخرين وعن طريق أبتكاره وخلقه أمام ناظريه لكى يقوم بعملية الغربلة التى تنتهى به فى نهاية المطاف إلى الأختيار والانتقاء .

ومعنى هذا أنه ليس من سبيل إلى التفكير إلا إذا توافرت بالموقف صفة الشك . وأكثر من هذا فاننا نستطيع أن نعرف التفكير ذاته بأنه إجالة الذهن

فى مجموعة من المتغيرات للاختيار من بينها أو لإقامة علاقات فيما بينها . وليس من الضرورى أن يكون الانتقاء انتقاء واحدا ، بل قد يكون الانتقاء لأكثر من شيء واحد أو لأكثر من علاقة واحدة .

على أن من الواجب علينا أن نتناول سيكلوجية المفكر فى أثناء عملية الانتقاء هذه من بين المتغيرات أو الاختيارات المتوافرة له بالموقف . إنه ليس مجرد شخص يقع خارج نطاق تلك المتغيرات أو الاختيارات ويتطلع اليها من علياء سمائه ، وكأنها بعيدة عن مجاله الوجدانى . الواقع أن المفكر يفكر ويحس بوجدانه فى نفس الوقت مهما كانت الموضوعات التى يتناولها بفكره موضوعية وجافة بطبيعتها ومنسلخة — كما يبدو — عن نطاق الموضوعات الوجدانية . فنحن نزعم أن عاطفة المفكر وأحاسيسه الوجدانية تعتمل فى الموقف الشكى حتى ولو كان يفكر فى موضوعات فى الهندسة الفراغية أو فى بعض المعادلات الكيميائية . فالتفكير الموضوعى القح يتسم بالموضوعية من حيث المنحى الذى ينحو إليه وليس من حيث المنبت الذى ينبت منه . وبتعبير آخر فان المفكر فى الكيمياء مثلا يوجه فكره إلى موضوع جامد هو الكيمياء ولكنه من حيث هو مفكر فانه يفكر بعقله ووجدانه معا . فالكائن الحى المفكر وإن اصطبغ فكره بالموضوعية فان العمليات الفكرية ذاتها لايمكن أن تكون متجردة عن الذاتية والوجدانية . فالمفكر أيا كان هو إنسان قبل أى شيء آخر . انه ليس كالحاسب الالكترونى وليس كالإنسان الآلى ، بل هو مركب عقلى وجدانى. فطبيعة الإنسان تحمله على أن يفكر بكل جهازه الذهنى . وجهازه الذهنى يعمل كوحدة متكاملة وليس كأجزاء منفصلة . فالأمر هنا كالتربة فى تفاعلها مع البذور وانباتها للنباتات المتباينة . فمثل تلك التفاعلات واحدة من حيث جوهرها ، ولكنها فى النهاية تخرج أنواعاً متباينة من النباتات والثمار .

ونستطيع فى الواقع أن نميز بين نوعين أساسيين من التفكير : أحدهما يبدأ من الذات ويصب فى الذات كالتفكير الشعرى وجميع أنواع التفكير الوجدانى . فالفن والأدب والتأمل الدينى تتسم جميعاً بالانطلاق من الذات أو

من المجال العقلى الوجدانى إلى المجال الوجدانى أيضاً . أما النوع الثانى فان المرء يبدأ فيه من المجال العقلى الوجدانى وينتهى إلى المجال الموضوعى ، أعنى المجال الخارج عن مجال الذات .

وهذا ينتهى بنا إلى تناول ما نستطيع أن نسميه بالمعاناة الشكية .فالمفكر من النوعين السابقين يعانى وجدانيا ، ولايتخذ موقف المتفرج من المتغيرات أو الاختيارات المتوافرة بالموقف . ونقصد بالمعاناة الاحتكاك والعراك ذهنيا بالجهاز العقلى وجدانى مع عناصر الموقف . ولكأن كل متغير من تلك المتغيرات تلح على المفكر مطالبة بتأييده والاستحواذ على ذهنه . ولكأن ذلك التكالب من جانب العناصر المتغيرة على ذهن المفكر يشعل أوار معركة تتخذ لها ساحة للعراك هى ذهنه ، أعنى جهازه العقلى وجدانى . ومن الطبيعى أن تلك المعركة كلما احتدمت فانها تتسبب فى خسائر قد لايحتملها ذلك الجهاز فيصاب بالعطب . ومن هنا يمكن تفسير مايصاب به بعض المفكرين من جنون من أمثال نيتشه ومى زيادة . ولقد يكون الجنون يصاب به المفكر بائنا يوصم به المفكر كما أنه قد يكون جنونا خفيفا يبدو فى الغرائب السلوكية التى تبدو فى تصرفاته :

والواقع أننا نستطيع أن نميز المفكرين من غيرهم من كتاب من زاويتين : الزاوية الأولى — جدة المجال الشكى أو الاختيارى ، أو بتعبير آخر جدة ميدان المعركة الذى يخطو إليه المفكر ويلج أبوابه.والزاوية الثانية مدى اعتماد المفكر على نفسه فى المعركة الفكرية . فلقد نجد فى ضوء هاتين الزاويتين صنوفاً عديدة من المفكرين ، أو صنوفا عديدة من الكتاب المتسمين بالفكر الصحيح النقى . فأولئك الذين يتناولون موضوعات سبق لغيرهم تمهيدها بحيث لايكون أمامهم سوى بقية من معركة ، وكذا أولئك الذين يستعينون بآخرين من المفكرين يساعدونهم فى المعركة إنما يقلون مرتبة فكرية عن أولئك الذين يدخلون معركة جديدة تماما ، وقد اعتمدوا على أنفسهم وحدها. فيها .

وإذا ما صح مانذهب إليه هنا فاننا نستطيع القول اذن إن الفلاسفة — وهم أولئك الذين يشقون لهم طريقاً جديدة لم يسبق لأحد غيرهم شقها — وهم فى نفس الوقت أولئك الذين يحملون سلاح الفكر معتمدين على ذاتيتهم بغير استعانة أو حتى بغير تعاون من أحد فى خوض المعركة الفكرية مع الآخرين — هم الحقيقيون بأن يوصفوا بالفكر الخالص النقى من شوائب الاتكالية الفكرية.

ولقد يجوز لنا القول بأن اللجوء إلى المجالات المطروقة ، وكذا الاعتماد على ماسبق للآخرين التوصل إليه من أفكار أو اتجاهات ، إنما يعد من قبيل وسائل الراحة وتقليل المعاناة الفكرية . فأنت إذا قمت بتناول موضوع مثل هذا الموضوع الذى نعرض له هنا فى هذا الكتاب ، أعنى الشك والوسوسة ، وقمت باغتراف فكرة من هنا وفكرة أخرى من هناك واقتبست قليلا أو كثيرا مما سبق لغيرك كتابته فى هذا الموضوع ، فانك تكون بذلك قد ولجت موضوعا مطروقاً من قبل ، بل وتكون قد استعنت بفكر غيرك بالإضافة إلى فكرك فى المعركة الفكرية الشكية فى تناولك لهذا الموضوع . أما إذا قمت بحمل قلمك ودخلت المعركة وحدك غير مستعين بسوى الحصيلة الثقافية التى تأتت لك عن كثير قراءة وغزير خبرة بحيث تقدم على الورق عصارة فكرية خالصة هى عصارتك الفكرية الشخصية ، فانك تكون اذن فى موقف المفكر الذى يكلف نفسه كثير عناء . ذلك أن المعركة تحتدم فى ذهنك بين المتغيرات الكثيرة والمقومات المعرفية العديدة التى تلح على ذهنك تريد كل واحدة منها أن تحظى باستمرار البقاء بل تريد كل منها أن تسجل نفسها فى سجل الوجود بأن تتلبس باللفظ ينقش على الورق . وهل تقل حدة معركة الوجود بين الأفكار عن حدة تلك المعركة التى تنشب بين أنواع الكائنات الحية على هذه البسيطة ؟ إننا نزعم أن معارك الأفكار بذهن المفكر أشد ضراوة من معارك البقاء بين أنواع الكائنات الحية .

ولعل العناء الذهنى والاجهاد النفسى الذى يعانى منه أصحاب الأعمال الذهنية المبتكرة سواء فى الشعر أم النثر أم الموسيقى أم الفلسفة أم التصوير والنحت لما يفسر لنا قلة الإنتاج المبتكر ابتكاراً تاما ، ولجوء المشتغلين بالأعمال

الثقافية إلى المجالات المطروقة من جهة ، واستنادهم على عكاكيز تسندهم تتمثل فى المراجع وماسبق لغيرهم اكتشافه أو تسجيله على الورق أو الانتحاء إليه من طرائق فى التنفيذ أو الأداء من جهة أخرى . ولعل هذا يفسر لنا أيضاً ظاهرة المدارس الفكرية والفنية . فثمة مايشبه التجمعات أو الشلل حيث يلتف المثقفون حول زعيم يميلون إلى الانضواء تحت لوائه والسير فى ركابه انتجاعا للراحة الذهنية والتخلص من نهكة الشك والاختيار . فلكأن لسان حالهم يقول « لقد رضينا بما اخترته لنا فارحتنا من الكثير من العناء فى الأختيار »

ونستطيع القول إن الشك متواكب مع الذكاء ، وعلى العكس فان التقبل والخنوع الفكرى مواكب للانحطاط الذهنى . ولاننسى أيضاً أن نبرز صفات وجدانية أخلاقية فى الموقف الشكي على رأسها الشجاعة وامتناع الخوف من النقد والتجريح . فالمفكر الحقيقى ذكى وشاك وشجاع فى آن واحد .

الشك وقوة الشخصية :

قلنا إن الشك يتواكب مع ارتفاع الذكاء . فكلما كان الذكاء مرتفعاً كان مجال الاختيارات التى يشاهدها المرء فى الموقف أكثر رحابة وأشد خصوبة . وقد قلنا أيضاً إن الشخص الذكى لايكتفى بما يتوافر فى الموقف من اختيارات ، بل هو يعمد فوق ذلك إلى خلق تلك الاختيارات وذلك بتخصيب الاختيارات الموجودة بالفعل وابتكار اختيارات جديدة تماما لم تكن موجودة من قبل . وهنا نستطيع أن نقرر أن عقل الإنسان ليس مجرد متقبل ومصدر لما سبق له تقبله ، بل هو يدأب على إقامة علاقات جديدة لم تكن موجودة من قبل من العناصر التى يتلقاها من الخارج . ولعلنا نقول بتعبير آخر إنّ ما يستطيع العقل تصديره إلى الخارج يمكن أن يكون أكثر بكثير من مجموع ماتلقاه . وهذا ربما يكون التفسير الوحيد الوجيه لنمو الثقافة الإنسانية سواء فى الفكر أو الفن أو فى مجال الاختراع .

والواقع أن هناك فرقا جوهريا بين شخص يجمع في ذاكرته الكثير من المعلومات بحيث يكون على استعداد لسردها كما حفظها من الكتب أو عن طريق السماع ، وبين شخص آخر يقوم بتصنيع ما يتلقاه من مقومات معرفية وخبرية بحيث يقدمها فى حياته وفى المواقف المتباينة فى أشكال أخرى كثيرة مصطبغة بصبغته الشخصية . ولعلنا لانخطىء إذا نعتنا الشخص الأول بأنه أبعد مايكون عن الثقافة . لقد يزعم مثل ذلك الشخص لنفسه بأنه متعلم ، ولكنه لايستطيع أن يزعم لنفسه أو لغيره بأنه شخصية مثقفة . فنحن نشترط فى الشخصية المثقفة أن تكون هاضمة لما تلقته وتتلقاه من خبرات معرفية أو مهارية أو اجتماعية أو وجدانية بحيث تكون قادرة على السيطرة على تلك المقومات الخبرية سيطرة كاملة ، ولاتكون تلك المقومات الخبرية هى المسيطرة عليها .

فنحن نميز إذن بين شخص تقبلى خاضع لضغوط الخبرات عليه ، وبين شخص آخر لاينصاع لتلك الضغوط الثقافية . وبتعبير آخر نقول إن الشخص الأول شخص إيمانى ، بينما الشخص الثانى شخص شكى . والشك — كما دأبنا على القول — هو الوقوف فى موقف الاختيار بازاء اختيارات أو متغيرات عديدة أو قليلة بالموقف . والواقع أن الموقف الشكى يجب ألا يغرينا بالقول بأن الشك أو الاختيار يكون بالضرورة عن طريق الوعى والشعور الكامل بمقومات الموقف التى يختار الشاك من بينها ، بل إننا نقرر أن الموقف الاختيارى أو الشكى قد يكون والمرء فى حالة لاشعورية . فلكم استعرض المفكرون والعباقرة المتغيرات أو الأختيارات فيما يتعلق بموضوع أو مشكلة وهم خالدون إلى النوم العميق . ولكم توصل مفكر أو فيلسوف أو مخترع إلى حل لمشكلة أو إقامة لعلاقة جديدة لم تكن موجودة وهم فى تلك الحال من النعاس العميق . ذلك أن الإنسان — كما سبق أن قلنا — بمثابة تيار دافق أو نهر جار بحيث يكون الماء على سطحه ممثلا لحالة اليقظة ، بينما الماء فى باطن النهر ممثلا لحالة النوم . والماء هو هو وسريانه نحو المصب هو أيضاً وبنفس السرعة . فأنت فى يقظتك شأنك فى نعاسك . وما سبق لك أختزانه فى ذاكرتك

يقوم عقلك باستعراضه على مائدة فكرك وقد أنخرطت فى النعاس العميق . وأكثر من هذا فان الكثير مما تصل إليه ومما أختمر فى ذهنك يكون قد تبلور واختمر وأنت فى حال النعاس .

ولقد نزعم أكثر من هذا أن الإنسان فى حال النعاس يكون أكثر حرية وأكثر أنفكاكا من قيود الواقع ومن ضغوط المجتمع من حوله ومن عوامل التشتيت التى تعزف به عن التعمق فى التفكير . فنى وقت النوم يكون المرء فى مواجهة ذاته ويكون قد خلا لفكره هو . ولكن مع هذا فثمة تحفظ بازاء هذا الرأى يجب أن نبديه ، وهو أن ضغوط الواقع الاجتماعى كثيرا ما تلاحقنا فى نعاسنا بحيث لانكون متحررين التحرر الواجب أو المطموح إليه ، بل يكون تحررا شكليا فحسب . ولكن إذا ما أستطاع الشخص أن يترك شكائم الواقع وقد حرر نفسه من أصفادها تمام التحرر ، فانه يستطيع أن يكون إذن فى مواجهة نفسه إذا ما أنخرط فى النعاس واستسلم للأحلام .

ونستطيع أن نقرر أنه كلما كان الشخص أكثر تحررا من ضغوط الواقع بما فى ذلك الضغوط الثقافية ذاتها ، كان بالتالى أكثر قدرة على اعمال ذكائه فى الموقف والسيطرة على متغيراته ، أو بتعبير آخر فانه يكون أكثر قدرة على الشك. ولعلنا نقول إن المعادلة الصعبة التى تجابه المفكرين والفلاسفة والمخترعين هى التحصيل الخبرى من جهة ، وعدم الخضوع لتلك المقومات الخبرية المكتسبة من جهة أخرى . ولقد لاحظ كثير من المتتبعين للمفكرين ودراسة نموهم الفلسفى أن ثمة فئة منهم كانوا مضغوطين بما اكتسبوه من بطون الكتب وبكثرة ماحفظوه واطلعوا عليه بحيث لم يكادوا يستبينون أنفسهم استبانة حقيقية . ولقد اعترف أحد كبار نقاد الأدب المصريين على شاشة التلفزيون منذ فترة وجيزة بأنه لم يقدم سوى ديوان شعرى واحد ، وكان ذلك فى فى مطلع شبابه ولكنه بعد أن عكف على دراسة ماسبق لغيره من نقاد عرب وأجانب ، وبعد أن أنغمس حتى أذنيه فى كتب النقد ، فانه لم يكتب بيتا واحدا . ومعنى هذا أن ضغوط الخبرات المعرفية قد حالت بينه وبين الابتكار أو قد حالت بينه وبين الشك أو التفكير الاختيارى . ومن جهة أخرى فاننا

نجد أن واحداً مثل ديكارت لم يكن مهمّا بأن يشحن عقله بما سبق لغيره أن دونه ، بقدر ما كان أهمّامه بأن يسيطر على ما يقوم بقراءته أو على مايصل إلى ذهنه من معرفة . ولقد قال توفيق الحكيم فى جلسة مع المؤلف إنه لايهتم بأن ينتهى من قراءة أى كتاب بسرعة كما يفعل الكثيرون ، بل هو قد يكتفى بقراءة بضعة أسطر ثم يسرح الطرف فيما قرأ وقد يقوم بكتابة تعليقات كثيرة فى هامش الكتاب ، أو قد تلهمه قراءة تلك الأسطر القليلة بفكرة جديدة تماما ، فيسحب الورق ويبدأ فى الكتابة .

وإذا جاز لنا أن نقول إن الشخصية القوية هى الشخصية التى تستطيع أن تخضع الواقع لها لا العكس فاننا نستطيع إذن أن نقرر أن المفكر الذى يسيطر على المقومات الخبرية التى يحصلها لا أن يسمح لتلك المقومات الخبرية بالسيطرة عليه لهو المفكر ذو الشخصية القوية . بيد أننا لانقصر قوة الشخصية على الكلام يدبج أو على الفكر يعبر عنه أو على الأحساس يصاغ فى صوت أو صيغة ؛ بل نتوسع فى القول فنقرر أن قوة الشخصية تتبدى فى جميع مجالات الحياة بما فى ذلك التصرفات اليومية والمواقف المتباينة . فالشخص المتسم بقوة الشخصية هو ذلك الشخص الذى يكون متحررا من ضغوط الناس من حوله فيما يختاره.ولقد نقول إن الشخصية القوية هى تلك الشخصية التى تخلق لنفسها مجالات تختار لنفسها من بينها. ذلك أن الإنسان فى ظل المجتمع الحضارى المنظم لابد أن يخضع لكثير جدا من النظم والعادات والتقاليد . ولقد ننعت الشخص الذى يخرج على جميع ما تواضع عليه المجتمع بأنه شخص مجنون أو أثيم . ولكن والحال هذه فان الشخص المتمتع بالشخصية القوية يعمد إلى خلق مجالات نشاطية يسيطر هو عليها لا أن تسيطر هى عليه . وهكذا نجد أن أصحاب الشخصيات القوية يخلقون لأنفسهم نظما وتقاليد خاصة بهم حتى فى مجالات حياتهم العملية . فهم يستعرضون اختيارات كثيرة ويختارون من بينها . وأكثر من هذا فانهم يدعمون المتغيرات الموجودة فى الحياة باختيارات أو متغيرات جديدة من خلقهم وابتكارهم . فالموظف قوى الشخصية لايخضع نفسه للروتين ، بل هو يسيطر على الروتين ويضيف إليه تقاليد جديدة بل إنه

يعمد إلى تحليل عناصر الروتين الموجود ثم يأخذ فى الاختيار من بينها . وبتعبير آخر انه لايكون خاضعا للروتين ، بل هو الذى يسيطر على الروتين ويعمل على تطويره وتخصيبه وتكييفه لمتطلبات الواقع ولما طرأ على المجتمع من تغيرات متباينة .

على أننا نستطيع القول بأن من الممكن أن نجد شخصاً قوى الشخصية فى جانب وضعيف الشخصية فى جانب آخر من جوانب الحياة المتباينة . لقد تجد فيلسوفا أو مخترعاً متمتعاً بقدرة كبيرة على الشك فى مجال الفلسفة أو الاختراع ، ولكنك لاتجده كذلك فى علاقاته الجنسية . إنه يجد نفسه سريع الخضوع للمرأة الجميلة وكأنها قد سلبت قدرته على الاختيار . فهو لايمر بالمرحلة الشكية أو الأختيارية فى حبه لكى ينتقى أفضل امرأة ممكنة ، بل هو ينساق سوقا وراء امرأة معينة تسيطر عليه كما حدث مع جان جاك روسو فى قصة حياته المعروفة . وبالمثل فانك قد تجد أحد الموظفين الناجحين جدا فى تطويع وتطوير وتخصيب الروتين ، ولكنه يكون فى نفس الوقت غير متحرر فكريا وقد ضاق فكره فلا يستطيع أن يختار من بين متغيرات أو أختيارات متباينة ، بل يكون قد انغلق فى إطار فكرى ضيق وسجن عقله فيه .

الخير والشر :

لقد سبق أن قررنا أن الخير الذى يواتى المرء عن غير اختيار ليس من الخير فى شىء ، وكذا فان الشر الذى يصدر عن المرء عن غير اختيار ليس من الشر فى شىء . بيد أن هذا الزعم بحاجة إلى إيضاح وتفصيل حتى نكون على بينة من أمرنا . فنحن ننظر إلى الخير والشر من زاويتين أساسيتين لا من زاوية واحدة كما يفعل الكثيرون . والزاوية الواحدة التى ينظر منها كثير من الذين تعرضوا للخير والشر هى زاوية نتائج الفعل وصوريته. فالخير والشر لديهم ينحصران فى البادى من السلوك ، سواء من حيث النتائج التى تترتب على الفعل أم من حيث الصيغة التى يتلبس بها ذلك الفعل . ولعلنا نصف أولئك الأخلاقيين بالصورية ، أعنى أنحصار النظرة إلى الفعل وما يتخذه من

صور وطرائق ووسائل ومايتعلق به من أشياء أو أحياء . ونحن لاننكر هذه الزاوية بل نعترف بها ، ولكننا نضيف اليها زاوية أخرى هامة هى زاوية الشخصية العارفة والمنعطفة والمريدة ذاتها . فاذا نظرنا إلى الخير والشر من زاوية الظاهر وزاوية الباطن ، فاننا نستطيع بذلك أن نكون قد نظرنا إلى الخيرية والشرية بنظرة تكاملية هى حصيلة الزاويتين الخارجية والداخلية جميعاً .

وبينما نجد أن الزاوية الخارجية تتحدد فى جانبين أساسيين هما النتائج المترتبة على الفعل وصورية الفعل وصيغته وطريقة أدائه ، فاننا نجد أن الزاوية الثانية الداخلية تتضمن جوانب متباينة يحسن بنا أن نتبين ملامحها ومقوماتها كما استبنا المقومين الأساسيين اللذين تتضمنها الزاوية الأولى الخارجية .

أما المقوم الأول فى الزاوية الداخلية فهو المقوم المعرفى : فنحن نعتقد أن هذا الجانب المعرفى لاينحصر فى الادراك أو فيما يتناوله المرء بعقله وهو فى حال اليقظة فحسب ، بل إنه يتضمن جميع المناشط الذهنية التى تدور بخلد المرء سواء كان فى حال اليقظة أم كان فى حال النوم . وكذا فاننا لانفصل بين الادراك أو التخيل أو التذكر أو التصور موضوعيا ، وبين الاضطلاع بتلك المناشط الذهنية وهى فى ارتباط وثيق بالحياة الوجدانية للمرء . فنحن — كما ألمعنا من قبل — لانفصل العقل عن الوجدان الا بطريقة منهجية بقصد التركيز على نوعية معينة من المناشط الذهنية . ففصل العقل عن الوجدان إنما هو كفصل وجه من وجهى العملة الواحدة عن الوجه الآخر . فأنت تستطيع أن تتأمل أحد وجهى العملة ولكنك لاتستطيع أن تنزع أحد الوجهين عن الوجه الآخر . فثمة ارتباط إذن بين العقل والوجدان مع استمرار التمايز فيما بينهما . فنحن لانصل إلى حد القول بذوبان العقل فى الوجدان ، أو ذوبان الوجدان فى العقل ، وإنما نريد فقط أن نقول بمواكبة المقومين بعضهما مع بعض واستمرار عملها فى وقت واحد .

وأكثر من هذا فاننا نزعم أن مثل تلك المواكبة بين العقل والوجدان قد تكون مواكبة تؤازرية حيث يشد العقل أزر الوجدان ويشد الوجدان أزر

العقل ، كما أنها قد تكون مواكبة اصطراعية حيث يقاوم العقل الوجدان ويقاوم الوجدان العقل . ولكن هناك على أى حال مقوماً ثالثاً يتخذ لنفسه وظيفة القاضى فى الشخصية هو الارادة.والارادةهى التى ترجح كفة العقل أو كفة الوجدان فى حالة المواكبة الاصطراعية ، كما أنها تؤازر العقل والوجدان جميعا فى حالة المواكبة التآزرية .

بيد اننا نعتقد أن الارادة عند الشخص لا تكون بالضرورة ارادة طيبة خيرة ، بل انها قد تكون إرادة مجرمة أو إرادة مريضة . ولو أن الارادة كانت خيرة باستمرار لما كان هناك أناس أشرار فى الماضى والحاضر والمستقبل وعلى وجه البسيطة كلها . وعلى هذا فاننا نستطيع أن نقرر أن هناك إرادة تنحو الى الخير وارادة أخرى تنحو الى الشر . ولا شك أن الارادة الأولى ترجح كفة العقل اذا ما انتحى الى الخير ، وتقاومه اذا انتحى الى الشر ، أما الارادة الثانية الشريرة فانها تؤازر العقل اذا انتحى الى الشر وتقاومه اذا ما انتحى الى الخير . وكذا يكون حال الارادة الخيرة والارادة الشريرة بازاء الوجدان الخير والوجدان الشرير .

والواقع أن بعض الفلاسفة قد نزهوا العقل عن الخطأ وبالتالى عن الشر ، وقد زعموا أن الوجدان وحده أو غيره من مقومات الشخصية هى المسئولة عن الشر يتردى فيه المرء . فالعقل فى نظرهم لا يخطىء على الاطلاق . وثمة من يعتقدون أن العقل يفكر فحسب وليس له صلة بما هو خير وما هو شر . فهو يرتبط بالعلاقات المعرفية بغير أن تكون تلك العلاقات ذات مدلول أخلاقى . ونحن فى الواقع لا نذهب مذهب الفئة الأولى التى تنزه العقل عن الخطأ — كما فعل سقراط مثلا — كما أننا لا نجعل العقل ذا نشاط ذهنى حيادى لا يحكم عليه بخير أو بشر ، وانما نحن نعتقد أن العقل مرتبط بالوجدان كما قلنا بحيث أنه قد يدعم ويبرر الشر الذى يذهب اليه وجدان المرء الشرير ، ومن جهة أخرى فان العقل قد يكون نقطة الانطلاق نحو الشر ويتبعه الوجدان بعد ذلك .

ومعنى هذا فى الواقع أن العقل والوجدان يؤثران بعضهما فى بعض سواء بالتأثير الايجابى أم بالتأثير السلبى . ولعلنا نسأل : مادام الأمر كذلك فما دور وتأثير الارادة ؟ ان الارادة فى رأينا تدعم الخير اذا كانت إرادة خيرة وتدعم الشر اذا كانت إرادة شريرة . فالعقل والوجدان يمهدان الأرض ثم تقوم الارادة بالبناء فى حالات الخير ، وهما يحشوان البندقية بالرصاص وتقوم الارادة بالضغط على الزناد فى حالات الشر .

وهكذا نجد هذا الثالوث بالشخصية : العقل والوجدان والارادة ولكل منها دور يلعبه فى الاختيار أو الشك . فنحن نختار بالعقل ، ونحن أيضا نختار بالوجدان ، ونحن أخيرا نختار بالارادة . ولكن كيف يتأتى للوجدان والارادة أن يختارا وهما ليسا من العقل فى شيء ؟ الواقع أن الاختيار قد يكون اختيارا عقليا كأن اختار الصواب وأترك الخطأ ، وقد يكون الاختيار اختيارا وجدانيا كأن أختار بوجدانى غريزيا الملذ وأتجنب المؤلم ، أو أن أختار ما أحبه وأتجنب ما أكرهه . وأخيرا فان هناك اختيارا إراديا فأنفذ عملا يتسم بالخير كأن أقدم مساعدة الى محتاج ، أو أن اضطلع بعمل آثم كأن أمد يدى ألى مال ليس لى حق فيه . ولعلنا نذكر بالتكامل يتحقق بين مقومات الشخصية حيث يتم التآزر بين العقل والوجدان والارادة ،ولكن مع تمايز كل منها فى نفس الوقت. ولعلنا نذكر أيضا بالمعنى اللاشعورى (العام) الذى ينصب على الكائنات الحية كالنباتات والاحياء الدنيا حيث تختار من بين أشياء متعددة فى الموقف . وشأن الوجدان والارادة هو على نحو ما — مع الفارق — هو نفسه شأن تلك الكائنات الحية التى يتسنى لها الاختيار بغير أن توهب عقلا تميز به تمييزا منطقيا رياضيا :

ولقد يصح لنا أن نقول إن الطفل الذى يضربه أبوه أو أمه ليردعانه عن اللعب بالنار يمكن أن يحس بالكراهية قبالتهما ، ولكنه ما يفتأ يدرك أنهما كانا يضربانه صونا له من شر وشيك ، فيقنع نفسه بحبهما وأن يحل الحب لهما محل الكراهية . فالوجدان هنا فى هذا المثال قد اختار الكراهية للوالدين ولم يختر الحب ، ولكن العقل اختار الحب وضغط على الوجدان لكى يحول مجراه

من الكراهية إلى الحب . ولقد ينزع ذلك الطفل إلى إفساد أوراق أبيه الهامة انتقاما منه لأنه ضربه ، ولكن عقله ينبهه إلى مايمكن أن يلقاه من ذلك الأب القوى من ضرب مبرح ، فيمتنع عن إفساد تلك الأوراق وقد هم فعلا بافسادها بأن يمزقها أو يحرقها . فالارادة فى هذه الحال قد اختارت وهمت بالفعل ، ولكن العقل سارع اليها وأجبرها على التوقف عن الاستمرار فى الفعل وذلك بفضل النظرة المستقبلية التى وفرها لذلك الطفل .

وعلى نقيض هذا الموقف نجد الشاب المتدين والذى اتجه وجدانه وجهة روحية وتمرست ارادته بالخير ولكن عقله تلوث بأفكار مضادة لتعاليم الدين . لقد يقتنع ذلك الشاب بالمروق جنسيا والضرب فى طرق الغواية واقامة علاقات غرامية ببعض المتهتكات . فهو — وقد فسد عقله — ولكن وجدانه وارادته لم يصل اليهما الفساد بعد ، فانه يجد مقاومة منهما . فهو برغم اقتناعه بالشر وكأنه هو الحق أو مايجب أن يضرب فى إثره ، فان مانشأ عليه من تربية دينية رققت وجدانه وقد تمرس بمجموعة من العادات الأجتماعية التى تخلو من مروق جنسى ، فانه يجد نفسه غير متجه بوجدانه ولا بارادته إلى الشر الذى تؤكده طريقة تفكيره الفاسدة . وأغلب الظن أن مثل ذلك الشاب لايستطيع أقتراف الخطيئة الجنسية لأن وجدانه الدينى وسيرته الأجتماعية وماتلبس به من عادات سلوكية عملية يحول بينه وبين إخراج ما يفكر فيه بعقله الشرير من شر إلى حيز الواقع ، بل يظل ذلك الشر حبيس عقله الشرير فحسب .

المناسب وغير المناسب :

هناك ثلاثة أنواع رئيسية من القيم السلوكية : النوع الأول — هو القيم الدينية ، والنوع الثانى هو القيم الأجتماعية ، والنوع الثالث—هو القيم الجمالية ، والنوع الأول من التقييم يتعلق بالخير والشر . والنوع الثانى يتعلق بالمناسب وغير المناسب ، والنوع الثالث يتعلق بالجميل والقبيح . فالتبول تحت أحد الكبازى المقامة بأحد الميادين — وهو من مظاهر السلوك الشائعة بالأسف

بمدننا الشرقية – لايعتبر شرا أو خطيئة من الوجهة الدينية ، ولكنه يعتبر خطيئة أجتماعية ، أو يعد من السلوك غير اللائق أو غير المناسب . وكذا الحال بالنسبة لبعض الألفاظ أو العبارات التى كانت مقبولة ومناسبة فى مجتمعات قديمة أو حتى فى بعض المجتمعات العربية الحالية ولكنها لم تعد كذلك فى الوقت الحاضر بالمجتمعات العربية الراقية . مثال ذلك أن ينادى الرجل المرأة بقوله لها « يامره » وكلمة « مره » أختصار لكلمة امرأة . فالمرأة المصرية المتحضرة تقيم الدنيا وتعقدها إذا ما ناداها أحد الناس بهذه الكلمة . فمثل ذلك الاستعمال – وان كان غير منحرف عن اللغة ، بل وغير مناف للخير الذى يقول به الدين فانه غير مقبول وغير مناسب لأن يستخدم فى الوقت الحاضر بالنسبة لقطاع كبير جدا من النساء العربيات المثقفات والمتحضرات . وكذا فان هناك تقييما جماليا ليس مرتبطا بالخير أو بالشر من قريب أو من بعيد . فمراعاة الذوق السليم المتسم بالجمال تتعلق بقطاع تقييمى غير قطاع الخير والشر . فالتذوق الموسيقى والتذوق الحركى والتذوق اللونى تنصب بصفة رئيسية على المجال الثالث أو على النوع الثالث من التقييم أعنى المجال أو النوع الجمالى .

وإذا جاز لنا أن نوحد بين المناسب والجميل من جهة ، وبين غير المناسب والقبيح من جهة أخرى وجعلنا من هذا الدمج أو من هذا التكامل نوعا تقييميا كبيرا واحدا مباينأ أحيانا للنوع التقييمى الأول المتعلق بالخير والشر ، فاننا نجد أن مبدأ الشك أو الأختيار واضح كل الوضوح فيه ، وأننا لانستطيع تناول هذا القطاع التقييمى الا بتناول المبدأ الشكى الأختيارى ووضعه نصب الأعين .

ولعل أفضل شيء نعمله لكي نوضح ما نقصد إليه هنا هو أن تقوم باستعراض بعض الأمثلة أو المواقف العملية التى تصادفنا فى الحياة اليومية والتى يتبدى فيها الموقف الشكى أو الأختيارى بوضوح وجلاء .

المثال الأول يتعلق بقضاء وقت الفراغ . إنك قررت أن تخرج فى يوم راحتك للترويح عن نفسك . أخذت فى تصفح الأعلانات الخاصة بالأفلام

السينمائية فاستهواك فيلمان فى دارى سينما قريبتين بعضهما من بعض . لقد أخذت تقارن بينهما من حيث أبطال كل فيلم ، ثم أخذت تقارن الموضوعين ، ثم أخذت أخيراً تقارن بين دارى العرض ذاتها . وبعد ذلك وقع أختيارك على أحد الفيلمين واتجهت إلى السينما التى تعرض الفيلم الذى راقك أكثر وقضيت السهرة مستمتعا بما شاهدته وتابعته من أحداث . انك قضيت وقتا وأنت فى حالة من الشك والاختيار . ربما قضيت بعض الوقت تستعرض خلاله مايمكن أن تقضى فيه أمسيتك ، وربما كان حضور أحد الأفلام السينمائية واحدا من بين متغيرات عديدة أخذت تقارن فيما بينها حتى أنتهى أختيارك إلى حضور أحد الأفلام السينمائية . ربما كان من بين الأختيارات حضور أحدى المسرحيات أو زيارة أحد الأصدقاء أو الجلوس بأحد الأندية أو حتى مجرد التجول بالشوارع الرئيسية بالمدينة لمشاهدة واجهات المحلات التجارية وتصفح المعروضات بفترينانها . ولكنك بعد فترة من المقارنة حذفت من أختياراتك كل تلك الأشياء ووقعت على أختيار واحد هو حضور أحد الأفلام السينمائية . ولكن القصة لاتنتهى عند هذا الحد . إنك بعد هذا القرار تكون قد أخذت فى الأنخراط فى موقف شكى أو أختيارى جديد هو استعراض الأفلام المعروضة خلال الأسبوع للأختيار من بينها . وبعد الأستمرار برهة فى حالة شكية جديدة ، فانك تنتهى إلى قرار جديد هو حضور ذلك الفيلم الذى راقك موضوعه ، فحزمت أمرك وتوجهت إلى دار السينما التى تعرضه وحضرت عرضه .

أما المثال الثانى فانه خاص بالسياسة التعليمية التى يمكن أن تتبعها الدولة . فهل تهتم تلك السياسة التعليمية بالمهارات اليدوية التى تؤدى إلى أرتفاع مستوى الإنتاج ، أم تهتم بالتثقيف والمعرفة وتهذيب السلوك واشاعة روح الجمال والتذوق لدى التلاميذ والطلاب . وبتعبير آخر هل ترجح تلك السياسة كفة المواد النافعة نفعاً مباشراً ، أم تكرس جل الاهتمام للمواد والخبرات غير المفيدة فائدة عملية إنتاجية ولكنها تهتم بالإنسان من حيث هو إنسان ؟ لقد

تكون الاجابة المتوقعة هى وجوب الاهتمام بالناحيتين بحيث لاتهمل هذه السياسة الفائدة العملية وتنمية الشخصية فى نفس الوقت . ولكن المسألة ليست بهذه البساطة . فثمة العديد من الجوانب التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار. ثمة مسألة حاجة المجتمع الراهن وشدة تلك الحاجة ، وهناك الإمكانيات الاقتصادية ، بل هناك المعمار واعداد المعلمين ومجالات العمل الحالية والمستقبلية .وهناك التراث وضغوطه وما ورثناه من عادات وتقاليد وطريقة فى التفكير وفى تناول الأشياء إلى غير ذلك من اعتبارات هامة .

ومعنى هذا فى الواقع أن المسئولين عن سياسة التعليم يجدون أنفسهم أمام مجموعة من الاختيارات . أنهم لايقررون بداءة ، ولايضعون سياستهم بناء على أفكار ومعتقدات مسبقة ، والا فان مايضعونه يكون مبتسرا غير ناضج وغير فعال ، بل هم يمرون فى مرحلة شكية يعقدون خلالها المقارنات بين العديد من الأختيارات إلى أن يصلوا إلى ترجيح كفة من الكفتين السابقتين (المنفعة ونمو الشخصية) على الكفة الأخرى .

ومن الأمثلة التى يجدر بنا عرضها — وهو أيضاً من التربية — هو ذلك المثال الخاص بتربية الأطفال . فكل أب وكل أم لابد يسأل نفسه : هل أستخدم الضرب فى تربية أطفالى ؟ وبتعبير آخر فان الوالدين يجدان أمامها اختيارين : الأول — ترك الحرية للطفل ، والثانى — قسر الطفل على سلوك معين وأخذه بالشدة واستخدام الضرب لإجباره على تقبل ما يقسر عليه . والواقع أن هذين الاختيارين يتضمنان فى أنحائهما مجموعة كبيرة من الأختيارات . فاذا ما أنحاز الوالدان إلى الحرية ، فانهما يجدان مجالات عديدة يستوجب كل مجال منها إثارة التساؤل عن نوع الحرية التى يسمح بها للطفل . أما إذا أنحاز الوالدان إلى جانب الاجبار والقسر فانهما يجدان أمامهما أيضاً العديد من الأختيارات . من ذلك مثلا : نوع الضغوط المستخدمة ، وإذا كان الضرب واحدا منها فتى يستخدم وكيف وبأى شدة ، وهل يضرب الطفل أمام الآخرين أم فى حجرة منعزلة ؟ وهل نصالح الطفل بعد ضربه أم

تتركه إلى أن يفيق لنفسه ، إلى غير ذلك من أسئلة واستفسارات أو قل من مواقف شكية ومجابهات واختيارات عديدة .

وعندما يتجه الرجل (أو المرأة) إلى أحد المحلات لشراء بعض الملابس فانه يجد نفسه بازاء مجموعة من الأختيارات . هناك مايتعلق بثمن القماش وما يتسنى دفعه من نقود ، وهناك نوع القماش المطلوب ولأى مجال يستخدم ، ثم هناك سن الشخص وما يليق به ، وهناك أقمشة ذات الوان نسائية وأخرى ذات الوان رجالى إلى آخر تلك الاعتبارات التى تجابه المرء وتجعله يمر فى موقف شكى أو أختيارى . ومهما طال الوقوف أمام تلك الأختيارات ، فمن الواجب على المرء أن يخلص إلى أختيار معين ، والا فاننا نعتبر أن الموقف الشكى مبتور . انه يكون حينئذ كالجنين فى بطن أمه لم يقيض له استمرار النمو فمات وولدته ميتا . فكما أن من المفروض أن يتم للجنين النمو حتى يولد مكتمل النضج كوليد متكامل الجسم ، كذا فان الموقف الشكى يجب أن ينضج بحيث يتم للمرء الوقوع على الاختيار المناسب فيأخذ به ويخلص إليه .

وفى جميع الأمثلة السابقة نجد أن الموقف الشكى لايتعلق بالخير والشر ، بل يتعلق بالمناسب وغير المناسب . والواقع أنه كلما تعقدت الحضارة وتقدمت ، فان المرء يجد نفسه بازاء أختبارات أخصب وأغزر ويكون عليه بالتالى أن يبذل جهدا لكى يخرج من إطار الشك إلى اطار اليقين بعد أن يستعرض المتغيرات الكثيرة أو القليلة المتوافرة بالموقف ليصل فى النهاية إلى قراره الحاسم والبات .

الفصل السابع

الشك الفلسفى

معنى الشك الفلسفى :

جريا وراء تعريفنا للشك بوجه عام بأنه الوقوف وجها لوجه أمام مجموعة من المتغيرات أو من الأختيارات للوقوع على بعض منها دون الباقيات ، فاننا نستطيع أن نعرف الشك الفلسفى على نفس المنوال بأنه الوقوف أمام مجموعة من المتغيرات أو من الأختيارات الفلسفية للأختيار من بينها دون باقى تلك المتغيرات أو الأختيارات . وهذا يتطلب منا بادىء ذى بدء أن نلقى ببعض الضوء على معنى الفلسفة حتى تتضح لنا الصورة الذهنية التى نعنيها عندما نذكر الشك الفلسفى .

ولعلنا نستعين فى تعريفنا للفلسفة بما ذكره برتراند رسل من أن الفلسفة تتناول موضوعات الدين بمنهج العلم . فالالهيات والنفس البشرية وغاية الوجود وغير ذلك من موضوعات يعرض لها الدين بالتسليم والايمان ، تتناولها الفلسفة بالمنهج النقدى الأستنباطى الذى يتذرع به العلم . وطبيعى أن تقف الفلسفة عاجزة عن استخدام التجريب كما يفعل العلم ، بل إنها لاتستعين أيضاً بالاحصاءات والمقارنات الجزئية بين الظواهر أو الأستنتاجات التى يخلص اليها المجرب .

على أن هناك زاوية أخرى يجب ألا يفوتنا النظر إلى موضوع الفلسفة منها . فالفلسفة لم تعد مجرد الجذع الذى أنشعبت عنه أغصان العلوم المتباينة ، بل إنها صارت تسبق العلم لا أن تكون مجرد كيان ثقافى سابق على ظهور العلوم . فبينما نجد أن الفلسفة قديما كانت تنتهى عند حد يبدأ منه العلم الطبيعى

خطواته ، فانها صارت فى التاريخ الحديث تبدأ من حيث ينتهى جهد العلم ويتوقف ويعجز عن الأمتداد إلى الأمام . ولنأخذ مثالين يوضحان مانعنيه من أن الفلسفة قد تكون فى موقف ما سابقة على العلم الطبيعى ، وفى موقف آخر تكون سابقة على العلم أو متقدمة على الخطوات التى خطاها وانتهى اليها .

فانكساغوراس الفيلسوف اليونانى الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد قال إن الشمس عبارة عن كتلة من المادة المشتعلة ، كما أن القمر لايعدو أن يكون أرضا كأرضنا ، وكان الأغريق فى ذلك الوقت يعتبرون الشمس والقمر ضمن الآلهة . فمثل هذا الكلام الذى قاله انكساغوراس وقتذاك كان من صميم الفلسفة ، وكان موضوع الشمس والقمر وباقى الكواكب يقع فى إطار الدين ويخضع للتسليم الايمانى الدينى ، كما يقع فى إطار الفلسفة ويخضع للنظرة النقدية الفلسفية على يدى هذا الفيلسوف . فالاختلاف فى الحالتين لم يكن أختلافا حول الموضوع ، بل كان حول المنهج الذى يتناول به المرء ذلك الموضوع . فطريقة تناول الدين للموضوع هى الطريقة التسليمية الايمانية ، بينما تعتمد الطريقة الفلسفية على الشك والاختيار من بين متغيرات أو بدائل أو أختيارات يعمد الفيلسوف إلى الأختيار من بينها . بيد أن موضوع الشمس والقمر قد أنسلخا عن الفلسفة وصارا من صميم موضوع العلم وقد أستطاع الإنسان أن يتناولها بل وأن يخضعها للمنهج العلمى . وهل يمكن أن يظل التفكير فى القمر فى مجال الفلسفة وقد هبط الإنسان فوق سطحه وعاد إلى الأرض بأجزاء من تربته ؟

وإذا كان هذا هو حال الفلسفة عندما تستحيل إلى علم كما شاهدنا فى المثال السابق ، فاننا نجد العكس يحدث فى أحيان أخرى حيث تستحيل النتائج العلمية موضوعا للفلسفة . فبعد أن خلص العلماء فى مجالات متباينة إلى القول بالتطور .. فى علم الحياة وعلم الفلك وعلم طبقات الأرض وعلم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) إلى غير ذلك من علوم ، فان ثمة من أخذ يتناول تلك النظريات المتخصصة فى مجال علمى معين لكى يبنى على أساسها نظرية عامة للوجود

فتكون تلك النظرية العامة فلسفة وليست علما . وبتعبير آخر فان العالم يخلص من بحثه إلى قوانين أو نظريات ، فيأتى الفيلسوف ويمتد بتلك القوانين أو النظريات ويقيم وشائج فيما بينها ويخلص إلى فلسفة . وأكثر من هذا فان العالم نفسه فى أحد فروع العلم يمكن أن يمتد بأفقه فى المجهول المستقبلى المتعلق بعلمه ويقرر أشياء لاتعتمد على الواقع المباشر بل على مايرتئيه من تفسيرات شخصية فيكون فى هذه الحالة فيلسوفا لا عالما ، أو يكون فى جانب من بحثه عالما وفى جانب آخر منه فيلسوفا . فلقد يشاهد عالم الفلك مجموعة من الأطباق الطائرة فى أثناء تجواله بمنظاره فى الفضاء . لقد يذهب الى تفسير مشاهداته تلك بأن ثمة كواكب أخرى عامرة بالكائنات العاقلة التى تسبقنا فى حضارتها وعلومها وتكنولوجيتها . إنه فى مثل هذا التفسير لا يعتبر عالما بل فيلسوفا ، وذلك لأن ما يقرره هنا لا يستند الى مشاهدات مباشرة ، بل الى استنتاجات شخصية . صحيح أنه اذا ما قام بتصوير الأطباق الطائرة ، فان ما قام بتصويره يمكن أن ينخرط فى إطار العلم ، ولكن الخروج عن حدود الواقع الى نطاق ذهنى آخر إنما يخرج أيضا بذلك العالم من حدود العلم الى حدود الفلسفة .

وثمة أيضا مجال آخر للفلسفة شائع فى العصور الحديثة . فأنت اذا تناولت موضوعا أو فكرة أو مفهوما وفسرت كل شيء به ، فانك تكون عندئذ فيلسوفا . لقد تتناول مثلا فكرة الحب والكراهية أو فكرة القوة وتخرج علينا بعمل تكون قد جعلت مفهوم الحب والكراهية فيه محورا عاما لا للكائنات الحية وحدها بل للجوامد أيضا ، وليس للأشياء الموجودة على الأرض فحسب ، بل تمتد ببصرك الى جميع الكواكب ، بل انك قد تجمع العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى قبضتك وتخضعها لهذا المفهوم وذلك بتفسير التجاذب أيا كان والتنافر أيا كان بالحب والكراهية أو برد الحب الى التجاذب والكراهية الى التنافر ، نقول انك اذا فعلت ذلك بحيث تكون قد قدمت حلا متكاملا ولا تكون عاطفيا أو شاعرا أو قصاصا فيه ، أو بتعبير آخر لا تكون فنانا أو اديبا فيما تكتب .. نقول إنك اذا فعلت ذلك فانك تكون عندئذ فيلسوفا لا اديبا ولا عالما . ونفس الشيء اذا ما قمت

بتأليف كتاب عن القوة وجعلت للقوة إرادة تشيع فى انحاء الوجود الفردى والجمعى ، وفى ارجاء الوجود البيولوجى والوجود الفزيائى . انك تكون بعملك هذا فيلسوفا لا اديبا ولا عالما .

وأكثر من هذا فانك اذا اعتنقت فكرة لم يسبقك أحد اليها وأدرت حولها حياتك وعاملت الآخرين فى ضوئها واشتهرت بها ، فان الناس من حولك سيصفونك بأنك فيلسوف . فغاندى مثلا اعتنق فكرة امكان استغناء بلاده عن حضارة الغرب استغناء تاما ، وأنه بهذه الطريقة يستطيع ايقاع الهزيمة ببريطانيا العظمى لوقته . إنه كان فيلسوفا عمليا . ولقد ثبت بالفعل أن فلسفته السلبية هذه كانت أمضى من فلسفة الاغتيالات ومن فلسفة الحروب الطائفية أو التكتلات أو الثورات الدموية .

ونستطيع فى الواقع أن نقرر بعد هذه العجالة التى عرضنا فيها لمعنى الفلسفة أن الفيلسوف يجب أن يمر بمرحلة الشك الفلسفى حتى يتسنى له أن يختار من بين المتغيرات الكثيرة التى يعرضها أمام ناظريه . على أن الشك الفلسفى ليس مجرد مرحلة تنتهى تماما عند الفيلسوف ، بل هى مرحلة تواترية مستمرة فى حياته . ذلك أن المتغيرات مستمرة التدفق والاعتمال فى حياة الفيلسوف ، والقضايا التى تفرض نفسها على فكره لا تنتهى . فهو ما يكاد يختار حتى تطل متغيرات جديدة برأسها فتحمله على إعادة النظر من جديد بمنظار الشك الفلسفى . وخير مثال على هذا برتراند رسل الذى يقول عنه الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه « ثقافتنا فى مواجهة العصر » لقد شهدت بعينى .. نفراً من دارسى الفلسفة ... يهاجمون الرجل (رسل) لأنه ناقض نفسه فى هذا الموضع أو ذاك ... فأدرك الظلم فى تلك الهجمات ، لأنها تنسى عشرات السنين التى تفصل عند الرجل كتابا عن كتاب ، وتنسى أن الرجل إنسان يتطور وينمو ويفكر ثم يعيدالتفكير مدى ثمانين عاما نشيطة منتجة».. فلا شك أن رسل كان يبدأ فى مدارسة المتغيرات الجديدة ملتجئا الى الشك الفلسفى كهاد له ليقع على خيارات جديدة بديلة لخياراته القديمة التى لم تكن

تأخذ فى اعتبارها تلك المتغيرات أو الاختيارات التى استجدت فى الموقف . ولنتذكر أن رسل قد عاش فى معمعان التقدم العلمى المذهل . فلقد عايش دارون وسبنسر وفرويد واينشتين وغيرهم من فحول العلماء ، وكان عليه أن يضع كل فكر هؤلاء وما تطوروا به من فكر وعلم ومكتشفات تحت أضواء شكه الفلسفى. وعلينا فى هذا المقام أن نلمع الى ديكارت والغزالى وغيرهما من فلاسفة انتهجوا أيضاً الشك الفلسفى حتى خلصوا الى فلسفات متمايزة قائمة بذاتها جعلت منهم أعلاما للفكر الانسانى تدفع بغيرهم الى اكمال المسيرة فى مشوار الحياة الفلسفية .

مجالات الشك الفلسفى :

بعد أن عرضنا لمعنى الشك الفلسفى ، فان علينا أن نحدد المجالات التى يتبدى فيها ذلك النوع من الشك . إننا نجد فى الواقع ثلاثة مجالات يلعب الشك الفلسفى أدواره عليها : المجال الأول — المنهج الذى يتوخاه الفيلسوف فى التفكير ، والمجال الثانى — المضمون الذى يركز عليه الفيلسوف ، والمجال الثالث — وسيلة التعبير التى يتذرع بها الفيلسوف لسوق المضمون وفق المنهج الذى اختاره لنفسه .

أما من حيث المنهج الذى يمكن أن يسير الفيلسوف وفقه فى تفكيره وفى عرضه لذلك التفكير فاننا نجد أن هناك مجالات فرعية كثيرة تنشعب عن هذا المجال الأول بحيث يكون على الفيلسوف أن يختار واحدا منها يسير وفقه ويضرب فى إثره ويلتزم به . ولعلنا نوفق فى رسم خريطة لتلك المناهج التى يختار الفيلسوف لنفسه منهجا منها :

هناك أولا — المنهج الفلسفى التاريخى : وهو المنهج الذى يعتمد فيه المفكر على تاريخ المفهوم ومراحل نموه وتطوره بحيث يكون متتبعا له منذ بدايته حتى مرحلة النضج التى بلغها ثم يكون عليه بعد ذلك أن يمتد بذلك المفهوم أو ذلك المحور خطوات جديدة الى الأمام . فهنا نجد أن الفيلسوف يكون مستوعبا لما سبق لغيره شقه فى هذا المضمار الذى يهتم به ، ثم هو يكون مبتكراً

ومكملا لما سبق لغيره أن بدأه من فلاسفة كثيرين أو قليلين . ومثال لذلك هربرت سبنسر الذى نخال أنه استوعب فكرة التطور منذ بوادرها عند اليونان حتى شارلز دارون الذى كان معاصرا له . وعلينا أن نميز بين المنهج الفلسفى التاريخى من جهة وبين المنهج التاريخى الفلسفى من جهة أخرى . فالمنهج الأول يجعل الفلسفة هى المحور الذى يمر عبر التاريخ، بينما يجعل المنهج الثانى الأحداث التاريخية هى المحور ويفلسفها بأن يحاول استخراج قوانين عامة تضرب فى أثرها . وهذا المنهج الأخير لا يهمنا فى هذا المقام ، بل يهم المؤرخ المتفلسف.

ثانيا — المنهج الفلسفى الاجتماعى : وفى هذا المنهج يهتم الفيلسوف بالفرد من جهة وبالمجتمع من جهة أخرى، ويحاول تناول القضايا التى تتعلق بهما. من ذلك مثلا قضية كقضية الحرية بالنسبة للفرد والمجتمع على السواء . ويجعل الفيلسوف من هذه القضية محورا أساسيا يدير حوله فلسفته . ولعلنا نوفق إذا قلنا إن جون ديوى قد أخذ بهذا المنهج . فالفيلسوف من هذا النوع يعيش مجتمعه الراهن وعالمه المعاصر ويهتم بقضية أساسية من قضاياه ويقدم الينا فلسفة اجتماعية أو تربوية كما فعل ديوى تحقق هدفه فى تحقيق الحرية للفرد والمجتمع على السواء وتحقق التكامل فيما بينهما .

ثالثا — المنهج الفلسفى الأنثروبولوجى : وفى هذا المنهج يعمد الفيلسوف الى تفسير أو تقديم مفهوم شامل للانسان منذ بواكير حضارته أو منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الوقت الراهن ، بل وحتى ما شاء الله . ومثال لذلك اميل دوركايم الذى قال بالعقل الجمعى وأن ذلك العقل سابق على عقول الأفراد وأهم منهم ، وأن المجتمع هو الأساس وأن الأفراد وان تباينوا فانهم لا يغيرون شيئاً من ذلك العقل الجمعى ، بل ان الزعماء والقادة ليسوا اكثر من مترجمين لما يرسمه لهم ذلك العقل الجمعى .

رابعا — المنهج الفلسفى العلمى : وفى هذا المنهج يهتم الفيلسوف بالمكتشفات العلمية الحديثة ويبنى عليها فلسفته . وخير مثال لفيلسوف استعان بهذا المنهج دالبير D'AIEMBERT . فالفيلسوف الذى يستعين بهذا المنهج

يكون من علماء الفيزياء أصلا ثم يستحيل الى فيلسوف . ولكن هذا لا ينفى امكان الفيلسوف المتخصص أصلا فى الفلسفة أن يستمد محور فلسفته من المكتشفات الفيزيائية . من ذلك مثلا قيام أحد فلاسفة بالافادة من مفهوم الطاقة الذى نشأ عن انشطار الذرة واقامة فلسفة عامة تدور أساساً حول هذا المفهوم .

خامسا – المنهج الفلسفى الدينى : وفى هذا المنهج يعتمد الفيلسوف فى اختيار منهجه على المعتقدات الدينية الأساسية . بيد أنه لا يستحيل الى أحد اللاهوتيين أو الى واحد من علماء الكلام ، بل يستشف محورا أساسيا من محاور الدين يبنى عليه فلسفته . ولعل خير مثال لذلك ديكارت فى برهانه على وجود الله . ناهيك عن منهجه التأملى الذى يتجانس فى كثير من طرائقه مع ما كان – ولا يزال – يستعين به الرهبان والقساوسة ورجال التصوف الاسلامى من امثال الغزالى والحلاج .

ومن الواضح أن الفيلسوف يمر فى مرحلة شكية وهو بازاء هذه المناهج الخمسة لكى يشق طريقه ويختار من بينها منهجا يعتمد عليه فى تشييد بنائه الفلسفى . ولقد يكون الشك الفلسفى بازاء المنهج شكا لا شعوريا حيث يعانى الفيلسوف لا شعورياً من غير وعى من جانبه لدى شقه الطريق والبحث عن منهج يتذرع به ويعتمد عليه . ولعل من عوامل اختيار الفيلسوف للمنهج نشأته من جهة ومزاجه الشخصى من جهة ثانية وثقافته التى تتأتى له من جهة ثالثة .

أما المجال الثانى الذى يلعب عليه الشك دورا عند الفيلسوف فهو المضمون الذى يضمنه فلسفته . ومن الطبيعى أن يرتبط المضمون الفلسفى بالمنهج الذى يتذرع به الفيلسوف . على أن هذا لا يعفينا من استعراض المضامين الفلسفية التى يكون على الفيلسوف أن يختار من بينها . والمضامين الفلسفية هى :

أولا – الوجود : فالفيلسوف الذى يختار هذا المضمون عليه أن يقدم تفسيرا للعالم وباقى الكواكب وأصل الوجود . ولقد اهتم بعض فلاسفة اليونان قديما بهذا الجانب فذهب بعضهم الى تفسير الكون بالهواء وبعضهم

بالماء وبعضهم بالنار الى آخر تلك التفسيرات . وكلما تقدم العلم وزاد سير الانسان للفضاء واكتشف كواكب ومجرات جديدة ووقف على ظواهر فيزيائية وكونية لم يكن لأسلافه علم بها كان المجال الوجودى أخصب لتقديم فلسفة تجعل الوجود مضمونا لها .

ثانيا — الانسان : فالفيلسوف الانسانى يمكن أن ينظر الى الانسان الفرد بمشكلاته وآماله ومطامحه وغاياته وخلوده ، كما يمكن أن ينظر الى المجتمع ويقدم تفسيرا للعلاقات الاجتماعية بين الافراد ولعلاقات المجتمعات بعضها ببعض ، كما يستطيع أن ينظر الى المملكة الانسانية فى علاقاتها بالمملكة الحيوانية وبمملكة النبات الجوامد . ويمكن أن يركز الفيلسوف على القيم بكافة أنواعها بما فيها القيم الدينية والعادات والتقاليد والأعراف ، بل ويستطيع أن يجعل من القيم الجمالية مجالا لفلسفته .

ثالثا — الرياضيات : فلقد يجعل الفيلسوف الرمز الرياضى هو المضمون الفلسفى لفلسفته . ويسير جنبا لجنب مع هذا الرمز المنطقى . فالمنطق والرياضيات يشكلان مضمونا فلسفيا كما هو الحال لدى هوايتهد وبرتراند رسل وغيرهما من فلاسفة رياضيين .

أما المجال الثالث الذى يمكن أن يلعب الشك الفلسفى دورا على مسرحه فهو أداة التعبير . ولقد قلنا إن من تلك الأدوات التعبيرية الرموز الرياضية والمنطقية . بيد أنه الى جانب هذه الرموز فان هناك أدوات تعبيرية أخرى نلخصها فيما يلى :

أولا — القصة والمسرحية : وهذا اللون نشاهده عند أفلاطون فى محاوراته وعند سارتر حديثا .

ثانيا — الشعر : وخير مثال لذلك أبو العلاء المعرى الذى صاغ فلسفته فى شعر يتضمن معانى غزيرة ومتكاملة .

ثالثا — الأسلوب النثرى : وهو الأشيع حيث يقدم الفيلسوف فلسفته على هيئة مقالات يضمنها كتابا أو كتبا . والأغلب أن الفيلسوف لا يكاد

يحس بأنه يقدم فلسفة جديدة متكاملة ، ولكن يأتى دارسو الفكر بعده ويقومون بتجميع كتاباته وسوقها فى صيغة فلسفية مبوبة ومدروسة .

رابعا — الأسلوب التوليدى أو الحوارى وهو الاسلوب الذى اعتمد عليه سقراط فى ايلاد الافكار الفلسفية عن طريق الحوار مع الاخرين .

وعلينا بعد هذا العرض للميادين الثلاثة التى يلعب عليها الشك الفلسفى ادواره الرئيسية أن نقرر أن هذا النوع من الشك دائم الفاعلية فى حياة الفيلسوف . فهو شخصية شاكة بالدرجة الأولى لأنه لا يغلق أمامه مجالات الاختيار ، بل يدأب على الشك ويحن الى إعادة النظر فيما سبق له الانتهاء اليه وتقريره . ومن هنا فان حياة الفيلسوف الذهنية لا يمكن أن تتسم بالهدوء والتقبل والركون والاطمئنان الى ما سبق له تقريره وانتقاؤه وصياغته فى كلام أو رموز .

خطوات الشك الفلسفى :

يجدر بنا أن نتساءل بادىء ذى بدء عن منشأ التفكير الفلسفى عند المرء الذى يقيض له أن يهتم بهذا النوع من التفكير ولا يجد اقتناعا بقشوره بل يصبو الى سبر أغواره ويصل الى أعماقه . اننا نعتقد أن صاحب التفكير الفلسفى تكون لديه رغبة ملحة لأن يتخلص من قيود الزمان . وهذا خلافا لصاحب التفكير التاريخى الذى يتابع الأحداث التى وقعت فى إطار الزمان . فصاحب التفكير التاريخى مرتبط بالواقع الذى حدث بالفعل وقد احتل رقعة زمانية ومكانية معينة ، بينما نجد أن صاحب التفكير الفلسفى ينزع نفسه من إطار الواقع المحسوس بل ومن إطار الواقع الزمانى ويصبو الى المطلق والدائم ولا يهمه النسبى والمؤقت . فالحدث التاريخى فى نظر الفيلسوف هو حدث جزئى عابر ، بينما هو يهتم بالوقوف على ما هو عام شامل وثابت خالد . إنه يتطلع الى الأزلى الأبدى فى نفس الوقت . ولقد نقول إن صاحب التفكير الفلسفى يتصفح الواقع لا لكى يلتصق به بل لكى ينتزع منه جواهره . فشأنه شأن العالم الذى يتصفح الخامات لا لكى يلتصق بها ويرسو عندها ، بل لكى

يصل من دراسته لها الى قوانين عامة تجمع الكثير فى نطاق القليل . فهو مثلا يدرس الحديد والنحاس والرصاص والذهب وجميع المعادن التى يتسنى له التوصل اليها لكى يخلص الى قانون عام يقول إن الفلذات جميعا تتمدد بالحرارة ، او الى غير ذلك من قوانين تجمع الكثير فى عبارة قصيرة .

بيد أن الفيلسوف أكثر طموحا من العالم . ذلك أنه يصبو الى الخلوص الى قوانين أشمل وأعم . فهو يتناول قوانين العلوم لكى يستخلص منها القانون الأعم أو الفلسفة . ومعنى هذا أن مدى الاختيارات أو مدى الشك عند الفيلسوف يزيد اتساعا عن مدى الاختيارات أو عن مدى الشك عند العالم . والجدير بنا أن نتناول منشأ التفكير الفلسفى عند الفيلسوف منذ بدايته .

اننا نجد أولا أن الاستعدادات الوراثية تلعب دورا ذا بال عند الفيلسوف . على أن تلك الاستعدادات الموروثة لا تشكل سوى نقطة البداية التى تشبه شعلة عود الثقاب التى اذا ما قيض لها أن تصادف مواد قابلة للاشتعال فان مدى اشتعالها يزداد وتتسع رقعته . والعكس بالطبع صحيح . فاذا لم تصادف مثل تلك المواد القابلة للاشتعال فانها سرعان ما تذوى وتنطفىء . ونستطيع أن نقول بغير حرج أن تلك المواد القابلة لاشعال جذوة التفكير الفلسفى هى ما يمكن أن يصادفه المرء من مشكلات . المهم أن يستشعر صاحب التفكير الفلسفى القلق الذى يدفع به الى الحيرة والبحث عن مخرج يخلصه من شعوره بالتوتر الملح والشديد . ولقد يكون ذلك القلق الذى يحدث التوتر عند الفيلسوف ناجما عن الجو الأسرى غير المستقر أو عن مشكلة اقتصادية أو عن تهديد يؤرق نوم المحيطين به ، أو قد يكون عاهة ألمت به فأفقدته الاسترخاء النفسى وأحلت محله القلق النفسى .

والواقع أن أول موقف شكى يصادف الفيلسوف هو تلك الخيارات المتبدية أمامه فى طريق حياته. ولعل اقل بدائل ممكنة أمام الفيلسوف انما يتمثل فى الخيار بين اليأس والرجاء ، أو قل بين الانزواء والبعد عن الناس وبين الاندفاع نحوهم وتأكيد الذات فى وجودهم ، أو قل بين إفناء الذات بالانتحار

جسميا أو معنويا بمعاقرة الخمر أو بادمان المخدرات وبين الابداع الفكرى : وبتعبير أخر فان الفيلسوف هو الشخص الذى يختار التعويض محل الاعتراف بالهزيمة والارتماء فى أكفان القنوط .

وحتى بالنسبة لأولئك الفلاسفة الذين يبدو أن حياتهم كانت موفورة وليس فيها ما يعكر الصفو أو مايحدث التوترات النفسية ، فاننا نؤكد أن استخلاص ذلك من زاوية واحدة هى الزاوية المادية ، إنما هو استخلاص خاطىء . فلقد تجد فيلسوفا نشأ فى رغد من العيش ولكنه كان لايستشعر سعادة فى حياته الأسرية ، أو كان يحس نقصا معينا فى شخصيته غير معلن على الملأ . ولقد نجد نوعا من الفلاسفة مثل برتراند رسل يحسون بمشكلات العالم كله وكأن تلك المشكلات هى مشكلاتهم الشخصية . فمثل أولئك الفلاسفة يكونون على قدر كبير من الحساسية . فالمجاعات والحروب وما ينجم عنها من ثكل للامهات وترمل للنساء ويتم للاطفال وتشويه للشباب وخراب للديار وهلاك للحيوانات والمزارع وهدم للمصانع وتشريد وبطالة للأيدى العاملة تقلق تلك الشخصيات الحساسة برغم بعدها عنهم وبرغم عدم تعرضهم أو تعرض ذويهم لأى أذى . فلقد كان رسل يقود المظاهرات ضد انتاج القنابل الذرية ، وهى القنابل التى لم يكن يتوقع بحال أن يلقى بها على لندن حيث كان يقيم . ولكنه كان يحس بالتوتر يملأ جنباته شأنه فى ذلك شأن من كان صاحب عاهة أو من نشأ فى أسرة مفككة أو كأنه واحد من أولئك الفلاسفة الذين كانوا يعانون من بعض الأمراض الجسمية أو النفسية المستعصية .

والواقع أن الفيلسوف لاينفتح على العالم المحيط به الا انفتاحا ظاهريا . فالناس لايشاهدون الفيلسوف خطيبا جماهيريا أو زعيما سياسيا أو مصلحاً اجتماعياً . ولعله إذا فعل ذلك فانه سرعان ماينكص ولايستمر بنجاح فى المجال الاجتماعى . ولعلنا نذكر فى هذا المقام أفلاطون عندما حاول تطبيق جمهوريته وروبرت أوين حينما حاول تطبيق مبادئه الأشتراكية وقد كان حليفهما الفشل. ذلك أن الفيلسوف بما غرس فيه من فكر فلسفى لايصلح للواقع الاجتماعى بل يصلح للواقع الفكرى . ولا شك أن عالم الفكر مخالف لعالم الواقع .

فالعالم الواقعي جزئى ومحسوس ، بينما عالم الفكر شامل ومجرد . ولعل الفيلسوف الذى يقحم نفسه فى عالم الواقع سرعان مايتبرم بقيود ذلك الواقع وتهفو نفسه إلى الحرية التى يستشعرها فى عالم الفكر فيجرى إلى أحضانه مخاصما عالم الواقع الاجتماعى .

فالشك الذى يساور الفيلسوف هنا هو الخيار بين هذين العالمين . ولعل الشهرة أو الجاه يحاولان جذبه إلى عالم الواقع ، ولكن الحقيقة والتعلق بصدق الفكر وصدق التعبير يحولان بينه وبين الارتماء فى أحضان الواقع والاشاحة عنه والانخراط فى إطار عالمه الفكرى .

وثمة موقف شكى آخر فى خطوات الفكر الفلسفى عند الفيلسوف هو ذلك الموقف المتعلق بالتعبير . فالفلسفة بطبعها تبغى الدقة وعدم ممالأه الجماهير بما فى ذلك جماهير المثقفين أنفسهم . من هنا فان الفيلسوف لايهمه الذيوع والانتشار ، بل يهمه أن يكون قادرا على التعبير عما يخالجه من فكر بأصدق عبارة وأدقها . ولكأن الفيلسوف لايكتب للناس بل يكتب لنفسه هو . ولقد يأخذ المحيطون به فى حثه على تحرى البساطة فى الكتابة وعلى تناول موضوعات جماهيرية ، ولكنه لايستطيع تلبية مطالبهم ويظل يكتب ما يروقه هو لا ما يروق الآخرين .

وثمة خصيصة أخرى فى كتابات الفيلسوف هى خصيصة التجريد . فثمة خياران أمامه : الأول أن يصف مناظر ترتسم فى ذاكرته عن أشخاص أو مواقف ، والثانى التعبير التجريدى . ولعل بعض الفلاسفة يتخذون من القصص أو الشعر وسيلة للتعبير عن فلسفاتهم ، ولكنهم فى الواقع لايكادون يكونون قصاصين أو شعراء . فالصبغة العامة لديهم تكون الفكر لا القصة ولا الشعر . فالمهم عند الفيلسوف هو أن يعبر عن الشامل والأزلى الأبدى بغض النظر عن الذريعة التى يتذرع بها لبلوغ مرامه .

ولسنا نتخيل أن يصل أى فيلسوف إلى مرحلة النضج ما لم يكن قد استطاع أن يخرج من اطار نفسه إلى اطار العمومية . فمشكلاته الشخصية بل

ومشكلات أسرته وبلده ووطنه تأخذ لها مساحة أوسع من مساحتها الواقعية . فهو يتسع فى نظرته بحيث يرى الإنسانية جمعاء ولايكتب للتعبير عن مشكلة آنية وجزئية بل يكتب عن مشكلات البشرية ، ولا يكتب عن مشكلة خاصة بشعب معين بل عن مشكلة تنعكس على البشرية جمعاء . لقد يكتب عن التفرقة العنصرية لأن وجود مثل تلك التفرقة يعد وصمة عار فى جبين الإنسان باعتباره نوعا هو أرقى أنواع الكائنات الحية .

بيد أن الفيلسوف بعد أن يكتب وينشر ماكتبه فانه يكون قلقا يرغب بلهفة أن يعرف ما يمكن أن يوجه إلى كتابته من نقد . ومايمكن أن يميز الفيلسوف هو شكه حتى فى ذاته أو على الأصح فيما كتبه . فهو لايفكر بأنانية ولايتحيز لما يكتبه تحيزا أعمى ، بل يكون مستعدا لمراجعة ماكتبه وتعديل الخطوط التى سار وفقها فى الكتابة . ولكنه لايخضع لرأى أحد الا عن اقتناع بوجاهة ما يوجه اليه من نقد أو من رأى .

نتائج الشك الفلسفى :

إننا نعتقد أن ثمة نوعين أساسيين من النتائج تترتبان على الشك الفلسفى : النوع الأول من النتائج يتعلق بالفيلسوف نفسه . أما النوع الثانى من النتائج فانه يتعلق بما يخلفه من فلسفة مكتوبة على الورق وبما يقدمه إلى الحضارة الإنسانية من فكر يتأثر به الآخرون ويؤثر فى مجرى الفلسفة بصفة عامة على المستوى العالمى . ولنبدأ بتصفح النتائج النفسية المتعلقة بالفيلسوف نفسه :

إننا نستطيع بادىء ذى بدء أن نقول إن الفيلسوف بتطلعه الشديد يستشف متغيرات متباينة وخصبة بالنسبة للقضية الواحدة التى يقبل على تناولها بالبحث. فهو يرى من الجوانب فيها ما يعز على الآخرين من حوله مشاهدته أو الوقوف عليه . وأكثر من هذا — كما سبق أن قلنا — فان الفيلسوف يعمد إلى تخصيب تلك المتغيرات أو الاختيارات بما يقوم عقله بخلقه وبما يقوم بنسجه بخياله ، ومن ثم فان مجال الاختيار — أو بتعبير آخر مجال الشك — يتسع فى نظر الفيلسوف .

ولعل من أهم النتائج النفسية المترتبة على هذا الاتساع فى المجال الاختيارى أو الشكلى نشوء درجة عالية من التوتر النفسى يحتدم أواره فى ذهن الفيلسوف. ولقد سبق أيضاً أن ذكرنا أن ما يعانيه الفيلسوف من توترات نفسية شديدة إنما يعمل على إصابته فى بعض الأحيان بما يسمى بالنهكة أو الأرهاق النفسى. وهذا شبيه بما يقع لممثلى التراجيديا الذين يعانون من المواقف المتوترة لأن الممثل التراجيدى الجيد يمر بالمشهد التراجيدى كما يمر به صاحب الشخصية الحقيقى الذى يقوم الممثل بتمثيل دوره إذا افترضنا أن صاحب تلك الشخصية قد بعث حياً أو خلق إنساناً فى دنيا الأحياء.

على أن ما قد يسعف الفيلسوف بالراحة النفسية بعد التوتر هو توصله إلى اختيار من بين تلك المتغيرات أو الأختيارات العديدة جدا التى أكتشفها والتى خلقها بفكره وخياله. فالتوصل إلى خيار يضفى على عقل ووجدان الفيلسوف راحة وينعم عليه بالاسترخاء النفسى.

على أن ذلك الاسترخاء النفسى لدى الفيلسوف لايستمر طويلا. فهو ما يكاد يلقى باختياره أو اختياراته على الورق على هيئة كلام مكتوب حتى يبدأ فى مراجعة نفسه وذلك بأن يكتشف أختيارات جديدة لم يكن قد كشف النقاب عنها، كما أن عقله الواعى وعقله غير الواعى يستمران فى دأب يخلقان متغيرات جديدة يطرحانها أمام ناظرى الفيلسوف. من هنا فان شعورا جديدا يوافى الفيلسوف بالإضافة إلى التوتر النفسى الذى كان قد ساده قبلا قبل الوقوع على الاختيار الأول. ذلك الشعور هو الشعور بالاحباط أو بخيبة الأمل. فهو يجد أنه قد تسرع إلى خيار أو خيارات لاترضيه الآن بعد أن كشف أمامه النقاب عن اختيارات جديدة، وبعد أن قام عقله ووجدانه بخلق أختيارات جديدة أخرى بحيث تنضم جميع الأختيارات المكتشفة والمخلوقة لكى تطارد النوم من أجفان الفيلسوف ولكى تنغص عليه راحته ولكى تحرمه من استرخائه وهدوئه النفسى. وبذا فان الاسترخاء والهدوء اللذين نعم بهما الفيلسوف قليلا من الوقت لايستمران بل يتلاشيان لكى يحل

محلها الأحساس بالتوتر من جهة والأحساس بخيبة الأمل والأحباط من جهة أخرى .

والواقع أن هذين الشعورين المتساوقين ما يفتآن ينعكسان على موقف الفيلسوف من أنتاجه . فهو ينظر إلى ما قام بتدوينه وقذفه إلى فم المطبعة — وهى تلك الآلة التى لاترحم ولايلين قلبها للتوسل — وقد امتلأ قلبه حزنا . فهو يقول لنفسه « لو انى قد انتظرت ولم أتسرع فى الكتابة ، اذن لكنت قد كتبت أشياء أخرى غير تلك الأشياء التى قمت بنشرها واذاعتها على الملأ » وليس من شك فى أن معظم الفلاسفة يحسون بالندامة تملأ قلوبهم لأنهم كتبوا أشياء ونشرت لهم ويقول الناس إنها تمثل فكرهم مع أن الواقع أنها كانت تمثل فكرهم وقت كتابتها فحسب ، ولكنها صارت بعد ذلك مخالفة لما يعتقدونه . وهكذا نجد أن النقاد لايرحمون الفيلسوف ، إذ أنهم كثيراً — أو فى الأغلب — ينكرون عليه التطور ، ويعتقدون أنه ثابت كثبوت عالم الرياضيات . فحكمهم على مايكتبه هو ذاته حكمهم على حل إحدى المسائل الحسابية التى لاتحتمل إجابتين ، بل إن أحدى الاجابتين تكون صحيحة والأخرى تكون خاطئة . ولو أنهم قد أنصفوا لاعترفوا للفيلسوف بأنه شخصية متطورة فى شكها ويقينها ، بمعنى أنها ما تكاد تخلص من أحد المواقف الشكية الاختيارية حتى تبدأ فى الأنفتاح على موقف شكى اختيارى جديد .

والواقع أن هذه النتائج الداخلية التى تبدو فى الحياة النفسية للفيلسوف نتيجة الموقف الشكى ليست هى جميع النتائج الممكنة ، بل هناك نتائج خارجية لاتقل فى خطورتها وبعد شقتها عن هذه النتائج الداخلية النفسية . إنها تلك النتائج المتبدية فى أمرين أو فى مجالين رئيسيين : المجال الأول — مايكتبه الفيلسوف من كتب وما يصدر عنه من أقوال وما قد يبدو منه من تصرفات ، ثم هناك من جانب آخر ما يؤثر به الفيلسوف فى الآخرين من حوله ومن بعده ، أعنى تلك الآثار الخطيرة التى يتركها الفيلسوف فى عقول الناس وتصرفاتهم واتجاهاتهم وعواطفهم . ولعلنا نعكف الما على هذين المجالين بسرعة قد تغمط حقها من العناية والتأمل والدراسة .

أما بالنسبة للمجال الأول – وهو ما يترك الفيلسوف بعده من أقوال مكتوبة أو منقولة عنه وما يذكره الناس عنه من مواقف وتصرفات فاننا نعتقد أن الحيرة تأخذ بألباب كثير من الذين يتناولون أعمال الفلاسفة وشخصياتهم وعلاقاتهم وتاريخهم بالدراسة . وثمة من ينظرون إلى فلسفة الفيلسوف بالمنهج الرياضي – أو بالتخصيص بالمنهج الحسابي – حيث يبحثون فى المتناقضات التى قد يكون الفيلسوف قد وقع فيها. وثمة أولئك الذين يتناولون الفيلسوف من منظور تاريخى تطورى زاعمين أن الأحداث والمواقف الأجتماعية والظروف الأقتصادية هى التى حدت به إلى تغيير مواقفه . والواقع أن كلا المنهجين – الحسابى الاطلاقى من جهة والمنهج التاريخى من جهة أخرى – تفوته ناحية هامة للغاية هى تلك المواقف الشكية التى يعانى منها الفيلسوف الخليق بهذه التسمية . فنحن نرفض المنهج الحسابى الاطلاقى فى تناول عمل الفيلسوف لأنه يخرج به عن كونه كائنا متطورا يدخل فى دوائر شكية مستمرة التناوب على عقله بسبب خصوبة المتغيرات التى يلقاها أمامه ، سواء كانت تلك المتغيرات نتيجة كشفه لها أو نتيجة أختلاقه لها من حيث لم تكن .أما اعتراضنا على المنهج التاريخى فانه يرجع إلى أننا لانجعل من الفيلسوف شخصية مرآتية عاكسة لما يحيط بها من ظروف ووقائع أجتماعية وأحداث أقتصادية أو سياسية ، بل إننا نزعم أن الفيلسوف لايهتز فى الغالب لما يقع حوله ، بل انه يكون كالطود الراسخ الذى يشكل عالما مستقلا قائما بذاته لايتأثر بمايطرأعلى الواقع من حوله من أضطرابات سطحية من قريب أو من بعيد .

على أن كل ما يهمنا أن نقرره ونثبته هو تلك المتغيرات ومدى وقوعها أمام للفيلسوف ، فالشك أو تأمل المتغيرات أو الاختيارات هى الأساس فى حياة الفيلسوف العقلية وليس ما يخلص اليه من نتائج . فما يخلص اليه الفيلسوف لايعدو أن يكون ثمرة لما سبق له أن عاناه وما مر به من معاناة شكية . ولعل الأصوب أن يتناول الدارسون تلك المراحل العقلية – وليس الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية – التى مر بها الفيلسوف وأحدثت لديه تلك المعاناة . ولعلنا فى هذا المقام نذكر المنهج الذى اتبعه أستاذنا الدكتور

عثمان أمين فى دراسته لديكارت . فهو لم يركز على الظروف الاجتماعية فى تناوله ذلك الفيلسوف ، بل دخل الى مسرح فكره وقدم الينا فى كتابه « ديكارت » مسرحية أو دراما لحياة ذلك المفكر الكبير . فلقد حاول أن يسير بنا فى رحلة حياتية ذهنية وشكية ولم يجعل للثمار الا المكانة الثانية بعد المعاناة الفكرية أو الشكية . وما نزعمه ونضيفه هنا هو أن ما ينطبق على ديكارت ينطبق على جميع الفلاسفة ، بل وعلى جميع المشتغلين بالثقافة من أى لون أو مجال .

أما ما يؤثر به الفيلسوف فى غيره ، فانه يكون على ضربين : ضرب تخصصى حيث يؤثر الفيلسوف فى غيره من فلاسفة معاصرين أو تابعين له فى التاريخ ،سواء كان تأثيره إيجابيا بالتعضيدوالتأييد أم كان تأثيره سلبيا بالتفنيد والتنابذ . أما الضرب الآخر فهو ضرب عام . ذلك أن جميع المشتغلين بالثقافة حتى القصاصين والشعراء يتأثرون الى حد ما بالفلسفة . فهى النافذة التى تقفهم على الحقيقة . وهل يمكن أن يستغنى انسان مثقف بأى لون ثقافى عن التفكير فى الحقيقة ؟

سيكلوجية الشك الفلسفى :

قلنا إن الأساس فى حياة الفيلسوف العقلية هو الشك لا اليقين . والشك كما قلنا باستمرار طوال الفصول السابقة هو الوقوف فى مجابهة خيارات على المرء ان يقع على واحد منها أو أكثر واستبعاد باقى الخيارات الأخرى المتوافرة بالموقف . وقلنا أيضا إن الفيلسوف ما يكاد يخلص من موقف خيارى أو شكى الى يقين بأن يختار حتى يبدأ فى التواجد بموقف شكى أو خيارى جديد ، وذلك لأن عقله المكتشف لخيارات جديدة والخالق أيضا لخيارات لم تكن موجودة لا يريحه ولا يركن به الى بر اليقين ، بل سرعان ما يقذف به الى لجة الشك من جديد لكى يبدأ فى مرحلة معاناة جديدة نتيجة الجهد الذى يبذله فى مجابهة الخيارات المتجددة والمتكثرة أمامه باستمرار .

فاليقين هو العرض فى حياة الفيلسوف العقلية ، والجوهر فى هذه الحياة هو الشك ، وقد صغنا هذا المفهوم بطريقة أخرى بأن قلنا إن اليقين هو الثمار

التى تنضج على شجرة الشك . والشجرة هى الأصل والثمار هى النتيجة العابرة فى حياة الشجرة . بيد أن هذا من وجهة نظر آكلى تلك الثمار لا يمثل الحقيقة . فهم يعتقدون أن الثمار هى الجوهر وأن الشجرة هى الوسيلة أو العرض. ولكن اذا نحن نظرنا من زاوية الشجرة ذاتها — وهى هنا الفيلسوف — وليس من وجهة نظر القاطفين والآكلين والمستمتعين بالثمار ، فاننا نجد أن جذع الشجرة وليس الثمار هو الجوهر والأصل .

واذا نحن قمنا بفحص سيكلوجية الفيلسوف حتى نقف على سيكلوجية الشك عنده ، فاننا نجد أنه شخصية تفاعلية وليس شخصية ناقلة أو مقتبسة . ولعل هذا يتمثل فى كلمة ديكارت الذى كان يزدرى تاريخ الفلسفة ويرى الاكتفاء بالتفكير الفردى المبتوت الصلة بما تقدم « لا أريد أن أعرف أتقدمنى رجال أم لا » . فهو كان يرفض أن يتأثر بغيره . ولكن لعلنا نوفق الى ترجمة موقف ديكارت — وهو فى الواقع موقف جميع الفلاسفة — بأنه لا يريد أن يكون مقيدا بقيود غيره ، بل يرفض أن يشرع الآخرون لفكرة أو أن يتدخلوا فى مسار تفكيره . وبتعبير آخر فانه كان يرفض أن يتلقى عن الآخرين يقينهم ، بل يريد أن يسبح وفق طبيعته فى محيط الشك الواسع . فالفيلسوف أشبه ما يكون بالحوت الذى يجد حياته فى أعماق المحيطات ولكنه مع ذلك لا يستغنى عن تنسم الهواء بأن يطوف على سطح الماء لكى يملأ رئتيه بالهواء ، ولكنه ما يكاد يأخذ حاجته من ذلك الهواء حتى يغوص الى الأعماق التى هى عالمه الحقيقى .

وليس من شك فى أن الارتباط بالزمن مجاف لما جبل عليه الفيلسوف . فهو يصبو الى المطلق ولا يقيد نفسه بشكائم الزمان ، ولا يخضع لما انتهى اليه غيره عبر الزمان . إنه يرغب فى أن يبدأ من جديد ومن لا شىء . فهو كائن خلاق بمعنى الكلمة . فهو ينبو عن تنقيح ما هو موجود ، بل يصبو الى خلق ما ليس بموجود . ولقد نقول إن أكثر ما يضايق الفيلسوف هو أن يطلب اليه حفظ ما سبق لغيره من فلاسفة تقريره والانتهاء اليه . إنه يقرأ ما كتبه غيره ولتكن نتائج تلك القراءة ما تكون . إنه لا يلزم نفسه بشىء مما يقوم بقراءته .

فهو فى قراءته كمن يتناول الأطعمة المتباينة ولا يعلم ما سوف يتقبله جسمه منها وما سوف يرفضه . وما يهمه هو أن يأكل ولكنه غير مسئول عن عملية الهضم من قريب أو من بعيد . فما يقوم الفيلسوف بقراءته أو سماعه أو مشاهدته يمكن أن يجد له صدى إيجابيا فى نفسه ويمكن أن يجد له صدى سلبيا وقد لا يجد له أى صدى أو تأثير فى نفسه على الاطلاق .

ولعلنا نضيف خصيصة أخرى الى سيكلوجية الشك عند الفيلسوف هى كراهيته للطرق التى سبق تعبيدها بواسطة أقلام غيره . فهو يتعشق الصخور والمستنقعات والمجاهل التى لم يفكر أحد فى شق طريق فيها لكى يقوم هو بشق ذلك الطريق الجديد . ولعل أفضل مثال يحضرنا هنا فيثاغورس الذى اخترع الهندسة لا كتطبيقات عملية كما كان يفعل قدماء المصريين ، بل كنشاط فكرى كان يعتبر لدى اختراعه من صميم الفكر الفلسفى . وهكذا نجد أن الفيلسوف لا يلوك ما سبق لغيره أن قالوه بل هو يطرق ما لم يطرقه غيره ، وحتى بالنسبة للمحاور التى أدار غيره من فلاسفة فلسفاتهم حولها ، فانه يكون مجددا أيضا أو قل خالقا لتلك الاتجاهات التى يقدمها حول تلك المحاور .

ومن السمات النفسية الهامة فى سيكلوجية الشك عند الفيلسوف عدم الاندماج فى الآخرين . فهو دائما ينبو عن غيره ولا يذوب فى الآخرين . وحتى اذا هو تأثر بغيره — سواء كان استاذا له كما كان حال أرسطو بازاء أفلاطون — فانه سرعان ما يثور على من سبق أن طأطأ الرأس لهم وخضع لفكرهم . وهذا يقفنا فى الواقع على الطبيعة الشكية التى يمتاز بها الفيلسوف . فهو يرفض الذوبان فى غيره مهما كان ذلك الغير ، بل إنه يعمد الى تطهير نفسه من شبهات التأثر بالآخرين . انه يهفو بطبعه الى أن يكون فريدا ونسيجا جديدا مستقلا عن أى نسيج آخر . ولقد يستعين الفيلسوف فى ذلك التطهر بوسائل الهدم والثورة ضد أولئك الذين أحنى لهم الرؤس . فهو يجد أن عليه أن يتخلص منهم بالعنف الفكرى — اذا صح التعبير — وهو عنف كذلك العنف الذى يبديه الوليد لدى نزوله من بطن أمه طالبا الخلاص من احتضانها

له فى أحشائها . فهو يرفض تلك التبعية الذهنية كما يرفض الوليد تلك التبعية البيولوجية .

على أن الموقف الشكى الذى يتوهج لكى يصير موقفا تنابذيا لا يقتصر نطاقه على من سبق للفيلسوف التأثر بهم أو الخضوع لهم ، بل إنه يتعدى الاخرين لكى يوجه الى ذات الفيلسوف من قبل ذاته . فكل لحظة زمنية ، أو قل كل دورة شكية يخرج منها الفيلسوف الى اليقين وقد تبعتها لحظة أو دورة شكية جديدة إنما تمثل فى نظر الفيلسوف ثورة من جانبه على ذاته . فهو منكر لما سبق أن قرره وذلك بدخوله فى إطار شكى جديد بعد أن وقف على متغيرات جديدة بالموقف . وهكذا نجد أن المناهضة مستمرة بين الفيلسوف وذات الفيلسوف من حيث هو مراحل أو دورات شكية متعاقبة .

بيد أن ذلك الهجوم الذى يضطلع به الفيلسوف ضد ذاته لا يفقده صفة الإنية أو الاستمرارية الذاتية ، والا كان الفيلسوف شخصاً مصابا اذن بالفصام ، بل إن الفيلسوف يحتفظ بما نسميه بالخيط الرابط لمراحل شكه المتباينة . فهو وان قاوم الحلقات الشكية السابقة ، أو قل انه عندما يقاوم اليقين السابق الذى انتهى اليه بالشك الجديد ، فانه لا يبدى مقاومته لكل ما انتهى اليه ، ولا يرفض كل ما قرره ، بل هو يرفض جوانب ويبقى على جوانب أخرى . على أن ما يبقى عليه الفيلسوف ليس المضمون بل الصبغة العامة . ولعلنا نقرب المعنى الذى نقصده وذلك بتشبيه الموقف بصور نفس الشخص فى مراحل حياته المتباينة . فصورتك فى طفولتك تشبه صورتك فى مراهقتك ، والصورة الاخيرة تشبه صورتك فى شبابك ، وصورتك فى شبابك ، تشبه صورتك فى كهولتك ... الخ . ورغم هذا التشابه فان خلايا جسمك ليست هى نفس الخلايا التى ولدت بها ، ولا هى نفس الخلايا التى تحملها خلال مراحل عمرك المتعاقبة . فالشبه هنا هو شبه فى الصبغة العامة وليس فى المضمون . ونفس الشىء بالنسبة للفيلسوف فى ثورته الدائبة على مراحل حياته الفكرية السابقة . فكل مرحلة تحمل مضمونا جديدا مع استمرار الصبغة العامة أو مع استمرار ملامح شخصية الفيلسوف الفكرية .

ومن الواجب علينا أن ننبه الى أن الفيلسوف لا يقطع صلته بالثقافة المحيطة به بما فى ذلك الحياة اليومية والأحداث العابرة . ولكن الذى نؤكد عليه هو أن فلسفة الفيلسوف ليست كرجع الصدى لما يتلقاه من ثقافة أو لما يشاهده فى الحياة اليومية ، وانما فلسفته تشبه الماسة التى ليست كباقى الكربون أو الأحجار المحيطة بها . فعلى الرغم من أن الماس هو نوع من الكربون ، فانه متميز عن الكربون ، وليس قمينا بكل كربون أن يستحيل الى ماس . فثمة فردانية فى حياة الفيلسوف تتمثل أكثر ما تتمثل فى ذلك الرفض التمايزى الذى يجعل منه شخصية مستقلة ومبتكرة بحيث تصير لها قيمة نادرة . فكما أن الكربون لا يستحيل الى ماس بتأثير عارض أو بمعالجة بسيطة ، كذا فان المرء لا يستحيل فيلسوفا لمجرد أنه قام باستظهار ما سبق للفلاسفة تقريره ، أو لمجرد أنه يجمع فى رأسه أشتات المعارف . إنما الفيلسوف شخص استطاع أن يتفاعل ويسيطر على فرائسه الفكرية يلتهمها ويتمثلها ثم يخرج لنا عصارة فلسفه نادرة وجديدة تماما .

الفصل الثامن

معنى الوسوسة

الوسوسة والعقل :

بينما نجد أن الشك بمثابة حلقتين : إحداهما الحلقة الخيارية حيث يجد المرء نفسه بازاء متغيرات أو خيارات كثيرة أو قليلة بالموقف يكون عليه أن يختار من بينها ، والثانية الحلقة اليقينية حيث يخرج المرء من دائرة الاختيار الى دائرة الوقوع على خيار أو أكثر بينما هو يستبعد جميع الخيارات المتبقية التى كان يجيل بصره فى أنحائها ، فاننا نجد أن الوسوسة ذات حلقة واحدة هى الحلقة الخيارية بغير أن ينتقل المرء الى المرحلة أو الحلقة اليقينية . والفرق بين الشخص الشاك وبين الشخص الموسوس يتبدى فى هذه التفرقة بين الشك والوسوسة . فالشاك ينتقل من الموقف الخيارى الى الموقف اليقينى بغير أن يحول ذلك دون اندراجه فى إطار الموقف الخيارى من جديد اذا ما استجدت خيارات أو متغيرات جديدة بالموقف . أما الموسوس فانه يظل حبيس الموقف الخيارى يجيل بصره فى أنحائه بغير أن يقيض له النجاح بعبور حلقة الخيار الى حلقة اليقين ، أو بتعبير آخر فان الموسوس شخص يظل يعقد المقارنات بين الخيارات المتوافرة فى الموقف دون أن ينجح فى الوقوع على خيار بالذات من بينها ودون أن يحسم الموقف بالانتهاء الى اختيار بالذات .

وكما سبق أن قلنا فإن العقل والوجدان يتواكبان ويتلازمان فى عملهما بحيث لا يمكن تخيل قيام نشاط عقلى خالص بغير وجدان حتى بالنسبة لأشد الأمور تجردا عن الجوانب الذاتية . وقد قلنا أيضا إن انشغالك فى حل أحد التمارين الهندسية لا يعنى استبعاد وجدانك من النشاط ، بل معناه أنك تعمل بعقلك ووجدانك جميعا فى الموقف . واذا نحن تناولنا الوسوسة كما قدمنا

لها التعريف السابق من أنها الانحباس فى حلقة الخيارات وعدم القدرة أو العجز عن الخروج الى الحلقة التالية الخاصة بالقرار أو الخلوص الى بر اليقين، فاننا نجد أن ما يستهلكه الموسوس من طاقاته الذهنية العقلية والوجدانية أكثر بكثير مما يمكن أن يستهلكه الشخص الشاك . ذلك أن من يشك يستطيع أن يتنفس الصعداء وان يستجمع قواه النفسية وقد قر له قرار واستطاع أن يلم شعثه ويستجمع شتات نفسه .

والواقع أن الموسوس يمكن أن يكون على أكبر جانب من الذكاء ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يجتاز حاجز الاختيار الى مرحلة القرار واليقين . ذلك أن المرء لا ينتقل من حلقة الخيار الى حلقة القرار أو اليقين الا بتعاون الوجدان والارادة معا فى ذلك . ولعلنا نعطى الأولوية فى هذا الانتقال للارادة التى تحدد الاتجاه الذهنى والوجدانى معا ، بل وتدفع بالمرء الى الانتقال من حالة الى حالة أخرى . فعن طريق الذكاء يستطيع المرء أن يقف على العلاقات القائمة بالموقف ومن ثم يقف على المتغيرات أو الخيارات المتوافرة به . وعن طريق الوجدان يحب أو يكره ، وعن طريق الارادة ينزع الى انتقال ذهنى أو الى انتقال حركى معينين ومحددين .

فأنت عندما تقوم بحل إحدى المسائل الحسابية فى ذهنك كأن تكون فى احد المحال التجارية واشتريت بعض السلع وتوجهت الى الخزينة لتسديد ثمن السلع، فانك تجد نفسه بازاء اختيارات ذهنية تتعلق بأرقام تجيلها فى ذهنك وتقيم فيما بينها علاقات حسابية معينة ، وتنتهى من تلك العلاقات التى تجريها فى ذهنك إلى نتيجة معينة هى ما يجب عليك تسديده . فأنت اذا ما نجحت فى عبور العلاقات الحسابية الى النتيجة ويستقر رأيك بصفة نهائية على المبلغ الذى عليك أن تسدده ، فانك لا تكون شخصا موسوسا برغم مرورك فى مرحلة شكية اختيارية . ذلك أنك فى أثناء اقامتك لتلك العلاقات الحسابية واقامتك لعمليات تفاعلية فيما بينها فانك تكون بازاء اختيارات متعددة حتى وان كنت تجرى تلك العمليات بسهولة ويسر وسرعة ، وحتى اذا استخدمت فى ذلك آلة حاسبة . فأنت فى تلك المرحلة الشكية الاختيارية تكون بازاء كثير من الاحتمالات

الممكنة . ولكن اذا وجدت نفسك غير قادر على التوصل الى اجابة قاطعة أو أنك تدور فى حلقة مفرغة حيث تأخذ فى اقامة علاقات حسابية لا تشفى من ظمأ ولا توصل الى حل ، فعليك باتهام نفسك اذن بالوسوسة .

أما عن النشاط الحركى فاننا نضرب له مثالا آخر . إن عليك قبل أن تنام أن تغلق باب شقتك بالمزلاج حماية لشقتك من اللصوص . فاذا قمت الى الباب وأغلقته بالمزلاج وتوجهت الى سريرك ونمت فى هدوء بال فانك لا تكون موسوسا . ولكن اذا استمررت طوال الليل فى جيئة وذهاب بين السرير وباب الشقة للتأكد من أنك أغلقت الباب بالمزلاج ، فاننا قد نترجم مثل هذا السلوك بأنه ضعف فى الذاكرة ألم بك ، كما أننا قد نترجم مثل هذا السلوك بأنه وسوسة . فاذا ما اختبرنا ذاكرتك ووجدناها ذاكرة سليمة وأنك لاتنسى الأشياء الأخرى كالمواعيد وأرقام التليفونات وأسماء أقربائك ونحو ذلك ، فاننا نتأكد عندئذ من أن الحالة التى أمامنا ليست حالة ضعف ذاكرة بل هى حالة وسوسة . فالوسوسة هنا تشير الى انحباسك فى دائرة الشك أو الاختيار بين كون باب الشقة قد أغلق بالمزلاج وبين كونه لم يغلق به .

ولعلنا نترجم هذا فى ضوء النشاط الذهنى الذى نعتبره — كما سبق أن ذكرنا — مثلث الاضلاع . فهناك النشاط العقلانى ثم هناك النشاط الوجدانى ثم أخيرا هناك نشاط الارادة . ونحن لا نعتبر النشاط الذهنى متكاملا إلا اذا توافرت به هذه الاضلاع الثلاثة . وحتى أشد أنواع التفكير منطقية وتجردا ورمزية يجب أن تتوافر به هذه الأضلاع الثلاثة . فتناولك للقضية المنطقية أو للمسألة الحسابية يجب أن يشتمل على التفكير المنطقى من جهة وعلى قدر من الوجدان توجهه نحو نشاطك الذهنى المتعلق بتلك المسائل الحسابية أو القضايا من جهة ثانيه — سواء كنت محبا وشغوفا بها أم كنت كارها ونابيا عنها — ، ثم أخيرا يجب أن تقبل على اصدار قرار بارادتك يتعلق بالحل أو بالنتيجة المنطقية بحيث تحزم أمرك ويقر لك قرار وتحسم الموقف وتركن الى الراحة النفسية بعد التوتر فى أثناء مجابهتك بالخيارات المتعددة بالموقف العقلى المتسم بالتجريد والرمزية .

ونحن نعتقد أن الذهن لا يمكن أن يوصف بالسوية الا اذا كانت أضلاعه الثلاثة التي ذكرناها متساوية ، أعني أن تتساوى قوة النشاط العقلاني مع النشاط الوجداني مع النشاط الارادى . أما اذا حدث خلل ، أو قل اذا كان أحد الأضلاع فى هذا المثلث أطول من الضلعين الآخرين ، فاننا نرجح عندئذ إصابة المرء بالوسواس . ولعلنا نجد ثلاثة احتمالات تنم على هذا الخلل أو على عدم تساوى أضلاع مثلث الذهن . فاما أن يكون ضلع التفكير العقلاني أكبر أو أصغر من ضلعى الوجدان والارادة ، واما أن يكون ضلع الوجدان أكبر أو أصغر من ضلعى التفكير المنطقى العقلانى والارادة ، واما أن يكون ضلع الارادة أكبر أو أصغر من ضلعى التفكير المنطقى العقلانى والوجدان . وفى جميع هذه الاحتمالات الثلاثة يكون المرء عرضة للاصابة بالوسواس .

فلقد قلنا إن على المرء أن يجتاز حلقة الخيار الى حلقة اليقين والقرار . وهذا لا يتأتى فى الحالة الأولى لأن التفكير المنطقى العقلانى اذا كان قويا جدا بحيث يفوق فى قوته قوة الوجدان والارادة فان هذا يحول دون الانتقال من حالة الخيار أو الشك الى حالة اليقين والقرار . ففى حالة زيادة قوة التفكير المنطقى العقلانى على قوة الوجدان وقوة الارادة فان الشخص قد يظل مقيما للعلاقات المنطقية وهو عاجز عن الانتقال الى حلقة القرار أو اليقين . وكذا الحال اذا كان التفكير المنطقى ضعيفا بالمقارنة بقوة الوجدان وقوة الارادة . فالشخص يظل اذن عاجزا عن تبين طريقه بل ويكون عاجزا عن تبين العلاقات المنطقية تبينا واضحا ، ومن ثم فانه يعجز عن الخروج من دائرة الخيارات الى دائرة اليقين . من هنا فاننا نجد أن الوساوس قد تصيب الاذكياء وضعاف العقل على السواء . أما الحديث عن علاقة الوسوسة بكل من الوجدان والارادة فاننا نرجئه الى الموضوعين التاليين وذلك حتى تتضح لنا الصورة المتعلقة بالاضلاع الثلاثة : العقل والوجدان والارادة كما هى فى ذهن الموسوس .

الوسوسة والوجدان :

عرضنا فى الموضوع السابق لمفهومنا عن الذهن باعتبار أنه مكون من ثلاثة أضلاع رئيسية هى العقل والوجدان والارادة ، وقلنا إن السوية تتطلب أن يكون مثلث الذهن متساوى الأضلاع وأن زيادة طول أحد هذه الأضلاع أو قصره — إذا جاز التعبير — إنما يؤدى الى احتمال نشوء الوسوسة ، بمعنى عدم قدرة المرء على اجتياز الحلقة الأولى الاختيارية الى الحلقة الثانية أعنى حلقة إصدار القرار أو الوصول الى بر اليقين . وقد عرضنا فى الموضوع السابق أيضاً للضلع الأول المتعلق بالعقل وشاهدنا كيف أن قصره أو طوله عن الضلعين الآخرين المتعلقين بالوجدان والارادة يؤدى بالتالى الى نشوء الوسوسة . ونرجو فى هذا المقام أن نعرض للضلع الثانى الخاص بالوجدان لنشاهد كيف أنه فى حالتى زيادة طوله عن الضلعين الآخرين المتعلقين بالعقل والارادة أو قصره عنهما يؤدى الى احتمال نشوء الوسوسة .

لقد سبق أن قلنا إن الوجدان إما أن يتباور ايجابيا حول الفكرة أو الافكار وإما أن يتبلور حولها سلبيا . والتبلور الايجابى يعنى الحب ، والتبلور السلبى يعنى الكراهية . وفى الموقف الشكى أو الاختيارى يبدأ الوجدان فى الاتجاه نحو الاختيارات المتباينة المتوافرة بالموقف فيتبلور حول بعضها بالايجاب ويتبلور حول بعضها الآخر بالسلب . وطبيعى أن الأفكار التى يتم التبلور حولها وجدانيا بالسلب تستبعد من الاختيار . بينما تندرج باقى الأفكار التى تبلور حولها الوجدان بالايجاب فى قائمة الترشيح للاختيار . وهنا تبدأ عملية المفاضلة بين تلك الأفكار المرشحة للانتصار فى معركة الاختيار .

والواقع أن الوجدان عندما يتدفق بسرعة تجاه الأفكار المطروحة فى حضن الذهن فانه يكون كالفيضان السريع الذى لا يسمح بترسب الغرين على الصخور الموجودة بقاع النهر وعلى شاطئيه . فشدة تدفق الوجدان على الأفكار لا تسمح له بالتبلور سواء بالايجاب أم بالسلب . وبذا فان الأفكار تظل تصطدم بالوجدان ، ولعلها أن تدور فى محاور دائرية كما نشاهد فى الدوامات التى تحدثها شدة اندفاع التيار فى النهر لدى اصطدامها بالصخور

وبالعقبات التى تصادفها .ونحن نشبه تلك الدوامات النهرية بما يحدث فى ذهن المرء من وسوسة ، أو نشبه الوساوس التى تسيطر على ذهن الموسوس بتلك الدوامات النهرية التى تتقاذف الأفكار بغير أن تتبلور حولها وتتحد مع مقوماتها .

وكلما كانت الأفكار المطروحة على مسرح ذهن المرء قليلة مع زيادة شدة الوجدان فى نفس الوقت ، فان تقاذف تلك الأفكار يكون شديدا بحيث لا تستطيع أن تقف أمام التيار ، وبحيث لا يتسنى لعملية التبلور أن تحدث كنتيجة لذلك التقاذف السريع الطائش . وهكذا نرى أن الوساوس تنشأ فى حالات اشتداد الوجدان ونضوب معين الفكر . وهذا ما يقع لأولئك الأشخاص الذين تثور فيهم عواصف الوجدان بينما تنحصر أفكارهم فى قليل من الفكرات. فتغلب الوجدان لدى الواحد من هؤلاء على أفكاره وعلى قدرته المنطقية فى التفكير ، إنما يؤدى الى إعاقة حركة التحول من حلقة الخيارات الى حلقة اليقين ، أو بتعبير آخر من حلقة الشك الى حلقة اليقين أو إصدار القرار .

ولعلنا نشاهد هذه الحالة لدى بعض الشعراء والموسيقيين وقد توهج الوجدان لدى الواحد منهم واشتعل أواره . إنه يظل حبيس إطاره الفكرى فلا يتمكن من قرض شعر أو من تلحين قطعة من الموسيقى . ولقد يظل الفنان — شاعرا كان أو موسيقيا أو غير ذلك من هيئات فنية — الى حين يهدأ الوجدان لديه حتى يتساوى ضلعه — فى تشبيهنا للذهن بالمثلث — مع الضلع العقلى .

واذا كان هذا هو حال الوجدان عندما تكون قوته أشد من قوة العقل ، فانه أيضا حاله عندما تكون قوته أضعف من قوة العقل . فعندما يكون الوجدان ضعيفا تياره ، فان احتمال تبلوره حول فكرات العقل يكون احتمالا ضعيفا . ومثل هذه الحال لا تسمح بأن تكتسب تلك الفكرات قوة دافعية تضمن لها اجتياز حلقة الشك أو الاختيارات الى حلقة اليقين . فشرط ذلك الاجتياز الوصول الى درجة معينة من التبلور إذا انخفضت عن معدلها فان مثل ذلك الاجتياز لا يتم بل تظل الفكرات حبيسة العقل لا تريم عنه ، بل

تستمر دائرة فى فلكه ببطء مما يجعل الشخص الموسوس يفكر ببطء فى إطار ما قيض له من نشاط وجدانى دافعى ضعيف .

والواقع أن هذا هو حال أولئك الأشخاص أصحاب الفكر الخصب والوجدان البارد . والموسوس من هذا النوع يكون من فئة الفلاسفة وأصحاب الفكر غير المتمتعين بوجدان غزير . ولعلنا لانخطىء إذا قلنا إن الأزمة النفسية التى يتعرض لها بعض الفنانين — وذلك بالوقوع فى فخ الوسواس بسبب التدفق الزائد للوجدان بحيث يكون أشد قوة من الفكر — هى نفس الأزمة النفسية الوسواسية التى يتعرض لها بعض الفلاسفة . بيد أنه على الرغم من أن النتيجة فى الحالين واحدة ، وهى الانحباس فى إطار الفكر الخيارى مع العجز فى نفس الوقت عن أجتياز حلقة الشك أو الأختيار إلى حلقة القرار واليقين فان طوبوغرافية الذهن تختلف فى الحالين . فبينما يكون أس الداء فى حالات الفنانين الموسوسين هو طغيان الوجدان على الفكر ، فان أس الداء فى حالات الفلاسفة الموسوسين هو طغيان الفكر على الوجدان . وفى الحالين لايكون ضلع الوجدان مساويا لضلع الفكر .

وعلينا بعد هذا أن نتناول علاقة ضلع الوجدان وضلع الإرادة وكيف أنه فى حالتى زيادة أو نقص طول ضلع الوجدان عن ضلع الإرادة فى مثلث الذهن — المكون من ضلع العقل وضلع الوجدان وضلع الإرادة — ينشأ الوسواس فى حياة المرء النفسية . إننا نقرر بداءة أن الوجدان يشبه الطاقة بينما الإرادة تشبه المحرك الذى لايسير إلا بفضل تلك الطاقة . والمحرك إذا كان ما يحتاج إليه من طاقة أكبر من الطاقة المتوافرة ، فانه لايعمل . وكذا فانه إذا كان محركا ضعيفاً وصغير الحجم بينما تكون الطاقة قوية ، فانه يحترق ويبطل عمله أيضاً . ولكى يشتغل المحرك بطريقة جيدة ، فيجب أن تكون الطاقة المتوافرة مناسبة له ، أو بتعبير آخر تكون مساوية لما يتطلبه عمله من جهد .

وإذا صح هذا التشبيه ، فاننا نستطيع أن نقرر أن ضلع الوجدان فى المثلث المذكور يجب أن يكون مساويا لضلع الإرادة حتى يتسنى استحالة

الأفكار المتلبسة بالطاقة الوجدانية بالدرجة المناسبة لاجتياز دائرة الشك أو الاختيار إلى دائرة القرار أو اليقين . ولكن إذا كانت قوة الوجدان أو طاقته أقل — أو أقصر — من قوة أو طول الإرادة ، فان مثل هذا الأجتياز من دائرة الشك إلى دائرة اليقين يكون متعذراً . وعلى نفس النحو فان ذلك الأجتياز يكون متعذراً عندما تكون الإرادة أقوى مما قيض للمرء من قوة وجدانية .

وهناك فى الواقع أشخاص تكون قوة وجدانهم أكبر من قوة إرادتهم . وهؤلاء الناس تجدهم يتحمسون لأفكارهم ولكنهم لايستطيعون التعبير عنها أو إلباسها أثواب التعبير . فتجد الشخص وقد امتلأ قلبه شعرا أو صورا وأخيلة فنية عديدة وقد أستولت على خياله ومشاعره وتحمس لها كل الحماس ولكنه لايستطيع أن يخرج بأى منها إلى حيز التعبير الشعرى أو القصصى أو التشكيلى . إنه يظل حبيس تلك الأفكار المتأججة بالوجدان والمتحدة معه على أحسن وجه بغير أن يتمكن من فك إسارها والخروج بها إلى حيز الواقع واحالتها إلى كائنات ذهنية حية فى واقع الناس والأحياء على الورق أو على الحجارة تماثيل وتحفاً فنية . وطبيعى أن لاتظل الأخيلة ساكنة فى عقل وقلب ذلك الشخص الموسوس ، بل هى تضغط عليه ملحة لكى تتحرر ولكن لها أن تجد إلى الحرية سبيلا وصاحبنا ضعيف الإرادة .

وبالنسبة للفئة من الناس الذين زادت قوة إرادتهم على قوة وجدانهم ، فانك تجدهم وقد طاشوا عما يجب أن يتصيدوه من أفكار متلبسة بالوجدان فى أنحائهم . فالواحد من أولئك الأفراد ينزع ويعمل أو يتكلم وينتج ، بغير أن يكون قد رتب ونظم أفكاره المتلبسة بالوجدان . إنه كمن يسبق فكره لسانه أو قلمه عقله ، أو كمن تسبق يده فنه وفكره . فالأفكار الأصيلة التى تطالب بالخروج على شرفة الحياة تظل حبيسة بداخل المرء بينما تخرج إلى حيز الواقع حثالات ورواسب ذهنية منفككة غير ملتحمة بفكر أو بوجدان . ومن الطبيعى أن يحس الموسوس من هذه الفئة بخيبة الأمل لأنه لايصيب مرمى فيما يقول أو فيما يعمل .

الوسوسة والإرادة :

عرضنا فى الموضوع السابق لعلاقة الوجدان بالإرادة وكنا قد أشرنا من قبل إلى علاقة الإرادة بالعقل فى مثلث الذهن المكون من العقل والوجدان والإرادة . وفى هذا المقام سوف نتناول زاوية أخرى جديدة ننظر منها إلى الإرادة فى علاقتها بالوسوسة . ذلك أن للإرادة فى رأينا معنيين أساسيين يدوران على ألسنة وأقلام الكتاب . أما المعنى الأول – وهو المعنى الشائع – فهو أن الإنسان يقود نفسه بنفسه فيما ينحو إليه من فكر وفيما يضطلع به من أعمال . وهذا المعنى ينطوى على الايمان بحرية الإنسان فيما يفكر فيه وفيما ينهض به من أعمال ومايصدر عنه من تصرفات . أما المعنى الثانى – وهو المعنى الخاص أو الأقل شيوعاً – وهو المعنى الذى نجده شائعاً فى كتب علم النفس التى تدرس السلوك الإنسانى باعتباره واقعاً سلوكياً وليس واقعاً أخلاقيا – فانه يتناول الإرادة باعتبارها أقنوما فى ثالوث السلوك المكون من إدراك ووجدان ونزوع . وقد عمدنا نحن إلى إحلال العقل محل الأدراك لكى نتوسع بهذا المفهوم فنضمنه الأدراك والذاكرة والتخيل والتصور . بل ولكى نضمنه التفكير الشعورى فى حال اليقظة والتفكير اللا شعورى والمرء فى حال النوم أو فى مرحلة ما بين اليقظة والنوم .

وما يستهوينا فى هذا المقام هو تناول الإرادة بالمعنى الأول ، أعنى المعنى الأخلاقى . ولعل السؤال الذى يطفو على السطح لأول وهلة هو : هل يستطيع المرء أن يحمى نفسه بارادته من الوقوع فى فخ الوسوسة ؟ ولعل السؤال الذى يتلو بعد ذلك هو : هل يستطيع المرء أن يتخلص من الوسوسة بارادته ما إذا ما وقع فى فخها ؟

لقد قلنا إن تناول الإرادة بالمعنى الأخلاقى يحمل فى حد ذاته التساؤل عن مدى مايتمتع به الإنسان من حرية . فهل الإنسان هو الموجه لسلوكه وهو المسيطر على مقدراته أم أنه بمثابة قشة فى مهب ريح القدر ؟ هناك فى الواقع فئتان من الفلاسفة : فئة القدرية وهم قوم يجحدون القدر فيقولون إن

كل عبد من عباد الله خالق لفعله متمكن من عمله أو تركه بارادته ، بمعنى أنه سيد قدره ، وفئة الجبرية وهم قوم يقررون أن الإنسان خاضع لمشيئة القدر المرسوم له حتى قبل أن يولد وأنه منفذ لمشيئته وليس لديه سلطان على تغيير مجريات حياته أو إثناء أحداثها عن أن تقع . فالخير والشر مكتوبان على المرء . فكل خير كتب لنا لابد أن نحظى به . وكل شر كتب علينا لابد أن يقع علينا ولا راد للمصير المحتوم أو للفواجع التى تنتظرنا فى المستقبل القريب أو فى المستقبل البعيد .

ولاشك أن كل فرقة من هاتين الفرقتين تقدم الأدلة التى تساند ماتذهب إليه وتؤمن به . ولابد لك أن تنضم لأحداهما . فإما أن تكون قدريا واما أن تكون جبريا . فاذا كنت قدريا فانك تؤمن بالتالى بأن فى مقدورك أن تحافظ على نفسك من الانحباس فى دائرة الشك أو الخيارات فلاتكون بذلك موسوسا . وأكثر من هذا فانك تؤمن بأنك إذا ما أصبت بالوسواس فانك تكون قادراً على التخلص منها وعبور الجسر المؤدية إلى اليقين . أعنى الوقوع على خيار أو على خيارات تنتهى إليها وتتخيرها دون سائر الخيارات الأخرى المتاحة بالموقف ، فتكون قادراً بالتالى على استبعاد باقى الخيارات التى لايقع عليها اختيارك .

أما إذا كنت جبريا ، فانك سوف تتخذ الموقف المضاد ، فلا تعتقد إذن أن بمقدورك حماية نفسك من التردى فى غياهب الوسوسة ، بل وأكثر من هذا فانك تؤمن بأنك إذا ما أصبت بالوسوسة فانك لاتستطيع إذن منها فكاكا ، بل تنتظر رحمة القدر بك إذا كان فى قلب القدر رحمة تحمله على رفع غضبه عليك وتخليصك مما تورطت فيه من وسوسة أخذت بلبك وملأت عليك فكرك وشغلت شغاف قلبك .

والواقع أن المؤمنين بحرية الإرادة وسلطانها على السلوك ، إنما يؤمنون فى نفس الوقت بأن ذلك المقوم النفسى أو الضلع الثالث فى بناء الذهن البشرى غير خاضع من قريب أو من بعيد لعوامل التأثير البيئى المتباينة . فالارادة فى رأيهم هى عطية الهية مغروسة فى قلب الإنسان لاشأن لها بما يكتسبه مما يدور

حوله من مؤثرات . فالإرادة الإنسانية فى رأيهم هى صنو للضمير . فكلاهما مغروس فى الإنسان وكأنها قبس الهى وضع فى الإنسان بحيث يولد المرء بها. وكل مايتسنى للتربية عمله هو انعاش وزعزعة هذين المقومين الروحيين وابرازهما فى مجالات أجتماعية ومواقف عملية وتصرفات سلوكية والمرء فى حالة وعى وشعور ويقظة عقلية .

وفى مقابل القائلين بروحانية الإرادة والضمير نجد الفئة الأخرى القائلة بأن الإنسان مقسور على ما يضطلع به من أعمال وتصرفات . والواقع أن هذه الفئة من الناس إما أن يكونوا دجماطيقيين بمعنى أنهم يعتقدون فى حقارة الجنس البشرى وضعفه الشديد بحيث يكون بمثابة قشة فى مهب الريح أو بمثابة أداة منفذة للإرادة الالهية بحيث لايكون له أى قبس من تلك الإرادة ، واما أن يكونوا ماديين تطوريين يعتقدون أن الإنسان يخلو تماما من العناصر والمقومات التى لاتتشكل بالتربية . فالإنسان أبن للبيئة التى نشأ فيها . فهو كالنبات والحيوان بل هو كالوح الخشب فى يد النجار يشكله بمنشاره كيفما يشاء . ومن ثم فان البيئة والنشأة منذ الطفولة هما المسئولان عن تشكيل وصياغة إرادة المرء . فاذا ما وقع الإنسان فريسة للوسوسة ، فانه لايجد إرادة حرة مسيطرة تسعفه وتناصره بل إن مفهوم الإرادة كمقوم له قوامه المعارض والمناهض للكيان النفسى وللتيار الشعورى ، إنما هو فكرة زائفة من أساسها .

ولايفوتنا أن نذكر أيضاً أن هناك بالإضافة إلى فئة الروحانيين القائلين بالقدرية وبأن الإنسان هو صانع قدره ، فئة أخرى نشأت كثورة ضد الجبريين الدجماطيقيين . فهذه الفئة تقول إن الإنسان سيد قدره لاصدورا عن وازع دينى بل عن وازع الحادى . فهم ينكرون وجود اله رسم للإنسان خطوط حياته أو يتدخل من قريب أو من بعيد فى حياة الإنسان ، بل هم يعتقدون أن الإنسان هو اله الأرض ، وبالتالى فهو القيم على ذاته وعلى أفعاله وأفكاره . وبالتالى فانه يستطيع أن يحمى نفسه من الوقوع فى براثن الوساوس كما أنه يستطيع أن ينقذ نفسه من هوة الوسوسة إن هو وقع فيها .

ونحن نؤمن بأن الإنسان كائن حيوانى من جهة وكائن روحانى من جهة أخرى. فهو وإن شارك الحيوان فى قوامه الجسمى ، فان له تطلعات وقدرات روحانية كثيرة وان كان إنسان الحضارة قد فقد الكثير من منشطاتها . وشاهد ذلك أن إنسان الحضارة يفسر العالم من حوله بالآلية فحسب . فهو يستبعد وجود إرادة لها سلطان على مقدرات الإنسان . ولكن الإنسان قديما كان أكثر إيمانا بالجانب الروحانى فى قوامه ، ومن ثم فان ذلك الجانب كان يلقى منه رعاية وعناية ، بل إن حياة المرء كانت زاخرة بفعل الروحانية فى حياته اليومية .

فالانسان وفقا لهذه النظرة الروحانية يستطيع أن يحمى ذمار نفسه من الوسوسة ، بل ويستطيع أن يعالج نفسه مما يتردى فيه من وساوس تسيطر عليه حينا من الزمن . فالانسان الذى يستلهم القوى الروحانية الخارجة عن نطاقه الجسمى والواقعى إنما يستمد منها القوة التى يدعم بها إرادته . ولكم استطاع الانسان أن يشحذ إرادته وأن يقويها ويجعل منها مهيمناً ومسيطرا على مقاليد أفكاره . على أن هذا لا يحول دون القول بضرورة الاستعانة بالتمرين لبلوغ هدف التحرر الفكرى .

ولعلنا نوفق اذا نحن جمعنا بين المعنيين اللذين عرضنا لهما فى مستهل هذا الموضوع ، أعنى المعنى الأخلاقى والمعنى السيكلوجى . فالجمع بين المعنيين يقفنا على تأثير الارادة فى علاقتها بالوسوسة . ونحن لا نجد تناقضا بين جمع المعنيين فى قوام واحد أو فى مضمون معنوى واحد . وعلينا أن نذكر بضرورة اتساق وتناسب قوة الارادة مع قوة الضلعين الآخرين فى مثلث الذهن كما قررنا قبلا . ومعنى هذا أن الارادة يجب أن تقوم بعملية تكييفية ذهنية وجدانية ، بحيث يتحقق انسجام الدفع الارادى للأفكار من حيز الشك الى حيز اليقين . ولسنا ننسى بالطبع قطاع التصرفات والأعمال التى تحتاج الى حسم وخروج من نطاق الشك أو الخيارات الى نطاق القرار واليقين . على أن الدفع الارادى السليم يحقق كما أوضحنا اليقين المنشود ، ويحمل المرء على عدم الارتماء فى أحضان الوسوسة . فالمطلوب اذن هو توافر الرزانة الارادية

بحيث يتم ويتحقق ما يمكن أن نسميه بالتكامل الذهني . أعني تعاون العقل والوجدان والارادة بحيث لا يسبق أحدها المقومين الآخرين ، وبحيث تكون أضلاع مثلث الذهن متساوية ومتعايشة بانسجام بعضها مع بعض .

الوسوسة والثقة بالنفس :

عرضنا في الموضوع السابق لمعنيين للارادة : المعنى الأخلاقي والمعنى السيكلوجي . وفي هذا الموضوع سوف نعرض للدفة المحركة للارادة ، سواء بالمعنى الأول أم بالمعنى الثاني . والدفة التي نعنيها هي ثقة المرء بنفسه . ونستطيع في الواقع أن نعقد تشبيها بين الجهاز النفسي لدى الانسان وبين السيارة . فالثقة بالنفس تشبه قائد السيارة ، والعقل يشبه تركيب السيارة والعلاقات القائمة بين اجزائها المتباينة القائمة على مجموعة من النظريات العلمية . أما الوجدان فهو يشبه الوقود الذي ينشط تلك التركيبات ويفعم تلك العلاقات بالحيوية . أما الارادة فانها تشبه الحركة التي تصدر عن السيارة بالداخل والخارج على السواء .

ولقد يجوز لنا أن نتخيل سيارة تدور وتكون جميع مقوماتها الأساسية — أعني أجهزتها والبنزين والزيت والبطاريات ثم محركها — سليمة تماما ولكن قائدها يكون جاهلا بفن القيادة ومن ثم فان عجزه عن قيادة السيارة بفن ومهارة قد يعرضها للخطر أو قد يعمل على إفسادها وعدم تحقيق التكامل بين مقوماتها الأساسية التي عرضنا لها . وبالمثل فان النقص في الثقة بالنفس أو الاصابة بالغرور يمكن أن يؤدي الى إفساد العلاقات المتسمة بالانسجام فيما بين العقل والوجدان والارادة . ولقد يؤدي النقص في الثقة بالنفس أو الاصابة بالغرور الى الاصابة بالوسوسة .

وعلينا باديء ذي بدء أن نحدد معنى الثقة بالنفس . ثم علينا أن نحدد بعد ذلك علاقة الثقة بالنفس بالوسوسة .

إننا نعلم أن الانسان يعمد الى تقدير قيمة الأشياء والعلاقات بصفة دائمة ، فهو دائم التقييم لكل ما يقع عليه بصره ولكل ما يصل الى سمعه بل ولكل

ما يصل الى أى حاسة من حواسه . ولعل الانسان يتخذ من تقييماته الحسية أساساً ونقطة انطلاق لتقييماته الأخرى. فهو يقوم بتقييم ما يترسب فى ذاكرته وما يقوم بتخيله ثم ما يقوم بتصوره فى صور تجريدية ومعانى مطلقة من قيود الواقع المحسوس . وبدءا من التصورات الذهنية المجـردة ينشأ نوعان جديدان من التقييم : تقييم يتعلق بالخير والشر ، وتقييم آخر يتعلق بالجمال والقبح . والواقع أن الشر والقبح هما انعدام وجود الخير والجمال . ويجب أن نميز بين ما ينشأ من تعقيدات نتيجة افتقاد الخير والجمال ، وبين مجرد انعدام وجود الخير والجمال . فالقتل شر ولكنه ليس مجرد انعدام الخير الذى هو الحب ، ولكنه بمثابة تعقيدات تترتب على انعدام وجود الحب . وكذا يقال عن الدمامة . إنها ليست مجرد عدم وجود الجمال بل هى تعقيدات تترتب على عدم وجود الجمال .

والانسان لا يقصر تقييماته على ما يقع خارج ذاته ، بل هو يأخذ ذاته أيضا فى الاعتبار فيقوم بتقييمها . وتقييم الذات ينصب بصفة جوهرية على جانبين هما الخير والجمال . صحيح هناك تقييمات أخرى كالنظافة والنظام ونحوهما . ولكن اعتقادنا هو أن المحورين الرئيسيين لتقييم الذات هما محورا الخير والجمال ، ولا تعدو التقييمات الذاتية الأخرى عن أن تكون انبثاقات وتفريعات وانشعابات عن هذين المحورين الرئيسيين .

واذا رجحت كفة تقييم الذات نحو الخير والجمال ، اكتملت عندئذ ثقة الشخص بنفسه . أما اذا ما مالت كفة التقييم نحو الشر والقبح أو نحو أحدهما فاعتقد المرء أنه شرير أو أنه قبيح ، فان تقديره لذاته يتدهور أو ينحط ، وبالتالى فان ثقته فى نفسه تقل أو تنعدم . ومن الطبيعى أن نجد أن الثقة بالنفس تتفاوت من شخص لآخر ، بمعنى أن الثقة بالنفس ليست مجرد وجود أو عدم وجود بل هناك أطياف من الثقة بالنفس يمكن أن تتبدى فى حياة الناس على تباينهم ، بل ان الثقة بالنفس تتفاوت لدى نفس الشخص من وقت لآخر. والواقع أن الظروف الصحية والاقتصادية ومقارنة الشخص لنفسه فى ضوء الموقف الذى يوجد فيه أشخاص آخرون أقوى منه جسما أو أكثر منه علما

أو مقاما إنما تلعب دورا هاما فى تحديد مدى ثقة ذلك الشخص فى نفسه ، وبالتالى فان ثقة نفس الشخص فى ذاته تتباين من وقت لآخر ومن موقف الى موقف آخر ، وبمقارنته لنفسه مع شخص ما عن مقارنته لنفسه بشخص آخر .

ولعلنا ننظر الى نقص الثقة بالنفس أو انعدامها فى ضوء الرغبة الشخصية. فأنت عندما تقوم بتقييم الخير أو الجمال فى أحد الاشخاص فانك فى الغالب لاتجد صراعا بين تقييمك له بأنه شرير أو بأنه قبيح مع ما تنحو اليه نفسك وتتوق اليه رغبتك اللهم الا اذا كان منتسبا اليك ويعتبر امتدادا لك كما هو الحال اذا كان تقييمك ينصب على ابنك أو ابنتك . ولكن تقييمك لنفسك بأنك شخص شرير أو شخص قبيح وما يترتب على مثل هذا التقيم من نقص أو فقدان ثقتك بنفسك ، فانه يجد مناهضة من قبل ذاتك ، وذلك كتعبير عن رفضك أو عدم رغبتك فى الاعتراف بأنك شرير أو قبيح . ومن ثم فانك تصدر أمرا الى نفسك بأن تعاود تقييم ذاتك من جديد .

والواقع أن ما يحدث بالفعل هو أن الشخص لا يصدر قرارا بأنه شرير أو قبيح ، بل إنه يعلق إصدار قراره ، بمعنى أن الوصول الى بر اليقين بأنه قبيح أو شرير لايكاد يحدث . فهو يظل فى دائرة الشك بصفة دائبة فى الغالب مقارنا بين ما يتمتع به من خير وما ابتلى به من شر ، ثم هو يقارن بين ما يتمتع به من جمال وما يريم على وجهه من قبح بغير أن ينتهى الى رأى . ومعنى هذا أن الشخص الموسوس هو شخص لا يعترف اعترافا صريحا بينه وبين ذاته بأنه شرير أو قبيح ، بل هو يظل معلقا حكمه على ذاته بغير أن يقر له قرار .

ولقد تمتد الوسوسة فى علاقتها بالثقة بالنفس الى الناحية العقلية . فكثير من حالات الوسوسة ينصب على العمليات الحسابية فى الحياة اليومية . فبعد أن يشترى الموسوس شيئا وينصرف من المحل التجارى ، فانه يأخذ فى حساب ثمن البضاعة التى اشتراها بصفة مستمرة بحيث يعيد ويزيد فى ثمن كل سلعة ويقوم بجمع ثمن جميع السلع وما قدمه الى الخزينة وما استرده منها أى الزائد

عن ثمن السلع . وما يكاد ينتهى من هذه العمليات حتى يبدأ من جديد فى نفس العمليات فى شكل دائرى وكأن دوامة عقلية قد لفته فى طياتها . وهنا يجب أن نميز بين موقفين متشابهين : الأول – يتعلق بالجانب الموضوعى ، والثانى يتعلق بالجانب الذاتى . فلقد يكون شك الشخص منصبا على ما قدمه الى الخزينة وما استرده من نقود متبقية له بعد حساب ثمن البضاعة بغير أن يكون لهذا الموقف صلة بذات الشخص أو بعدم ثقته فى ذاته . ولكن قد يكون مصدر القلق الذهنى والوقوع فى براثن الوسوسة هو نقص الثقة بالنفس، أعنى عدم ثقة الشخص فى جهازه العقلى واحساسه بالعجز عن إجراء العمليات الحسابية . فنى هذه الحالة يكون الموسوس غير قادر على الخروج من إطار الشك أو الخيارات أو تأمل الاحتمالات فى العلاقات الرقمية بحيث يخرج الى إطار اليقين حيث تنتهى المسألة بالنسبة له ولا يعود الى التفكير فى اطار الحلقة المفرغة التى ينحبس فيها ويوصف عندئذ بأنه شخص موسوس .

ولقد تمتد الوسوسة فى علاقتها بالثقة بالنفس الى الناحية الوجدانية . فثمة بعض الموسوسين الذين تسيطر عليهم مخاوف غامضة من بعض الأشياء أو المواقف التى لم تكن لتخيفهم لو كشف النقاب عن حقيقتها وجدانيا لا ذهنيا أمام أعينهم العاطفية . من ذلك مثلا أن يخاف أحدالموسوسين من الاصابة بالعدوى أو من بعض الكائنات الحية التى لا تخيف كالفئران أو الصراصير أو الخوف من الأماكن المرتفعة أو الأماكن المغلقة أو الأماكن المظلمة . والتفسير النفسى لتلك المخاوف وأمثالها هوالانحباس فى اطار الشكوك أو الخيارات بغير قدرة على الخروج من دائرتها الى دائرة اليقين . فثمة نوع من المفاضلة الوجدانية بين الخطر والأمن ، أو بين الضرر وعدم الضرر . فلو أن الموسوس قد انتهى الى معرفة يقينية بأسباب المرض لكان قد أخذ احتياطاته المعقولة منه . ولكن لأنه دائب المفاضلة اللاشعورية ، فانه يبالغ فى حماية نفسه من المجهول الذى لم يحدده تماما . ولكأن الموسوس يقول لنفسه « إنى حبيس إطار واحد ولم أصل الى قرار اختيارى . ومن ثم فان الخطر محدق بى لأنى طالما لم أصدر حكما قاطعا ، فانى لم أستبن الحدود التى أستطيع الوقوف عندها لا أتخطاها . ولكن

حيث أن الغموض يكتنفنى . فلا مناص من أن أتخذ الموقف المتطرف من الاحتياط . فما نشاهده من غسال يصاب به مثل هذا المريض بالخوف من العدوى إنما هو العرض الذى يتلبس به الموسوس وليس هو الوسوسة ذاتها . فالوسوسة هى الانحباس فى اطار الاختيارات بغير قدرة على الخروج من اسوارها الى فسحة ورحابة اليقين والتوصل الى قرار .

الوسوسة والواقع الخارجى :

لاشك أن ارتباط المرء بالعالم الخارجى ارتباطا تفاعليا إنما يحول بينه وبين الوقوع فى فخ الوسوسة . ذلك أن الأصل فى الوسوسة الانغلاق فى عالم العقل بغير قدرة على الخروج من إطار هذا العالم الى عالم الواقع ، وذلك باتخاذ قرار والوقوع على خيار من بين كثير من الخيارات التى كانت مطروحة فى نطاق ذلك العالم العقلى الداخلى . فأنت فى يوم عطلتك الأسبوعية قد تسرح بطرفك فيما سوف تقضى فيه وقتك . لقد تطرح أمامك مجموعة من الخيارات وفى النهاية تقرر الذهاب الى النادى مثلا حيث تقابل نفرا من أصدقائك . ولكن هذا الخيار لا يكون حاسما الا اذا توجهت بالفعل الى النادى . ولكن اذا اقتصر اختيارك على مجرد التفكير دون الفعل ، فانه لا يكون من الخيار فى شىء . إنه كما قلنا يشبه الوليد المبتسر .

وفى حالة تحول الشخص من قراره الذهنى الى مجال الاختيارات قبل أن ينفذ فكرته فى الواقع وقد أخذ يجيل بصيرته فيها ثم يعود الى قراره الذهنى السابق ، ثم يعود من جديد الى مجال الخيارات فاننا نسمى مثل هذا بالوسوسة أيضا . وبهذا فاننا نكون قد أضفنا بعدا جديدا الى الوسوسة الى جانب البعد الذى حددناه لها قبلا وهو الانحباس فى إطار الخيارات بغير أن يستطيع المرء أن يخرج الى إطار القرار أو اليقين . والبعد الجديد الذى أضفناه هنا هو ذلك التناوب الذى يتقلب عليه ذهن المرء . فتجده بين مجالين متباعدين : المجال الأول هو مجال الخيارات أو المتغيرات يجيل المرء بصيرته فيها ، والمجال الثانى هو مجال يخلص فيه الى خيار واحد أو أكثر بينما يحذف أو يستبعد باقى الخيارات ولكن الموسوس ما يفتأ يستعيد ما سبق له حذفه أو استبعاده ويبدأ من جديد فى إجالة بصيرته فيه . ثم ينتهى الى الوقوع على نفس الخيار أو نفس الخيارات

التى سبق له الوقوع عليها وانتقاؤها دون باقى الخيارات . ثم يعاود الكرة الى غير نهاية بحيث يكون شأنه شأن بندول الساعة فى تأرجحه بين قطبين متقابلين متباعدين .

ولعلنا نضيف أيضا نوعا جديدا أو بعدا ثالثا للوسوسة — وهو فى هذه المرة يتعلق بالناحية الوجدانية . فالموسوس فى ارتباطه بالعالم الخارجى يوجه حبه ثم كراهيته الى نفس الشىء فى تتابع وبغير أسباب موضوعية تحمله على تغيير موقفه الوجدانى . لقد تجد الموسوس يحب زوجته بجنون الى درجة العبادة ، ولكنه بغير مقدمات أو أسباب ينقلب عليها شر منقلب ويبدى لها كل علامات الكراهية والمقت . ولكنه ما يفتأ يعود الى موقفه الوجدانى الأول فيستعطفها ويبدى لها كل الشراهد السلوكية التى يعبر بها عن حبه لها وارتباطه وجدانيا بها . ولكن هل يستمر الموسوس على حاله ؟ إنه يفشل فى الركون الى حالة واحدة : بل إنه يفشل فى إلجام نفسه وتحقيق التوازن الوجدانى فى قلبه وفى سلوكه ، فهو ينقلب من حالة الحب الى حالة الكراهية بغير أسباب تستوجب ذلك . وانك لتجده فى غمرة حبه وملاطفته لزوجته وقد انقلب كالنمر الكاسر يعنفها أو يضربها ويسبها بأقذع الشتائم . وهكذا يظل ذلك الزوج الموسوس كبندول الساعة بين حب وكراهية ، وبين إقبال وادبار ، وبين الايجابية والسلبية الوجدانيتين .

وما يقال عن علاقة الموسوس بالناس ينسحب أيضا بازاء المناشط التى يضطلع بها . فهو يتقلب بين الحب الشديد لعمله وبين كراهية ذلك العمل . لقد تجد الرسام الموسوس وقد انكب على لوحاته بتعشق شديد حتى لقد يصرف نهاره وشطرا كبيرا من ليله وهو يرسم بنهم . ولكن هذه الحال لاتستمر طويلا . فلقد ينقض على ما قام برسمه يمزقه أو يحرقه . ولقد ينتحب ويبكي بشدة نادما على افساد لوحاته أو حرقها . وقد يقلع عن الرسم وهو يسب ويلعن الرسم ، ثم يعود الى فرشاته من جديد . ولكن لا تكون هناك مصالحة بينه وبين فنه بغير انقلاب الى الكراهية والمقت ، بل إن تلك المصالحة

والوئام بين مزاجه وبين فنه ما تفتأ تنقلب الى مناهدة وتنابذ بين مزاجه الموسوس وبين فنه .

وعلى هذا فاننا نكون قد حددنا ثلاثة أبعاد أو ثلاثة معان للوسوسة على النحو التالى :

فهناك أولا — المعنى الأول الذى سقناه فى أول حديثنا عن الوسوسة ، وهو انحباس المرء فى اطار الخيارات المتاحة فى الموقف سواء طرحت أمام ناظرى المرء أم كانت من ابتكاره وخلقه ، وعجزه عن الخروج بخيار أو أكثر مع اطراح واستبعاد باقى الخيارات .

وهناك ثانيا — المعنى الثانى الذى قدمناه لتونا فى أول هذا الموضوع وهو التذبذب بين الخيار المفضل وبين استعادة الخيارات التى سبق استبعادها ، والتذبذب بين الشك واليقين بصفة متواترة .

وهناك ثالثا — وأخيرا المعنى الثالث للوسوسة وهو التقلب بين الحب والكراهية ازاء الموضوعات الخارجية من أشخاص وأشياء ومناشط .

ونحن فى الواقع لا نعتبر السلوك مكتملا الا اذا خرج من حيز الداخل الى حيز الخارج فى أى صورة من صور التعبير الخارجى . فنحن لا نفرق بين شخص يصنع شيئا بيديه وبين شخص يفوه بما يدور بخلده يكتبه على ورق أو يحيله الى صورة مرسومة أو الى تمثال . ولا نفرق أيضا بين شخص يقتل شخصا آخر وبين شخص لايبدى سوى علامات الامتعاض من تصرف لا يعجبه بلوى شفتيه . وعدم تفرقتنا بين هذه الألوان السلوكية يتأتى عن كوننا نحدد معنى السلوك الى الخارج بأنه التعبير عما يخالج المرء من فكر أو مشاعر بوسيلة أو بأخرى ولا يهم ما عسى أن تكون تلك الوسيلة المستخدمة .

المهم هو أننا نعتبر الشخص موسوسا اذا انحبس فى إطاره الداخلى يجيل فكره فيما عساه فاعله وقد وضع نصب عينيه عدة خيارات بغير أن ينجح فى الوقوع على خيار من بينها وأن يستبعد من ثم باقى الخيارات التى لم تحظ باختياره . فالشخص الذى يتلقى إهانة من شخص آخر ، فأخذ يفكر كيف

يرد عليه ، فصار أمام ذهنه عدة طرق للرد على الاهانة ولكنه ظل يتأمل تلك الوسائل واحدة بعد أخرى ويعاود التفكير فيها المرة تلو المرة الى غير نهاية بغير أن يصدر قرارا باختيار واحدة منها ، يعتبر فى نظرنا شخصا موسوسا . ذلك أن الخيار الذى نعنيه لا يمكن أن يكون عقليا فحسب ، بل يجب أن يكون عقليا وواقعيا أيضا .

وافترض أيضا أنى فكرت فى موضوع كتاب أقوم بتأليفه ، ولكن تواردت على ذهنى موضوعات أخرى كثيرة ترشح نفسها أمام ذهنى بحيث يطالب كل موضوع منها بأن يحظى باختيارى . ولكنى ظللت أتناول كل موضوع من تلك الموضوعات أجيل فيه فكرى ثم ظللت على هذه الحال بغير أن يقع اختيارى على واحد منها . انى أكون اذن شخصا موسوسا . ثم افترض أنى اخترت بالفعل واحدا منها وآثرته على باقى الموضوعات ، ولكنى ظللت أفكر فيه بغير أن أخط كلمة واحدة فيه . إنى أكون أيضا فى هذه الحالة الأخيرة شخصا موسوسا . فلكى لا أكون مرسوسا فلابد من خطوتين أتخذهما جميعا : الخطوة الأولى الانتقاء وحذف الموضوعات الباقية ، والخطوة الثانية — هى تجسيد هذا الموضوع على هيئة كتاب أقرم بتأليفه . وحتى اذا أنا بدأت فى تأليف الكتاب ثم توقفت فى منتصفه ولم أتمه فانى أكون أيضا شخصا موسوسا . فلا بد من الاختيار والتجسيد والاكمال حتى أكون قد خرجت من حيز الشك الى حيز اليقين . واليقين يجب أن يكون يقينا موضوعيا وليس يقينا عقليا محصورا فى نطاقى الداخلى فحسب .

ولكى أتحرز من الاصابة بالوسوسة فلابد لى من الارتباط بالواقع العملى . على أن مثل ذلك الارتباط لايتسنى للمرء الا إذا تمكن من اكتساب مجموعة من العادات السلوكية . ولعلنا نربط هنا بين العادات وبين المهارات والوسائل . والمهارة يمكن أن تكون أدائية ويمكن أن تكون تعبيرية ويمكن أن تكون اجتماعية ، ويمكن أن تكون وجدانية تأثيرية . وكلما أكتسب المرء وسيلة جديدة للتعبير بها عن واقعه الداخلى وتمكن من تلك الوسيلة بحيث جعل منها إحدى عاداته ، فانه يكون قمينا بألا ينزلق إلى هوة الوسوسة . فلقد

وجد أن الكثير من الوساوس تكون نتيجة نقص فى مهارات التعبير عن الذات ونتيجة الافتقار إلى المهارات اللازمة لذلك التعبير . ولاننسى دور الأجهزة وما يتوافر للمرء من أدوات فى البراءة من الوسوسة . فلا شك أن الكاتب الذى يرمى به بين حوائط سجن وقد حرم من توافر الورق والقلم بين يديه . إنما تستحيل أفكاره إلى وساوس لأنها لاتجد لها منفذا إلى الواقع . ويقال نفس الشيء عن الفنان والمصلح الأجتماعى والصانع ومن اليهم من أشخاص .

الفصل التاسع

أنواع الوساوس

الوساوس المنطقية والحسابية :

بعد أن عرضنا فى الفصل السابق لمعنى الوسوسة ، فاننا نركز جهدنا فى هذا الفصل فى أنواع الوساوس المتباينة التى يتعرض المرء للإصابة بها سواء كانت إصابته بها مؤقتة عابرة أم كانت مستمرة ومسيطرة على سلوكه . ولنبدأ بالوساوس المنطقية والحسابية . وهذا النوع من الوساوس لايصيب الأنبساطيين الذين يشاهدون أنفسهم من خلال الواقع الخارجى ، بل يصيب الانطوائيين الذين يقفون على الوجود من خلال أنفسهم. وبتعبير آخر أولئك الذين يفسرون الوجود من خلال منظارهم النفسى لا من خلال الواقع المحيط بهم .

وترتبط الوساوس المنطقية بما يعرف فى علم الصحة النفسية بالأفكار الثابتة . والفكرة الثابتة هى فكرة محورية تستأثر بالجهد العقلى للموسوس . بيد أن الفكرة الثابتة تبدو حكما قاطعا يصدره الموسوس ، ولكنها فى الواقع ليست كذلك . إنها بمثابة تساؤل يحير عقل الشخص المصاب بالوسوسة . ولنأخذ مثالا يوضح ما نزعمه هنا . قد يصاب أحد الموسوسين بفكرة ثابتة تتمثل فى التساؤل عن الكون : هل هو خاضع لنظام ثابت فلا يحيد عن الخطوط التى رسمت له منذ الأزل وستظل كذلك راسخة ثابتة غير متغيرة إلى الأبد ، أم أن الكون يسير بطريقة عشوائية ووفق ما يمكن أن يسمى بالاحتمالية ؟

لاشك أن مثل هذا التساؤل يمكن أن يعرض لأى إنسان مفكر ، بل إن كثيرا من الفلاسفة المشهود لهم برجحان العقل وبعدم الإصابة بالوسوسة قد

تطرقوا إلى هذه المشكلة . ولكن فى حالة الوسوسة فان المسألة تتلبس أكثر من مجرد إثارة لمثل هذه المشكلة . فثمة أولا بعد وجدانى ملح يسيطر على حياة المرء فى يقظته ومنامه بحيث يكلفه ذلك شططا وبحيث يصيبه بالارهاق النفسى ويحمله على صرف طاقاته النفسية بكثرة التفكير وبكثرة ما يحمله ذلك من منغصات نفسية . ذلك أن مثل ذلك الشخص الموسوس يكون كارها التفكير فى مثل هذا الأمر . وقد أحس إحساسا وجدانيا عميقاً بأن وسواسه قد سيطر عليه ولم يسيطر هو عليه . فمقاليد الأمر ليست فى يدى الموسوس وليس فى مقدوره أن يبعد ذلك الطائف النفسى الذى ألم به وأسره فى إساره وأوقعه فى حبائله . ولعل الارهاق الوجدانى يتأتى للموسوس لأنه يذب عنه وسواسه بغير ما جدوى أو نفع . وهو فى ذبه هذا لوسواسه إنما يبذل من الطاقة الوجدانية القدر الكبير .

وثمة فارق آخر بين الموسوس المنطقى وبين الفيلسوف هو أن الفيلسوف يكون متعمقاً فى فكره ومرتكنا إلى أسس عقلية وثقافية مكينة تسمح له بالتفكير العميق فى مثل هذه المشكلة ولكن الموسوس لايستند فى الغالب إلى عمق ثقافى . ولايكون تفكيره الوسواسى استمرارا ونموا لسلسلة متصلة الحلقات كما هو شأن الفيلسوف ، بل إن وسواسه يسيطر عليه فجأة وبغير مقدمات أو أسس فلسفية . لقد يكون الموسوس أبعد ما يكون عن التفكير الفلسفى . لقد يكون الموسوس عاملا أو محاسباً أو طالبا بالمرحلة الثانوية أو فى أى موقع من مواقع الحياة التى لاتتصل بالفلسفة من قريب أو من بعيد .

وإذا نحن تناولنا المثال الذى ضربناه خاصا بالوسوسة المنطقية أو الفلسفية فاننا نجد أن الفكرة الثابتة الرابضة على ذهن الموسوس عبارة عن خيارين . فإما أن يكون الكون متسقاً ومنظما ومرتبا ترتيباً أزليا أبديا ، واما أن يكون الكون خاضعاً للمصادفات والاحتمالات ولايكون منظما تنظيما أزليا أبديا . وواضح أن الموسوس يظل فى مواجهة هذين الاختيارين لا يريم عنهما ، ولايخلص بواحد منهما ورافضاً الآخر . إنه لو فعل ذلك لما كان إذن موسوس

ولارتاح اذن باله ، ولانصرف بالتالى إلى غير ذلك من أفكار أو مشكلات ولكان فيلسوفا إذن وليس موسوسا .

فالفرق بين الفيلسوف وبين الموسوس هو أن الفيلسوف يكون ذا بصر بعيد بالمشكلات التى يعرض لها من جهة ، كما أنه يكون قادراً على عبور نطاق الشك إلى نطاق اليقين من جهة أخرى .

ومن الوساوس المنطقية الفلسفية أيضاً ذلك الوسواس المتعلق بحقيقة المعرفة . فهل ما يصل إلى إدراكنا هو الواقع أم أنه زيف من الزيف ؟ وهل ما نشاهده فى يقظتنا جدير بالتصديق أم أنه حلم مستمر ؟ وألا يجوز أن تكون أحلامنا هى الجديرة بالتصديق وليس ما نشاهده فى يقظتنا ؟ وهل ما نتذكره يكون مطابقاً لما مر بنا قبل ذلك أم أن ما نتذكره قد يكون مخالفا تماما أو إلى حد بعيد لما وقع بالفعل ؟ إلى غير ذلك من تساؤلات حول المعرفة .

والواقع أن الفلاسفة من أمثال ديكارت يتساءلون حول صدق المعرفة بنفس هذه الطريقة . ولكن ما يختلف فيه الفيلسوف عن الموسوس هو هذان الجانبان اللذان أشرنا اليهما بصدد حديثنا عن الوسواس السابق . فالفيلسوف يكون على بينة من أمره ، بل ويكون متعمقاً للمسائل الفلسفية بحيث يكون فكره الفلسفى متسقاً ومتسما بالاستمرارية . أما الموسوس فانه لايرتكن إلى أصول ولايعتمد فى تفكيره على أسس مكينة . إنه يتسم فى تفكيره بالطفوة بل وبالهلهلة والتفكك . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان الفيلسوف ينجح فى الخروج من دائرة الشك والانخراط فى دائرة اليقين . فهو بعد أن يطرح أمام ذهنه هذا التساؤل : هل أثق فى معرفتى ؟ فانه ينتهى إلى نتيجة سواء كانت تلك النتيجة بالايجاب أم بالسلب . ولكن الموسوس يظل على حاله . فهو يقتصر على اثارة السؤال بغير أن ينتهى إلى رد . إنه يجيل بصيرته أمام الخيارين المتاحين أمامه ويظل على هذه الحال بصفة مستمرة . ناهيك عن أنه يبذل الجهد النفسى ويجهض طاقة وجدانية كبيرة لابعاد شبح وسواسه عن ذهنه ولكن بغير ما جدوى . فهو المحبس فى هذا الاطار الوسواسى وقد

عجز عن إبعاد الفكرة الثابتة عن ذهنه — أو قل الفكرة الثابتة ذات الشقين التي سيطرت على جماع فكره — بغير أن يتسنى له ذبها ، وبغير أن يتمكن من جتياز جدار الشك إلى بر اليقين كما يفعل الفيلسوف .

وبالنسبة للوسوسة الحسابية ، فانها تصيب بعض الشباب من الجنسين . فالموسوس يجد نفسه مضطراً إلى إجراء عمليات حسابية مستمرة فى ذهنه . فهو يضطر إلى عد أعمدة التليفون فى أثناء سفره بالقطار ، أو يضطر إلى عد البيوت أو إلى جمع كل رقم يشاهده على أحد المنازل فيضيفه إلى الأعداد السابقة فى ذهنه . وهذا الوسواس يرهق عقله إرهاقا شديداً . ولعل الخيار الموجود فى هذا النوع من الوساوس الحسابية هو خيار بين الصواب والخطأ . فالموسوس فى أثناء إجرائه لعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة يدأب على إثارة هذا السؤال : هل الإجابات التى توصلت اليها بذهنى صحيحة أم أنها خاطئة ؟ ولذا فانك تجد أن الموسوس الحسابى يكرر العمليات الحسابية التى أجراها فى ذهنه إلى ما لانهاية . ولقد سبق أن ضربنا مثالا بالشخص الموسوس الذى يظل يحسب نقوده بعد خروجه من المحل التجارى الذى اشترى منه إحدى السلع . وحتى بالنسبة للشخص الذى يقوم بعد أعمدة التليفون فى أثناء سفره بالقطار ، فانه يتساءل : هل قمت بعد جميع الأعمدة أم فاتنى عد إحداها؟ وهل وقع خطأ فى العد أم أن العمليات التى أجريتها سليمة؟ ولعل الوسواس الحسابى هو شاهد أكيد على عدم ثقة الشخص فى ذهنه وفى قدرته الحسابية ولاينهض شاهداً على ثقته بنفسه فى هذا الصدد . ذلك أن النابغة فى المسائل الحسابية ينصرف غالبا إلى المستويات العليا من التفكير الرياضى ولا يحصر ذهنه فى عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة . ولقد تجد لدى الموسوس الحسابى آلة حاسبة بين يديه ولكنه لايركن اليها ولايعتمد عليها بل يظل حبيس العمليات الحسابية الذهنية التى يكون بمقدوره أن يجريها بسرعة وبدقة تامة بالآلة الحاسبة .

ويقول لنا علماء النفس إن الوساوس المنطقية الفلسفية وكذا الوساوس الحسابية إنما هى مجرد عرض لقلق نفسى متمكن فى الشخصية وجدله منفذاً

ينفذ من خلاله هو تلك القوالب المنطقية الفلسفية أو القوالب الحسابية الرتيبة.
ولكن قد تتعلق الوسوسة بغير هذين القالبين كما سنرى فيما يلي.

الوساوس المتعلقة بالماضى :

نستطيع تقسيم الناس جميعاً إلى ثلاث فئات أساسية بينها أطياف وتفريعات :
الفئة الأولى تضم أولئك الذين يهتمون بأحداث الماضى ويعيشون بقلوبهم وعقولهم فيها . ونستطيع أن نطلق على أفراد هذه الفئة اسم « الماضيون » . أما الفئة الثانية فتضم أولئك الذين يهتمون بالحاضر وما يقع به من أحداث راهنة . فهم يولون أهتمامهم الأكبر إلى « هنا والآن » . ونستطيع أن نسمى هذا الفريق من الناس اسم « الحاضريون» . أما الفئة الثالثة فانها تضم فى رحابها أولئك الذين يولون وجوههم شطر المستقبل وما يترقبونه من وقائع وما يتنبأون به من أحداث . ونستطيع أن نسمى هذا الفريق بالمستقبليين . وإذا نحن أخذنا بالرأى القائل إن الأمراض النفسية هى مبالغة أو إفراط فيما جبل عليه المرء وما طبع عليه ، فاننا نجد أن ثمة وسوسة تتعلق بالماضى يصاب بها بعض من أفراد الفئة الأولى ، وأن ثمة وسوسة تتعلق بالحاضر يصاب بها بعض من أفراد الفئة الثانية ، وأن ثمة أخيراً وسوسة تتعلق بالمستقبل يصاب بها بعض من أفراد الفئة الثالثة والأخيرة .

والموسوس من فريق الماضيين يجعل من المواقف التى مرت عليه بالفعل وانصرمت فى طى الزمان حاضرا يعيش فيه بعقله ووجدانه وكأنها تحدث « الآن وهنا » . فالموسوس من هذه الفئة يخرج بعقله ووجدانه من حدود وقيود الواقع الراهن لكى يدرج نفسه بكليتها فى إطار ماض ومكان بعيدين عنه قليلا أو كثيراً . على أن الوسوسة فى هذه الحالات قد تكون وسوسة مطلقة بمعنى أن الموسوس يفقد روابطه السلوكية المتعلقة بالحاضر فقدانا تاما ، فتجده شاردا شرودا تاما فلا ينتبه إلى الأشخاص المحيطين به ولا يعبأ بما يقع حوله ، بل إنه قد لايهرب من أخطار يمكن أن تحيق به . ومن الطبيعى إذنا أن الموسوس فى هذه الحالة يفقد القدرة على الإتصال

بالأشخاص المحيطين به بأى من وسائل الإتصال . فهو لايستبين ما يقولونه له كما أنه لايدرك وجودهم لكى ينقل اليهم ما يدور بخلده من معان . وانك لتجده وقد أسقط على بعض الأشخاص من حوله شخصيات أناس آخرين ممن يعيش معهم بذهنه المريض . فيسميهم بأسمائهم ويجد فى بعض الأفراد أصدقاء حميمين مروا فى خبرة حياته الماضية ، كما قد يجد فى بعضهم الآخر أعداء الداء بحيث قد يهاجمهم بالشتائم أو بالضرب أو حتى بالقتل .

وعلينا أن نتفحص وساوس الماضى حتى نحدد أنواعها الفرعية بحيث إذا ما تأملنا تلك الأنواع الفرعية ، عندئذ نستطيع أن نشكل صورة متكاملة عن هذا النوع من الوساوس .

هناك أولا — وساوس تتعلق بكرامة الشخص الموسوس . فلقد يوقع شخص ما إهانة على الواحد من فئة الموسوسين الماضيين . فلا يعثر على التصرف المناسب يرد به على ذلك الشخص الذى أعتدى عليه وأهانه . فتكون هناك فى الموقف الذى أهين به عدة بدائل ويكون عليه الأختيار من بينها . ولكنه ظل يجيل بصيرته فى جميع تلك البدائل إلى أن أنقشع الموقف وانصرف الشخص المعتدى أو تغير الحديث أو نشأت علاقات جديدة بالموقف . ولكن انتهاء الموقف واقعيا لايعنى بالضرورة انتهاؤه نفسيا . فالموسوس يظل فى غمره الموقف بعد انتهائه . ويظل يجيل عقله فى البدائل المتباينة وقد تأججت فى ذهنه وصارت نابضة بالحياة ولاتقل فى نصوعها وبريقها وتوهجها فى ذهنه عما كانت عليه وقت الوقوع . على أن الموسوس هنا يظل عاجزاً عن الاختيار . ولو أنه أختار من بينها لما كان إذن موسوسا . بل لكان شخصاً عاديا سويا . ونذكر القارىء بما سبق أن عرفنا به الوسوسة بأنها الاستمرار فى حالة من الاختيار وإجالة البصر فى البدائل أو الخيارات دون ما نتيجة ودون الوقوع على خيار معين ونبذ باقى الخيارات المتبقية وحذفها من الذهن ، وإحالة الخيار المفضل إلى سلوك فى الواقع الخارجى .

هناك ثانيا — وساوس تتعلق بحادثة غير مواتية نتيجة الإهمال أو نقص فى الحيطة . من ذلك مثلا تعرض سيارة المرء لحادث تصادم نتيجة خطأ وقع فيه ،

ن تلك الحادثة تظل متجددة فى ذهن الموسوس بحيث يجعل أمام مخيلته بدائل متعددة للخروج من المأزق ولتجنب وقوع الحادث بالخيال لا بالواقع . فالموسوس يستحضر الماضى لا كواقع انتهى وقوعه وقد لفته لفائف الماضى بل كحاضر حى متأجج الحياة . فهو يستعرض بذهنه جميع البدائل التى تحميه جميعاً فى حاضر ذهنه من وقوع الحادث . فهو يتخيل مثلا أنه يظل فى بيته وقد شغله شاغل حال بينه وبين استخدام السيارة أصلا ، وقد يتخيل أنه انتحى بعربته إلى اليمين أو إلى اليسار فتجنب بذلك الأصطدام بالسيارة الإخرى ، وقد يصل إلى حد أن يدرج ضمن بدائله الذهنية أن حادث الأصطدام مجرد حلم مزعج يفيق منه فيجد سيارته سليمة ولم يصبها أى أذى . ولقد يجعل ضمن بدائله أنه سمع بحادث أصطدام سيارته ولكنه سرعان ما أكتشف أن سيارة أخرى شبيهة بسيارته هى التى وقع لها الحادث .

على أن تلك البدائل أو الخيارات فى ذهن الموسوس من فئة الماضيين تكون بدائل حاضرة فى الذهن وليست مجرد أمنيات مع مثول الحادثة أمام الذهن . إن الموسوس يعيش وساوسه بحيث يسلك بعقله ووجدانه فى واقع ذهنى لايقل حضوراً عن الواقع الفعلى . فهو لايقول « ليتنى فعلت كذا وكيت » بل يعيش ذلك « الكذا » أو هذا « الكيت » .

وهناك ثالثا — وساوس تتعلق بخطيئة أو بجريمة اقترفها الشخص . من ذلك مثلا قتل زوج لزوجته وقد ضبطها مع عشيق لها أو بعد أن وشى له واش وأوقع بينهما . فمثل هذا الرجل فى سجنه قد تستولى عليه الوساوس إذا كان من فئة الماضيين. إنه يعيش بدائل أخرى ذهنية غير قتل زوجته. انه مثلا يذهب إلى أهلها ويطلب اليهم أخدها لأنه قرر تطليقها . وقد يكون من بدائله الذهنية ضربها ضربا مبرحا لايترك بها عاهة ولايقضى على حياتها . وقد يكون من بدائله التثبت من صدق الوشاية التى بلغته . وهكذا دواليك من بدائل ذهنية يحوكها الموسوس لنفسه ويعيشها وقد أبعد عن ذهنه بطريقة لاشعورية قتله للزوجة طوال استيلاء وسواسه على ذهنه . وكما قلنا فان الوسواس يعيش فى

ذهن الموسوس كأنه حاضر تماما ، ولكنه لايتخذ قرارا بازاء بدائله الذهنية بل هو يمر بذهنه على البدائل المتباينة بغير انتهاء أو وقوع على واحد منها ورفض باقى البدائل الذهنية .

وهناك رابعاً — وساوس تتعلق بالحظ . فصاحب الحظ العاثر كأن يكون تاجراً وقد بارت سلعه وانتهى به الأمر إلى الأفلاس وبيع محله والركون إلى منزله كأحد الفقراء ينتظر من يشفقون عليه ويحسنون إليه بما يجودون به من نقود . إنه قد يصاب بالوساوس وذلك بأن يستحضر إلى ذهنه بدائل متباينة منها مثلا رواج تجارته وزيادة رأس ماله وجلوسه فى صدر محله الكبير وقد ارتدى أفخم الحلل وهو يأمر العاملين بمحله وينهاهم . ولقد يكون من بدائله الذهنية اشتغاله بمهنة أخرى غير التجارة كأن يكون ضابط شرطة أو أحد المهندسين ، إلى غير ذلك من بدائل متباينة . والموسوس فى هذه الحالة يعيش بدائله واحدا بعد الآخر بغير أن يختار من بينها . فهو يظل حبيس تلك البدائل الذهنية وكأنه فى دوامة متتابعة الحلقات .

وهناك خامسا — الوساوس المتعلقة بالعاهات التى أصابت المرء نتيجة حادث أو نتيجة إهمال ذويه أونتيجة خطأ وقع فيه أحد الأطباء . والموسوس هنا يتخذ لنفسه الصورة المضادة لما تركته العاهة فى جسده وفى نفسه . فلاعب كرة القدم الذى أصيب فى قدمه يتخيل نفسه فى الملعب لايباريه أحد من اللاعبين وقد أخذ يشق طريقه فى الملعب بتحد بالغ . ولقد يكون من بدائله الذهنية الاعتذار عن حضور المباراة التى وقع له فيها الحادث ، أو يكون البديل الذهنى هو مبادرته للاعب الذى أصابه فعلا بضربة فى قصبة رجله بحيث يلقى به إلى الأرض ويخرج هوسليما من الملعب . فمثل هذا اللاعب الذى تركت فيه الإصابة عاهة مؤقتة أو مستمرة قد يستعرض أمام بصره الذهنى تلك البدائل واحدا بعد الآخر بغير أن يخرج من إطارها بقرار أو بواحد منها دون البدائل الأخرى المتبقية . وقل نفس الشىء بالنسبة لمن أصيب بالعمى فى أحدى العمليات الجراحية فى عينيه . انه يعيش بدائل تعويضية متباينة ولكنها بدائل وسواسية لأنه يدور فى إطارها بغير أن ينجح فى اختيار أحدها

ورفض باقى البدائل المتبقية . فهى تطويه فى لفائفها إلى ما لانهاية بحيث تصير عرضاً لمرض نفسي .

وساوس الحاضر :

سبق أن عرضنا لمعنى الوسوسة وقد حددنا هذا المعنى فى ثلاثة معان على النحو التالى : أولا — الانحباس فى إطار الخيارات المتاحة والخيارات التى يخلقها المرء بعقله وعدم القدرة على الخروج من هذا الاطار الشكى إلى بر اليقين واصدار قرار باختيار واحد أو أكثر من تلك الخيارات ونبذ البقية منها . ثانيا — التذبذب السريع فيما بين بر اليقين وبين إطار الخيارات أو البدائل أعنى إطار الشك . فبعد الوقوع على خيار أو أكثر ونبذ باقى الخيارات يعود الموسوس إلى ما كان عليه قبلا فيطرح البدائل أو الخيارات أمامه من جديد ويجيل البصر فيها مرة أخرى والأستمرار فى الأنتقال من اليقين إلى الشك ومن الشك إلى اليقين بتواتر وفى فترات متعاقبة وجيزة . ثالثا — التقلب بين الحب والكراهية لنفس الشخص أو الشيء أو الفكرة أو المبدأ . على أن التقلب الذى نعنيه هو تقلب مستمر من حب إلى كراهية ومن كراهية إلى حب وهكذا دواليك .

ولعلنا فى هذا المقام نضيف معنيين جديدين للوسوسة : أولهما — المحور الوحيد الذى يرد اليه الموسوس كل شيء . وهذا النوع من الوسوسة هو فى الواقع موقف هروبى يلجأ اليه الموسوس لكى يخفى وسوسته فيبدو أمام الآخرين وكأنه واقف على أرض صلبة . لقد تتمثل الوسوسة أولا فى التركيز على شخص واحد لايدير المرء نشاطه الذهنى أو الوجدانى الا حوله ولا يريم عنه . من ذلك مثلا أن يركز الزوج على زوجته فيظل طوال الوقت يفكر فيما أهانته به من كلمات أو تصرفات وقد جاوز كل ما يقال له من جميع الناس ولا يفكر الا فى تلك الكلمات التى فاهت بها زوجته معرضة به أمام الأولاد أو الجيران أو الأقرباء . ولقد يتمثل ذلك المحور فى مجموعة من الناس لهم سمه معينة أو دين معين أو لون معين من ألوان السياسة . من ذلك تركيز ذهن الموسوس على أصحاب البشرة الداكنة أو على فئة من المواطنين يخالفونه

فى العقيدة الدينية أو على حزب من الاحزاب السياسية أو على فريق من فرقاء كرة القدم أو مشجعيهم . ومن المتوقع فى مثل هذه الوساوس المتعلقة بالناس سواء كان الموسوس قد ركز ذهنه على شخص بعينه أم على فئة معينة من الناس أن ينتهى الأمر به الى اقتراف جرائم الاعتداء أو القتل ضدهم وذلك بسبب التركيز الذهنى والوجدانى ضد ذلك الشخص أو المجموعة التى شكلت محورا يلتف حوله العقل والوجدان جميعا طوال الوقت .

ولقد يكون المحور الوحيد الذى يرد اليه الموسوس كل شىء ولا يفكر الا فيه وبه محورا دينيا . من ذلك مثلا تركيز الموسوس ذهنه على مفهوم النجاسة ، فيظل يفكر فيه بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس ويبدى من ألوان السلوك ما ينم على ذلك التركيز . فهو لا ينظر الى نفسه أو الى غيره أو الى الأشياء من حوله الا فى ضوء مفهوم النجاسة . ولقد يترتب على مثل هذا التركيز الذهنى والوجدانى نتائج وخيمة تصيبه شخصيا وتصيب علاقاته بالاخرين أيضاً . فهو يوقف الكثير من المناشط التى كان يمارسها قبل أن يستولى هذا الوسواس على ذهنه . فلقد نجد إحدى السيدات المصابات بوسواس النجاسة وقد أقامت حاجزا كثيفا بينها وبين العالم الخارجى اعتقادا منها أن العالم الخارجى نجس وأنها هى طاهرة تماما . ومن ثم فانها تخفى كل شىء فى جسمها حتى أصابعها بل ووجهها . فهى تصير وراء حجاب أو حاجز يفصل بينها وبين العالم الخارجى وتهرب منه تماماً .

أما المعنى الثانى الذى نضيفه الى المعانى السابقة للوسوسة فهو المعنى الأدائى . فالموسوس هنا يمارس الشىء الواحد بصفة مستمرة بغير اقتناع من جانبه بأن ما أنجزه قد أبلى وأوفى . من ذلك مثلا قيام الموسوس بالبحث عن شىء ضاع منه فى نفس الأماكن التى بحث فيها عنه . فهو يفتح نفس الأدراج مئات المرات بحثا عن الشىء الضائع. وفى كل مرة يصاب بالاحباط لأنه لم يعثر عليه فيها . ولكنه يجد نفسه مدفوعا الى البحث من جديد فى نفس الأدراج ويصاب أيضا بالاحباط . ولكن أنى له أن يقلع عن بحثه بنفس الأدراج وقد تملكه الوسواس الأدائى وسيطر عليه تماما .

وفى ضوء هذه المعانى الخمسة التى سقناها نعرف بها الوسوسة ، فاننا نستطيع أن نرى كيف أن المرء الموسوس يمكن أن يكون نهبا للوسوسة فى حاضره وفى مجريات حياته اليومية . ولعلنا نجد خمسة أنواع من الوساوس الحاضرة التى يمكن أن تسيطر على الشخص الموسوس فى واقعه اليومى مما يؤثر على طمأنينته الداخلية وعلى علاقاته بالآخرين وثقتهم فيه واعتمادهم عليه ، بل ومما يؤثر فى انتاجيته وفى تقليص فرص نجاحه فى الحياة .

أما النوع الأول من وساوس الحاضر فهو ما يتعلق بالنشاط العقلى . ولعلنا نضرب مثالا بالطالب الذى يذاكر نفس الدرس لا يريم عنه لأن وسواسه يؤكد له أنه لم يستوعبه الاستيعاب الكافى . فهو يعيد ويزيد فى نفس الدرس بغير أن يجرؤ على التحرك والتقدم الى الدرس التالى ، وتكون النتيجة بالطبع هى الفشل فى متابعة وملاحقة الزملاء بالفصل . ونفس هذا النوع من الوساوس يمكن أن يصيب بعض موظفى الحسابات . فالواحد منهم يظل فى العملية الحسابية لا يتخطاها الى غيرها ، بل إنه يظل يعد حصيلة الخزينة بغير توقف . ويراجع الحسابات المرة تلو المرة ويظل وسواسه مسيطرا عليه لا يعفيه من شكائمه .

ومن هذا النوع العقلى من الوساوس ما يتعلق بنغمة معينة تظل تتردد على ذهن المرء الموسوس بحيث لا يستطيع استبعادها أو إحلال نغمة أخرى محلها . ومنه أيضا سيطرة لازمة كلامية معينة على لسان الموسوس . فتجده يردد كلمات بعينها فى غير محلها مثل كلمة « مثلا » وكلمة « يعنى » . ومهما حاول الموسوس الجام لسانه والامتناع عن ترديد الكلمة الوسواسية فانه يعجز عن ذلك .

أما النوع الثانى من وساوس الحاضر فهو ما يتعلق بالنشاط الوجدانى : فتجد أن الموسوس يرتمى فى أحضان الحزن أو التشاؤم بغير سبب وقد تلبس بالهم واليأس . فاذا ما فندت له حالته وأكدت له أن الدنيا بخير وأن لا سبب لما يدفع به الى الحزن أو التشاؤم أو اليأس ، فانه يقول لك مؤكدا أن المسألة ليست بيده ، وأنه مدفوع دفعا الى ذلك . وما يدفع به فى الواقع إلى مثل هذا الموقف النفسى هو الوسواس الوجدانى .

أما النوع الثالث من وساوس الحاضر فهو وسواس الأداء. من ذلك ما يلاحظ لدى بعض الناس من السير فى أحد الشوارع ثم الرجوع به ثم الذهاب فى الاتجاه الأول مرة أخرى فى نفس الشارع ثم الرجوع منه بغير هدف وبغير سبب . فهو يسير فى نفس الطريق ذهابا وايابا عدة مرات بغير مبرر يدفع به الى تلك الرتابة الحركية سوى سيطرة الوسواس الادائى عليه . ولسوف نعرض لهذا النوع من الوساوس فى موضوع لاحق .

أما النوع الرابع من وساوس الحاضر فهو وسواس التأجيل . وهذا النوع من الوساوس يبدو مضادا للنوع السابق . فالشخص الموسوس يعتزم القيام بعمل ما من الأعمال اليومية ، ولكنه يجد ما يحول بينه وبين النهوض من مكانه وتأجيل التنفيذ . والواقع أن بعض الموظفين يتعرضون للمساءلة نتيجة سيطرة وسواس التأجيل على بعض ما كان يجب عليهم إنجازه من أعمال وما كلفوا به من مهام . وانك لتجد الواحد منهم يؤكد أنه كان يعتزم تنفيذ ما كلف به ولكنه وجد شيئا ما يدفعه الى التأجيل والتسويف حتى وقع فى حبائل المسئولية .

وأخيرا فان النوع الخامس من وساوس الحاضر — وهو نوع سلبى أيضا — هو وسواس النوم . وهذا النوع يصيب بعض الطلبة فى النصف الأخير من العام الدراسى . فبينما يكون الطالب بحاجة ماسة الى قضاء معظم الوقت فى الاستذكار ، فان وسواس النوم يحمله على التثاؤب والرغبة الشديدة فى النعاس . ولكأنه قد سهر دهرا من الزمان . وكلما أخذ ذلك الطالب المسكين فى ذب الرغبة فى النعاس عن جفنيه ، يكون الحاح تلك الرغبة أعتى وأقوى .

وهكذا نجد أن وساوس الحاضر قد تكون وساوس ايجابية تدفع الى اتخاذ موقف ، كما أنها قد تكون وساوس سلبية تحول بين المرء الموسوس وبين ممارسة بعض المناشط الهامة والمفيدة .

وساوس المستقبل :

سبق أن عرضنا للوساوس المتعلقة بالماضى ثم للوساوس المتعلقة بالحاضر . وفى هذا الموضوع سوف نعرض للوساوس التى تتعلق بالمستقبل . ولقد سبق أن عرضنا أيضا لخمسة معان للوسوسة يتكون من مجموعها تصور عام لها ولعلنا نجعل من هذه المعانى الخمسة لبنات نستفيد من بعضها أو من مجموعها فى تكوين مفهوم عن الوساوس المستقبلية .

ولنا أن نقول إن هناك خمسة أنواع من الوساوس المستقبلية نقدمها فيما يلى مع تقديم لكل منها حتى ترتبط الفكرة بالواقع الذى يمكن أن يحدث فى الحياة اليومية وفى العلاقات الاجتماعية .

أما النوع الأول من الوساوس المستقبلية ، فهو ما كان متعلقا بالكيان البيولوجى والفسيولوجى للمرء . فنحن أولا وبالدرجة الأولى كائنات حية نتشبث بالوجود ونصبو الى أن نحيا بحيث لا يلحق بنا مرض أو عاهة . وحتى بالنسبة للموت ، فثمة صراع بين الكائن الحى فى أى صورة من صوره وبينه . وعلى الرغم من اعترافنا بضرورة وحتمية الموت ، فاننا ننكره بسلوكنا. وبالنسبة لحالات الانتحار أو حالات الزهد فى الحياة ، فأننا نعتقد أن الباعث فيها يكون استمرار الحياة بشكل أو بآخر . فمعظم حالات الانتحار لا يكون المنتحر فيها راغبا فى القضاء بالفعل على وجوده الحيوى بل يكون انتحاره مجرد تهديد واثارة لمشاعر المحيطين به المتعلقين وجدانيا بوجوده والذين سوف يحزنون اذا أصابه أى مكروه . فبالنسبة للغالبية العظمى من الناس فانهم يرفضون الموت ويجبرون عليه اجبارا . ولعل البشرية فى محاربتها للأمراض تكون فى الواقع — وبطريق غير مباشرة — فى صراع ضد الموت .

وثمة موسوسون تتركز وساوسهم حول حياتهم الجسمية فى المستقبل . فهم يعيشون فى قلق بالغ بازاء ما سوف تحمل لهم الأيام من أمراض أو من حوادث يمكن أن تترك فى أجسامهم عاهات أو يمكن أن تجعل منهم عيالا على غيرهم حيث تنشب الأمراض أظفارها فى أجسادهم فلا يتسنى لهم خدمة

أنفسهم بأنفسهم حتى فيما يتعلق بأبسط الأمور الحيوية ، فيفقدون قيمتهم المعنوية فى أنظار أقرب الناس اليهم ويتمنون لهم الموت ويعاملونهم معاملة قاسية .

وواضح أنه فى مثل هذه الوساوس تكون البدائل الذهنية القاسية مسيطرة على ذهن الموسوس بحيث لا يستطيع أن يخرج من بينها ببديل يعتبر الحل أو المخرج أو المخلص من تلك الوساوس . وأنى لك أن تقنع الموسوس بأن مستقبله سوف لا يحمل له أيا من تلك الوساوس التى تلاحقه . فكيف تقنعه ؟ وما الضمانات التى بمكنتك أن تقدمها اليه بحيث يرتاح باله ويتأكد من أن تلك المصائب الجسمية سوف لا تقع له فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد .

أما النوع الثانى من الوساوس المستقبلية فهو ما يتعلق بالجمال . والواقع أن هذا النوع من الوساوس يصيب أولئك الذين لديهم حساسية شديدة لما وهبوه من جمال . فثمة من الناس من يقتنع ويؤمن بأنه قد خلق على صورة جميلة . ونستطيع أن نضع على رأس قائمة الموسوسين من هذا النوع أولئك المصابين بالنرجسية أو عشق الذات . ولعلنا نزعم بحق أن نسبة المصابين بالنرجسية تزيد فى النساء عنها فى الرجال . ومن ثم فان الموسوسين بهذا النوع من الوسوسة يكونون من النساء أكثر من كونهم من الرجال . فالرجل يهتم برشاقة حركاته وقوة بنيته أكثر من اهتمامه بحلاوة ملامح وجهه أو بجمال خلقته . على أننا نميز بين ما يحظى به الفرد من الناس — ذكرا كان أم انثى — من جمال فى الخلقة ، وبين حساسيته لذلك الجمال . فلقد يكون الشخص متوسط الجمال ولكنه يكون شديد الحساسية لجماله ، بينما قد يكون الشخص جميلا ولكن حساسيته لجماله تكون قليلة أو متوسطة . ولقد نجد بعض الموسوسين وقد ركزوا ذهنهم فى جمالهم وما يمكن أن يفعل المستقبل فعله فيه ، فيقضون الوقت الطويل أمام المرآة للاطمئنان على أنهم لم يتغيروا ولم يحمل الزمن والعمر اليهم القبح بديلا للجمال . ولقد تنعكس هذه الوسوسة على العلاقات الزوجية ، وهى تبدو أكثر ما تبدو فيما يسمى بسن اليأس لدى المرأة .

أما النوع الثالث من الوساوس المستقبلية فهو النوع الاقتصادى . وهذا النوع من الوساوس يمكن أن يصيب جميع الناس على اختلاف مستوياتهم الاقتصادية ، بل إنه قد يصيب الصغار والكبار على السواء . فلقد لوحظ أن بعض الأطفال والمراهقين والشباب من الجنسين تساورهم الوساوس حول ما يمكن أن يصيبهم من نكبات اقتصادية اذا ما فقدوا عائلهم الوحيد وهم بعد فى سن الدراسة فيضيع مستقبلهم ويتضورون جوعا . وكذا فاننا نجد أن بعض ربات البيوت اللآتى يعتمدن كل الاعتماد على الزوج فى تسديد نفقات معيشتهن وقد أصبن بهذا النوع من الوساوس. ونفس الشىء يمكن أن يصيب التجار أو الموظفين الذين شارفوا سن المعاش . بيد أن الظروف الواحدة لا تؤدى الى نفس النتائج النفسية بالنسبة لجميع الناس . فثمة أشخاص لديهم حساسية معينة وقلق عميق حول مستقبلهم الاقتصادى ، بينما هناك أشخاص آخرون لايكادون يفكرون فيما سوف يحمله لهم الغد من أوضاع أو من سوء حظ أو من تدهور فى المستوى الاقتصادى أو من نقص فى الدخل .

أما النوع الرابع من الوساوس المستقبلية فهو تلك الوساوس المتعلقة بحياة أو صحة الآخرين . فبعض الأمهات أو الآباء يرتمون فى أحضان الوساوس حول سلامة أبنائهم وبناتهم . ونفس الشىء قد يصيب بعض الأزواج أو الزوجات حول زوجاتهم أو أزواجهم . فكل تليفون يرن أو كل جرس باب يدق أو كل زائر يأتى أو كل سيارة تقف أمام البيت يمكن أن تثيرهم وتخيم عليهم بالمخاوف المشفوعة بالوسوسة . فهم يترقبون أنباء مخيفة سوف تصلهم وتقلب حياتهم شر منقلب .

أما النوع الخامس من الوساوس المستقبلية فانه يضم تلك الوساوس المتعلقة بما سوف يقوله الناس عن المرء فى المستقبل . صحيح أن الناس جميعا فى كل مكان وفى كل عصر يهتمون أكثر ما يهتمون برأى الناس فيهم وبما سوف يذكرونهم به فى المستقبل من خير أو من شر. ولعل هذا الوازع هو الذى حدا بقدماء المصريين الى تشييد الأهرامات ، وحدا بالفنانين الى رسم الروائع أو إلى نحت التماثيل الخالدة أو الى وضع الألحان التى تعمل على نقش أسمائهم فى

سفر الخلود ، بل إن هذا الوازع هو الذى يدفع بالناس العادين الى الانجاب والى السهر على تربية أبنائهم وبناتهم أحسن تربية حتى يذكروا بالخير من أولئك الأبناء والبنات وعلى ألسنة من يعرفونهم . ولكن فى بعض الأحيان فاننا نجد أن هذا الاهتمام بالذكرى الحسنة تنقلب الى وسواس يسيطر على المرء. فهو بدلا من أن يركز ذهنه فى عمله فيجيده بغض النظر عن النتائج ، فانه يركز ذهنه كله أو جله على النتائج فيستبقها وقد خيم عليه التشاؤم وترقب وقوع الشر وإحاطته بمستقبله من كل جانب . فالطالب الموسوس يعيش فى خياله الموسوس وقد خشى من الرسوب فتصيبه فضيحة بين الأقرباء والجيران ، والقادر على الكتابة أو قرض الشعر يخشى أقلام النقاد والتعريض به ، فيتوقف عن الكتابة أو عن قرض الشعر . ولقد يمتنع الشخص حتى عن الزواج لئلا ينجب أطفالا سيئ السمعة فيلعنه الناس الذين سوف يتعاملون معهم . ولعل أن يكون أبو العلاء المعرى واحدا من أفراد هذه الفئة الموسوسة حول السمعة وما تلوكه ألسنة الناس عما يمكن أن ينجبه من أبناء أو بنات اذا تزوج .

والواقع أن هذه الوساوس الخمسة تفضى الى نتائج نفسية والى نتائج عملية تتعلق بمدى نجاح المرء فى الحياة. فمن حيث النتائج النفسية، فاننا نلاحظ أن الموسوس بهذه الوساوس المستقبلية يعيش فى قلق دائم وفى خوف مطرد مما عسى أن يكون عليه الحال فى الأيام أو السنوات القادمة ، بل إن هذا الموسوس كثيرا ما يفقد ثقته فى نفسه بسبب فقدانه الثقة فى المستقبل . وليس بالغريب اذن — وهذا هو حال الموسوس — أن يقف فى لحظته الحاضرة لا يتقدم نحو المستقبل بجرأة ، بل ولا يحرز أى تقدم فى أى شىء يضطلع به . وكيف ينجح وهو يخشى الأحداث المقبلة ؟ ولقد سبق أن أكدنا على أن الوسوسة تتسم بالانغلاق والانحباس فى إطار الشك والتفكير فى البدائل بغير أن يكون المرء قادرا على التحرك خطوات وئيدة ثابتة نحو مستقبل مشرق ومتفتح ومكلل بالنجاح والتوفيق والتقدم. وليس يعزب عن البال أن الموسوس المستقبلى لا لايكون شخصا عمليا فى حياته وواقعيا فى تصرفاته وعلاقاته . ومن ثم فانه لا يكون ناجحا أو متكيفا التكيف السليم فى علاقاته بالآخرين من حوله .

الوساوس الأدائية :

سبق أن عرضنا للوساوس الأدائية لماما ، وهي الوساوس التي تبدو في التصرفات والسلوك الخارجي للمرء . وفي هذا المقام سوف نتناول هذا النوع من الوساوس بشيء من التفصيل . وهناك في الواقع خمسة أنواع فرعية من الوساوس تقع في إطار هذا النوع .

أما النوع الأول من الوساوس الأدائية فانه النوع الأدائي العقلي . وقد سبق أن ضربنا مثالا له بالشخص الذي يدأب على تكرار عملية حسابية معينة بغير أن ينتهي من ذلك الى قرار بأن الحل الذي توصل اليه صحيح أو بأنه عاجز عن الحل . ولقد يتبدى هذا النوع من الوساوس الأدائية العقلية لدى بعض أمناء المخازن الذين يظلون يحصون عدد صنف من أصناف العهد الموجودة بالمخزن بغير أن تهدأ لهم ثائرة وبغير أن يرتاح ضميرهم من عتو الوسواس الأدائي العقلي الذي يحملهم على مداومة التفكير والاحصاء . وهناك أيضا من العلماء من يصابون بهذا النوع من الوساوس الأدائية العقلية . فالمصاب بهذه الوساوس يقوم بأداء التجربة ذاتها العديد من المرات ، وعلى الرغم من وضوح النتائج في كل مرة ، فان وسواسه الأدائي العقلي لا يسمح له بالخلوص من النتائج الجلية الى بر اليقين الذهني والمرور من التجربة الى غيرها . ولقد يكون الخياران اللذان لا يتسنى للعالم الموسوس الحكم لواحد منهما هو أولا الفكرة المسبقة لما يمكن أن تفضي اليه التجربة التي يضطلع بها ، والخيار الثاني هو ما يشاهده بأم عينيه لدى إجرائه للتجربة . فهو يقف بعقله حائرا بين اقتناعه المبني على الفكرة المسبقة واقتناعه أيضا بما يشاهده بعينيه وما أفضت اليه التجربة من نتائج .

أما النوع الثاني من الوساوس الأدائية فهو الوساوس الأدائية العقائدية . وهذا النوع من الوساوس قد يشاهد لدى بعض المتدينين في أي دين . فبعد أن يصلي الموسوس يسيطر عليه وسواسه بأن صلاته لم تكن صحيحة لسبب أو لآخر . فيبدأ صلاته من جديد ، لكنه ما يكاد ينتهي منها حتى تساوره وساوسه مرة أخرى فيعيد الكرة مرة ثالثة فرابعة فخامسة ... الخ . ولا يكون الباعث

لديه على الصلاة هو حب العبادة بل الوسواس المسيطر بأن ما أداه من صلاة لم يكن على النحو السليم أو بالطريقة الواجبة الاتباع . ولقد يتعلق الوسواس بالصوم ، فيعتقد المرء — أو بالأحرى الموسوس — فيما يتعلق بصحة صومه ، فهو يوسوس بأنه ربما أفطر وهو ساه وشارد الذهن ومن ثم فيجب عليه أن يصوم أياما بدلا من الأيام التى يوسوس بأنه أفطر فيها . وقد يظل الموسوس على هذه الحال كلما عوض عن الأيام التى حسب نفسه قد أفطر فيها ، فيصوم أياما جديدة كلما داعبه وسواسه . وقد يتعلق الوسواس الأدائى الاعتقادى باحتمال الاصابة بالنجاسة ، فيعمد الموسوس الى التطهر بالاغتسال المستمر الذى يبدو فى نظر المحيطين به بأنه مرض نفسى وليس من التدين فى شىء .

أما النوع الثالث من الوساوس الأدائية فهو الوساوس الأدائية الصحية . وفى هذا النوع من الوساوس يكون الشخص موسوسا حول صحته وما يمكن أن يصيبه من أمراض . فبينما نجد أن الموسوس الاعتقادى يغتسل تخلصاً من نجاسة لحقت به فى ظنه ، فان الموسوس الصحى يغتسل خوفاً من تمكن الميكروبات من يديه وجسمه . وهنا نجد الموسوس الأدائى الصحى يستخدم الماء الساخن جدا أو المواد الكاوية أو فرش السلك فى تدليك يديه وباقى جسمه مما يترتب عليه الإصابة بالجروح والتقيحات . ولقد يصل الوسواس بالشخص إلى درجة غسل الصابونة بصابونة أخرى كما اعترف بذلك أحد الفنانين الموسيقيين المصريين الكبار على شاشة التلفزيون . فاذا كان هذا هو حاله بازاء تطهير الصابونة ، فما بالك إذا عرضنا لموقفه من الخضر والفاكهة ؟ ولقد يبدو الوسواس الصحى فى حياة المريض اليومية . فهو دائم التردد على الأطباء لغير سبب معروف ، بل إنه يكون دائم التردد على الصيدليات يشترى منها ما يظنه مفيدا لصحته أو محصناً له ضدما يمكن أن يتربص به من ميكروبات . وطبيعى أن يكون فى هذا المسلك ما يعرض الموسوس لأخطار صحية قد تطرحه بالفعل فى أحضان المرض .

أما النوع الرابع من الوساوس الأدائية فهو ما يمكن أن نسميه بالوساوس الأدائية التعاظمية . فهذا النوع من الوساوس يحمل المصاب به على تحقير الآخرين والخوف من مخالطتهم أو التعامل معهم أو إقامة علاقات بهم فتهبط مكانته ويصاب بالضعة والخسة . والواقع أن هذا النوع من الوسوسة يتعلق بمرض العظمة حيث يعتبر المريض به أنه شخصية مباينة للآخرين . والوسوسة التي تصيب المريض بالعظمة تنصب على الخوف من فقدان سر تلك العظمة بالاختلاط بالناس الآخرين الذين يقلون عنه مرتبة وقيمة . ولايفلت أحد من الناس من حكم المصاب بالوسوسة الأدائية التعاظمية من نظرة الاحتقار والازدراء التي ينظر بها اليه . والفرق بين المغرور وبين المصاب بجنون العظمة يتبدى فى هذه النقطة . فتتجلى الوسوسة الأدائية التعاظمية فيما يتصرف به الشخص المريض نفسياً بهذا المرض . فهو أولا يهرب من التحادث مع الآخرين ، بل ويخشى أن تلامس ملابسه ملابسهم ، أو أن يقتربوا من أوانيه أو من الفوط التي يستخدمها أو من أى أداة يقوم باستخدامها . ولعل المصاب بهذا النوع من الوساوس يعمد أيضاً إلى استخدام القفاز يرتديه ولايسلم على أحد بيده الا وهو يرتديه حتى لايفقد عظمته بملامسة أيدى من يسلم عليهم .

والنوع الخامس والأخير من الوساوس الأدائية هو الوساوس العاطفية الانفعالية . فالموسوس هنا ينخرط فى أوهام ذهنية تجعله ينخرط فى بكاء مرير أو فى ضحك واستبشار لامثيل لهما . وقد تتناوب الوساوس الحزينة والوساوس البهيجة على عقل وقلب الموسوس . وطبيعى أن الناس من حول الموسوس بهذا النوع من الوسوسة يبدون دهشتهم لما يبدو فى سلوكه من ممارسات قد تصل إلى العويل أو إلى الضحك بصوت مرتفع . وفى بعض الأحيان تتبدى الانفعالات الوسواسية فى حركات واشارات وجمل يبديها الموسوس فى أثناء سيره فى الشوارع حتى لقد يظن المارة أنه يتحدث اليهم أو أنه ينفعل لمشهد واقعى شاهده لتوه فى الطريق ، وهم لايعلمون أنه يعيش فى جو وجدانى داخلى يفرض نفسه عليه ويوجه أداءه السلوكى الوجهة التى يرسمها له .

وواضح أن هذه الوساوس الأدائية تحول بين الشخص المصاب بها وبين تحقيق التوافق النفسي والتوافق الاجتماعي . ذلك أن الموسوس الأدائي بكافة الأنواع الخمسة السابقة لايكون راضيا عن ذاته ، بل إنه في كثير من الحالات – أو فيها جميعاً – يتمنى أن يتخلص من الوسواس الأدائي الجاثم على صدره والذي يحول بينه وبين تحقيق سويته في نظر نفسه . ولعل أهم علامة من علامات عدم رضى الشخص الموسوس عن ذاته تظهر فيما يحاوله من وسائل للتخلص من تلك الوساوس . ولكن أنى يتحقق له ذلك ؟

ولاشك أن توافق الموسوس الأدائي مع الناس من حوله يكون ضعيفاً أو حتى منعدما . ولعل أخطر ما يصيب شخصية الموسوس في علاقاته الاجتماعية تلك التهمة التي توجه إليه من قبل المحيطين به . فهم يعتبرونه مجنونا أو مصابا بلوثة ، ومن ثم فهم لايبدون له أية علامة من علامات الاحترام . ناهيك عما يمكن أن يبدوه له من استهزاء وما يمكن أن يظهروه له من احتقار وما يمكن أن يرموه به من نكات ، فيتخذون منه وسيلة للترفيه عن أنفسهم وتحقيق جو من المرح بالتهكم عليه والاستهزاء بسلوكه المضحك .

والواقع أن رد فعل الموسوس على ذلك قد يكون عنيفاً إلى الخارج ، كما أنه قد يكون عنيفاً إلى الداخل . فالعنف إلى الخارج يتضمن استخدام القسوة والانتقام من الآخرين ، والانتقام من الداخل قد يكون بالعزلة والبعد عن الناس . فيستقيل الموسوس من عمله ويعكف على وساوسه يجترها وتتمكن منه أكثر فأكثر . وفي الحالين فان الموسوس الأدائي يفقد فرص النجاح في الحياة ، ويفقد قيمته الإنتاجية في المجتمع ، بل إنه في الغالب يفقد قيمته في نظر أعز الناس لديه ، وتتدهور علاقاته بهم ، وبالتالي فانه يتحمل الكثير من الآلام النفسية والانفعالية التي تؤدي بالتالي إلى مضاعفة وساوسه ، لأن فقدان ثقة الناس في الموسوس ، وفقدانه الثقة في نفسه يعملان على مضاعفة وساوسه من جهة ، وتثبيت أركان ما ألم به من وساوس أدائية من جهة أخرى : وهل من إهانة تصيب معنوية المرء أكثر من فقدانه لتقدير الناس له وانصرافهم عنه وقد أخذوا يظهرون له علامات الاحتقار والاستهجان أو عدم المبالاة بازاء ما يعبر به من كلام أو مايبديه من آراء أو ما ينجزه من أعمال ؟

الفصل العاشر

الوسوسة كمرض نفسى

النقص فى النمو العقلى :

يتضح من طوال حديثنا عن الوسوسة أنها عرض نفسى ذو أضلاع ثلاثة : ضلع عقلى وضلع وجدانى وضلع أدائى . وهذه الأضلاع الثلاثة هى فى الواقع أضلاع السلوك فى جميع صوره وأشكاله السوى منه وغير السوى . ولعلنا نزعم أن هذه الأضلاع الثلاثة يجب أن تكون متساوية — كما سبق أن قلنا — حتى يتسنى تحقيق التكامل فى الشخصية ، وحتى لايكون المرء عرضة بالتالى للإصابة بالوسوسة .

ولاشك أن النقص فى النمو العقلى لمن أسباب الإصابة بالوسوسة . ولسوف نعرض فيما يلى للحالات التى يتبدى فيها النقص فى النمو العقلى والعلاقة بين مثل هذا النقص وبين الإصابة بالوسوسة .

هناك أولا النقص فى النمو العقلى الناجم عن النقص فى نمو الجهاز العصبى وبخاصة المخ . وينجم عن هذا حالات التخلف العقلى . والأطفال المتخلفون عقليا بسبب النقص فى نمو المخ بأجهزته المتباينة يحسون بالاختلاف بينهم وبين أقرانهم فلا يستطيعون الإفادة حتى من القدر الضئيل من الذكاء الذى وهبوه ، ومن ثم فانهم يرتمون فى أحلام اليقظة يعوضون بها أنفسهم عما حرموا منه من ذكاء . ويغلب لدى هذه الفئة من الأطفال — وبخاصة بعد انخراطهم فى المراهقة والشباب — الإصابة بالوساوس الأدائية حيث يلتزمون بأنماط سلوكية متكررة وبقوالب أدائية ثابتة وضيقة النطاق لايحيدون عنها قيد أنملة . ولذا فان أصحاب التوجيه الحرفى يعمدون إلى الإفادة من هذه الخاصية الوسواسية فى تدريبهم على عملية واحدة متكررة كملء قواعد الكراسى

بالقش ، أو دهن الأحذية أو الجدران أو غير ذلك من أعمال نمطية لاتتضمن أى نوع من التعقيد .

ثانيا — هناك حالات النقص فى النمو العقلى الناجمة عن الإصابات فى أثناء الحمل أو فى أثناء الولادة . فلقد ترتطم الأم فى بطنها بجسم صلب أو قد يضطر الطبيب المولد إلى استخدام الجفت فى إيلاد الأم ، فيضغط على رأس الوليد فيصيب المخ بالتلف مع استمرار بقائه على قيد الحياة . فنى بعض هذه الحالات يتوقف النمو العقلى ويكون شأن الطفل شأن الأطفال الذين لم يوهبوا إرثات جيدة وقد ولدوا من والدين متخلفين عقليا . بيد أن هناك اختلافا بين أفراد هذه الفئة وبين أفراد الفئة الأولى هو أنهم ينمون غالبا نموا وجدانيا وجسميا سليما ، ومن ثم فان هذا يدفع بهم إلى الاحساس بمشاكلهم على نحو أقوى مما يحس به أفراد الفئة السابقة . ولكن الوساوس التى يتعرضون لها تكون فى الغالب شبيهة بالوساوس التى يتعرض لها أفراد الفئة الأولى ، أعنى أنهم يصابون فى الأغلب بالوساوس الأدائية .

ثالثا — هناك حالات النقص فى النمو العقلى تنجم عن أسباب كيميائية . فهناك مثلا بعض الأمهات والآباء فى بعض البيئات يستخدمون المهدئات أو المخدرات حتى يضمنوا نوما هادئا لأطفالهم الصغار ، فلا يصرخون فى أثناء الليل ويقلقون راحتهم . ولقد كانت هذه العادة شائعة فى مصر فى الثلاثينيات والأربعينيات ، وما تزال منتشرة ببعض البلاد العربية مثل اليمن . وثمة بعض العقاقير التى يشتريها الوالدان من الصيدليات بغير إرشاد الطبيب ويقدمونها لأطفالهم لتهدئتهم ربما تفضى إلى نفس النتيجة وتؤثر تأثيراً ضارا فى مدى نموهم العقلى . ونستطيع أن نضم فئة المدمنين على المخدرات إلى هذه الفئة . ذلك أن ما يقع للمرء من ضمور عقلى بحيث يحمله على الرجوع القهقرى إلى مراحل نمو عقلية طفلية لايختلف فى جوهره عن النقص فى النمو العقلى بداءة . والواقع أنه فى جميع حالات النقص فى النمو العقلى أو تقلص ونكوص هذا النمو لأسباب كيميائية ، فان الوساوس التى يصاب بها المرء إنما تكون

وساوس ذهنية ذات صبغة وجدانية فى الغالب . فيعمد الموسوس إلى بناء حياة سعيدة بذهنه ويظل يجترها ولا يريم عنها بحيث تشكل وسواسا متكررا لا يختلف كثيرا أو قليلا مع اختلاف الأوقات والظروف . ولقد تكون الصورة الوسواسية المتكررة صورة ذهنية إنتقامية حيث يقوم الموسوس بالاستيلاء على الأعداء وقهرهم وإحراق ممتلكاتهم وابادتهم أو أسرهم والتنكيل بهم . وقد تكون الصور الذهنية الوسواسية التى تصاب بها هذه الفئة صورا استعطافية . فتجد الواحد من أولئك الموسوسين يتخيل نفسه فى وضع ضعيف يستحق الشفقة وقد أخذ أحد المتجبرين فى إيلامه والنيل منه ، بينما هو يأخذ فى استعطافه واستدرار شفقته حتى يخفف عنه ما يؤلمه به من كلام مقذع ومن ضرب مبرح . ولقد تصل الصورة الذهنية الوسواسية فى بعض الحالات إلى درجة تخيل الشخص القاسى الذى يؤلمه وقد أمسك بسكين أو سيف وأخذ يبتر به أطرافه والدم يسيل غزيراً وقد برح به الألم كل مبرح .

رابعاً — حالات الإصابة فى الرأس بشظية تنفذ إلى المخ أو الإصابة بأورام وخراريج فى المخ مما يحمل معه ضرورة اجراء عملية جراحية لاستخراج الشظية أو لإزالة الأورام والخراريج وبالتالى إصابة بعض مناطق المخ التى يعتمد عليها التفكير . والواقع أن الشخص بعد أن تجرى له مثل تلك الجراحات يكون فى الغالب نهبا للوساوس المتعلقة بقدرته على التفكير السليم وعلى التركيز وعلى النهوض بجميع العمليات الذهنية . فالوسواس فى هذه الحالات يكون فى الغالب وسواسا منطقياً يتعلق بطريقة التفكير أكثر من كونه متعلقاً بمضمون التفكير . ولعلنا نشبه الموسوس فى هذه الحالة بالشخص المصاب فى قدمه لسبب أو لآخر ، فيركز ذهنه فى طريقة مشيته ، وهل هو يعرج أم أنه يسير بطريقة عادية فيكون تركيز ذهنه على طريقة المشى وليس على أين يذهب .

خامسا — حالات الحرمان من التفاعلات الثقافية . فثمة أطفال يولدون عاديين أسوياء ، ولكن ظروفاً معينة تحول بينهم وبين الانخراط فى أى مجتمع من المجتمعات البشرية . وبالتالى فانهم يحرمون من تعلم لغة الكلام ، بل ويحرمون من تعلم القيم والعلاقات الاجتماعية والحضارة الإنسانية برمتها .

وهذه حالات نادرة جداً . فنى بعض الأحيان تقوم القردة بسرقة بعض الأطفال الصغار المولودين حديثاً بجوار الغابات ويهرعون بهم إلى الأشجار حيث يخبئونهم ، وحيث يعلمونهم الحياة وفق طرائقهم . فاذا ما عثر بعض المكتشفين على أولئك الأطفال بعد فترة من الزمن وقد بلغوا نهاية مرحلة الطفولة الثانية (حوالى العاشرة مثلا) وانتزعوهم من مجتمع القردة وأدرجوهم فى مجتمع الناس وقد أخذوا فى تعليمهم وتدريبهم ، فان ما يمكن أن يفعلوه لهم لا يمكن أن يحيلهم إلى أشخاص أسوياء ولا يمكن تعويضهم عن كل ما فاتهم من نمو عقلى يتأتى عن التفاعل الثقافى بين ما جبل عليه المرء وبين الحضارة الإنسانية منذ نعومة الأظفار . ولو أنهم تركوا لحياتهم القردية لما ظهرت لديهم أية وساوس أو أعراض نفسية ، بل لكانوا من أذكى أنواع القردة إذا ما تجاوزنا القول واعتبرناهم عندئذ قردة . ولكنهم وقد استنقذوا وأجبروا على الانخراط فى مجتمع إنسانى تظلله حضارة إنسانية معقدة ، فان صراعا نفسيا ينشب لديهم فيما بين جديد يراد لهم استيعابه وقديم يراد تخليصهم منه . فينشأ عن هذا التصادم بين الثقافة القردية وبين الثقافة الإنسانية فى أنحائهم تلك الوساوس التى تتبدى أكثر ما تتبدى فى الناحية الأدائية . فهم يعكفون على العملية الواحدة البسيطة يكررونها بغير أن تنشأ لديهم رغبة للتدرج منها إلى عمليات أكثر تعقداً . أضف إلى هذا ما قد ينشأ لديهم من وساوس كلامية. فلقد تسيطر عليهم بعض الكلمات أو العبارات فيلوكونها بغير مضمون معرفى يريدون نقله إلى السامع . ويظل الوسواس الكلامى يسيطر عليهم ويعوقهم عن التقدم ولو خطوة واحدة فى طريق اللغة المنطوقة الخصبة والمتنوعة . ولقد يحاول المربون إثناءهم عن تلك الكلمات أو العبارات الوسواسية ولكن دون جدوى . فهم يرددون على ما يقال لهم بنفس القوالب الكلامية الوسواسية التى أخذت بهم كل مأخذ وسيطرت على ألسنتهم لا تريم عنها ولا تخفف من وطأتها عليهم .

والواقع أنه كان فى وسعنا أن نضيف إلى هذه الأنواع الخمسة من النقص فى النمو العقلى وكذا النكوص عن ذلك النمو ما قد يحدث من وساوس فى

الشيخوخة تنجم عن أسباب متباينة . ولكنا آثرنا أن نخصص فصلا برمته نعالج فيه موضوع الوسوسة فى الشيخوخة . ففى الفصل القادم سوف نتناول وساوس الشيخوخة من زوايا متباينة وذلك لأهمية الشيخوخة فى نظرنا ، وقد سبق أن خصصنا لرعاية الشيخوخة عملا قائماً بذاته (١)

الاضطراب الانفعالى :

عندما نتصفح كتب علم النفس التى عرضت لدراسة الوسوسة ، فاننا نجد أن معظمها يعزو الإصابة بها إلى وقوع اضطراب أنفعالى بالشخصية . وإن دل هذا على شىء فانما يدل على أهمية هذا العامل فى الإصابة بالوساوس. على أن الاضطراب الانفعالى يرجع فى الواقع إلى أسباب متعددة يصح أن نعرض لها فيما يلى مبينين علاقة كل هيئة من هيئات الاضطراب الانفعالى بالوسوسة .

هناك أولا اضطراب انفعالى يعزى إلى عدم تبلور الوجدان حول موضوعات معينة ، أو بتعبير أدق عدم تبلور جانب كبير من الطاقة الوجدانية حول موضوعات معينة . والواقع أن تبلور الوجدان حول أحد الموضوعات يشكل عاطفة نحو ذلك الموضوع . وتبلور الوجدان قد يكون تبلورا إيجابيا فينشأ الحب ، كما أنه قد يكون تبلورا سلبيا فينشأ الكرة . ولكن حب أحد الموضوعات أو كراهيته يكبح جماح الوجدان الثائر ، وذلك عن طريق ما أسميناه بتلور الوجدان . فعدم تبلور الوجدان ، أو النقص فى بلورته حول الموضوعات إنما يصيب الشخصية بالاضطراب الانفعالى ، أو قل إن الشخصية تكون مترددة فى توجيه وجدانها . فهى توجه نفس الطاقة الوجدانية إلى الموضوع والموضوع المنافى له . وهذا هو الوسوسة بعينها حسب التعريفات السابقة التى قدمناها بصدد عرضنا للموضوعات السابقة .

هناك ثانيا — اضطراب انفعالى يعزى إلى عوامل فسيولوجية وبخاصة تلك العوامل المتعلقة بالمخ . فلقد يحدث عطب بالمخ يمكن الوقوف عليه

---

(١) أنظر كتاب « رعاية الشيخوخة » للمؤلف — مكتبة غريب بالفجالة .

ويمكن التدخل لوقفه بالعمليات الجراحية ، كما أنه قد يحدث تلف وظيفى بالمخ نتيجة انحراف وظائف المخ عن الخط السليم الذى ينبغى أن يضرب فى إثره ويسير على منواله . والواقع أن رد جميع الالتواءات التى يمكن أن تبدو فى سلوك المرء إلى أسباب فسيولوجية بحتة تكون قد أصابت المخ ، إنما يكون فيه اجتزاء ببعض الأسباب أو العلل دون باقى الأسباب الأخرى . فثمة فى الدراسات النفسية المتعلقة بالانحرافات النفسية ما يعرف بالأمراض أو الأعراض الوظيفية التى لايمكن الوقوف لدى دراستها على أسباب عضوية معينة ، بل تفسر بأنها انحراف سلوكى أو وظيفى متعلق بسلوك المرء أو بالخبرات غير السديدة أو الملتوية التى اكتسبها المرء . ومن الاضطرابات الانفعالية الوظيفية ما ينتهى بالمرء إلى التلبس بالوسواس . من ذلك مثلا الخوف أو الحرمان من التعبير عن خلجات النفس أو القمع أو الصد أو ما إلى ذلك من مواقف تجعل الموسوس غير قادر على الإبانة وعاجزا عن الامتداد بسلوكه إلى آفاق أوسع من الآفاق التى سجن بها .

هناك ثالثا — اضطراب انفعالى تناغمى يصيب المرء بالايحاء المباشر أو قل يصيب المرء بالانتقال المباشر من الموقف الراهن إلى موقف جديد والتناغم فى الدراسات النفسية معناه الانتقال المباشر للانفعالات من شخص أو أشخاص إلى شخص أشخاص آخرين . والواقع أن الاضطراب الانفعالى الناجم عن التناغم الانفعالى يمكن أن يكون اضطرابا مؤقتاً ، كما أنه يمكن أن يستمر لفترة طويلة أو يمكن أن يلازم المرء بصفة دائمة ما لم يتدخل العلاج النفسى لانقاذ الشخص من قبضة ذلك الاضطراب . ومن بين ظواهر أو أعراض ذلك الأضطراب الانفعالى تلك الوساوس المتباينة بأشكالها التى سبق أن عرضنا لها .

هناك رابعا — الاضطرابات الانفعالية الناجمة عن مشكلات اجتماعية أو أقتصادية معينة . فمن تلك الاضطرابات الانفعالية ما ينجم عن فقدان الوالدين فى حادثة أو نتيجة أزمة اقتصادية مفاجئة أو نتيجة مواقف اجتماعية أو سياسية عامة كما يمكن أن يقع فى الحروب أو لدى انتشار المجاعات أو غير

ذلك من ظروف اجتماعية غير عادية . فمثل تلك الظروف تطيح بالاستقرار النفسى لدى الأفراد والجماعات ، فيغدون موسوسين حتى بعد أن تنقشع الأسباب والنتائج الاجتماعية الأساسية التى أدت إلى وقوع الاضطرابات الانفعالية .

وهناك خامساً وأخيراً — اضطرابات انفعالية مزاجية تتعلق بالبنية المزاجية التى جبل عليها المرء . والواقع أن علم النفس قد أفرد دراسة للأمزجة تشكل فرعاً قائماً بذاته من فروع علم النفس هو علم نفس الأنماط . ولعل أن كل دارس لهذا العلم يجد نفسه بداءة فى مواجهة الدراسة المتعلقة بالأمزجة الأربعة كما قدمها ابقراط وجالينوس . ويتبعهم بعد ذلك كثير من علماء النفس الذين دأبوا على تقسيم الناس إلى أنماط متباينة بحيث يتصف كل نمط بسمات ثابتة وأصيلة يولد بها ويرثها عن آبائه أو أسلافه القريبين والبعيدين . ومن بين الأنماط التى التى حددها علماء النفس بعض الأنماط التى يكون لديها استعداد قوى للإصابة بالوساوس المتباينة .

وينبغى ألا يعزب عن البال مدى تمكن الاضطرابات الانفعالية فى شخصية المرء وأثر ذلك فى إصابته بالوسوسة . فنحن نجد أن هناك اضطرابات أنفعالية سطحية وأخرى غائرة فى شخصية المضطرب انفعاليا . وهنا نذكر أن هناك مستويات من الإصابة بالاضطرابات الانفعالية . ولعل أخف المستويات وطأة على المضطرب انفعاليا هو المستوى الشعورى ، بينما تعتبر أشد المستويات وطأة على نفسيته هو المستوى اللا شعورى . ونحن لانقصد بالمستوى الشعورى والمستوى اللا شعورى مجرد إدراك الشخص لحالته ، بل نقصد بصفة أساسية مدى الاعتمال والتمكن من شخصية المضطرب انفعاليا . فعلى المستوى الشعورى يكون تغلغل وتمكن الاضطراب الانفعالى سطحياً ، بينما يكون على المستوى اللاشعورى غائراً فى أعماق الشخصية ومسيطراً على مقاليدها وآخذاً بجماعها ؟

وهنا نجد ثمة تلاحما بين المعنى الذى قصده فرويد لدى استخدامه لكلمة اللاشعور ، وبين المعنى العام للكلمة . فبالنسبة لهذا المعنى العام ، فاننا نقول إن المعدة مثلا تعمل بطريقة لاشعورية ، بينما يقصد فرويد باللاشعور تلك

الخبرات غير السارة التى ترسبت فى أعماق المرء وأخذت بمقاليد سلوكه . ونحن عندما نجمع المعنيين لكلمة « لاشعور » فى إطار واحد ، فاننا نعنى أن تمكن الاضطراب الانفعالى من الشخصية قد يكون ناجما عن خبرات اجتماعية تلقاها المرء من بيئته منذ نعومة أظفاره ، كما أننا نعنى أيضاً تلك الأضطرابات التى تنجم عن عوامل فسيولوجية أو عوامل بيولوجية عامة كالتغيرات التى تحدث فى كيمياء الجسم ونحو ذلك . المهم أن اللاشعور عندما يكون مسيطرا على المرء وعلى سلوكه ويكون مشحوناً بالاضطرابات الانفعالية ، فان الشخصية تسمى عندئذ بالشخصية المصابة بالقلق .

والقلق هو اللفظ الذى يستخدمه علماء النفس للإشارة إلى مركبات المخاوف وسيطرتها على الشخص . والواقع أن القلق صنو للوسوسة . ذلك أن الوسوسة الوجدانية معناها الانحباس فى إطار نفسى وجدانى يحول بين الشخص وبين الخروج منه . وأكثر من هذا فان وقوف الشخص على أسباب قلقه إنما تدفع به إلى التحرر من ربقة المخاوف التى تستعر بداخله . بيد أن القلق هو بصفة أساسية مجموعة من المخاوف العمياء التى لايستطيع الشخص القلق الوقوف على كنهها أو تبين أسبابها . ولعل من أهم المحاولات التى يضطلع بها المعالجون النفسيون لتخليص القلقين من قلقهم هو الطفو بالقلق من المستوى اللاشعورى غير الواعى إلى المستوى الشعورى الواعى .

على أن عامل الوراثة يلعب دوراً ذا بال فى الإصابة بالإضطرابات الانفعالية . على أن أثر الوراثة لا يكون الا على هيئة استعداد فحسب وليس على هيئة الاضطراب الانفعالى نفسه . والواقع أن من الصعب فصل عامل الوراثة عن عامل الأكتساب . فالمصاب بالاضطرابات الانفعالية كثيرا ما ينجب أطفالا مضطربين انفعاليا . ولكن المشكلة تتعلق بتحديد قوة تأثير الوراثة وقوة تأثير الايحاء والتقليد والتأثير التربوى المباشر من جانب الوالدين فى الأطفال المنجبين . ذلك أن كثيراً مما يعتقد أنه وراثة إنما يكون اكتسابا منذ الطفولة الباكرة . فنحن نغرس فى أطفالنا مقومات مكتسبة يمكن أن

تختلط فى أنظار الناس بالوراثة . وللانصاف نقول إن ثمة تفاعلا فيما بين العوامل الوراثية والعوامل البيئية المكتسبة . وليس من الخطأ أن نقول إن الطفل لا يستطيع أن يكتسب شيئاً إلا إذا كان لديه استعداد وراثى لاكتسابه . وعلى هذا فاننا نقرر أنه ما لم يكن الطفل قد اكتسب الاستعداد للقلق أو للاضطراب الانفعالى ، فانه لايستطيع أن يصير مضطربا انفعاليا أو قلقا . وعلينا أن نتناول الوساوس كعرض أو كثمرة للاضطراب الانفعالى أو القلق لا باعتبار أن الوسوسة هى السبب فى نشوء الاضطراب الأنفعالى أو القلق . وهكذا نجد أن تناول العرض السلوكى ينبغى ألا يكون تناولا سطحياً بل يجب أن يكون تناولا عميقاً يصل فيه المرء إلى أغوار الشخصية وما يعتمل فيها من اضطراب انفعالى أو قلق .

الخوف المرضى :

هناك نوعان من الخوف : أحدهما الخوف السوى أو الطبيعى ، والآخر الخوف المرضى . والفرق بين النوعين من الخوف هو أن الخوف السوى يتسم بأنه خوف معقول أو مناسب للموقف ، بمعنى أن القدر الذى يستشعره المرء من الاحساس بالخوف يكون مناسبا لكمية الخطر التى يمكن أن تتأتى عن مصدر الخوف ، كما أنه يكون مناسبا من حيث المدة التى يستمر عليها لضخامة الخطر المحدق أو الضرر المتوقع . أما الخوف المرضى فانه يخيم على المرء بتركيز وتبلور هائلين فى نفسيته مع ارتباط غير حقيقى ببعض الأشياء أو الأشخاص أو الأفكار . ومن ثم فان مقدار الخوف ومدته لايتناسبان فى حالة الخوف المرضى مع الخطر الممكن أو مع الاضرار المتوقعة .

ونستطيع فى الواقع أن نتناول الوساوس التى يمكن أن تصيب المرء فى ضوء الخوف المرضى . ولكى تتضح لنا علاقة الخوف المرضى بالوسوسة فان علينا أن نستعرض الأنواع الأساسية من المخاوف المرضية وأن نتبين فى نفس الوقت علاقة كل نوع منها بالوساوس .

هناك أولا — مخاوف مرضية تتعلق ببعض الأشخاص الذين تقوم علاقات يومية أو متواترة بينهم وبين الشخص الموسوس . من ذلك مثلا علاقة الابن أو البنت بالأب أو بالأم، وعلاقة التلميذ بالمعلم ، وعلاقة المرءوس بالرئيس. فمن الطبيعي أن يخشى الصغير بأس الكبير ، ولكن تلك الخشية يجب أن تتناسب مع الخطر الذى يمكن أن يصدر عن الكبير ضد الصغير . ولكن إذا وجدنا أن النسبة بين الخوف وبين الخطر المحدق نسبة غير معقولة ، وأن الصغير قد بالغ فى إبداء الخوف من الكبير ، فاننا عندئذ نبدأ فى النظر إلى تلك الخشية أو الخوف باعتبار أنها خشية أو خوف مرضى .

ونستطيع أن نستبين علاقة مثل هذا الخوف المبالغ فيه بالوسوسة عندما نتذكر تعريفنا السابق للوسوسة بأنها الانحباس فى إطار نفسى معين لايستطيع الموسوس أن يتعداه الى خارج نطاقه حيث يشاهد الواقع موضوعيا أمامه . وبتعبير آخر الانغلاق على الإطار الوجدانى والعجز عن العبور منه الى الاطار العقلانى ، أو بتعبير ثالث البقاء فى سجن اللاشعور والعجز عن الخروج الى الى رحابة الشعور . والواقع أن المصاب بالخوف المرضى من أحد الأشخاص يظل محبوسا فى اطاره الوجدانى بحيث يكون عاجزا عن استبانة حقيقة الواقع الموضوعى . وبذا فان الخوف المرضى يكون صنوا للوسوسة.ذلك أن المصاب بهذا المرض يظل مركزا وجدانه كله — أو جله — فى الشخصية التى يخاف منها فلا يريم بوجدانه عنها .

هناك ثانيا — مخاوف مرضية دينية . فالخائف خوفا مرضيا قد يجد الموضوع الذى يركز فيه خوفه المرضى فى كائنات روحانية . وثمة بعض المرضى بالخوف المرضى يركزون خوفهم فى الكائنات الروحانية المقدسة وعلى رأسها الخالق نفسه ، وثمة البعض الآخر من المرضى بالخوف المرضى يركزون خوفهم فى كائنات روحانية شريرة كالشياطين والجن وأرواح الموتى. ومن الطبيعى أن يخاف الانسان العادى من كلا النوعين من الكائنات الروحانية طالما أنه مؤمن بوجودها . ولكن المريض بالخوف المرضى يبالغ فى إبداء مخاوفه من تلك الكائنات الحية ، بل إنه يكاد يقضى كل الوقت فى ترقب

لما عسى أن توقعه عليه تلك الكائنات من أضرار وما يمكن أن تبتليه به من مصائب ونوائب .

وطالما أن المصاب بالخوف المرضى من هذه الفئة يركز تفكيره ويقضى معظم وقته وقد انحبس وجدانه فى هذا الاطار من المخاوف المرضية ، وطالما أنه لا يطفو بتلك المخاوف من الحيز اللاشعورى المتمكن من شخصيته والمتسلط على جماع قلبه الى الحيز الشعورى الواعى والمدرك موضوعيا لأسباب تلك المخاوف ، فان الحالة إذن تنخرط فى نطاق الوساوس المرضية ، حيث أن المخاوف المرضية من الكائنات الروحانية تشكل سجنا لا يستطيع المريض منه فكاكا أو انطلاقا .

هناك ثالثا . مخاوف مرضية من التأثير النفسى أو الروحانى يتأتى عن مشاهدة بعض الاشخاص للجوانب الحسنة بالشخصية أو بما تملكه من أشياء وعن التقريظ باللسان وهذا ما يعرف بالخوف من الحسد . وعلى الرغم من أن هناك بعض الاشخاص لا يلقون بالا الى الحسد ، فاننا نجد من جهة أخرى أن هناك تفاوتا فى الخوف من الحسد باختلاف الأشخاص . وفى مقابل أولئك الذين لا يحسون بتلك القوة الروحية التى يطلق عليها الحسد تصدر عن الآخرين وتؤثر بقليل أو بكثير فى حالة الشخص أو فى ممتلكاته ، فاننا نجد أولئك الذين يخشون الحسد بطريقة مرضية . فخوفهم من أن يوجه اليهم بعض الناس سهام الحسد يحملهم على الشعور بالمخاوف المرضية تحتصرهم وتعوق نشاطهم وتحصرهم فى نطاق مجموعة من الأفكار الضيقة وقد أخذوا يترقبون ويتوقعون المخاطر التى يمكن أن تتأتى عن توجيه سهام الحسد الى صحتهم أو الى أبنائهم وبناتهم أو الى ممتلكاتهم .

وهنا نجد أيضا أن المصاب بهذا النوع من الخوف المرضى وقد انحصر فى هذا الاطار الوجدانى الضيق ، فأخذ يغوص فى أعماق لاشعوره وقد عجز تماما عن الطفو على سطح الواقع الموضوعى كما عجز أيضا عن تفهم الموضوع تفهما منطقيا عقلانيا . ومن ثم فان المصاب بالخوف المرضى من الحسد يكون

فى نفس الوقت مصابا بالوسوسة المتمركزة حول هذا المفهوم ، أو قل حول هذا الوجدان المتبلور حول هذا المفهوم .

وهناك رابعا — مخاوف مرضية خاصة ببعض الحيوانات أو الأحياء أو الأشياء . من ذلك الخوف من الفئران والصراصير ونحوهما كما سبق أن ألمعنا ، وكذا الخوف من الأماكن المغلقة أو من الأماكن المرتفعة أو من الأماكن الواسعة الفسيحة أو الخوف من الأماكن المظلمة أو نحو ذلك . والواقع أن تلك المخاوف المرضية يمكن أن تكون شديدة لدرجة أن الشخص يكون منحبسا تماما فى إطار مخاوفه ولايستطيع الخروج من قبضتها أو الخلوص من براثنها أو التخفف من وطأتها . وبذا فان تلك المخاوف تشكل مجموعة من الوساوس التى تحول بين المرء وبين التفكير الموضوعى الواقعى .

وهناك خامسا وأخيرا — مخاوف مرضية من الموت . وليس من شك فى أن جميع الناس يخشون الموت ولكن الخوف من الموت لا يعتمل لدى جميع الناس بنفس القدر ، بل إنه يتفاوت من شخص لآخر . والمرضى بالخوف المرضى يقضون الوقت الطويل فى ترقب الموت بفزع . ولقد نجد الواحد من أولئك المرضى وقد تملكه الخوف المرضى وسيطر عليه لدى مشاهدته لصندوق ميت أو لدى مرور عربة الموتى — ولو فارغة — بالشارع أمام ناظريه ، أو لدى سماعه نبأ وفاة أحد الأشخاص ، أو لدى مشاهدته لهيكل عظمى . فالخوف من الموت فى الحالات المرضية لا يكون معقولا بل يكون فظيعا ومخيفا لدرجة أن شعر الرأس يقف والعينين تتسعان وتمتلئان بالدموع وجميع علامات الفزع تبدو على ملامح الشخص . وإنك لتجد الواحد من المرضى بهذا النوع من الخوف المرضى وقد انحبس فى إطار هذا الخوف لا يستطيع الانطلاق من إساره والخروج الى فسحة التفكير الموضوعى .

وبعد أن استعرضنا هذه الأنواع الخمسة من المخاوف المرضية — وهى وساوس فى نفس الوقت — فاننا نحذر من الاعتقاد بأن مجرد اقناع الشخص المصاب بها منطقيا بسخافة مخاوفه جدير بشفائه منها . ولعلنا نحذر أيضا من اتباع طريقة الهزء والسخرية من الخائف . ذلك أن هذه الطريقة الأخيرة

تحمل الخائف مرضيا على إخفاء مخاوفه بقدر الامكان ، ومن ثم فانها تتملكه أكثر فأكثر وتسجنه بين أسوارها فلا يكون قادرا على التحرر من ربقتها أو التخلص من قيودها وتكبيلها له .

ولاشك أن المخاوف المرضية تبدأ أساسا منذ نعومة الأظفار ، وهى تنتقل أساسا الى الطفل عن والديه ، أو تكون نتيجة لحادث يرتبط بالموت فى الطفولة. ولاشك أن الموت فى حد ذاته قد لا يخيف الا قليلا ، ولكن الحضارة الانسانية بعامة قد غلفت الموت بكثير من الرهبة والفزع مما يجعل القابلية للاصابة بالخوف المرضى من الموت قوية وقابلة للعدوى الى الأشخاص المفعمين بقابلية شديدة للايحاء والتقليد . وبمناسبة الايحاء والتقليد ، فاننا نجد أن الايحاء هو تقليد وجدانى ، وان التقليد هو تصديق وتقبل وجدانى يعبر عنه بالأداء والسلوك الظاهرى . وعلى هذا فان سبيل العلاج يكون اذن بنفس الطريقة التى تم بها تقبل المخاوف المرضية والوساوس .

أمراض الذاكرة :

اننا لا نستطيع أن نستبين أثر أمراض الذاكرة فى الاصابة بالوسوسة الا بعد أن نقوم باستعراض أمراض الذاكرة المتباينة التى يمكن أن يصاب بها المرء. ولعلنا نلخص تلك الأمراض فيما يلى :

أولا — فيما يتعلق بذاكرة العلاقات المكانية . فالمصاب فى ذاكرته فيما يتعلق بالعلاقات المكانية ينسى الأماكن التى عاش فيها مدة طويلة وكان عارفا بتفاصيلها وثناياها الدقيقة . ومن هنا فان المصاب فى ذاكرته المكانية يمكن أن يتيه فى نفس الشارع الذى يسكن فيه ، بل ويتيه بجوار منزله مباشرة . والواقع أن أولئك المصابين بهذا النوع من ضعف الذاكرة إنما يشملهم القلق على أنفسهم ويعمهم الخوف من أن يتيهوا ويضيعوا بين الناس فلا يعثر عليهم أحد، وبالتالى يفقدون أحباءهم بل ويتهددهم الجوع والضياع . وواضح أن مثل تلك الأفكار والهواجس تشكل وسواسا يجثم على عقولهم وقلوبهم ويأخذ بهم كل مأخذ . ولاشك أن الكثير من الأطفال الصغار قد يحسون بنفس الاحاسيس المفزعة

ويخشون من الضياع والتيه من ذويهم ، وقد ينهضون فزعين من أحلامهم التى وجدوا أنفسهم فيها وقد ضلوا وأضاعوا أهلهم بعد أن كانوا متشبثين بهم ويرافقونهم فى الطريق . ولسنا ندهش اذا ما ساورت نفس الأحاسيس وأفزعت نفس الاحلام التى تساور وتفزع الأطفال أولئك الكبار الذين يصابون بالضعف فى الذاكرة المكانية .

ثانيا — فيما يتعلق بذاكرة العلاقات الزمنية . فثمة بعض الأشخاص يصابون بضعف فى تذكر الأيام والاسابيع والأشهر والسنوات ، فهم لا يتذكرون « القبل » و « البعد ». فالأحداث تختلط فى أذهانهم من حيث وقوعها. صحيح أن هذا يمكن أن يقع لأى إنسان لديه ذاكرة عادية ولكن الملاحظ بالنسبة للشخص المريض فى ذاكرته الزمنية أنه لايستطيع أن يرتب الأحداث اليومية ترتيبا زمانيا . وهناك أيضا ما يسمى بالرؤية السابقة deja - vue وهو اضطراب فى الذاكرة الزمنية حيث يعتقد المريض بأن ما يقع عليه بصره قد سبق ومر بخبرته الفعلية قبل ذلك(١) . ومن مظاهر وأعراض أمراض الذاكرة الزمنية نسيان المواعيد الهامة كموعد الامتحان أو موعد الزواج أو موعد عقد جلسة لنظر قضية هامة ، ونحو ذلك .

وكما هو الحال بالنسبة لضعف واضطراب الذاكرة المكانية ، فاننا نجد أن ضعف واضطراب الذاكرة الزمنية إنما يكون مصحوبا فى نفس الوقت بالوسوسة . ذلك أن الشخص المصاب بمثل هذا الضعف عندما يكتشف إصابته به ، فانه يأخذ فى توقع النسيان قبل حدوثه ، فيظن دوما أن ثمة مواعيد هامة يجب عليه تذكرها والا فان مسئوليات سوف تلحق به ، أو سوف تنصب عليه الاتهامات بالاهمال أو قد يتهم بالعته وضعف العقل ، وهو ما يرغب جاهدا فى تجنب الوقوع فيه .

ثالثا — فيما يتعلق بذاكرة الأسماء . فثمة أشخاص يصابون بفقدان نسبى لذاكرة الاسماء ، بما فى ذلك أسماء أقرب الناس اليهم . وفى بعض الحالات الحادة والنادرة يمكن أن ينسى الشخص اسمه شخصيا . والواقع أن بعض الأشخاص العاديين قد يشكون من ضعف ذاكرتهم الإسمية ، ولقد تجد من

---

(١) لنا رأى آخر بازاء الرؤية السابقة عرضنا له فى كتاب « سيكاوجية الإلهام » بمكتبة غريب بالفجالة .

بين أولئك الأشخاص بعض العباقرة . من هؤلاء اديسون وما يقال عنه من أنه كان ضعيف الذاكرة الأسمية جدا لدرجة أنه فى موقف ما نسى اسمه شخصيا .

والواقع أن ضعف الذاكرة الاسمية يسبب حرجا شديدا للشخص فى علاقاته الاجتماعية وفى نظرة الآخرين اليه . ومن هنا فانه يصاب فى الغالب بالوسوسة المشفوعة بالقلق الشديد على نفسه وعلى سمعته . وقد يظل مركزا الذهن ليل نهار فى هذه المشكلة المستعصية على الحل الناجع والسريع .

رابعا — فيما يتعلق بذاكرة التفاصيل . فثمة أشخاص يتذكرون التفاصيل الدقيقة بالمواقف المتباينة بحيث تكون تلك الذاكرة التفصيلية معوقا لهم عن الوصول الى مرمى حديثهم مع غيرهم . فهم يذكرون التفاصيل الدقيقة المتعلقة بوصف الأشياء والأشخاص والمواقف والحركات فلا يتسنى لهم ترك تفصيلة من تفاصيل الموقف مهما كانت تافهة . وبذا فقلما يتسنى لهم سرد موقف الى نهايته . وذلك لأن المستمعين يتضجرون وقد ينفد صبرهم فلا يتسنى لهم مواصلة الاستماع . وانك لتجد أصحاب الذاكرة التفصيلية وقد أخذوا يحسون بنبو الناس عنهم وبعزوفهم عن الاستماع اليهم ، فيتشككون فى مدى حب الناس لهم وثقتهم فيما يقولونه أو يسردونه على مسامعهم . ومن ثم فانهم يصابون بالوسوسة عندما يخلون الى أنفسهم وينفض عنهم الآخرون .

وبعد أن عرضنا لهذه العينات الخمس من ضعف الذاكرة ، فاننا نبدأ فى محاولة الكشف عن أسباب ذلك الضعف . ولعلنا نركز الكلام فى الأسباب التالية :

أولا — هناك أسباب بيولوجية أو فسيولوجية تتعلق بالمخ أو بالمراكز الخاصة بالتذكر الموجودة به . ولقد نضع ضمن تلك الأسباب ما كان متعلقا بالضعف يصيب المخ ومراكزه التذكرية نتيجة الشيخوخة وما يتبعها من ضعف طبيعى بالجسم عامة وبضمنه المخ . ولسوف نخصص الفصل التالى برمته للشيخوخة فى علاقتها بالوسوسة . وثمة أيضا النقص فى نمو المخ والمراكز

التذكرية . ولعلنا نميز هنا لدى الطفولة نوعين من الذاكرة : ذاكرة كلامية ، وذاكرة علائقية . فمن الملاحظ أن ذاكرة الكلام قوية لدى الطفل ، بينما تكون الذاكرة العلائقية المتعلقة بالعلاقات المكانية والزمانية غير ناضجة لديه . ومن هنا فان الطفل الصغير لا يستطيع تعلم الهندسة ولا يستطيع أن ينزع العناصر من سياقها الزمنى أو المكانى . فالقصة لديه — وكما يتذكرها — تركيبة تسلسلية بحيث تسير الأحداث متتابعة كما قيلت له . ولكن القيام بعمل قطاعات عرضية فى القصة أو إقامة علاقات جديدة لهو أمر متعذر بالنسبة للطفل . ومن هنا فاننا نستطيع القول بأن الذاكرة العلائقية تكون بحاجة الى الانخراط فى إطار نمائى تدرجى مستمر . وكذا فاننا نستطيع القول بأن أى عطب يصيب المخ قد يؤثر من قريب أو من بعيد فى قدرته على التذكر بكافة أنواع التفكير التذكرى .

ثانيا — هناك أسباب تتعلق باستثمار أو عدم استثمار الذاكرة . فلقد يكون المرء صاحب ذاكرة جيدة أو حتى ممتازة ، لكنه لايفيد منها بل قد يوجه أو يركز اهتمامه الذهنى فيما يتعلق بالواقع المحسوس أو بالتفكير العلائقى الموجود بالموقف أو بالعلاقات الاجتماعية القائمة بالفعل ، دون أن يهتم بالذاكرة . ولقد يعزى ضعف الذاكرة عموما لدى الانسان الحديث الى شيوع أجهزة التسجيل البصرية والسمعية .

ثالثا — هناك أسباب لاشعورية . فلقد كشف فرويد عن أسباب لاشعورية يعزى اليها عدم التذكر أو اضطراب الذاكرة . فنحن ننسى ما يزعجنا من أفكار أو مايؤدى الى تأليب الضمير علينا أو ما يهددنا بالخطر النفسى . ونحن نعتقد أن ثمة أسبابا لاشعورية أيضا تعمل على تركيز الذاكرة على مواقف أو كلمات معينة . فكما أن اللاشعور يكون مسئولا فى بعض الحالات عن النسيان ، فانه يكون فى حالات أخرى مسئولا عن توهج الذاكرة . وأكثر من هذا فاننا نستطيع القول بأن اللاشعور يكون مسئولا فى حالات ثالثة عن انحراف الذاكرة أو تزييفها . فلقد يعمل اللاشعور على حمل المرء على تذكر أشياء على غير وجهها الصحيح . فأنت ربما تقص ما سمعته أو تصف ما حضرته من

مواقف وتكون مخلصا فى قصك أو وصفك مع أن ما تعيد ذكره أو وصفه يكون غير دقيق أو منحرفا عن جادة الصواب . وهذا يشاهد بأجلى صورة فى كثير من شهادات الشهود أمام القضاة. فهم يذكرون صادقين ما شاهدوه وهم لا يعلمون أن ما يروونه للقضاة قد تلون واصطبغ بصبغة وجدانية لاشعورية ، أو بتعبير أدق قد زيف بواسطة اللاشعور .

ونستطيع فى الواقع أن نقرر أن سيطرة بعض الأشياء التى يتذكرها المرء على ذهنه واستمرار تواردها برغم تفاهتها ومضايقتها والحاحها على الذهن ، إنما يشبه سيطرة حركة معينة على جسم المرء . فالذاكرة الذهنية والذاكرة الحركية – إذا صح التعبير – قد يشكلان سويا نوعا من الوسوسة فيصير الشخص الموسوس صريعا لوسوسته ، فلا يستطيع أن يحرر نفسه منها . ولكأن الذاكرة فى هذه الحالة تكون ذاكرة مرضية حيث يكون الحاحها خارج نطاق سلطة وقيادة الشخص الموسوس . فهو يتذكر ويستمر فى تذكر أشياء تضايقه وترهق أعصابه . وكلما الح على التخلص من وسوسته ، زاد تمكنها منه وسيطرتها عليه واستعبادها له .

أمراض الخيال :

يحسن بنا بادىء ذى بدء أن نقدم تعريفا للخيال ، ذلك أنه برغم كثرة استخدام كلمة خيال على الألسنة والأقلام ، فان كثيرا من اللبس والغموض يحيطان بها ويكتنفانها . فالخيال فى ذهن كثير من الناس مرادف للوهم والبطلان والانفصال التام عن الواقع المحسوس . والصحيح هو أن الخيال مركب ذهنى يتشكل من مقومات حسية ، سواء كانت تلك المقومات استمدت من الواقع المحسوس مباشرة بطريق حاسة أو أكثر من الحواس الخمس ، أم كانت مستمدة من ذلك الواقع المحسوس بطريق غير مباشرة عن طريق الذاكرة ، أى أن الذاكرة تأخذ عن الواقع المحسوس ثم تمد المخيلة بما صار مختزنا بها من عناصر حسية .

على أن التخيل يتميز من التذكر فى جانب هام وأساسى ، هو أن الذاكرة تختزن الخبرات الحسية محاولة جهد طاقتها أن تبقى عليها كما هى بغير

تحريف أو تزييف ، بينما تعمد المخيلة الى تشكيل مركبات ذهنية جديدة من العناصر التي تستمدها من الواقع، مباشرة ومن المخزون الخبرى بالذاكرة من خبرات ذلك الواقع فى نفس الوقت . ولقد تعمد المخيلة الى اتخاذ عدة طرق فى سبيل إعادة تشكيل المقومات الحسية المستمدة من الواقع نلخصها فيما يلى :

أولا — فيما يتعلق بالعلاقات المكانية : فالمخيلة تستطيع أن تجعل البعيد قريبا والقريب بعيدا ، وأن تجعل الصغير كبيرا والكبير صغيرا ، وأن تجعل البطىء سريعا والسريع بطيئا ، وأن تشكل ملامح جديدة للكائنات وذلك بأن تنزع بالذهن عضوا ما من كائن حى لكى تركبه على كائن حى آخر . فخرطوم الفيل يمكن أن يركبه الخيال على رأس حصان ، وأن يصير للأسد فراء كفراء الثعلب .

ثانيا — فيما يتعلق بالعلاقات الزمانية : فبالمخيلة يستطيع المرء أن يجعل الماضى مستقبلا ، والمستقبل حاضرا والحاضر فى طى الماضى أو فى طى المستقبل . وهى تستطيع نقل الحوادث ذهنيا ليكون القبل بعداً والبعد قبلا ، أو القبل والبعد آناً حاضرا .

ثالثا — فيما يتعلق بالخيال الوجدانى : فرغباتنا وانفعالاتنا يمكن أن تجد لها متنفسا بالخيال . فالفقير يستطيع أن يجعل من نفسه أحد الأثرياء ، والمقعد يستطيع أن يحيل نفسه الى عداء يسابق أمهر وأسرع عداء فى العالم ، والطالب الفاشل يستطيع بالخيال بان يجعل من نفسه نابغة زمانه والناجح بتفوق نادر على جميع أترابه فيبزهم ببون شاسع . وهذا الخيال الوجدانى هو ما يعرف بأحلام اليقظة .

رابعا — فيما يتعلق بالخيال اللغوى : فاللغة أصلا تعبر بحدود ضيقة عن الواقع المحيط بالمرء . ولعل اللغة فى أصلها تنقسم الى ثلاثة أنواع من الكلمات الأسماء والأفعال والعلاقات كما يتبدى فى هذه الجملة « العصفور يقف على الشجرة » « فالعصفور » « والشجرة » اسمان ، « ويقف » فعل ، « وعلى » علاقة مكانية . ولكن الخيال لم يبق على اللغة فى هذه الحدود الضيقة ، بل

انتقل باللغة الى مجالات لم تكن تمتد اليها أصلا . فيقال مثلا « الريح تزمجر » « والبحر يهدد السفينة » ، كما لو أن الريح قد صارت أسداً أو أن البحر يغضب كما يغضب الانسان . ومن جهة أخرى فان الرموز قد اخذت تحل محل الكلمات فيقال « س أقوى أو أسرع أو أذكى من ص » ... الخ .

وبعد أن عرضنا للخيال كظاهرة سوية عامة بالنسبة لجميع الناس العاديين المتمتعين بصحة نفسية جيدة ، فاننا نبدأ فيما يلي بعرض الجانب الآخر للخيال وهو الجانب المرضى ، كما نحاول فى نفس الوقت إظهار علاقة الخيال المريض بالوسوسة . فثمة ما يلى :

أولا — إفلات الخيال من قبضة المرء بحيث يصير مسيطرا عليه ومهيمنا على سلوكه الداخلى والخارجى جميعاً . فالخيال السوى إنما يكون خيالا وظيفيا بمعنى أن يكون أداة فى ذهن المرء كما يكون أضعف ولو قليلا من إدراك الواقع المحسوس . فالشاعر والفنان والفيلسوف والرياضى والمخترع وان تشبثوا بالخيال ، فان تشبثهم يجب أن يكون بدرجة أقل من تشبثهم بالواقع القائم أمامهم . فاذا ما طغى تشبثهم بالخيال على تشبثهم بالواقع ، وإذا أفلت زمام نشاطهم الذهنى الخيالى بحيث يعمل على محو نشاطهم الذهنى المرتبط بالحواس ، فاننا نعتقد عندئذ أن ما ينتحون إليه من خيال إنما يكون خيالا مريضاً . صحيح أننا نسمع فى سير العباقرة عن شطحات الخيال لديهم ولكننا نعلم من جهة أخرى أن تلك الشطحات كانت ملجمة بحدود الواقع وضوابطه. فما يفتأ العبقرى يعود إلى نمط التفكير الواقعى ويتشبث به . فان لم يفعل ذلك عد اذن صاحب خيال مريض وخاضع بالتالى للوساوس . ذلك أن تعريفنا للوسوسة قد تضمن هذا المفهوم أيضاً ، أعنى الانحباس فى حدود الذهن وعدم الخروج منه إلى إطار الواقع .

ثانيا — اختلاط ما يقوم فى ذهن المرء من أخيلة مع ما يصل إلى إدراكه من مدركات حسية . فأنت تستطيع أن تصنع بمخيلتك ما يحلو لك من أخيلة ولكن عليك فى نفس الوقت أن تقيم حاجزاً فيما بين الأخيلة وبين الواقع الذى تدركه عن طريق الصور الذهنية الحسية المدركة لذلك الواقع .

أما إذا اختلط الأمر عليك ، فحسبت أن ما قمت بتصنيعه بواسطة مخيلتك هو فى نفس الوقت صور أمينة ومطابقة لما هو موجود بالعالم الخارجى ، فان خيالك يكون إذن خيالا مريضاً . ولاشك أن ذهنا كهذا لايستطيع التمييز والفصل والعزل فيما بين الخيالى والواقعى لهو إذن ذهن مريض ، ويكون الخيال الذى يمارسه صاحبه ويفكر فيه خيالا مريضاً . وليس من شك فى أن خيالا هذا شأنه يكون فى نفس الوقت نهباً للوساوس المتباينة .

ثالثا – تسلط بضع صور خيالية على ذهن المرء لا تريم عنه وتظل تتكرر بغير خصوبة تنتقل بها إلى صور خيالية جديدة ، وبغير هجران لتلك الصور المتخيلة إلى غيرها من صور ذهنية خيالية . ولعلنا هنا نجد الوسوسة متمثلة بعينها . فبعد أن يعمد الشخص إلى تشكيل صوره الخيالية فانها تنقض عليه وتفترس باقى نشاطه الذهنى فتستأثر بكل جهده العقلى ولاتسمح له بالافلات من قبضتها أو التحرر من عبوديتها .

رابعاً – الخيال الضعيف أو الضامر أو الجدب . فصاحب المخيلة المحدودة التى لاتستطيع أن تفلت من قبضة الواقع ، أو التى لاتستطيع الافادة من عناصر إدراك ذلك الواقع المحسوس الا فى حدود ضيقة وعقيمة ، إنما تكون فى الواقع مخيلة ضعيفة وعقيمة . وبالتالى فان الأخيلة التى تتأتى لصاحب مثل تلك المخيلة الضعيفة إنما تكون أخيلة مريضة . ولاشك أن مثل تلك الأخيلة تشكل لضالتها وعقمها وسواسا لأنها لاتنمو ولاتتطور ولا تؤدى إلى غيرها ولا تتجدد ولاتتفاعل مع المقومات الادركية المكتسبة من الواقع المحسوس .

خامسا – الخيال الانتقامى . فلقد يأخذ الشخص الجبان فى حوك أخيلة مؤداها القيام بقتل الأعداء ، أو تفجير القنابل فى المؤسسات أو إبادة مجموعة من الناس يكرههم ولايستطيع مغالبتهم فى الواقع . ولقد تضغط تلك الأخيلة المريضة على ذهن الشخص فيأخذ فى التعبير عنها بلسانه وحركاته وهو سائر بالشوارع أو وهو جالس فى حفل عام يضم أناسا كثيرين يشغلهم ويثير اهتماماتهم ما يوجد بالحفل من موسيقى وغناء ورقص وتمثيل .

وفى مثل تلك الحالات فاننا نجد أن صاحب هذا الخيال المريض وقد استحال خياله إلى وسواس منظور ومسموع من جانب المحيطين به . بيد أنه على الرغم من مشاهدة المارة أو المحيطين بصاحب هذا الخيال المريض وسماعهم لما يفوه به ، فانه هو شخصياً يكون فى انفصال تام أو شبه تام عن الواقع المحيط به . فاذا ما فطن إلى المحيطين به وانتبه لما يعلقون به أو لما يبدونه من دهشة أو لما يتغامزون به عليه ، فانه ينتبه فجأة وكأنه كان نائماً ثم استيقظ من سبات عميق .

ولسنا ندهش إذا ما قام شخص من أولئك الذين يتخيلون أنفسهم وقد قتلوا الأعداء أو أشعلوا الحرائق أو أشاعوا الرعب فى القلوب ، وقد أخذوا فى تنفيذ ما يدور بخلدهم ويسيطر على عقولهم وأفئدتهم وهم ما يزالون خاضعين لسباتهم وانفصالهم عن الواقع من حولهم . فهم يقتلون ويشعلون الحرائق ويفجرون القنابل وهم رازحين تحت ضغط خيالهم السقيم المريض والمؤذى فى نفس الوقت . فما يقترفونه من جرائم يكون بمثابة وسواس وجد له منفذا ينطلق منه كالبركان المتفجر من نقطة ضعيفة بسطح الأرض .

الفصل الحادى عشر

الوسوسة فى الشيخوخة

العوامل الجسمية :

اتضح لنا فى أكثر من مقام بهذا الكتاب ما للناحية الجسمية من أثر فى حدوث الوسوسة ، كما أنه قد سبق لنا أن ألمعنا فيه أيضاً إلى الوسوسة وعلاقتها بالشيخوخة . بيد أننا أرجأنا الحديث التفصيلى عن الوسوسة فى الشيخوخة لهذا الفصل الذى خصصناه برمته لدراسة هذا الموضوع . ولقد سبق لنا أن قمنا بتأليف كتاب تحت عنوان « رعاية الشيخوخة » منذ بضع سنوات ، ونرجو أن يكون كلامنا هنا مكملا لما سبق أن عرضنا له بذلك الكتاب من موضوعات . والجدير بنا بداءة أن نعرض لبعض النقاط الهامة بازاء الشيخوخة حتى نستطيع بعد ذلك أن نتبين العلاقة بين هذه المرحلة العمرية وبين الوسوسة .

أولا — إن كلمة « شيخوخة » يمكن أن تستخدم بمعنيين : المعنى الأول متعلق بالعمر الذى يمر به المرء . فالشخص بعد الخمسين يعتبر بهذا المعنى قد أخذ ينخرط فى مرحلة الشيخوخة . أما المعنى الثانى لهذه الكلمة فهو المعنى المرضى حيث تعتبر الشيخوخة بمثابة مرض قد يصيب المرء فى أى مرحلة من مراحل عمره . فالشيخوخة بهذا المعنى قد تصيب الطفل كما أنها قد تصيب المراهق أو الشاب أو المسن . وبهذا المعنى أيضاً فان الشيخوخة يمكن ألا تصيب المسنين ، بل إنهم يظلون أصحاء إلى نهاية العمر ويكون موتهم مفاجئا ودفعة واحدة بغير تعرض للأمراض الشائعة لدى المسنين . فموتهم يشبه أن يكون انطفاء الشمعة وقد استهلكت آخر كمية من مادة الشمع والفتيل

فكما أن الشمعة تظل مضيئة إلى آخر لحظة تنطفىء فيها ، كذا فان المسن يمكن أن يظل بصحة جيدة حتى لحظة وفاته .

ثانيا — إن علاقة الأمراض النفسية بالشيخوخة ليست علاقة سببية ، بل هى علاقة عارضة . ذلك أن التقدم فى السن لايسبب المرض النفسى ، بل إن الإصابة بالمرض النفسى يعتبر ضمن الأعراض الجانبية التى يمكن أو لايمكن أن تتواكب مع التقدم فى السن. فالمسألة هنا شبيهة بالصلع فى علاقته بالشيخوخة. فالشيخوخة لاتسبب الصلع ولكنها تتواكب معه فى بعض الأحيان أو فى كثير من الأحيان . ولكن مواكبة الصلع للشيخوخة لايتأتى عنها ، بل يسير معها فى كثير من الحالات .

ثالثا — هناك شيخوخات وليس شيخوخة واحدة . فثمة شيخوخة جسمية بيولوجية ، وثمة شيخوخة وجدانية ، وثمة شيخوخة عقلية ، وثمة شيخوخة لغوية ، وثمة شيخوخة اجتماعية . ولعلنا نضع هذه المعانى المتباينة للشيخوخة أو هذه الشيخوخات الخمس تحت مفهوم واحد هو مفهوم التوقف عن النمو والامتناع على التطور والحرمان من الزيادة . فالشيخوخة الجسمية البيولوجية معناها تغلب عامل الهدم Catabolim على عامل البنــاء Anabolism فى العملية المزدوجة المسماة بعملية الهدم والبناء Metabolism . فهذه الشيخوخة تسمح بالنقص والضمور ولاتسمح بالزيادة والترعرع . وكذا يقال عن الشيخوخات الأربع الباقية من أنها تتم على النقص والضمور ولاتتم على الزيادة والترعرع .

ولعلنا بعد هذا نعرض لحالات الوسوسة التى تنجم عن الشيخوخة فى جميع أنواع الشيخوخة والمعانى التى عرضنا لها قبلا . ولسوف نكتفى بعرض خمس حالات للوساوس التى تتأتى عن الناحية الجسمية بالشيخوخة وهى على النحو التالى :

أولا — وساوس تتعلق بالصحة . فكثير من الشيوخ يركزون الذهن على حالتهم الصحية . فكل ألم بسيط يحملونه الكثير من المعانى والأوهام التى

لاتتعلق بها من قريب أو من بعيد . فالصداع البسيط يمكن أن يؤول فى ذهن الشيخ إلى سرطان أصاب مخه ، والضغط المرتفع قليلا يمكن أن يترجم فى ذهنه إلى مقدمة للإصابة بشلل كامل أو شلل نصفى . وهكذا دواليك بالنسبة لأى مرض أو عرض جسمى يلم بالشيخ . ناهيك عن أن الوسوسة يمكن أن تمتد لدى الشيخ إلى ناحية أخرى هى مايمكن أن يبديه أبناؤه وزوجته وأقرباؤه من اهتمام بحياته وصحته . فاذا لم يسأل أحد أبنائه أو إحدى بناته عنه فى أحد الأيام ، فانهما يكونان متمنين الموت له ، وإذا تهامس الموجودون حوله وقد ألمت به وعكة أو إذا أصابه مرض ، فلابد أن تكون إذن هناك مؤامرة تحاك لقتله . وإذا ابتسمت الزوجة وهى تقدم إليه الدواء أو الشاى ، فلابد أن سما قد وضع فى الدواء أو الشاى .

ثانيا — وساوس تتعلق بالموت وأهواله . فالشيخ أكثر تشبثا بالحياة من أى شخص آخر فى أى مرحلة عمرية . وتشبثه بالحياة يكون فى الغالب ناجما عن خوفه من الموت . ولقد سبق أن قلنا إن حضارتنا قد جعلت من الموت نكبة وهولا وعذابا لايعدله أى عذاب آخر . ويرتبط خوف الشيخ من الموت بخوفه من المرض . ولكنه فى الواقع يركز الذهن فى موقفين : الأول — لحظة الموت ولفظ النفس الأخير ومايعترى المرء خلاله من ألم شديد ، والثانى — ما بعد الموت ، وما سوف يصادفه فى الدينونة من هول فى أثناء محاكمته أمام العدالة الالهية عما ارتكبه من شر وعن كل تقصير اقترفه فى حياته .

ثالثا — وساوس تتعلق بالحاجات الحيوية الأساسية . فالمسن مهما كان غنيا وقد أحاط به الخدم فانه يخضع لوساوس تتعلق بما قد يحمله له المستقبل من عجز عن السعى وراء قضاء حاجاته الأساسية وسد رغباته وما يقيم أوده . فهو يخشى العجز عن الذهاب إلى الحمام ، أو العجز حتى عن قضاء الحاجة بغير مساعدة الآخرين بشكل مباشر ، وما يحف به ذلك من اذلال أو إحتقار أو إحساس بالخجل . ولقد تصل الوساوس لدى المسن إلى حد أن يخاف من

إهمال الناس من حوله له فيموت جوعاً أو عطشاً. فهو يخشى من أن يهمله ذووه فلا يوفرون له الدواء الحيوى لصحته وحياته فيموت بسبب ذلك.

رابعاً — وساوس تعترى الشيخ لعدم قدرته على الانخراط فى النوم، فيظل مستيقظاً بينما الناس من حوله نيام. وأليس نومهم دليلا كافيا على سلوهم عنه وانصرافهم إلى شأنهم والضرب بمطالبه عرض الحائط؟ ولو أنهم كانوا يعبأون به ويخافون على مشاعره، اذن لكانوا قد خاصموا النوم وظلوا حوله يقظانين. وهكذا تجد المسن وقد صرف جل جهده الذهنى فى وساوس لايستطيع الخروج من إطارها أو التخلص من إسارها.

خامسا — وساوس تتعلق بالناحية المادية. فهو يجد نفسه عاجزاً عن متابعة أعماله والسهر على شئونه ومصالحه، وصار عاجزاً عن منع اغتصاب الآخرين لحقوقه، أو نهبهم لأمواله وسرقتهم لممتلكاته وتزوير توقيعه على المستندات إلى غير ذلك من مؤامرات اقتصادية قد تحاك ضده ومن اغتصاب لحقوق كان مستحقاً لها. وانك لتجد المسن وقد أخذ يتطلع فى أعين الناس بالكثير من الشك فى نياتهم نحوه، وقد أخذت نظراته ترميهم بالاتهام بخيانته والتربص بما يفلت من يديه من مال وما قد ينساه من حقوق وممتلكات. ومن هنا فان هذا الوسواس الذهنى يتبدى فى أحيان كثيرة فى هيئة تصرفات صغيرة لها دلالاتها. فهو يبدى بخلا فى أشياء ليس لها فى الواقع كبير شأن. فهو يكاد يبخل على من يقوم بزيارته بنقطة الماء يشربها أو بقطعة من الحلوى يقدمها إليه أو بفنجان من القهوة يحييه به.

على أنه ينبغى ألا يفهم من استعراضنا هذا للوساوس التى تعتور كثيراً من المسنين أنها تعتور جميع المسنين بالضرورة، وقد نبهنا إلى أن وساوس الشيخوخة إنما هى بمثابة أعراض جانبية لها وليست الشيخوخة سببا لازبا لظهورها واعتمالها فى حياة وعلاقات المسن. ومن جهة أخرى فان الوساوس فى الشيخوخة فى ارتباطها بالناحية الجسمية إنما تنشط فى الغالب بسبب بطء الحركة والقعود أو الاعتكاف فى البيت أو المستشفى مما يترتب عليه نضوب

علاقات الاجتماعية ، وبالتالى عدم خصوبة الحياة الثقافية وتركيز الذهن فى مجموعة محدودة من الأفكار والهواجس . ناهيك عن أن روتين الحياة الضيق بممارسة مجموعة محدودة من التحركات يساعد على نشوء واستشراء الوساوس بقل فى ووجدان الشيخ .

العوامل النفسية :

من المؤكد أننا لانستطيع أن نفصل العوامل المتباينة فى شخصية الشيخ بعضها عن بعض . ذلك أن جميع العوامل المؤثرة فى شخصية المرء تتداخل فيما بينها كما تتفاعل بعضها مع بعض . ونحن وإن أفردنا موضوعا لكل نوعية من من العوامل المؤثرة فى شخصية المسن ، فان هذا لايعنى أن كل نوعية من تلك النوعيات تعمل فى عزلة عن باقى النوعيات الأخرى من العوامل . وبصدد حديثنا هنا عن العوامل النفسية ، فاننا لانستطيع أن نزعم أنها تعمل بمعزل عن العوامل الجسمية التى عرضنا لها فى الموضوع السابق . والواقع أن ثمة تأثيراً متبادلا فيما بين المقومات الجسمية وبين المقومات النفسية . فكما أن المقومات الجسمية تؤثر فى الحالة النفسية ، كذا فان المقومات النفسية تؤثر بدورها فى الحالة الجسمية .

والواقع أن كثيراً من الموظفين ينهارون صحيا ويتدهورون جسميا بعد أن يحالوا إلى المعاش. ويجمع الدارسون للشيخوخة على أن إحساس المحال إلى المعاش بأنه قد أزيح إلى هامش الحياة يؤدى به غالباً إلى الانهيار جسمياً وإلى الإصابة بالأمراض التى لها علاقة بالناحية النفسية . وليس هذا بالغريب ، فان الاتجاه الحديث فى الطب وفى العلاج بوجه عام هو الاتجاه السيكوسوماتى أى الاتجاه الجسمنفسى ، باعتبار أن العاملين يؤثران جميعاً بعضهما فى بعض ، أعنى عامل الجسم وعامل النفس .

وحرى بنا أن نستعرض الجوانب النفسية لدى المسن وارتباط كل جانب بما يمكن أن يرتبط بعرض الوسوسة . ولعلنا نلخص تلك الجوانب فيما يلى :

أولا – من حيث اكتساب الخبرات الجديدة : فالواقع أن هناك ما نسميه بالتفاعل الخبرى ، وهو استيعاب الخبرات الجديدة عن طريق تفاعلها وتمثلها عن طريق القوام الخبرى الذى تتشكل منه محور الشخصية . ولعل من أكثر ما يقلق بال المسن إحساسه بأنه لم يعد قادراً على التفاعل خبريا بما يستجد حوله ويتدفق فى المجالات الحضارية والثقافية المتباينة التى كان يستوعبها من قبل . وليس هذا الأمر قاصراً على ذوى الثقافات العالية والتخصصات الدقيقة ، بل هو ينسحب بازاء جميع الناس فى أى موقع من مواقع الحياة . فالمسن – أيا كان – يحس بالاغتراب تدريجيا ، وكأنه يتيه فى غابة لايستبين معالمها أو فى صحراء لايتبين أطرافها وأبعادها . ولكأن الناس من حول الشيخ وقد أخذوا يتكلمون بلغة لايعرفها ويتفاهمون بطريقة ليس له قدرة على أستخدامها . وهذا ما يجعله قابلا للإصابة بالوسوسة . ذلك أن المسن يظل مركزاً الذهن فى نفسه وقد اعتوره إحساس بالنقص والتخلف ، وهو تخلف ثقافى مستمر وإلى الأبد . وأكثر من هذا فانه يحس أن مستقبله – إذا كان له مستقبل – سوف لايكون أخف وطأة وأقل إظلاما وتدهوراً من الحاضر . فاذا كان لايستطيع الآن أن يتفاعل مع الخبرات الجديدة ، فما عسى أن يكون عليه حاله فيما بعد ؟

ثانيا – فقدان اللياقة الجنسية : فى الشيخوخة بالنسبة للرجل والمرأة على السواء – والمرأة بصفة خاصة – يخيم إحساس قوى الوطأة بالنقص الجنسى سواء من حيث العجز عن ممارسة الجنس والنهوض بالواجبات الجنسية الزوجية وبخاصة إذا كانت الزوجة شابة بالنسبة للرجل ، أو إذا كان الزوج شابا بالنسبة للمرأة ، أم بالنسبة للمنظر الخارجى وما يتسم به الوجه من ملامح تنم على الشيخوخة وانعدام الجاذبية الجنسية . ولعل من أكثر ما يؤلم المسن والمسنة انصراف الشباب من الجنسين عنها والامتناع حتى عن مجرد النظر اليها . وإذا كان هذا هو حال الأشخاص العاديين الذين لم يحظوا إلا بقدر ضئيل من الجمال ، فانه بالأولى حال أولئك الذين كانوا فى شبابهم فتنة للناظرين وجذبا للأنظار ورواء للمتعطشين إلى الجمال . فالشيخ والشيخة يظلان فى تفكير

دائب وفى قلق بالغ ويأس ممض وشوق بلا أمل إلى استرجاع ما كانا يتمتعان به من جمال ذوى ، ومن جاذبية تلاشت ، ومن وقع على أعين وقلوب الشباب خبا واندثر .

ثالثا — فقدان اللياقة الكلامية : والواقع أن الكلام يتصل إتصالا مباشرا بصحة الأسنان . ولكن الشيخوخة غالبا ما تأتى على الأسنان أو على بعضها . فبعد أن كانت الحروف تنطق من مخارجها وقد تميزت بعضها من بعض ، فانها صارت تنطق بطريقه شائهة فى اختلاط بغيرها . فالسين صارت تختلط بالثاء ، كما أخذت المقاطع فى الكلمة الواحدة تتداخل بعضها فى بعض أو تتباعد بعضها عن بعض . وحتى إذا قام الطب بعلاج ما أفسده الدهر وركب طقم أسنان فى الفم ، فانه يضايق الشيخ وقد أحس بأن زائرا غريبا وثقيل الظل قد اندس فى فمه ، فصار مقيداً أو كالمقيد فى حركة فكه ، فأخذ لسانه يذب ذلك الجسم الغريب بينما يعمد الشيخ إلى إعادته إلى مكانه من جديد . وإذا نظر الناس إلى فم الشيخ وهو يتحدث وقد خلعت منه بعض الأسنان مما يجعل شكله غير مريح أو بتعبير أصرح مما يجعل شكله قبيحاً وغير سار للناظرين خلافاً لحالة قبل تدهور فمه وخلع أسنانه وما تبع ذلك من أثر فى القدرة على الكلام ، فانهم ينصرفون عنه ويشمئزون من متابعة كلامه . وهل ينفصل التحدث مع الناس عن مشاهدتهم للمتحدث ، اللهم إلا إذا كان كلامه وراء ستار أو بالإذاعة ؟

رابعاً — ضعف البصر والعجز عن القراءة وتبين ملامح الأشياء : فالشيخ الذى دأب على الاطلاع ولكنه بسبب الشيخوخة صار عاجزاً عن مواصلة القراءة ، بل وصار عاجزاً أيضاً عن متابعة ما يعرض على شاشة التلفزيون ، فانه يحس بالضآلة تجاه نفسه من جهة ، وباليأس والقنوط من جهة ثانية . ولعل القراءة تمثل بالنسبة لإنسان الحضارة النافذة التى يطل منها المرء على العالم المحيط به ، بل وعلى العالم البعيد ، وما تزخر به الحياة من أحداث وما يدور فى أذهان الناس من أفكار وما تقوم بينهم بعضهم وبعض من علاقات . فالعجز عن القراءة معناه فى الواقع الانعزال بعيداً عن العالم ،

وهو العالم المتسم بالرمزية وبمشاهدة الواقع من خلال ما يكتب على صفحات الكتب والجرائد والمجلات من كلمات ، وما يصور بها وعلى شاشات التلفزيون والسينما من صور . ولقد سبق أن قلنا إن الوسوسة تتأتى وتستشرى نتيجة الانحباس فى إطار الذات دون الاتصال بالعالم الخارجى ودون الاحتكاك به أحتكاكا مباشراً .

خامسا — ضعف السمع وما يترتب على ذلك من لبس فى فهم ما يقال : فالشيخ والشيخة قد يجدان صعوبة فى الاستماع إلى ما يقال لهما من كلام أو فى تفهم ما يوجه اليهما من أسئلة واستفسارات . والواقع أن هذا يرجع إلى عامل آخر إلى جانب ضعف السمع هو عدم القدرة على التركيز والانتباه والتوقع . ذلك أنك لاتسمع بأذنيك فقط ، بل تسمع بما تتوقعه من كلام . فاذا كنت شارداً بذهنك وغير متابع لما يقال ، فانك لاتستطيع ترجمة ما يقال لك ترجمة ذهنية سليمة برغم سلامة جهازك السمعى تماما . وثمة بالأسف مواكبة لدى الشيخ بين ضعف السمع من جهة ، وبين ضعف التركيز الذهنى وتوقع ما يقال من جهة أخرى . وعندما يخفق المسن فى تحقيق اتصال سليم بالآخرين وما يتبع مثل هذا الإخفاق من انصراف الناس عنه والإشاحة عن التحدث إليه وتركه كما مهملا فى المجالس ، فانه يبدأ فى احتقار ذاته من جهة ، والحقد على الآخرين المتصلين بعضهم ببعض كلامياً من جهة أخرى ، فيأخذ فى الارتماء فى أحضان الوسوسة . فهو يركز ذهنه فى فكرة واحدة هى ذاتيته المفقودة وإنيته التى صارت مهزوزة فى أنظار الآخرين .

وإذا نحن تناولنا بعض ملامح السلوك الوسواسى الناجم عن تلك العوامل النفسية اذن لوجدناها على النحو التالى :

أولا — تركيز الذهن فى الجانب القاتم من الحياة والتشاؤم والفزع والقلق وشدة الخوف والتوجس .

ثانيا ــ توقع الأنباء المحزنة التي تتعلق بالآخرين الذين يتعلق الشيخ أو الشيخة بحبهم . فكل باب يدق أو كل مناد ينادي أو كل خطاب يرد لابد أن يحمل خبرا مكدراً في توقع المسن .

ثالثا ــ الإصابة بالوسوسة لادائية التي تسمى بالأعمال القهرية compulsions كأن يتردد الشيخ الموسوس طوال الليل من سريره إلى باب الشقة للتأكد من غلقه أو الاستمرار في البحث عن شيء فقده في نفس المكان وكأنه يدور في حلقة مفرغة .

رابعا ــ البحث عن مشكلة أو افتعال أزمة عائلية واتهام شخص أو أكثر باساءة معاملته أو إهماله أو اغتصاب حقوقه . وغالبا ما تجد الحماة الشخص الذي تدير حوله مشكلاتها في كنتها أو في زوج ابنتها . وتظل أياما بلياليها تفكر أو تبكي بسبب مشكلاتها المختلفة التي تركز فكرها الوسواسي حولها .

العوامل الاجتماعية :

سبق أن نبهنا إلى تعذر فصل العوامل المؤثرة في حياة المسن بعضها عن بعض وذلك لشدة تداخلها وتفاعلها . فمن قرأ ما كتبناه حول العوامل السابقة سوف يجد بعض ما يمكن درجه في نطاق العوامل الاجتماعية التي نحن بصددها هنا . وكذا الحال بالنسبة للنوعين الأولين ، أعني العوامل الجسمية والعوامل النفسية من حيث تداخلها . ولكن مع هذا فثمة تمايز في الصبغة العامة على الأقل التي يصطبغ بها كل موضوع وعدم خروج أي عنصر من سياقه بحيث يكون من الأولى نقله إلى موضوع آخر من موضوعات هذا الفصل .

ومهما يكن من شيء فما يهمنا هنا هو استعراض المجالات الاجتماعية المتباينة التي تؤثر في إصابة الشيخ بالوسوسة . ولعلنا نوجز هذه المجالات فيما يلي :

أولا ــ مجال العمل : فمن المعروف أن النظام الاجتماعي يقضي بازاحة الشيوخ عن مجالات العمل لكي يحل الشباب محلهم . فثمة سن الستين مثلا

لإحالة من بلغها إلى سن التقاعد من موظفى الحكومة . وحتى إذا كان الشخص قوياً وقادراً على الاستمرار فى العمل ، وحتى إذا كان يحمل من الخبرات والمهارات ما لاقبل للشباب بحمله والتمتع به ، فان القانون يلزم الجميع باتباعه وطرح جميع الاعتبارات الفردية جانبا . وحتى عندما يبدى أحد المحالين إلى المعاش سروراً وقد بدت السعادة على محياه لخروجه من الخدمة إلى المعاش حيث يكون حرا وبعيداً عن ضغوط العمل ومسئولياته ، فانه ما يفتأ بعد وقت قصير يشكو من الفراغ القاتل متمنيا لو أن الحياة تعود إلى حالها السابق فيستطيع بذلك أن يعود إلى ما كان عليه قبلا . وحتى عندما يوفق بعض الشيوخ لممارسة بعض الأعمال الجانبية يملأون بها وقت فراغهم وزيادة دخولهم ، فان هذا لايعوضهم فى الغالب عن فقدانهم لمكانتهم الوظيفية التى كانوا يشغلونها قبل الاحالة إلى المعاش .

والواقع أن عدداً كبيراً من أولئك المصابين بالوسوسة الحركية والكلامية — وهم الذين يحركون أذرعهم ويتكلمون بصوت مرتفع فى الشوارع وكأن أحدا يسير إلى جانب الواحد منهم ويتحدث إليه — يكونون من أولئك الشيوخ الذين أحيلوا إلى المعاش وقد وجدوا أنفسهم فى فراغ ولايكادون يجدون أحداً يفرغون طاقتهم الحيوية فى نشاط مشترك معه. ذلك أن كثيراً من الموظفين لاتكون لديهم علاقات اجتماعية من أى نوع سوى تلك العلاقات المتعلقة بزملاء الوظيفة والرؤساء . فما يكادون يحالون إلى المعاش حتى تفرغ حياتهم من جميع الناس باستثناء قلة قليلة من أفراد الأسرة — إن وجدوا — وقد تزوج الأبناء والبنات وربما لم يبق سوى الزوجة التى لا تستطيع استقطاب اهتمامات ومشاغل زوجها المحال إلى المعاش . وإنه لمحظوظ ذلك المحال إلى المعاش من الموظفين الذى يجد مقهى يجتمع به مع أترابه ممن أحيلوا مثله إلى المعاش ، فيتسامر معهم وقد أخذ كل منهم فى التحدث عن ذكريات وظيفته . ولكن أنى لتلك الذكريات أن تظل نابضة بالحياة بصفة دائمة ! إنها فى الواقع تذبل كأى ذكرى من ذكريات العلاقات الاجتماعية المتباينة .

ثانياً — مجتمع الأتراب : وهو المجتمع الذى ذكرناه لتونا . فالمحال إلى المعاش يتمنى أن يجد أفراداً مثله لهم نفس الاهتمامات ونفس الهموم . ولكن ذلك المجتمع المنشود قلما يكون مجتمعاً سعيداً أو هانئا . ذلك أن ماتلوكه ألسنة الشيوخ على المقاهى يكون مصبوغاً فى الأغلب — إن لم يكن دائماً — بصبغة قاتمة . ولعل هناك ثلاثة موضوعات أساسية تحتل مكان الصدارة فى أحاديث الشيوخ : الموضوع الأول — الموت . فعندما يتغيب واحد من زملاء المقهى عن الحضور بضعة أيام فان أول خاطرة ترد إلى ذهن باقى الزملاء هى أنه قد مات . ومن الطبيعى أن موضوع الموت يرتبط فى أذهان هذه المجموعة من المسنين بالموضوع الثانى الهام ، ألا وهو المرض . فبعد أن يتناول الموجودون موضوع الموت ، فانهم يأخذون فى الحديث عن المرض ، فيذكر كل واحد منهم ما أصيب به من أمراض وما اتخذه من إجراءات فيذكر أسماء الأطباء الذين عالجوه مع وصف تفصيلى للآلام التى ظل يعانى منها فترة من الزمن . وبالمناسبة فانه يذكر أسماء الأصدقاء الذين ماتوا بنفس المرض . أما الموضوع الثالث الذى يطرق على مقهى المسنين فانه خاص بالأبناء والبنات . والأغلب أن يذكر الشيوخ آسفين عقوق أبنائهم وانصرافهم عنهم وعدم تكليف أنفسهم بمجرد السؤال عن صحتهم وأحوالهم . وينعى البعض منهم على أبنائهم عدم مساعدتهم مالياً وقد وسع الله عليهم وفتح مجالات الرزق أمهم .

ثالثا — مجتمع الأسرة : وهو مجتمع ضيق فى الغالب إذ يكون الأبناء والبنات قد تزوجوا وانصرفوا إلى ميادين اهتماماتهم المتباينة ، بل ويكونون فى الغالب قاطنين لبلاد أخرى بعيدة . وفى عصر استولى على المصريين حب البحث عن المال والمغامرة بالسفر البعيد والهجرة إلى أمريكا وأوربا واستراليا فان نوعا جديدا من الآباء والأمهات والأجداد والجدات لايجدون حولهم أحدا . ولعل النكبة الكبرى تصيب المسن عندما يموت رفيق عمره فيبقى وحده فى شقة كانت فى يوم ما عامرة بذلك الرفيق أو الرفيقة والأولاد والبنات ، وكانت السعادة ترفرف على البيت ، وكانت الحياة مملوءة بالاهتمامات ، بل إن الهموم ذاتها التى كان الوالدان يعانيان منها ، فيحملان

هم كل واحد وكل واحدة من الأبناء والبنات كانت أفضل من ذلك الفراغ القاتل . وهل من حياة أردأ من حياة يجد فيها المرء نفسه وحيداً لايعتنى به أحد ولا يكلمه أحد أو يكلم أحداً ؟ من الطبيعى أن يجد الشيخ أو الشيخة المرارة فى تلك الحياة ، فتبدأ الوساوس العقلية والكلامية والحركية والأدائية فى السيطرة على المسن أو المسنة والأخذ بعنانه .

ونستطيع فى الواقع أن نلخص خصائص الحياة الاجتماعية فى حياة الشيوخ من الجنسين فى النقاط التالية :

أولا — ضمور العلاقات الاجتماعية : وهذا يتأتى فى الواقع عن مجموعة من العوامل منها الرغبة الشخصية فى الانكماش على الذات والعزوف عن إقامة علاقات اجتماعية جديدة ، ثم تأثير العوامل الصحية فى البقاء بالمنزل وبالتالى عدم التردد على الأماكن العامة ، ثم الاحالة إلى المعاش فى حالة الموظفين واسناد العمل إلى آخرين فى حالات الأعمال الحرة ، ثم تقلص نطاق الأسرة سواء بالزواج أم بالالتحاق بأعمال بعيدة عن البيت .

ثانيا — النقص فى تأثير وفاعلية المسن فى المجتمع : فمن الطبيعى أن يقل تأثير وفاعلية المسن فى المجتمع . ولايقتصر هذا على أسباب تتعلق بالعمل والإنتاج ، بل يتعدى هذا إلى ما هو أهم من ذلك . فكل جيل من أجيال الناس يكون له سمات واتجاهات وميول خاصة به تنبو عن سمات واتجاهات وميول الجيل السابق. فمن كان لهم تأثير بعيد المدى خلال حقبة معينة لايعودون كذلك ، بل تنحسر قدرتهم على التأثير وقد أخذ غيرهم فى تسلم زمام التأثير والفاعلية . ويبدو هذا فى المجالات المتباينة من فن وأدب وتربية . ولكن من الممكن أن نميز أعمال الأفراد من الأفراد أنفسهم . فلقد يحتمى المسن فى ظل أعماله الأدبية العظيمة التى نالت اعتراف وتقدير الناس من حوله ، مع أنك إذا جالست نفس ذلك الأديب الكبير فانك لاتجد فيه شيئاً يهز مشاعرك ، بل قد تجده غثا سطحياً وغير عميق بالقدر الذى تبدو عليه أعماله . فالشخص بلحمه ودمه قد يكون أضعف بكثير مما سبق أن جسده فى أعمال أدبية أو فنية أو علمية .

ثالثا — إحساس الشيوخ بوجه عام بعدم الرغبة فيهم وأنهم صاروا يشكلون عبئا على المجتمع . ويزيد من احتدام هذا الشعور لدى المسنين ما يلقونه فى وسائل المواصلات من امتهان وما يسمعونه من تعليقات وسخرية. فلقد تزلزلت لدينا قيم كانت تعمل الحساب كل الحساب للشيخوخة. فالشاب صار يسارع إلى المقعد الخالى يجلس عليه ويتمطى فيه قبل أن يتمكن المسن من الوصول إليه . ولعله يقول لنفسه وقد حظى بالمقعد دون المسن « ها إنى قد انتصرت عليه . لماذا يخرج هذا المحطم من بيته ولماذا لا يحمله الموت إلى الثرى ؟ » فاذا ما أحس المسن بأنه إنسان مرذول ، فانه يكون عندئذ نهبا للوساوس « لماذا أصدق مجاملات أبنائى وأحفادى ؟ إنهم ربما يظهرون غير ما يبطنون ، وربما تكون أمنيتهم العزيزة هى التخلص منى فى القريب العاجل ولكنهم ينافقوننى ويخدعوننى بما يبدونه من ابتسام ورقة فى معاملتى » فاذا ما تسلطت هذه الوساوس على عقل وقلب المسن ، فانها سرعان ما تجد لها ترجمة فيما يبديه من وساوس كلامية وحركية وأدائية .

العوامل الاقتصادية :

من المشكلات الشائعة مشكلة نقص الدخل فى الشيخوخة وما يترتب على ذلك من مشكلات نفسية بضمنها مشكلة الإصابة بالوسوسة بجميع أنواعها التى عرضنا لها قبلا . والواقع أن مصر فى هذه الأيام مهتمة بالمشكلات الاقتصادية التى تعتور الشيخوخة ، وقد صبت إلى توفير مظلة للتأمينات الاجتماعية بحيث لايعانى المرء ماليا فى شيخوخته ، ولايكون بحاجة إلى مساعدة ذويه وجيرانه . على أن المشكلة الاقتصادية فى الشيخوخة تنشعب إلى عدة جوانب نحاول تلخيصها فيما يلى :

أولا — مشكلة الموظف الذى يحال إلى المعاش ويظل على قيد الحياة أكثر من عشر سنوات . فمعاشه الذى بدأ يصرفه منذ عشر سنوات كان يكفيه لسد نفقاته ويزيد ، ولكن بمرور السنين ، فانه يجد أن القوة الشرائية للجنيهات التى يقبضها آخذة فى القلة بشكل مخيف مما يجعل مستواه المعيشى يتدهور

باستمرار . تخيل مثلا أحد الموظفين كان معاشه منذ عشر سنوات وقت إحالته إلى التقاعد عشرة جنيهات . إن تلك الجنيهات العشرة كانت تكفيه لسد نفقاته منذ عشر سنوات ، ولكنها ليست كذلك وقد ارتفعت الأسعار ارتفاعا مخيفاً . وحتى عندما تحاول الدولة مشكورة مساندة أصحاب المعاشات بزيادات قد تصل إلى ١٠ ٪ ، فان تلك الزيادات لاتحل المشكلة المستمرة فى التعقد والخطورة . ومن الطبيعى أن يحس المحال إلى المعاش بالخطر وبتدهور وضعه تدريجيا ،فيجد نفسه فى مهانة بعد عز وفى فقر بعد غنى . ناهيك عن ضياع الهيبة والمقام الرفيع إذا كانت وظيفته التى كان يشغلها وظيفة مهيبة . وإننا نعرف من أصحاب الوظائف المرموقة أفراداً كان اعتمادهم الرئيسى على المرتب ، وبعد إحالتهم إلى المعاش بحوالى عشر سنوات وقد بلغ معاشهم حوالى سبعين جنيها قد فقدوا الكثير من العزة والوفر اللذين كانوا يحسون بهما حتى بعد إحالتهم إلى المعاش مباشرة .

ثانيا ــ مشكلة أصحاب الدخول الثابتة الذين كانوا يعتبرون فى يوم ما من وجهاء القوم وأصحاب العزة . خذ مثالا لذلك أسرة فقدت عائلها وقد ترك لها عمارة مرموقة تدر ريعاً قدره خمسون جنيها فى الشهر . وهذا طبعاً مثال متفائل . إن مثل ذلك الدخل ــ وهو الدخل الوحيد لتلك الأسرة ــ كان يكفى لسد نفقاتها منذ عشر سنوات . ولكن ماذا يكون حال أسرة كهذه لا دخل لها إلا هذا المبلغ كل شهر ؟ من الطبيعى أن مستواها الاقتصادى ينحدر شيئاً فشيئاً بسبب ضعف القوة الشرائية المستمر للعملة على مستوى العالم . فبعد أن كانت الزوجة الأرملة فى بحبوحة من العيش ، فانها صارت تعانى من ضيق ذات اليد .

ثالثا ــ مشكلة زيادة أفراد الأسرة ــ سواء بتعدد الزوجات أم بزيادة الأبناء المنجبين . والواقع أن مشكلة تضخم الأسرة وعدد الأفواه التى تريد أن تأكل ، والمصاريف المتزايدة باطراد التى يحتاج اليها كل مولود جديد بالأسرة ، إنما تعمل على الهبوط بمستوى معيشة الأسرة . وطبيعى أن نجد من

بين الشيوخ والشيخات من لديهم أبناء وبنات فى سن الرعاية وفى عمر بحاجة إلى مصاريف متزايدة . فاذا أضفنا إلى هذا أن ثمة تفجرا سكانيا يهدد العالم كله بصفة عامة والبلاد النامية بصفة خاصة ، فاننا ندرك أن ثمة تأثيراً متبادلا بين زيادة عدد أفراد الأسرة الواحدة من جهة ، وزيادة عدد السكان بالمجتمع بصفة عامة من جهة أخرى . فحتى أولئك الذين يعمدون إلى تحديد النسل والإبقاء على أسرهم معقولة العدد ، يجدون أن الزيادة العامة فى عدد السكان تضر بهم من حيث أن ليس لهم ذنب اقترفوه أو ظلم أوقعوه على أسرتهم أو على المجتمع .

ثالثا — مشكلة أمراض الشيخوخة وما يكون الشيخ أو الشيخة بحاجة إليه من دواء وعلاج ربما يبتلع كل الدخل أو أكثر منه . ولعلنا نزعم أن كثيراً من الشيوخ يستسلمون للأمراض تفتك بهم بغير عرض أنفسهم على الطبيب لعلاجهم لأنهم يعرفون مقدماً أن الدخل لايكفى لسد نفقات العلاج ، وما يتبع ذلك من توترات نفسية ، ومن إصابة بالوساوس حول مستقبل صحتهم وما سوف يحملون به ذويهم من أتعاب ومضايقات عندما ينشب المرض أظفاره القاسية فى كيانهم الصحى فلا يترك لهم أرجلا يمكنهم السير عليها أو أن أعيناً يشاهدون بها ما يجرى حولهم . فهم يقلقون على المستقبل من ناحيتين : الفقر والمرض المتزايد والمقعد والباتر لكل نشاط فيحرمون من الاعتماد على النفس . ومن يعلم كم من السنوات سوف يرتمون خلالها على فراش المرض حيث يعز لفظ الأنفاس ، وحيث تكون المنية أمنية عزيزة على التحقق .

رابعاً — مشكلة أصحاب الأعمال الفنية الحرة التى تعتمد على موهبة خاصة لايمكن توريثها إلى الآخرين . من أولئك الشعراء والقصاصون والكتاب والمترجمون والممثلون ومن على شاكلتهم من أصحاب المهارات اليدوية أو العقلية أو الوجدانية . فمثل أولئك ربما تفتح أبواب الرزق أمامهم طوال قدرتهم على الإبداع واستقبال المستهلكين لأعمالهم وشرائها كسلعة خدمية عظيمة . ولكن ماذا يكون حال الواحد من هذه الفئة وقد انحسر عنه تيار

الشهرة فانزوى فى الظل بعيداً عن الأضواء ، وقد حالت الشيخوخة فى نفس الوقت بينه وبين مواصلة العمل ؟ إنه بالطبع ينهار نفسيا واقتصاديا . ولدينا أمثلة كثيرة من هذا النوع عن فنانين وشعراء ومفكرين انتهى حالهم إلى شيخوخة كالحة مفعمة بكل ما يأتى على الصحة الجسمية والنفسية ، بل ويأتى على كل كرامة وعزة .

خامسا — مشكلة الشيوخ الذين أصيبوا بكوارث اقتصادية فى كبرهم . من ذلك صاحب العمارة التى حكمت المحكمة باخلائها والزام صاحبها باجراء إصلاحات باهظة التكاليف لاصلاحها . ومن ذلك صاحب المصنع المسن الذى أشتعلت النيران فى مصنعه أو فى مخزنه ، وصاحب سيارة الأجرة الذى لم تعد سيارته صالحة للعمل ولا يجد حتى من يشتريها منه ، إلى آخر تلك الأمثلة الكثيرة التى يرزح كثير من الشيوخ تحت كلكلها .

وبعد أن عرضنا لمجموعة من الحالات التى يمكن أن تعتور الشيوخ فى حياتهم الاقتصادية ، فان علينا أن نعرض بسرعة لما يمكن أن تؤثر به تلك الحالات الاقتصادية المتباينة فى الكيان النفسى للشيخ وما يمكن أن يترتب على هذا من إصابة بالوساوس والأعمال القهرية .

هناك أولا — شرود الذهن والتفكير فى حلقة مفرغة فيما عسى أن يفعله الشيخ بازاء ما يعتور حياته من مشكلات اقتصادية . وإذا وضعنا فى الاعتبار أن الشيخوخة ليست مرحلة النشاط الذهنى الحاد وأنها فى نفس الوقت ليست مرحلة الإرادة الماضية والشكيمة والقوة والتحمل ، فاننا ندرك كيف أن شرود الذهن يصاب به الشيخ لايتفتق عن حيلة يتخذها بل يكون شرود الذهن بمثابة وسواس تسلطى يمتلك ناصية تفكيره بغير ما طائل أو جدوى .

ثانيا — الارتماء فى حمأة اليأس بغير قدرة على الإقدام على أى تصرف معقول أو غير معقول . فحتى الإقدام على الانتحار يتعذر على الغالبية العظمى من الشيوخ . ذلك أن تنفيذ الانتحار —وإن كان دليلا على ضعف الشخصية— فانه بحاجة إلى إرادة معينة وإلى قوة تنفيذية تزيد فى شدتها عن الإرادة والقوة

اللتين يكون قاتل غيره بحاجة اليها للقتل . فالطريقان الايجابي والسلبي مغلقان تماما أمام الشيخ . فهو يقف على السلم ، فلا هو يصعد ولا هو يهبط ، أو بتعبير آخر إنه لايخرج من إطار مشكلته المالية بالبحث عن مخرج عملي يقوم بتنفيذه ، ولا يتخلص من حياته بالانتحار . فهو يظل على هذه الحالة البينية الوسواسية لايريم عنها ولا يتخلص منها .

ثالثا — إسقاط مشكلته على شخص أو هيئة والدأب على التفكير فى ذلك الشخص أو تلك الهيئة التى يحملها المسئولية . فالمسن قد يدأب على اتهام زوجته المبددة كما قد تعمد المسنة إلى تحميل زوجها مسئولية التبذير والانفاق بغير بصر بالمستقبل ، أو قد يلقى الشيخ باللآئمة على المصلحة أو الشركة التى ظلمته ولم تعطه حقوقه ولم تكفل له سبل الترقى . وسواء فاه الشيخ أو الشيخة بذلك للآخرين أم أكتفى بالتفكير فيه بينه وبين نفسه فانه فى الحالتين يشكل محوراً وسواسيا مستمرا لايتسنى له التخلص منه . وقد يتبدى هذا الوسواس فى أعمال قهرية ، وذلك بأن يظل الشيخ الموسوس يداعب حبات مسبحته لا بصلوات يتلوها ، بل بتمرير أصابعه بعصبية حول ذلك الإطار الضيق المتمثل فى حبات المسبحة المحدودة .

العوامل الثقافية :

سبق أن قلنا إن ما يصيب بعض الشيوخ من ضعف عام فى الصحة قد يحول بينهم وبين الاستمرار فى الوقوف على التطورات التى تحيط بهم كما تحول بينهم وبين استمرار نموهم الثقافى أو تفاعلهم مع المقومات الثقافية التى توجد فى بيئتهم . بيد أنه إلى جانب ضعف الصحة وضعف البصر والسمع بالذات ، فاننا نلاحظ أن هناك مجموعة من الأسباب النفسية والاجتماعية التى تساعد على ضمور الحياة الثقافية لدى كثير من الشيوخ يجدر بنا تناولها فيما يلى :

أولا — الإحساس الشخصى لدى المسن بأن زهرة حياته قد ذبلت وأن ربيع حياته قد ولى وأن شعلة أمله قد خفتت وأفلت . ومن هنا فانه يحس

بأن طريق الحياة أمامه قد سد بسور سميك لايتسنى له عبوره . إنه يحس فى دخيلته بأن الفضلة المتبقية من عمره إنما هى فضلة غثة لاتجدى ولاتنفع . والواقع أن كثيراً من المسنين يقضون شيخوختهم فى يأس قاتم وقد وضعوا نصب أعينهم المرض والموت كصنوين لايفترقان . فهما قضاء محتم لا فرار منه ولا مخفف من حدته . فلماذا إذن والحال كذلك أن يزيد من خبراته أو أن يستمر فى التفاعل مع المؤثرات البيئية المتباينة من حوله ؟ إن الحقيق به هو الانزواء بعيداً عن المؤثرات البيئية والتقوقع حول الذات والانتظار فى يأس وقنوط لحظة انتهاء الحياة .

ثانياً — إحساس المسن بأن أهدافه فى الحياة قد تحققت وأن آماله قد وقفت عند الحدود التى انتهى اليها . فلماذا ينمو ثقافيا أو يستزيد خبريا مع أن كل نمو وكل زيادة مآلها إلى التخزين غير المجدى . فما فائدة الاطلاع أو كسب المهارات الجديدة وليس ثمة مجالات توظف فيه أو تقدم من خلاله . فالواقع أن الحياة ليست استقبالا فحسب ، بل هى استقبال وتصدير فى نفس الوقت . فنحن نتعلم لكى نشارك بما تعلمناه فى ناحية أو أخرى من نواحى الحياة المتباينة . أما أن نتعلم ونزداد خبرة لكى نختزن ما اكتسبناه بين أضلعنا لانبين عنه ولانستخدمه فى مواقف الحياة المتباينة فانه لايعبر عن الحياة الحقيقة بهذا الاسم . فلا يجب أن نغضى عن حقيقة العلم والخبرة من حيث كونها لاتحييان ولا يتم لها البقاء الا بالتوظيف والاحتكاك مع مواقف الحياة ومع ما لدى الآخرين من خبرات مشابهة أو مباينة .

ثالثا — انصراف الناس من حول المسن فى معظم الأحيان عنه واستقبالهم واحتفالهم بالشباب . ولاشك أن اللامبالاة التى يحس بها المسنون يتخذها المجتمع من حولهم ، إنما تضربهم بالركود وتساعد على زهد الشيوخ فى التحصيل الثقافى المتجدد بل وتعمل على إحباطهم واستسلامهم للكسل العقلى والإفلاس الثقافى .

وإذا نحن تناولنا لفظ « ثقافة » من زاوية أخرى كما ترد بدوائر المعارف الأوربية والأمريكية ، فاننا نجد أنها تحمل فى بعض الأحيان نفس المعنى

الذى تحمله كلمة « حضارة » . فالثقافة بهذا المعنى لاتعنى مجموع المعارف والخبرات التى يحملها المرء فى رأسه فحسب ، بل تعنى مجموعة المعارف والخبرات والمهارات والعلاقات الاجتماعية والقيم والأعراف والقوانين والصناعات والامكانيات ، وكذا الدين والتقاليد الاجتماعية والمخترعات ومصادر الثروة ، بل والمفيد والضار من الممارسات والمواد المستخدمة ، وكذا نظم الحكم وكل ما تنبنى عليه الحضارة من علم وتكنولوجيا وتراث يتصل به تاريخ الأمة .

ولعلنا ننظر إلى المسنين من زاوية هذا المعنى للثقافة ، فنجد أن الحضارة الحديثة تعمد فى الأغلب إلى العزوف عن المسنين فلا تأخذ فى اعتبارها الا أولئك الذين لهم مستقبل فى الحياة . فاذا أنت تناولت الاهتمامات التى تكفل للطفولة مثلا من جهة ، والاهتمامات التى تكفل للشيوخ من جهة أخرى ، حتى فى أعرق البلاد تحضراً ، فانك تجد أن الشيخوخة لاتحظى الا بأقل القليل من اهتمام الناس . وتستطيع أن تستبين الفارق بين الاهتمام بالطفولة والاهتمام بالشيخوخة إذا ما أحصيت عدد المؤسسات التى أنشئت لرعاية الطفولة فى إحدى المدن الكبرى كمدينة القاهرة وعدد المؤسسات المخصصة لرعاية الشيخوخة بها . وتستطيع أن تعقد من جهة أخرى مقارنة من نوع آخر فيما بين الكتب التى صدرت خلال عام أو خلال خمسة أعوام متتالية عن الطفولة وعدد الكتب التى صدرت خلال نفس الفترة عن الشيخوخة . إنك ستجد أن الاهتمام بالشيخوخة لايكاد احتسابه أو وضعه فى الاعتبار من جانب أكثر المجتمعات تحضراً ورقيا

ونأسف إذ نقرر حقيقة أخرى شائعة بين الناس ، وإن كان الجميع يحاولون إخفاءها وعدم الإفصاح عنها . فالواقع أن الاهتمام بالشيخوخة يندرج تحت باب الإحسان ، بمعنى أنه عمل اختيارى ، بينما يعتبر الاهتمام بالطفولة

من باب الواجب الملح الذى لا مندوحة عنه ولاسبيل إلى الإغضاء عنه . ولكأن المهتمين بالشيخوخة يقولون فى أنفسهم « إن اهتمامنا بالشيخوخة لايعدو أن يكون من باب الاعتراف بالجميل . فالشيوخ وقد أدوا واجبهم نحونا ، فان علينا بالتالى أن نقدم اليهم الإحسان وهم اليوم يعانون من مصاعب وآلام الشيخوخة » .

والواقع أن المفهوم الاجتماعى للثقافة الذى سقناه هنا يجعل مهمة تكيف واستمرار تكيف المسن لمضامينه من الصعوبة بمكان . وإذا نحن قارنا المجتمع الحديث بالمجتمعات القديمة ، فاننا نلاحظ أن المجتمع الحديث سريع التغير والتبدل . وإنك لتستطيع أن تلاحظ ذلك إذا ما اضطررت إلى التغيب عن المدينة التى تقطنها لبضع سنوات قليلة ثم تعود اليها . إنك ستجد أن أشياء كثيرة قد تغيرت فيترتب على هذا بالتالى إحساسك بالاغتراب . وهذا هو بعينه ما يقع لكثير من المسنين . فهم تحت وطأة الضعف أو تحت تأثير الحياة الهامشية التى يجدون أنفسهم مسوقين اليها ، يضطرون إلى الانزواء بعيداً عن الحياة المائجة العامرة بالأحداث والمتدفقة بالتطورات والتغيرات الدائبة . فهم بعد حين يقصر أو يطول يستشعرون الغربة فى نفس المدينة التى ظلوا يحيون فى إطارها .

على أن هذا لايقتصر على الحياة العامة ، بل إنه يمتد إلى ما دأب المسن على التخصص فيه والتعمق فى معرفته حتى بلوغه الشيخوخة . ولنأخذ مثالا بأحد القضاة أو بأحد المحامين القدامى . إن مثل ذلك القاضى أو هذا المحامى وقد بلغ الشيخوخة وانقطعت صلته بالمحاكم والقضايا ، فانه بعد خمس سنوات على الأكثر من تركه لمنصة القضاء أو لساحة الدفاع بالمحاكم ، لايكون على وعى بما وقع من تطورات وتدفقات فى القوانين . فتلك الفترة التى احتجب خلالها عن الاطلاع على القوانين الجديدة التى أضيفت والقوانين التى بطل الأخذ بها تكون كافية لجعله يحس بالاغتراب حتى عن هذا المضمار الذى دأب على متابعته واستيعاب تطوراته .

وإذا كان هذا هو حال المهنى المتعلم والمتخصص فى فرع ما من فروع الحضارة ، فما بالك بعامة الناس الذين لم يتخصصوا فى شىء ، وقد كانت حياتهم فى شبابهم وفتوتهم حياة سطحية غير متعمقة فى معرفة ، وغير سابرة لغور مهنة . وغير مستضيئة بنور فن عميق . إنهم بالأولى يصيرون غرباء حتى فى الجلسات العادية التى يتم فيها تبادل الأحاديث العادية .

وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للحياة العامة والمواقف اليومية ، فانه يتبدى بأجلى صورة عندما يوجد المسن فى حضرة الشباب. إنه يحس بالاغتراب الشديد ، بل وبالتخلف الثقافى . وبالعجز عن ملاحقة أحاديثهم وما تلوكه ألسنتهم من مصطلحات وما يخوضون فيه من موضوعات تروق لهم ولا تروق له بل ولا علم له بأطرافها . من هنا فانك تجد المسن وقد جلس بين الشباب مستحييا ، وقد تواتيه بعض الشجاعة فينصرف عنهم منزوياً فى حجرته وقد امتلأ فكره بالوساوس المسيطرة على كل أنحائه . إنه يشبه أن يكون كائنا غريبا هبط من كوكب آخر غير هذا الكوكب. فسكان هذا العالم مختلفون عنه كل الاختلاف . لايفهمهم ولايفهمونه . ويزيد من شدة شعوره بالاغتراب ذلك البطء الذى ألم به فى التفكير وفى الابانة . فالشباب يتسمون بالسرعة فى الكلام وبالسرعة فى الفهم وبالسرعة فى الحركة وبالسرعة فى اتخاذ القرارات. أما هو فانه بطىء فى هذا كله .ومن هنا فانه يكتفى بالتقوقع على ذاته منصرفاً عن مشاغل الآخرين لايأخذ عنهم فكرا ولايشاركهم فى اهتماماتهم المتباينة .

الفصل الثانى عشر

أثر الوسوسة فى قوة الشخصية

التكامل النفسى :

لابد لنا أولا أن نقوم بتحديد معنى كلمة « تكامل » ثم بعد ذلك نقوم بتحديد معنى التكامل النفسى . ولعلنا نكون أكثر دقة اذا ما قمنا بتعريف التكامل فى بنود محددة . فالتكامل أيا كان وفى أى مجال من المجالات المتباينة يعنى :

أولا — قيام كل عضو أو أداة بأداء العمل المنوط بها على خير وجه وأتمه . فهنا نجد عنصر القوة ، وعنصر اللياقة ، وعنصر المداومة والاستمرار. فنى الأسرة مثلا لكى يكون الزوج محققا لتكامل أسرته ، فيجب أن يتمتع بالكفاءة الكاملة صحيا وعقليا ووجدانيا واقتصاديا واجتماعيا ، ثم يجب أن يكون مسددا كفاءته الى الوجهات المناسبة والمفيدة للأسرة ، ثم يجب عليه أن يستمر فى نشاطه بغير توقف أو انقطاع .

ثانيا — تركيز العضو أو الأداة على الشطر المنوط بها من العمل المسئولة عنه بحيث لا تقصر فى الأداء من جهة ، وبحيث لا تستولى على مسئوليات الأعضاء أو الأدوات الأخرى من جهة أخرى . فالزوج الذى ضربنا مثالا به يجب عليه أن يضطلع بمسئولياته كاملة من جهة ، وألا يتدخل فى مسئوليات زوجته من جهة أخرى . بهذا يتحقق تركيز جهده فى مسئولياته وعدم تشتيت أو توزيع ذلك الجهد فى نفس الوقت .

ثالثا — استهداف جميع الأعضاء أو جميع الأدوات للأهداف العامة للمؤسسة أوللكيان المركب أيا كان . فثمة هدف عام للأسرة هو تحقيق سعادتها ورفاهيتها وتنشئة أبنائها تنشئة صالحة فعالة . فيجب على أعضاء الأسرة

جميعا أن يتعاونوا من أجل تحقيق هذا الهدف العام الذى تسعى الأسرة ككل نحو تحقيقه ، سواء كان استهدافهم شعوريا وبوعى من جانبهم أم كان لاشعوريا وبغير وعى .

ونستطيع فى الواقع أن نطبق هذه النقاط الثلاث بازاء جميع الأجهزة الآلية والأجهزة النفسية والأجهزة الاجتماعية . خذ مثالا للأجهزة الآلية : السيارة . إنها لكى تحقق هدفها الرئيسى — ألا وهو التحرك وتوصيل الركاب أو البضاعة من مكان لآخر — فلا بد أولا أن يعمل كل جزء فيها بقوة ولياقة ومداومة . ثم يجب على كل جزء من أجزائها أن يقوم بعمله دون أن يتدخل فى مسئوليات ومهام الأجزاء الأخرى . وأخيرا يجب أن تتواكب جميع مقومات السيارة لتحقيق الهدف النهائى منها. أعنى التحرك والخضوع لقائدها ليوجهها الوجهة التى يرغب فيها .

ويصح نفس الشيء بازاء الأجهزة الاجتماعية والأجهزة النفسية . فاذا نحن تناولنا الكيان النفسى للإنسان ، فاننا نجد أن من الضرورى توافر هذه الشروط الثلاثة حتى يتسنى تحقيق ما يسمى بالتكامل النفسى . فالعقل مثلا يجب أن يكون قوياً وعلى مستوى تام من الكفاءة ، وأن تكون القوة والكفاءة مستمرتين لدية بغير انقطاع ، ثم يجب أن يضطلع العقل بمهامه بغير أن يتدخل فى المناشط الخاصة بالوجدان والإرادة ، وأخيراً يجب أن يستهدف كل مقوم من مقومات الجهاز النفسى ، وبالتعاون مع باقى المقومات النفسية ، تحقيق سعادة الفرد وانسجامه مع ذاته وكفاءته فى العلاقات الاجتماعية المتباينة .

وإذا نحن نظرنا إلى الوسوسة وكيف أنها تؤثر تأثيراً رديئاً فى التكامل النفسى للشخصية وبالتالى تعمل على إضعافها ، فاننا نجد أن الوسوسة تضر بتحقيق التكامل النفسى على النحو التالى :

أولا — سبق أن أوضحنا كيف أن الوسوسة الذهنية تعنى انحباس النشاط العقلى فى إطار محاور محدودة وضئيلة بل وسطحية تدور حولها . وهذا معناه

فى الواقع الحكم على النشاط العقلى بالضآلة والخفوت والضعف . فالموسوس لايستطيع الخروج من تلك الأطر العقلية التى ينصب فيها برمته ، وبالتالى فان تفكيره يكون ضحلا ضعيفاً . وهذا فى الواقع يتنافى مع المقوم الأول من الشرط الأول الذى حددناه ضمن الشروط الثلاثة السابقة لتحقيق التكامل النفسى وغير النفسى .

ثانيا — من حيث كفاءة التفكير الوسواسى ، فان من الواضح أن التفكير الوسواسى تفكير فج لايتسم بالكفاءة . ذلك أن كفاءة التفكير لاتتحقق الا بالخصوبة والتنوع والمناسبة مع المقام والقدرة على تطوير الأفكار لما يلزم للموقف ولما يعمل على تحقيق الأهداف العقلية والوجدانية والاجتماعية المتباينة .

ثالثا — من حيث استمرار التفكير ، فاننا نلاحظ أن التفكير الوسواسى وان كان يتسم بالاستمرار — فانه استمرار حول محاور ثابتة لاتتغير ولا تتنوع . والواقع أن الاستمرار المقصود فى الشرط الأول من الشروط السابقة هو الاستمرار فى النمو وليس الاستمرار فى الركود . فكون الموسوس يدأب على الالتفاف حول نفس المحور الذهنى ، فانه لايحقق شيئاً ولايدفع بالتفكير نحو الخصوبة أو نحو العمق . ذلك أن التفكير الوسواسى إنما هو تفكير سطحى غير ناجع .

رابعاً — إننا نلاحظ أن التفكير الوسواسى لايستطيع أن يتعاون مع الحياة الوجدانية والحياة النزوعية للمرء . فاذا كان التفكير الوسواسى متسما بصبغة وجدانية معينة ، فانها تكون اذن صبغة جامدة لاتتنوع ولاتتسم بالخصوبة أو التوظيف فى المواقف المختلفة . وكذا الشأن بالنسبة للوسوسة الأدائية فهى لاتتعاون أيضاً مع الجانب الوجدانى أو الجانب الأدائى . فالموسوس شخص مقطع الأوصال ولاتتعاون مقوماته العقلية مع مقوماته الوجدانية ولا مع مقوماته الأدائية . ولكأن كل جانب من جوانب شخصية الموسوس يعمل فى انفصال وعزلة عن الجانبين الآخرين .

خامسا — إننا نلاحظ أخيراً أن المناشط التى يضطلع بها الموسوس — أو بتعبير أدق مقومات شخصية الموسوس — لاتتكاتف جميعاً لتحقيق هدف عام للشخصية . ومن الجدير بالملاحظة بالنسبة لهذا الشرط أن من الضرورى توافر ما يسمى بشرط الغائية ، أعنى ضرورة وجود غاية خارجية يجب على المرء العمل على بلوغها . فما هى الغاية التى يبغى الموسوس بلوغها وتحقيقها ؟ إننا نجد أن الوسواس — وقد أخذ بمجامع شخصيته — يحول دون تحقيق أى غاية يمكن أن يستهدفها ذلك الشخص الموسوس . ولنأخذ مثالا بالطالب الموسوس . إنه بالطبع يتمنى النجاح فى امتحان آخر العام . فهل يتآزر فكره ووجدانه وإرادته لتحقيق هذه الغاية ؟ الإجابة بالنفى وذلك لعدم تعاون جميع هذه المقومات الثلاثة الأساسية لتحقيق هذه الغاية .

وهنا ينبغى أن نقرر أن ثمة نزاعا داخليا وانقساما خطيرا يقع فى إطار شخصية الموسوس ؛ فهو يترسم الهدف الذى يبغى تحقيقه فى حياته من جهة ، كما أنه يجد من جهة أخرى أن الوساوس قد أخذت بخناقه وأسرته شر أسر وأدومه ، بحيث لايستطيع منها فكاكا ، بل ولايستطيع أن يتخفف من غلوائها أو أن يزيحها عن منكبيه . بيد أن الموسوس لايستطيع فى نفس الوقت أن يستسلم للوساوس . إنه يحس بأنها تمثل عبئا ثقيلا عليه ، فيتمنى أن يتخلص منها ، بل إنه يحاول أيضاً ذلك باذلا قصارى جهده لتحرير نفسه من عبوديتها ولكن دون جدوى . وأنى له أن يصير حرا من الوساوس وهى التى استشرت كخلايا سرطانية فى نسيج كيانه النفسى ؟ فالمعركة تظل إذن محتدمة فيما بين قوامه النفسى العليل بالوسوسة وبين أهدافه وواجباته الاجتماعية نحو نفسه ونحو الآخرين من حوله . ولعله يشاهد الفشل وهو ينشب أظفاره فى شخصيته. ولعله أيضاً يأمل فى التخلص من وساوسه بقدرة قادر وبمعجزة تهبط عليه من السماء فجأة . ولكن ترنح الموسوس بين الأمل واليأس كبندول ساعة لايهدأ ولا يقف ، إنما يؤدى به إلى الشعور بالتعب والوهن . ولقد نقول إن الأحساس بالنهكة يخيم على شخصية الموسوس ، إنما يشكل عاملا جديداً يمكن إضافته إلى عامل الوسوسة ، فتزداد حياته تشاؤما وقتامة . ولكنه برغم

ذلك يظل مترنحاً بين اليأس والرجاء ، أو بين تحقيق أهدافه الخارجية وبين التضعضع والخنوع تحت وطأة الوسوسة والنهكة الناجمة عن الصراع النفسى فى نفس الوقت .

وماذا عسى أن تكون نتيجة ذلك كله ؟ إنه ضعف الشخصية وهو ما يمكن أن نعرفه فى عبارة قصيرة بأنه عجز المرء عن تحقيق أهدافه التى تراوده ، وعدم القدرة على التغلب على العقبات التى تقف حائلا بينه وبين تحقيق تلك الأهداف التى يترسمها بذهنه ويصبو اليها بفؤاده فى نفس الوقت .

التوافق الاجتماعى :

يحسن بنا أولا أن نحدد معنى التوافق الاجتماعى قبل تناول أثر الوسوسة فى تعويق ذلك التوافق والحيلولة دون تحقيقه بطريقة جيدة . ولعلنا نفعل كدأبنا على تقديم معنى التوافق الاجتماعى فى بنود حتى تتضح فكرته ، فنقول إن التوافق الاجتماعى يعنى :

أولا — فهم واستيعاب العلاقات الاجتماعية القائمة بالموقف بغير تحريف أو بغير زيادة أو نقصان . ذلك أن الشخصية التى لاتتمتع بالتوافق الاجتماعى كثيراً ما لاتفهم العلاقات الاجتماعية القائمة بالموقف . فهى تفهم تلك العلاقات أو بعضها فهما زائغا عن حقيقتها . من ذلك مثلا عدم تفهم الموظف المفتقر للتوافق الاجتماعى علاقات الرؤساء بالمرءوسين وعلاقات الزملاء بعضهم ببعض .

ثانيا — تقديم انفعالات مناسبة للموقف . فالشخص غير المتوافق اجتماعيا يضحك حيث لايوجد مبرر للضحك ، ويبكى بسبب أشياء لاتبكى ، ويهيج ويغضب لأشياء لاتهيج ولاتغضب الأشخاص الأسوياء العاديين . فهنا نلاحظ أيضاً سوء ترجمة الشخص المفتقر للتوافق الاجتماعى لما يقال له ،

ولما يقع من تصرفات تصدر عن الآخرين من حوله . ولذا فانك تجد مثل هذا الشخص كثير المنازعات والخصومات ، بل إنه قد يرتمى فى أحضان أشد أعدائه نقمة عليه وتربصا به ، وذلك لأنه لايستطيع تمييز ما يقال له أو ما يوجه إليه من أعمال وتصرفات .

ثالثا — التحكم فى اللسان وفى حركات اليدين . فالشخص غير المتوافق اجتماعيا لايستطيع أن يلجم لسانه إذا كان الموقف يتطلب إلجام اللسان ، كما أنه لايستطيع الامتناع عن بعض الحركات التى تؤذى مشاعر الآخرين أو توغل صدورهم . فثمة زيادات فيما يبديه من كلام أو حركات ، بل هناك أيضاً ما يضيق أو ما يثير حفيظة الآخرين من كلامه أو حركاته أو تصرفاته . وعلى العكس من ذلك فان الشخص المتوافق اجتماعيا يعرف كيف يستخدم لسانه أو قلمه ، وكيف يتحرك ويشير ويقف ويجلس وقد فهم أن لكل مقام كلاماً يقال وحركات تؤدى وملامح تبين ، وأن الزائد من السلوك ينبغى الامتناع عن أدائه ، وأن السلوك المؤدى يجب أن يكون مكتملا من جهة ، ونقيا من الشوائب من جهة أخرى .

رابعاً — التوافق الاجتماعى يعنى أيضاً حسن التصرف فى المواقف المتباينة. فالشخص المتمتع بالتوافق الاجتماعى يستطيع أن يحصل من كل موقف أحسن وأجدى النتائج والفوائد الممكنة التى تعود عليه وعلى غيره من أشخاص، كما أنه من جهة أخرى يستطيع أن يتجنب الضرر بقدر الإمكان وأن يحمى الآخرين فى نفس الوقت من وقوعه عليهم وإصابتهم به .

خامسا — أخيراً فان التوافق الاجتماعى يعنى التمسك بمجموعة من المبادىء التى يستهدى بها المرء فى المواقف المتباينة . ويعرف الشخص المتوافق اجتماعيا الفرق بين المبادىء المطلقة وبين المبادىء النسبية . فبالنسبة للمبادىء المطلقة فانه يستمسك بها لايتنازل عن شعرة واحدة منها ، ولايكون حاله كذلك بالنسبة للمبادىء النسبية التى يستطيع تليينها وتطويعها فى ضوء المواقف والظروف المتباينة . ولنضرب مثالا للمبادىء المطلقة بالتزام الزوج والزوجة

بالشرف وعدم إقامة علاقات جنسية خارج نطاق عش الزوجية ، ومن المبادىء النسبية التنازل عن بعض الحقوق فى سبيل استمرار العلاقات الودية أو فى سبيل درء خطر أو وقوع ضرر .

وبعد أن استعرضنا معنى التوافق الاجتماعى فان علينا بعد هذا أن نتناول أثر الوسوسة فى الحيلولة بين المرء وبين تحقيق ذلك التكامل فى حياته مع الآخرين ، وفيما يقيمه من علاقات أو فيما تفرضه عليه الظروف والمواقف من علاقات اجتماعية . ولعلنا نتصفح ذلك الأثر فيما يلى :

أولا — نلاحظ من الناحية العقلية أن الموسوس يجتزىء بفكرة أو ببضع أفكار قليلة كمحاور ذهنية يدور حولها فحسب ، ولايريم عنها أو يتخلى عن إحداها أو يعدل فى ملامحها . فهو صاحب فكرة أو أفكار قليلة تسيطر عليه وتأخذ عليه جماع فكره . ومن ثم فانه لايستطيع أن يوسع عقله لفهم المتغيرات الاجتماعية الكثيرة والدائبة على التنوع والتباين . فبينما يمثل عقل الموسوس للثبات — أو قل بتعبير أدق للجمود — فان عالم العلاقات الاجتماعية من حوله يمثل للتغير والخصوبة والتباين والتدفق .

ثانيا — ومن هنا فاننا نجد أن الموسوس لايستطيع أن يتواءم مع ما يقوم حوله من علاقات اجتماعية . وذلك لأن هناك تعارضا شديداً فيما بين دخيلته الجامدة وبين العلاقات الاجتماعية المرنة .

ثانيا — إن الشخص الموسوس يصبغ أفكاره الضئيلة والمتسلطة فى نفس الوقت بصبغة وجدانية تتسم بالعداء غالبا للآخرين . فهو ينغلق على عالمه الداخلى الخاص به ، وقد أخذ ينظر بنظرة توجس وارتياب إلى العالم الخارجى بل وإلى كل تأثير يصدر عن أى شخص آخر يوجه إليه . ومن المؤسف أن الناس من حول الشخص الموسوس مهما حاولوا إثناءه عما يتسلط عليه من فكر وسواسى وعن تلك الصبغة الوجدانية القاتمة التى تخيم عليه فانهم يفشلون فى ذلك . فكل ما يحاولون ابداءه له من تعاطف معه أو حب له ، إنما يجد لديه تفسيراً مخالفا ومباينا بل ومناقضا للحقيقة . فهو يعتبر أن التودد إليه بمثابة خوف

منه أو بمثابة خديعة تحاك ضده للإيقاع به وزحزحته عن مبادئه . ذلك أن أتفه الأفكار وأسخفها تعتبر فى نظر الموسوس مبادىء مطلقة لايجوز التنازل عنها أو تليينها أو إبدال غيرها بها .

ثالثا — ويترتب على هذا الموقف العقلى الوجدانى لدى الموسوس الفشل فى الحياة العملية وعدم القدرة على التكيف لواقع الحياة . من هنا فانك تجد الموسوسين فاشلين اجتماعيا واقتصاديا فى حياتهم العملية . ذلك أنهم يريدون إخضاع الواقع لما يعتمل فى الذهن من أفكار ضحلة غير متطورة ، وهذا بالطبع يفوت عليهم ملاحقة الأحداث والتكيف للوقائع الجديدة واقتناص الفرص المتاحة واستغلال ما يتوافر بالموقف من امكانيات للنجاح والتبريز والتوفيق .

رابعا — وفى ضوء ما سبق يمكن أن نلاحظ أيضاً أن الشخص الموسوس لايستطيع أن يتطلع إلى المستقبل بحال من الأحوال . والواقع أن التطلع إلى المستقبل يرتبط ارتباطا مكينا بالقدرة على التوقع والتنبؤ . ولعلنا لانخطىء إذا قلنا إن التوقع والتنبؤ بالمستقبل يتطلبان إحراز قدرات عقلية ذات مواصفات معينة نوجز ملامحها فيما يلى (ا) الإلمام بمعطيات الموقف المتباينة . (ب) التمكن تمكنا تاما من إقامة علاقات متباينة ودقيقة بين تلك المعطيات المتحصلة من الواقع الخارجى(ج) ضم تلك المعطيات المستفادة من الخارج إلى الحصيلة الخبرية التى سبق للمرء الحصول عليها خلال فترة حياته الماضية . (د) الافادة من الخلاصات والنتائج التى سبق للمرء الخلوص بها من واقع الحياة خلال تعامله مع الناس . (ه) التمتع بنظرة موضوعية متحررة من قيود الوساوس فيكون الشخص قادراً على مشاهدة الأمور المطروحة أمام ذهنه كما هى لا كما يريد أن يراها عليه . (و) الامتداد بالبصر الذهنى — أو بتعبير أدق بالبصيرة — إلى النتائج المتوقعة كامتداد موضوعى للواقع الراهن والعمل على توظيف الأفكار المستفادة وما اكتسبه المرء من مهارة على الاستدلال فى كشف آفاق المستقبل القريب والمستقبل البعيد . والواقع أنه كلما كان المرء متمتعا

بالحرية الفكرية وبالخصوبة الذهنية وبالقدرة على إقامة علاقات دقيقة بين المعطيات الآنية والقديمة ، كان بالتالى قادراً على كشف المستقبل والتنبؤ بما سوف يقع من أحداث وبما سوف ينشأ من علاقات . وهذا كله لايتوافر للشخص الموسوس .

خامسا — أخيراً فان الوساوس الأدائية — حيث يكون الموسوس أسيراً لمجموعة من الأداءات المنبثقة عن عقله المريض — تحول بينه وبين آفاق الأعمال الرحبة . ذلك أن الوساوس الأدائية — أعنى الأعمال القهرية — تحول بين الموسوس وبين تخصيب واقعه العملى . فالعمل القهرى يسجنه فى إطاره فتأتى حركاته محصورة فى ذلك الاطار الضيق ، فلاينفتح على الواقع العملى المحيط به ، بل إنه يعجز عن اكتساب المهارات اليدوية المتباينة ، فلا يستطيع حتى مجرد الاحساس بأهمية اكتساب مهارات جديدة أو الإتساع إلى آفاق عملية أكثر رحابة . فكما أن الموسوس ذهنياً ووجدانياً لا يستطيع أن يتخلص من وساوسه العقلية الوجدانية ، كذا فان الموسوس الأدائى يكون سجين تلك الوساوس أو الأعمال القهرية وقد كبلته بقيودها وجعلته يرسف فى أغلالها . وبذا فان الموسوس يفشل فى حياته العملية ولايستطيع شق طريقه فى الحياة حتى فى أبسط الأعمال التى لاتحتاج إلى مهارات معقدة أو دقيقة .

توجيه الطاقة النفسية :

من الحقائق المعروفة أن السلوك الإنسانى مثلث الأضلاع : الضلع البيولوجى ، والضلع الوجدانى الانفعالى ، والضلع العقلى . وثمة فى الواقع تأثير متبادل بين كل ضلع من هذه الأضلاع الثلاثة بازاء الضلعين الآخرين . بيد أن الأساس فى بناء الشخصية الإنسانية هو ذلك الأساس البيولوجى . فالانسان كائن حى أولا وقبل كل شيء . وشاهد ذلك أن الإنسان جنيناً ووليداً لايعدو أن يكون كيانا بيولوجيا لايتعين فيه نشاط عاطفى أو نشاط عقلى ، بل يتبدى فيه النشاط الفسيولوجى الأساسى أعنى الاغتذاء والهضم والإخراج والنوم . ومن هذا الأساس البيولوجى تنشعب المناشط الأخرى

التى تضطلع بها الشخصية الإنسانية وقد قيض لها النمو والتفتق والتفاعل مع المؤثرات البيئية مع الخضوع لقوانين نمو الشخصية الإنسانية ولمراحل النمو المحددة مسبقاً لجميع أبناء النوع البشرى .

ومع تطور الشخصية ونموها وتطورها فاننا نجد إلى جانب الطاقة الحيوية البيولوجية التى أفعم بها الكائن البشرى طاقتين أخريين هما الطاقة الوجدانية والطاقة الذهنية العقلية . ولعلنا نجمع الطاقات الثلاث : الطاقة البيولوجية والطاقة الوجدانية والطاقة الذهنية العقلية تحت لافتة واحدة ومسمى واحد هو الطاقة النفسية . فأنت فى حياتك وفى أدائك لمناشطك اليومية توجه هذه الطاقة العامة نحو المنافذ المناسبة لما تبغيه من سلوك . فاذا كان السلوك الذى تبغيه هو سلوك جسمى ، فانك توجه طاقتك النفسية وجهة جسمية فتكون طاقة بيولوجية . وإذا كان السلوك الذى تبغيه هو سلوك وجدانى عاطفى انفعالى فان جانبا من طاقتك النفسية يوجه وجهة وجدانية انفعالية فتصير تلك الطاقة النفسية طاقة وجدانية انفعالية . وأخيرا فاذا كان السلوك الذى ترمى اليه هو سلوك ذهنى عقلى ، فانك توجه جانبا من طاقتك النفسية وجهة ذهنية عقلية فتستحيل الطاقة البيولوجية إلى طاقة ذهنية عقلية .

ويحسن بنا أن نستعرض سمات الطاقة النفسية حتى يتسنى لنا بعد هذا أن نقف على أثر الوسوسة فى تلك الطاقة النفسية ومعاكستها للتوجيه السديد لتلك الطاقة النفسية .

السمة الأولى — إن الطاقة النفسية مفطورة فى الإنسان ولكنها فى نفس الوقت طاقة متجددة بصفة مستمرة . ولولا تجدد تلك الطاقة النفسية لكانت اذن قد نفدت ، ولما استطاع الإنسان مواصلة نشاطه ، ولما استطاع الإتيان بأنواع السلوك المختلفة وممارسة المناشط المتباينة فى حياته .

السمة الثانية — إن هذه الطاقة النفسية على أكبر جانب من المرونة والقابلية للتشكل والتلبس بالصيغ المناسبة الكثيرة والمتباينة . فما يكاد المرء يستهدف هدفا معينا فى سلوكه حتى يجد أن طاقته النفسية قد استجابت للصيغة الجديدة

المطلوبة فتستحيل اليها . فاذا كنت تريد بذل جهد جسمي عضلي لرفع ثقل ما من مكان لآخر مثلا ، فان طاقتك النفسية تستحيل فى التو واللحظة إلى طاقة عضلية وتتجه بالقدر المناسب إلى العضلة أو العضلات المنوطة بالمهمة العضلية فتفعمها بالنشاط والحيوية . والواقع أن العضلات مهما كانت مفتولة وصلبة وقوية ، فانها لاتستطيع أن ترفع كرسيا من مكانه بغير أن تصل اليها الدفعة المناسبة من الطاقة النفسية العضلية . ومن حسن الحظ أن هناك تآزرا ومواكبة بل وآنية فيما بين النشاط العضلى المؤدى وبين تدفق الكمية المناسبة من الطاقة الحيوية العضلية إلى العضلات المسئولة عن القيام بالعمل المعين . ولكن إذا كانت كمية الطاقة الحيوية العضلية أقل من اللازم نتيجة التقدير الخاطىء للثقل الموجود ، كأن يظن المرء أن الصندوق المطلوب رفعه خفيف ، واذ به ذو وزن كبير جدا ، فان العضلات عندئذ تنهار وتعجز عن العمل وقد تصاب فى هذه الحالة بالتمزق . وما يقال عن الطاقة الحيوية العضلية وموقفها بازاء العضلات ينسحب بنفس الصدق بازاء باقى أنواع الطاقات الحيوية الأخرى فى علاقاتها بالمناشط المتباينة المناسبة لها والمرتبطة بها .

السمة الثالثة — تكامل الطاقات الثلاث التى ذكرناها بعضها مع بعض . فهى إلى جانب انبثاقها من طاقة واحدة عامة هى الطاقة النفسية ، فان كل طاقة فرعية من الطاقات الثلاث ، أعنى الطاقة البيولوجية والطاقة الوجدانية الانفعالية والطاقة الذهنية العقلية تؤثر بعضها فى بعض تأثيرا بعيد المدى ، بل إنها تعمل فى خطوط متوازية من جهة ، وتتداخل بعضها مع بعض فى قطاعات مشتركة من جهة أخرى .

وبعد أن استعرضنا هذه السمات الثلاث الأساسية للطاقة النفسية ، فاننا نأخذ فى تناول العلاقة بين الوسوسة وبين توجيه الطاقة النفسية ، وكيف أن الوسوسة تعاكس أو تعطل عمل الطاقة النفسية . ونستطيع فى الواقع أن نستبين هذا التأثير فيما يلى :

أولا — تدفق الطاقة النفسية نحو وجهات معينة دون غيرها . ذلك أن الوسوسة — سواء كانت وسوسة عقلية أم وسوسة وجدانية أم وسوسة

أدائية — تعنى فى نفس الوقت التركيز على جانب معين دون باقى الجوانب الأخرى . فالمصاب بالوسوسة العقلية يركز ذهنه فى فكرة لايريم عنها ، والمصاب بالوسوسة الوجدانية يركز وجدانه فى انعطاف وجدانى عاطفى ضيق النطاق لايخرج عن حدوده بل يظل حبيسه باستمرار ، وكذا الحال بالنسبة للمصاب بالوسوسة الأدائية حيث ينحبس فى نطاق حركات بعينها لايستطيع أن يتخلص منها . والواقع أن الموسوس لايستطيع أن يتحرى العدالة فى توزيع طاقته النفسية . فهو لايكتفى بمجرد توجيه طاقته النفسية وجهة واحدة بتحويل طاقته النفسية إلى نوعية واحدة — بيولوجية أو وجدانية أو أدائية — بل إنه يبالغ حتى فى تركيز طاقته المنحاز اليها فى شيء واحد بالذات ضيق النطاق وجديب كل الجدب وضحل كل الضحالة .

ثانيا — من حيث مدى الافادة من الطاقة النفسية . فالموسوس لايكتفى بتوجيه جل طاقته النفسية وجهة واحدة ضيقة ، بل إنه لايفيد من تلك الطاقة المركزة التى يوجهها إلى جانب ضيق من سلوكه . فليس ثمة تحسن يحدث فى السلوك المؤدى أو المضطلع به . فالفكر أو الوجدان أو الأداء الوسواسى يستمر فى الأداء على نفس الوتيرة وعلى نفس النحو بغير أدنى تغيير أو تعديل. ومعنى هذا فى الواقع أن الموسوس يبدد طاقته فى غير ما طائل أو فائدة .

ثالثا — إن الطاقة النفسية التى يحاول الموسوس توجيهها لأداء مهامه وللاضطلاع بمناشطه المتباينة المغايرة للناحية التى تتركز حولها وساوسه لاتكون طاقة كافية من جهة ، ولاتكون طاقة ناجعة وذات فاعلية من جهة أخرى. فالطبيب الموسوس لايستطيع أن يعالج مرضاه بطريقة سليمة ، وكذا يكون المدرس والنجار وكل شخص فى أى موقع من مواقع الحياة . فما لم يكن المرء سويا ، فانه لايستطيع توجيه الطاقة المناسبة للعمل المطلوب ، كما أنه لايستطيع تسديد الطاقة نحو الهدف المرجو تسديدا دقيقا . ومن ثم فان جانبا كبيرا من طاقته الموجهة نحو العمل المرجو يطيش عن هدفه ويبعد عن مقصده .

رابعا — يتأتى عن توجيه الطاقة النفسية الوجهة التى يسيطر عليها الوسواس إصابة الشخصية بالضعف والذبول ، بل إن احساس الموسوس بأنه

لايستطيع إنجاز أعماله على خير وجه ، ومن ثم فانه يحس بالفشل . وواضح ان هذا يؤدى إلى زلزلة الشخصية وإصابتها بالخور والضعف .

خامسا — بيد أن هذا الخور أو الضعف يؤدى بدوره إلى نشوء كثير من الأمراض النفسية واعوجاجات السلوك المتباينة . ولسنا نخطىء إذا قلنا إن المرض النفسى كالاصابة بالوساوس العقلية والوجدانية والأدائية لاتظل على حالها ، بل تشتد ضراوة وخطرا على باقى مقومات الشخصية . فالموسوس يصير عرضة لأمراض نفسية أخرى كالمخاوف المرضية أو جنون العظمة أو الأعراض الهستيرية . ذلك أن الطاقة النفسية إذا لم توجه التوجيه السليم ، أو إذا اختزنت دون توجيه ، فان الشخصية تصاب بأضرار بالغة . فثمة اتزان بالشخصية الإنسانية السوية كذلك الاتزان الموجود بالقشرة الأرضية . ولكن عندما تتجه الطاقة الموجودة فى باطن الأرض بتركيز نحو جانب معين من القشرة الأرضية ، فان الزلازل تقع والبراكين تتفجر وتفقد الأرض اتزانها . ولعلنا نصف الوسوسة بأنها الزلزال الذى يصيب الشخصية نتيجة تركيز الطاقة النفسية فى جانب معين بالشخصية دون باقى الجوانب الأخرى منها .

القدرة على الابانة :

الإبانة هى التعبير عما يدور بخلد المرء من وجدانات وانفعالات وأفكار واتجاهات . وهى تتشكل من جانبين أساسيين : المضمون من جهة وطريقة الأداء من جهة أخرى . وتختلف الابانة من شخص لآخر باختلاف السن والثقافة والجنس والجنسية ، كما تختلف من مجموعة من الناس إلى مجموعة أخرى . فهى تتباين بتباين الثقافات والعادات والتقاليد والدين والقيم الأخرى المتباينة .

وهناك مجموعة من الشروط التى يجب أن تتوافر لدى المرء لكى يوصف بأنه متمتع بالقدرة على الإبانة . ولعلنا نلخص تلك الشروط فيما يلى :

أولا — الخصوبة المعرفية : فلقد لوحظ أن الشخص المتمتع بمعرفة غزيرة يكون أقدر من شخص آخر أقل غزارة . وأكثر من هذا فان الشخص

المبين إذا قدر عليه الانقطاع عن مصادر المعرفة كأن يلقى به فى سجن انفرادى لمدة طويلة نسبيا ، فان قدرته على الابانة تأخذ فى الخفوت والضعف . وعلى نفس المنوال نقول إن الشخص الواحد عندما تزيد معرفته فى أحد المجالات فانه يكون أكثر إبانه فيه عن قدرته هو نفسه على الابانة فى مجال آخر يكون أقل ثقافة وعمقا فيه . وواضح أيضاً أن تنوع المعرفة مع غزارتها يؤديان بالتالى إلى تفاعلها بعضها مع بعض مما ينتهى إلى إتاحة فرصة أكبر أمام المرء للإبانة .

ثانيا — سلامة أجهزة النطق من حيث بنائها الفسيولوجى ومداومة المرء على تدريبها على الابانة . فبغير أن تكون أجهزة النطق سليمة ، فان التدرب على الابانة يكون عبثا ، والعكس أيضاً صحيح . فان التدرب لايصلح أجهزة النطق . بيد أنه ينبغى أن نميز بين عيوب فى النطق تتأتى عن فساد فى أجهزة النطق ذاتها ، وبين عيوب تتأتى عن سوء التدرب والنطق بطريقة خاطئة نتيجة التقليد المشوب بالخطأ ، أو نتيجة تقليد أشخاص لديهم عيوب فى النطق. ولكن لوحظ أن بعض الناس المصابين بعيوب خلقى فى أجهزة النطق قد استطاعوا أن يعوضوا عن النقص أو العيب الموجود فى نطقهم بالتفوق فى النطق فى باقى الحروف أو المخارج التى لاتتأثر بما أصيبوا به من عيب خلقى .

ثالثا — التعويض عن الابانة الشفوية بالابانة الكتابية أو بالابانة الفنية بالرسم أو بالنحت أو بالموسيقى . ونحن وإن كنا نصف هذه الوسائل بأنها بدائل عن الكلام المنطوق ، فاننا من جهة أخرى نرى أنها صارت ذات كيان قائم بذاته . ولكن الواقع أن القول بأن تلك الوسائل التى لايستخدم فيها النطق اللفظى المباشر هى بدائل للابانة الكلامية إنما هو قول صحيح فى نفس الوقت . ولقد نقول على الأقل إن تلك البدائل تكمل مايستشعره المرء من نقص فى الابانة اللفظية الكلامية .

رابعا — انسجام التعبير الكلامى مع باقى جوانب السلوك المستخدمة فى الموقف . فالكلام والتحدث مع الآخرين ليس سلوكا فى فراغ ، بل هو سلوك متكامل مع غيره من جوانب السلوك المتواجدة بالموقف . فنحن نقيم

مجموعة من الاتصالات بالآخرين بضمنها التعبير الكلامى . ولعلنا نقرر بأكثر دقة أن التحدث مع الآخرين إنما هو عملية تعاونية لايستقل فيها شخص عن غيره . فأنت عندما تتحدث مع غيرك ، فانك تكون بذلك مشيدا بناء معنويا متكاملا لايمكن الاجتزاء بجانب منه دون بقية الجوانب . والواقع أن هذا البناء يكون بناء مضعضعا إذا لم يكن مرصوصا وملتحما بعضه ببعض على نحو جيد . ولقد نلاحظ أن بعض مايجرى من حديث بين الناس يكون مفككا وغير مرصوص وغير ملتحم بعضه ببعض ، ومن ثم فانه يكون قابلا للانهيار والتلاشى . فالحديث الناجح بمثابة شركة بين شخص وآخر أو بين شخص وآخرين . فاذا ما عمد أحد المتحدثين إلى الاستيلاء على نصيبه ونصيب غيره ، ونصب من نفسه متحدثا وحيدا فى الجلسة ، فانه يكون بذلك قد عمل على افساد المجلس مهما كان كلامه شائقاً ممتعاً . فالواقع أن كل شخص موجود بمثل تلك الجلسة يكون قد اغتصب حقه فى التعبير عن نفسه والابانة عن بعض الجوانب التى يعرفها . بيد أن من حق كل شخص موجود بالجلسة أن يتنازل عن حقه فى الكلام ولكن بمحض إرادته وليس نتيجة وجود شخص ثرثار بالجلسة يغتصب حقوق الموجودين فى الكلام .

خامسا — تحقيق التوازن بين مضمون الكلام وبين الكلام المستخدم فى الابانة عن ذلك المضمون ولكن مسألة الاتزان الذى نقصده إنما هى مسألة نسبية . فمن يتحدث إلى الأطفال أو إلى مجموعة من القرويين غير المستنيرين ، فان عليه لكى يحقق التوازن بين المضمون المعرفى وبين مايقوله من كلام أن يجعل الكلام أوسع وأغزر من المضمون . ولكن نفس ذلك الشخص إذا ما تناول نفس الحديث أمام مجموعة من العلماء والمتخصصين فى الموضوع الذى يتناوله ، فان كلامه يجب أن يكون على قد المضمون بغير زيادة أو نقصان . وهناك أيضاً مجالات وأذواق متباينة تختلف من بيئة إلى أخرى ومن شخص لآخر فيما يتعلق بتوازن المضمون مع الكلام المنطوق . فثمة بيئات وثمة أمزجة شخصية ترنو إلى أن يكون الكلام أغزر من المضمون المعرفى ، كما أن ثمة بيئات وأمزجة ترنو إلى أن يكون الكلام مضغوطا بحيث

لايكون متخلخلا ويكون مساويا للمضمون لا أكثر منه ولا أوسع ، وبحيث لايمكن حذف كلمة واحدة منه .

وبعد أن عرضنا لهذه الشروط الخمسة التى يجب توافرها لدى المرء لكى يوصف بأنه قادر على الابانة ، فاننا نبدأ فى عرض أثر الوسوسة فى حرمان الشخص الموسوس من القدرة على الابانة . وهذا الأثر يتضح فيما يلى :

أولا — تسلط فكرة ما أو مجموعة محدودة من الأفكار على عقل الموسوس فيجعل قدرته على الابانة ضعيفة . ذلك أن حديثه لايدور إلا حول ذلك المحور أو تلك المحاور القليلة الفجة . ولقد سبق أن اشترطنا الخصوبة المعرفية لتوفير القدرة على الابانة لدى المرء .

ثانيا — فى بعض الحالات تكون الوسوسة لفظية كلامية فتتسلط بعض العبارات أو الكلمات على لسان الشخص فلا يستطيع ذبها أو التخلص منها أو استخدامها فى الأماكن المناسبة من الحديث فحسب ولكن دون جدوى . والواقع أن مثل هذه الوسوسة اللفظية تمثل عائقا أمام الاستزادة المعرفية ، بل إنها تشكل أيضاً عقبة أمام القدرة على الابانة يتمتع بها الشخص العادى غير الخاضع لمثل تلك الوساوس اللفظية .

ثالثا — تعمل الوساوس الوجدانية على عرقلة الابانة . فلقد تسيطر على قلب الشخص بعض المخاوف الغامضة أو بعض المخاوف المتعلقة بالمكان أو بالزمان ، فيؤدى هذا إلى عرقلة الابانة والقدرة على التعبير عن خلجات النفس وعن المعانى التى تدور بذهن المتكلم .

رابعا — تؤدى أيضاً بعض الوساوس الحركية على تعطيل الابانة . فلقد تسيطر حركة ما على الشخص ، فلا يستطيع أن يسيطر على عقول من يتحدث اليهم . إنهم قد يسخرون منه أوقد يبتسمون ابتسامات السخرية منه ، فيجد نفسه غير قادر على تركيز الذهن فيما يقول ، بل إن الكلام يبدأ فى التعثر على لسانه ، فتتحطم عباراته وتتداخل ألفاظه وقد ينطق بكلام غير مفهوم أو غير واضح .

خامسا — قد تعمل بعض الوساوس العقلية والوجدانية على فرض نفسها على عقل وكلام الشخص الموسوس فيعلن أفكارا غريبة شاذة عن المألوف . ولقد تصل الحالة بالموسوس إلى حد اعتباره شخصا مجنونا وذلك لسيطرة تلك الوساوس على كلامهوعدم تقديم المعقول من المفاهيم والسليم من الأفكار.

ولعلنا نزعم فى نفس الوقت أنه بينما نجد أن الوساوس تؤثر تأثيراً ضارا على الابانة ، فاننا نجد من جهة أخرى أن العجز عن الابانة السليمة يمكن أن يتسبب بدوره فى نشوء الوساوس لدى المرء . فلقد نجد أن المصاب بعاهة فى أجهزة النطق لايستطيع الابانة عما يقصده من كلام ، وقد استولت عليه الوساوس من أى نوع . فهو يخضع للمرض النفسى والوسوسة اللفظية أو الوسوسة الوجدانية أو الوسوسة الأدائية . ومعنى هذا فى الواقع أن ثمة تأثيرا تبادليا فيما بين الوساوس والقدرة على الابانة . فكما أن الوساوس تعطل القدرة على الابانة ، فان العكس يصح أيضا ، اذ يؤثر العجز عن الابانة فى إحداث الوساوس. وثمة تعقد مستمر ينشأ لدى الموسوس فى قدرته على الابانة ، مما قد ينتهى به فى نهاية المطاف إلى التدهور فى الابانةلدرجة الامتناع التام عن الكلام والانقطاع عن الناس .

أغتنام الفرص المتاحة :

لايختلف اثنان على أن الحياة تتضمن ظروفا مواتية فى بعض الأحيان وظروفا معاكسة فى أحيان أخرى . ولعل الفرق الأساسى بين شخص وآخر هو أن الواحد منهما يستغل الظروف أو الفرص المتاحة ولايتركها تفلت منه ، كما أنه يصبر على الظروف المعاكسة حتى تمر وتتفتح أمامه الظروف أو الفرص المواتية من جديد . أما الشخص الآخر فانه لايتحين الفرص المواتية يستغلها كما أنه لايصبرولا يتحمل الظروف المعاكسة إلى أن تمر بسلام . ولعلنا فى هذا المقام نركز على اغتنام الفرص المتاحة فنحاول جلو معناه والابانة عن مناحيه المتباينة ، فنقول إن اغتنام الفرص يعنى :

أولا ــ أن يغتنم المرء مزايا مرحلة النمو التى يمر بها وهى المزايا التى قد لاتتوافر فى مراحل العمر التالية : فمن الحقائق المعروفة فى علم النفس أن كل مرحلة من مراحل النمو تختص بمجموعة من المزايا . من هذه المزايا ما كان متعلقا بالتعلم . فمثلا نلاحظ أن مرحلة الطفولة تتسم بالقدرة على الحفظ الاستظهارى وبخاصة ما كان مرتبطا بنغمة وإيقاع بسيطين . ومن المعروف أيضاً أن مرحلة الشباب هى مرحلة بذل الجهد الكبير ، فهى مرحلة تسمح للمرء السوى بأن يضطلع بالمشروعات الضخمة . فاذا لم يستثمر المرء الامكانيات والفرص المتاحة له ذهنيا وصحيا واجتماعيا حسبما تمنحه وتوفره له مرحلة النمو التى ينخرط فيها ، فان تلك الفرص تفلت منه إلى غير رجعة وإلى الأبد ، ولاسبيل إلى استرجاع ما فات وفلت .

ثانيا ــ أن يغتنم المرء فرص بزوغ الأفكار الكبيرة والطموحة التى تلمتع فى ذهنه فيحيلها من مجرد فكرة إلى واقع حى موجود بالفعل ولا ينحصر وجوده فى الاطار الذهنى الداخلى . والواقع أن العظماء والعباقرة فى شتى ميادين الحياة هم أولئك الذين اغتنموا فرص التماع الأفكار العظيمة فى الذهن فأخذوا فى رعايتها والسهر عليها ومساندتها وتطويرها وتوفير كل الفرص والظروف لإخراجها إلى حيز الوجود . ولعلنا نقول إن ورود الأفكار العبقرية إلى الذهن ليس من فضل العبقرى أو النابغة ولكن فضله يكمن فى انتهاز فرصة ورود تلك الأفكار إلى الذهن والتماعها فجأة فيه فيعمد بسرعة إلى اقتناصها واستئناسها والقيام بتربيتها واحتضانها والحفاظ عليها من الذبول أو الضياع .

ثالثا ــ أن يغتنم المرء فرصة تمتعه بالشباب والنضارة فيختار شريك الحياة ويحيا حياة زوجية متسمة باللياقة الجنسية ، ولا يدع فرصة الشباب والنضارة تفلت فيأتى زواجه فى هرم أو شيخوخة حيث يكون معين قوته الجنسية قد نضب ، وحيث تكون قدرته على تحمل رعاية الطفولة ضئيلة فلا يقوى على النهوض بمسئولياتهم .

رابعا — اغتنام فرصة التمتع بالصحة الجسمية والصحة النفسية والصحة العقلية وشق الطريق فى الحياة والدأب على اجتلاب أطايبها وحصاد فوائدها ومقاومة مضارها وتذليل عقباتها . فلطالما ندم أناس لأنهم لم يستثمروا وقتا كانوا فيه معافين أقوياء أصحاء .

خامسا — اغتنام الفرص المشروعة المتاحة للارتقاء اجتماعيا وللإثراء ماليا ولتخليد اسم المرء فى سجل الخالدين إذا تيسر له ذلك . والواقع أن قلة من الناس قد استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى المصاف الأمامية من المجتمع فى جبهاته المتباينة . فمن الناس من تبوأوا مكان الصدارة فى السياسة ، ومنهم من فعل ذلك فى الجيش أو فى الإدارة أو فى التعليم أو فى الثقافة بفروعها المتباينة . ومن القلة النادرة من احتلوا مكاناً مرموقا فى مجال المخترعات العالمية كالكهرباء والذرة أو فى الكشوف الجغرافية كما فعل كولمبس وغيره من مكتشفين جغرافيين .

ولعلنا نستطيع أن نحدد السمات الأساسية فى شخصيات المغتنمين للفرص فنجد أن تلك السمات تتلخص فيما يلى :

أولا — السرعة فى التقاط الفرصة السانحة. ذلك أن الفرصة السانحة غالبا ما تكون على هيئة ومضات خاطفة سريعة الظهور وسريعة الانطفاء فى نفس الوقت . ولعل أولئك العباقرة الذين خلدوا أسماءهم فى سجل الخلود كانوا فى حالة ترقب بحذر شديد خشية أن الفرصة تلوح ثم تختفى . ولكأنهم يختبئون وراء شجرة فى غابة على أمل أن يمر غزال بالقرب منهم فينقضوا عليه ويمسكوه بأيديهم . والواقع أن كثيرا جدا من الأفكار العظيمة أو النادرة تلتمع فى أذهان معظم الناس ، ولكنها تفلت منهم قبل أن يتمكنوا من اقتناصها والقبض عليها .

ثانيا — توفير الغذاء المناسب لتلك الحيوانات الذهنية والعمل على استئناسها وترويضها وتطويعها .ذلك أن هذه العمليات من الصعوبة بمكان . فلقد يقتنص المرء فكرة شاردة تواتيه فجأة ولكنه يفشل فى مدها بالغذاء المناسب والعمل

على ترويضها واستئناسها . وبذا فانها ما تفتأ أن تذبل وتموت وكأنها لم تكن . فليس بكاف أن يقتنص المرء أحدى شاردات الفكر ، بل عليه أن يتذرع بالمهارات اللآزمة لنموها وحفظها من الخفوت والضمور والموت .

ثالثا — الافادة من خبرات الماضى فى اغتنام فرص الحاضر . فالمرء ليس ابن ساعته فحسب ، بل هو تاريخ ممتد منذ لحظة ميلاده حتى وفاته . وأكثر من هذا — وبغير مبالغة — نستطيع القول بأن حياة الواحد من الناس تتضمن أيضاً تراث الماضى برمته . ولعلنا نرث عن الماضى مقومات إرثية تنزل الينا من خلال قوامنا البيولوجى ، بل إننا قد نرث أيضاً عن الماضى القريب والماضى البعيد مقومات سيكلوجية على هيئة استعدادات متحفزة للبزوغ إلى سطح حياتنا . ومهما يكن من شيء فما لاشك فيه أننا نجابه الحاضر بخبرات الماضى الشخصية وبخبرات نوعنا البشرى فى نفس الوقت . ولعل التقاط المرء للفرصة التى تبزغ أمامه فجأة يكون سلاحها — أو من أهم أسلحتها — ذلك الماضى الذى عشناه وحملنا منه خبرات متباينة . وواضح أن العالم لايستطيع التقاط واغتنام الفرص الذهنية أو المعملية التى يقع عليها بصره لولا تلك الحصيلة الخبرية العلمية التى سبق له تحصيلها . وكذا يقال عن الشاعر أو المؤلف . إنهما لايستطيعان اقتناص الفرص التى تلتمع فى ذهنهما فجأة على هيئة أفكار والهامات إلا إذا كانت لديهما حصيلة خبرية سابقة . فالشاعر لايستطيع أن ينظم قصيدة بوحى من فكرة طرأت على ذهنه فجأة ما لم يكن قد درب وصارت له مرانة فى فنون قرض الشعر . وكذا الحال بالنسبة للمؤلف . إنه لايستطيع اقتناص ورعاية وإخراج الفكرة التى ترد إلى ذهنه خاصة بموضوع كتاب جديد الا إذا كان له باع سابق فى فن التأليف .

وإذا نحن تأملنا حال الشخص الموسوس — حتى إذا كان على أكبر جانب من الذكاء — وهو بازاء الفرص التى تتاح له فى مجالات الحياة المتباينة بل وحتى فى المجال الذى شب فيه ونما ، فاننا نجد أن الوسوسة تحول بينه وبين اقتناص الفرص المواتية وذلك للأسباب الآتية :

أولا — إنه يكون مسجونا فى إطار فكرة أو أفكار قليلة تهيمن على نشاطه الذهنى . ومن ثم فانه لايستطيع أن يتلقى أفكارا جديدة . فكيف يتم له ذلك وهو مكبل بالوسواس الذى تأخذ عليه مجامع فكره وتستهلك نشاط ذهنه .

ثانيا — إن الموسوس شخص لايستطيع أن يخرج من إطاره الذاتى إلى الإطار الموضوعى . فكيف وحاله هذه أن يلتقط الفرص السانحة التى لها صفة الموضوعية . وحتى بالنسبة للأفكار الذهنية أو الحالات الوجدانية فانها تستعصى على التلبس بأى لباس يعبر عن كيانها الا إذا كان ذلك اللباس موضوعيا . وحيث أن الموسوس يخاصم الموضوعية ويتشبث بالذاتية ، فان الخروج من الاطار الذاتى إلى الاطار الموضوعى يكون من الأمور المتعذرة أو المستحيلة بالنسبة له .

ثالثا — لقد أدخلنا فى إطار الوسوسة ذلك الموقف التذبذى الذى يكون فيه المرء كبندول الساعة . فهو ينتقل من الذاتية إلى الموضوعية ، ولكنه لايلبث أن يعود إلى الذاتية ، ومنها إلى الموضوعية . وحال كهذه لاتسمح للمرء بأن يختمر فكرة أو أن يقى ذهنه من الضمور الذهنى . ذلك أن الفكرة لكى تتبلور أو لكى يكون العمل متكاملا وناضجا ، فلابد من الاستقرار وعدم التذبذب بين الذاتية والموضوعية .

وخلاصة القول إن الشخصية الموسوسة ضعيفة لأنها تكون عاجزة بصفة دائمة عن اقتناص الفرص المتاحة التى نعود فنؤكد أنها تتاح أمام جميع الناس ، ولكن ليس بمقدور جميع الناس اقتناصها ثم الدأب على رعايتها واخراجها من حيز الذاتية إلى حيز الموضوعية وترجمتها إلى واقع الحياة العملية .

الفصل الثالث عشر

الوسوسة والاعتقاد

الوسوسة والمعتقدات الجنسية :

من التناقضات الظاهرية أن نربط بين الوسوسة وبين الاعتقاد . ذلك أن من الشائع فى الأذهان أن الوسوسة تتناقض تناقضا صريحا وغائرا مع الاعتقاد. فالموسوس شخص لايستطيع أن يعتقد فى شيء . والواقع أن هذا التناقض بين الوسوسة وبين الاعتقاد إنما هو تناقض ظاهرى وسطحى ولايمثل الحقيقة من قريب أو من بعيد .فالموسوس شخص شديد الاعتقاد . ويتضح هذا على سبيل المثال والتخصيص فى العلاقة بين الوسوسة والمعتقدات الجنسية . فنحن نزعم أن ثمة بطانة اعتقادية ينبنى عليها السلوك بأضلاعه الثلاثة : الفكر والعاطفة والتصرف . فالاعتقاد الجنسى كثيرا مايبطن السلوك بحيث يكون ذلك الاعتقاد غائرا فى أعماق اللاشعور فيصبغ السلوك بصبغته ، بل إنه قد يقسره على شكل أو على نمط معين بغير أن يتسنى له التحرر من قيوده وشكائمه .

ونستطيع فى الواقع أن نستعرض الحالات التى يبدو فيها الارتباط فيما بين الوسوسة والمعتقدات الجنسية . ولعلنا ننتقى بعض الحالات الهامة على النحو التالى :

أولا — اعتقاد الموسوس أن ثمة خطيئة اقترفها هو أو أحد والديه ، وهى خطيئة جنسية فى طبيعتها . وربما يكون اقترافه لها منذ الطفولة ، وربما يكون اقتراف أحدوالديه لها منذ الطفولة أيضاً ، ولكن آثارها تظل تعمل عملها فى حياته . فيأخذ ذلك الشخص الموسوس فى الانحباس فى إطار هذا الفكر أو الإحساس فلا يستطيع التخلص منه أو التخفف من وطأته . ولقد يصل الأمر به إلى حد عزو كل إخفاق يصيبه فى حياته أو كل معاملة رديئة يلقاها من

غيره أو فساد جهاز ما أو تحطم آنية زجاجية بين يديه إلى تلك الخطيئة الغامضة التي لايتذكرها بتفصيلاتها ولكنه يؤمن ويعتقد أنه لابد اقترفها أو اقترفها أحد والديه .

ثانيا — إعتقاد الموسوس بأن شخصا ما اقترف خطيئة جنسية ثم لامسه أو تحدث اليه ، فانتقلت النجاسة اليه وأصابته فى الصميم . فيدأب على التطهر من تلك الخطيئة المنقولة اليه ولكن دون جدوى . فهو يقوم بالاغتسال وتطهير يديه أو جسمه كله بشتى المواد المطهرة . ولكن أنى له أن يقتنع بأنه صار طاهرا . إن وسواسه يسيطر عليه ويدفع به إلى معاودة الاعتقاد بأن النجاسة قد لاحقته والتصقت به فلا تفارقه على الإطلاق .

ثالثا — إعتقاد الموسوس بأن شخصاً ما أو فئة من الناس فيهم نجاسة جنسية ، ومن ثم فيجدر النأى عنهم أو مهاجمتهم وابادتهم . ولقد تجد بعض أفراد هذه الفئة يعتقدون أن النساء جميعاً يرتبطن بالنجاسة ، أو قل إنهن مخزن للنجاسة ، فينظر الواحد منهم إلى أية امرأة بنظرة ازدراء ويتحاشى مخالطتها أو ملامستها أو لمس أى شيء يكون قد لامسها .

رابعا — يتبدى أيضاً الوسواس الجنسى لدى بعض الموسوسين وقد وقع بصرهم على عملية اتصال جنسى بين كلبين أو قطتين أو طائرين . فهم يجرون وراء تلك الحيوانات أو الطيور ويلقون بالحجارة عليها وقد يصر الواحد منهم أنها أصابته بالنجاسةلدى مشاهدتهلتلك العلاقةالجنسية .ولكن إذا استطاع قتل الحيوانات النجسة— حسب اعتقادهالوسواسى —فانه يكون بذلك قد استطاع أن يلاشى النجاسة .

خامسا — الوسوسة التى تصيب بعض المراهقين وبعض المراهقات وقد نشأوا فى بيئة محافظة ومتكتمةعلى المسائل الجنسية ، فيحسالمراهق نفسه فى حالات الاحتلام ، والمراهقة وقد واتتها الدورة الشهرية حديثا ، بالخطيئة ويظلان لايفكران فى شيء الا فى هذا الموضوع مما يضرب حياتهما بالغم والندم على شيء ما لم يقترفاه فى الواقع . ومما يزيد من شدة وسواسهما

وجود بعض الأفراد حولها يشددان على هذا الشعور لضمان استقامتهما وعدم التردى فى الخطيئة الجنسية مستقبلا .

وبعد أن عرضنا لبعض العينات التى تشير إلى علاقة الوسوسة بالمعتقدات الجنسية فان علينا بعد هذا أن نبحث عن الأسباب التى تدفع إلى اقامة العلاقة بين الوسوسة وبين المعتقدات الجنسية . ولعلنا نوجز أيضاً تلك الأسباب فيما يلى :

أولا — إحاطة المسائل الجنسية بالكتمان الشديد وجعل الحديث فى المسائل الجنسية أو هوامشها من المحاذير . فلا يجد المرء فرصة للتعبير عن أفكاره المتعلقة بتلك المسائل ، فيظل يجيل فكره فيها بغير أن يحيل الفكر إلى كلام . وهذا هو الوسواس بعينه .

ثانيا — معاقبة الطفل أو الطفلة بطريقة قاسية وبالضرب المبرح عندما يضبط وهو يعبث بأعضائه التناسلية . فيترسب لديهما الخوف والرعب مما عسى أن يوقع عليهما من ضرب وإرهاب . ومن يدرى فربما يصدر عنهما العبث بالأعضاء التناسلية وهما فى غفلة من أمرهما أو وهما مستغرقين فى نوم عميق ، فينهال عليهما الأب أو تنهال عليهما الأم بالضرب المفاجىء مع التوبيخ بالصوت العالى وما يتواكب مع ذلك من تشهير وامتهان . فيظل الطفل أو الطفلة فى حالة من الوسوسة الشديدة وقد استحالت الحياة إلى جحيم وخوف مما يمكن أن يحدث بغير توقع أو بغير جريرة مقصودة .

ثالثا — الاعتقاد فى تقسيم الناس إلى فئتين لاثالثة لهما : فئة الأخيار وفئة الأشرار . فاذا ما بدرت من المرء أى هفوة بسيطة ، فانه ينتقل من فئة الأخيار إلى فئة الأشرار . فاذا ما سيطر هذا التقسيم الثنائى على عقل الشاب أو الشابة ، فانهما يحسان بالخطر يحدق بهما من كل جانب ، فيكون أمرهما كأمر الطالب فى الامتحان الذى يرسب ويحكم عليه باعادة العام الدراسى إذا ما أخطأ أى خطأ مهما كان بسيطا . فمثل هذا الشعور يضرب الطالب بالوسوسة لأنه يحس بالخطر المحدق به والمهدد له ، وبضآلة فرصة نجاحه . وعلى نفس

النحو فان من تسيطر عليه هذه الفكرة الإطلاقية يجد نفسه حذرا وخائفا ومتوجسا ، فيخشى ولو من نجاسة تلحق به عن غير قصد أو بالوراثة .

ولعلنا بعد هذا نتناول الآثار التى تترتب على الوسوسة فى الحياة الجنسية للمرء . ذلك أن الوسوسة لها نتائجها بعيدة المدى فى النشاط الجنسى وفى الحياة العاطفية وفى العلاقات الجنسية بعامة . وهذه الآثار تتلخص فيما يلى :

أولا — الاعتقاد فى أن المرء لايشكل موضوعا جنسيا مرغوبا فيه . فلقد تعمل الوسوسة على تصوير الشخص لنفسه بأنه دميم الخلقة وبأنه منفر للجنس الآخر ، وبأنه موصوم بالنجاسة التى تبعد أفراد الجنس الآخر عنه ، حيث يحسون بحقيقته وبخسته .

ثانيا — قد تعمل الوسوسة لدى بعض النساء — وأحيانا لدى بعض الرجال — على إشاعة الاعتقاد لدى المرء بأنه مطارد جنسيا من جميع من يقابلونه من أفراد الجنس الآخر لاغتصابه ، وبذا فان كل حديث يقال يترجم على أنه حوك لخطة وتدبير لمؤامرة للاغتصاب . وكذا فان كل ابتسامة أو كل تحية تعتبر معاكسة وتعبيرا عن الإعجاب الشديد والرغبة فى إقامة علاقات غرامية .

ثالثا — قد تؤدى الوسوسة إلى تجنب أفراد الجنس الآخر والاعتقاد بأن مجرد التحدث مع أى من أفراده هو وقوع فى المحظور . فيفرض الشخص على نفسه حصارا تاما حتى لايقع بصره على وجه أية امرأة وحتى لايصل إلى سمعه صوتها .

رابعا — قد تترتب على الوسوسة الجنسية نتائج وخيمة . فلقد يقوم أحد الموسوسين جنسيا باخصاء نفسه حتى يتخلص تماما من وسواسه الجنسى الملح عليه والمنغص عليه حياته . وثمة حالات قام فيها الموسوسون ببتر الأير حتى يقطعوا على أنفسهم خط الرجعة ، وحتى يحلوا المشكلة حلا جذريا من وجهة نظرهم المريضة .

خامسا — وفى بعض الحالات يكون الاعتداء على الطرف المحبوب لا على ذات الشخص . فيعمد الموسوس الى تشويه وجه حبيبته أو تشويه الجزء المثير جنسيا له ، وقد يصل الأمر إلى حد القتل لا للانتقام من ذات المحبوب ، بل للتخلص من الوسوسة الملحة التى أخذت بمجامع فكر الموسوس ووجدانه جميعاً .

الوسوسة وجنون العظمة :

يحسن بنا أن نحدد معنى جنون العظمة قبل أن نستكشف علاقة الوسوسة به . فنحن نعنى بجنون العظمة megalomania ما يأتى :

أولا — المبالغة فى تقدير الذات . فتجد المصاب بجنون العظمة وقد أخذ ينزه نفسه عن الوقوع فى أى خطأ . فهو شخص معصوم من الخطأ فى نظره . فالوقوع فى الخطأ وقف على الآخرين أيا كانوا ولكن هذا لا يجوز ولا ينطبق عليه بأى حال من الأحوال . ولقد تجد جنون العظمة عند أحد الأشخاص متمثلا فى الناحية المعرفية . فهو يعتقد أنه عليم بكل شيء وأنه جامع مانع فى المعرفة ولا يدانيه أحد فى الفهم أو فى الذكاء . وقد يتمثل جنون العظمة عند شخص آخر فيما يتعلق بالسلوك الأخلاق . فهو يزعم أنه معصوم من التردى فى أية خطيئة مهما كانت بسيطة . فمن الجائز أن يخطىء الآخرون ولكن بالنسبة له ، فان هذا لا يجوز ويعتبر من المسائل غير المعقولة .

ثانيا — المبالغة فى تقدير أخطاء الآخرين وتحميل كلامهم وتصرفاتهم أكثر مما يراه الناس العاديون . فلقد تصدر كلمة أو إشارة أو تصرف مما يمكن اعتباره من الأمور العادية ، ولكنها تمثل بالنسبة للمريض بجنون العظمة مأساة كبرى يجب أن تقلب بسببها الدنيا ظهرا لبطن .

ثالثا — الاعتقاد فى أن هناك سمة خاصة أو خاصة معينة ينفرد بها الشخص تجعله مباينا للآخرين جميعا . فالمصاب بجنون العظمة يحيط نفسه بهالة من التقديس ويجعل نفسه فى مكانة قدسية مهيبة تحول بينه وبين التعامل مع الآخرين أو حتى مخالطتهم أو التحدث اليهم . وهذا الشعور قد يحول بين

المصاب بجنون العظمة وبين التزاور مع الآخرين أو تناول شيء لامسته أيديهم أو مصافحتهم بالأيدى . وكثيرا ما يحول جنون العظمة بين المصاب به وبين الزواج ، وذلك لأنه أو لأنها — تحس بأنها فى منزلة لا يدانيها منها أحد أيا كان.

رابعا — قد يشمل جنون العظمة أسرة الشخص المصاب به . فهو يعتقد أن أسرته فريدة بين جميع الأسر الأخرى . وواضح أن هذا الزعم قد لايكون له أى أساس من الصحة ، ولا يكون له ما يبرره ، إذ قد تكون أسرة المصاب بجنون العظمة من الأسر العادية أو حتى من أفقر الأسر وأخسها وأكثرها جهلا وانحطاطا .

خامسا — المبالغة فى تقدير قيمة الوقت والتظاهر بالانشغال المستمر كلما وجد المصاب بجنون العظمة نفسه فى حضرة الآخرين . فهو يبدى التململ من وجود أى شخص فى حضرته أو بالمكان الذى يوجد به . والواقع أن هناك من الناس من يضيق وقتهم بالفعل ويكون لديهم ما يعملونه اذا ما انصرف عنهم الناس وتركوهم فى سلام يضطلعون بما عليهم من مسئوليات . ولكن المصاب بجنون العظمة لا يكون لديه أى شيء يملأ به وقته ، ولكنه بسبب إحساسه بالعظمة ، فانه ينتحل الانشغال الدائم حتى يجعل لنفسه قيمة يتباين بها عن الآخرين من حوله ، أو حتى يعظمه الآخرون ويشعروا أنه مباين لهم وأعظم من أن يضيع وقته معهم .

ولعلنا نعمد بعد هذا الى محاولة الكشف عن أسباب الإصابة بجنون العظمة وذلك قبل تناول العلاقة بين الوسوسة وبين هذا المرض النفسى . ثمة مجموعة من الأسباب نجتزىء منها بما يلى :

أولا — قد يكون جنون العظمة بمثابة احتقار للذات مقلوب . فتكون حقيقة سيكلوجية المجنون بالعظمة تشير الى احتقاره الشديد لنفسه والاستهانة بمكانتها . ولكنه لا يستطيع الاعتراف بذلك أمام الناس خشية أن يحتقروه بدورهم ، فيعمد الى تقديم صورة معكوسة عما يحس به . ولسوف نعود إلى هذه الفكرة فى الموضوع التالى من هذا الفصل بشىء من التفصيل .

ثانيا ــ قد يكون جنون العظمة بمثابة رد فعل على استهانة الناس بالمرء أو احتقارهم له واظهارهم لذلك فى مواقف معينة سرعان ما ينساها وقد كبر وترك عهد الطفولة . وهنا يكون جنون العظمة عبارة عن آلية لاشعورية تعويضية يعوض بها المجنون بالعظمة عما سبق أن لحق به من امتهان وازدراء وتحقير .

ثالثا ــ قد يكون جنون العظمة ناتجا عن الفشل فى جذب انتباه أفراد الجنس الآخر وإحساسهم باحتقاره ونبوهم عنه وامتعاضهم من مشاهدته . وهذا ينطبق على الجنسين . فالرجل والمرأة على السواء قد يخضعان لهذا الشعور برذل أفراد الجنس المقابل لهما ونفورهما من التعامل معهما ، فتكون لذلك فاعليه فى لاشعورهما ، فيبدآن فى تقديم رد فعل عكسى هو التعالى والتعاظم وإقناع الذات لاشعوريا بأن أفراد الجنس المقابل جميعاً لايستحقون مجرد التفاتة واحدة . ويبدو هذا الموقف بجلاء لدى بعض الرجال بالذات وقد أخذوا فى احتقار المرأة والخفض من قيمتها واعتبارها مخلوقا تافها لايستحق أى تقدير أو اعتبار . ويكون موقفهم هذا مجرد نتيجة لنبو النساء عنهم وعدم الإقبال عليهم .

رابعا ــ إخفاق المرء فى شق طريقه فى الحياة ، سواء فى مجال الدراسة أم فى مجال التجارة أم فى أى مجال من مجالات الحياة المتباينة . والواقع أن من الممكن أن يكون رد الفعل على الفشل بأشكال وأعراض متباينة . ولعل من ضمن ــ بل ومن أهم ــ تلك الأشكال أو الأعراض جنون العظمة وإحساس الشخص لاشعوريا بأنه غير الآخرين ، وأنه يعلوهم مقاما ويبزهم ذكاء . فلقد يقنع الطالب نفسه بأنه عبقرى ، ولكن المدرسة هى التى فشلت فى إبراز مواهبه العبقرية . وكذا ربما يذهب التاجر المفلس نفس المذهب. إنه قد يزعم لمن حوله أن باقى التجار قد تآمروا علية لغيرتهم منه ولأنهم يحسون بتفاهتهم بازائه ، فحاكوا ضده مؤامرة أضاعت تجارته ونحت به إلى الإفلاس.

خامسا ــ شدة تدليل الشخص فى طفولته ثم حرمانه فجأة من مصدر التدليل ، وذلك بعد موت الأب أو الأم التى كانت تقوم بالتدليل . فرد الفعل من جانب هذا الطفل ثم استمرار رد فعله على معاملة الناس له بغير

تدليل وبغير تمييز عن الآخرين ، إنما يكون على الأرجح بابداء أعراض جنون العظمة . ولكأن هذه الأعراض تكون بمثابة احتجاج صامت ضد المعاملة المتجردة من الايثار والتدليل والتمييز . ولكأن هذا الشخص يبحث عن مصدر التدليل فلا يجد له أثرا ، فيؤكد لاشعوريا لمن حوله بأنه شخصية فريدة تستحق احتراما وتقديرا لايستحقه أى شخص آخر .

وبعد أن استعرضنا حالات جنون العظمة ثم أسبابه ، فان علينا أن نكشف النقاب عن علاقة الوسوسة بهذا المرض النفسى . وتتبدى هذه العلاقةفيما يلى :

أولا — إن الموسوس كما اتضح لنا طوال هذا الكتاب هو شخص حبيس دخيلته ، فلا يستطيع أن يستشرف العالم الواقعى . والمصاب بجنون العظمة هو شخص منحبس فى إطاره الداخلى لايستطيع أن يشاهد نفسه وواقعه من زاوية موضوعية :

ثانيا — تبدو العلاقة بين الوسوسة وبين جنون العظمة فى الفكرة الثابتة التى تسيطر على ذهن المصاب بهذا المرض ، كما تبدو فى تصرفاته وأقواله وعلاقاته المتباينة بغيره من أشخاص .

ثالثا — تبدو الوسوسة أيضاً فى الصراع الداخلى بين قطبين متناقضين هما احتقار الذات وتعظيمها . ولعل الموسوس المصاب بهذا المرض يكون قد خبأ وأخفى هذا الصراع المعتمل بدخيلته ، وذلك بأن يبدى أحد طرفيه فحسب ألا وهو تعظيم الذات وتأليهها مع أن دخيلته مشحونة بالصراع بين احتقار الذات وتعظيمها. فالاختيار القاطع والحاسم بين هذين النقيضين غير موجود. وشاهد ذلك أن المجنون بجنون العظمة ينهار فى بعض المواقف ويبدى الصورة العكسية التى دأب على إخفائها عن أنظار الآخرين ، فيبدى احتقاراً شديدا لذاته ، ويقرر لمن حوله بأنه من أتفه خلق الله وأحقرهم . ولكن هذا ليس الوتيرة أو الحالة المستمرة لديه ، فالحالة المستمرة فى سلوكه هى التعاظم واحتقار جميع الناس . والشأن هنا كشأن المصاب بالحمى وقد انخفضت درجة حرارته فجأة بعد أن أخذ حقنة من النوفالجين أو مايشبهه مما يعمل على خفض الحرارة لحين زوال مفعوله فتعود الحرارة إلى الظهور من جديد . فهبوط

الحرارة بعد النوفالجين لايكون الا حالة عارضة ، والأصل هو أن تكون الحرارة مرتفعة . فاذا ما أبدى المجنون بالعظمة احتقارا لنفسه فى موقف متأزم مفاجىء ، فانما يكون تحقيره لذاته كهبوط الحرارة بعد النوفالجين فى الحالة التى ذكرناها . ولنتناول هذا الموضوع بالتفصيل فيما يلى .

الوسوسة واحتقار الذات :

قلنا فى الموضوع السابق إن جنون العظمة قد يكون إحساسا مقلوبا باحتقار شديد للذات . على أن احتقار الذات بحاجة إلى وقفة خاصة فنفرد له هذا الموضوع . وعلينا أولا أن نستعرض أسباب احتقار الذات كما يتبدى عند المصابين بهذا المرض النفسى .

هناك أولا — احتقار للذات بسبب التكوين الجسمى . فلقد يكون الشخص قصيرا لدرجة القزامة أو طويلا لدرجة العملقة المرضية ، كما أنه قد يكون نحيفا كأشدما تكون النحافة ، أو سمينا كأبشع ما تكون السمنة ، وقد لاتكون أعضاؤه متناسقة بعضها مع بعض . ولقد يصدر احتقار الذات عن إحساس بضآلة البنية وما يترتب على ذلك من ضعف وخور ووهن ، وكذا قد يكون احتقار الذات ناجما عن الاصابة بمرض عضال ورائى يعوق بذل الجهد أو التقدم فى مسارى الحياة .

وهناك ثانيا — احتقار للذات نتيجةالشعور بالقبح .فلقد يجد الرجل أوقد تجد المرأة أنها دميمة الخلقة ومنفرة للناظرين ، فيأخذ بها الغيظ كل مأخذ فتصب نقمتها على ذاتها محتقرة ذلك الوجه القبيح وقد أخذت تلوم تلك الظروف غير المواتية التى جعلت وجهها على هذا النحو من الدمامة . ولقد يسود هذا الإحساس نحو الذات بعد أن يصاب الوجه بتشويه حقيقى بسبب حادث يكون قد وقع للمرء فترك بعده وجها مشوها أو عاهة بجزء حيوى مشاهد من الجميع فأخذ يجلب الخجل على الشخص ، فينعكس ذلك الخجل على صاحبه احتقارا لذاته .

وهناك ثالثا — احتقار للذات بسبب الضعف العقلى . فلقد يحس المرء بأنه غير قادر على التفكير بسرعة ودقة كما يفعل الآخرون ، أو قد يحس بأن

ذاكرته ضعيفة جدا أو أنه لايستطيع النجاح فيما يعتمد على التفكير الشديد ، فيأخذ فى احتقار عقليته .

وهناك رابعا — احتقار للذات نتيجة التعثر والتلعثم فى الكلام . فالشخص الذى لايستطيع الإبانة عن أفكاره ، أو الذى يجد الناس منصرفين عنه لايحبون الاستماع لما يقول ، إنما يصب جام غضبه على ذاته ، متهما نفسه بالعجز عن التعبير وقد أخذ يتهم نفسه ويحتقرها .

وهناك أخيراً احتقار للذات نتيجة ضيق ذات اليد ، أو نتيجة الإشتغال فى أحدالأعمال التى يعتقدالشخص أنها وضيعة ، أو لأنهيتكسب منوراءعمل غير شريف ، أو لأنه يحس بأن المال الذى ورثه عن والديه إنما هو مال حرام وقد كسبه الوالد عن طريق غير شرعى .

وليس من الضرورى أن يكون احتقار الذات ناجما عن حقائق موجودة بالفعل ، أو أن الشخص الذى يحتقر ذاته يكون مصيبا فى إحساسه وأن ذلك الاحساس يعبر غن واقع موضوعى ، بل إن الواقع فى كثير من الحالات لايعدو أن يكون وسوسة تسيطر على الشخص فيحتقر ذاته لما يعتمل بداخله من وساوس ليس لها وجود إلا بدخيلته . وشاهد ذلك أن نفس الحالة لايكون لها نفس الأثر بالنفس عند جميع الناس . فالمسألة إذن تتعلق بدخيلة المرء أكثر من كونها تتعلق بالواقع الموضوعى .

وإذا نحن بدأنا فى محاولة كشف النقاب عن علاقة الوسوسة باحتقار الذات ، فاننا سوف نجد أن تلك العلاقة تتمثل فيما يلى :

أولا — علاقة الوسوسة باحتقار الذات كعلاقة سببية : فهنا نجد أن الوسوسة تكون هى الأساس بينما تكون حالة احتقار الذات هى النتيجة . فلقد يكونالشخص جميلا فى الواقع أوقديكونماله حلالا أو يكون قوامه بلا عيب أو يكون عقله عاديا ولكن الوسواس المعتمل فى قلبه وعقله هو الذى يجعله مصابا بالفكرة الثابتة المسيطرة التى تجعله يشوه الواقع الموضوعى ويحيله إلى نفس الصورة التى رسمها له وسواسه .

ثانيا — علاقة الوسوسة باحتقار الذات كنتيجة لواقع موضوعي : فلقد يكون الشخص بالفعل على غير ما يرام ، فقد يكون دميم الخلقة مثلا ، ولكن وسواسه يجعله يركز ذهنه ووجدانه على الجانب الضعيف من شخصيته بغير أن يلقى بالا إلى الجوانب الأخرى القوية أو الممتازة. فعمل الوسواس فى هذه الحالة يكون بالتركيز على الجانب الضعيف والإغماض عن الجوانب الجيدة.

ثالثا — علاقة الوسوسة باحتقار الذات كنتيجة للمصاحبة والمواكبة : فهنا لانجد أن الوسوسة هى السبب فى الإحساس باحتقار الذات ، كما أننا لانجد هنا أن الوسوسة تكون نتيجة لاحتقار الذات ، بل نجد أن الوسوسة واحتقار الذات يسيران جنبا لجنب . فالوسوسة تغذى احتقار الذات ، وكذا فان احتقار الذات يغذى ويدعم الوسوسة .

رابعا — علاقة الوسوسة باحتقار الذات كنتيجة لآليات لاشعورية ورواسب منسية منذ الطفولة : فهنا نجد أن الوسوسة واحتقار الذات جميعا يكونان ثمرة رديئة لرواسب لاشعورية منسية منذ الطفولة . وعلى الرغم من أن الوسوسة فى مثل هذه الحالة تكون متعلقة بجانب معين بالشخصية كالجمال مثلا ، فان احتقار الذات يكون فى حقيقته مرتبطا بشىء آخر أو بخبرة منسية تعتمل فى دخيلة اللاشعور . من ذلك مثلا الخبرة غير المواتية المتعلقة بحادث جنسى وقع للمرء فى طفولته آذاه فى كيانه النفسى ودفع به إلى احتقار الذات . وهنا نجد أن ثمة عملية نقل من تلك المشاعر المتعلقة باحتقار الذات بسبب الخطيئة الجنسية المنسية إلى شكل الوجه أو قوة العقل أو غير ذلك من جوانب متباينة بالشخصية .

خامسا — علاقة الوسوسة باحتقار الذات كصدى لواقع اجتماعى آنى أو سابق : فلقد تعمد الأم إلى وصف ابنتها بالدمامة مع أنها بنت جميلة أو على مستوى لابأس به من الجمال . ونتيجة الحاح الأم على وصف ابنتها بالدمامة ، فان وسواسها يشتعل فى دخيلتها حول هذا الموضوع . فهى تقف أمام المرآة لكى تستصدر حكما على خلقتها . ولكنها تظل فى حيرة قاتلة بين ما تقوله أمها لها وبين ماتراه فى المرآة من جمال وجاذبية .

وهناك بلا شك نتائج تترتب على الوسوسة المعتملة فى دخيلة الموسوس حول احتقار ذاته . ولعلنا نلخص تلك النتائج فيما يلى :

أولا — اليأس والاستمرار فى حالةمن القتامة النفسية لاتريم عن الشخص. ولكن اليأس الذى نقصده هو ذلك اليأس الذى لايخرج عن إطاره النفسى ولايعبر عنه إلى الخارج بأى صورة فعلية واقعية من أى نوع . فالموسوس باحتقار ذاته فى هذه الحالة يظل هامدا ومنزويا وشاحب الوجه وقد أخذ فى الانصراف عن الناس وهو سال عن غيره ولايقيم علاقات جديدة مع أحد .

ثانيا — إيذاء الذات : ويكون ذلك بأشكال متعددة من أهمها الانصراف عن تناول الطعام واهمال النظافة وعدم الإنتظام على العمل . ولكن هناك حالات أخرى أشد من ذلك منها تشويه الوجه أو إنزال عقوبات معينة على ذات الشخص بنفسه كأن يكوى جلدة بسيخ محمى أو بغير ذلك من وسائل التعذيب . والأشخاص من هذا النوع لايعرضون أنفسهم على طبيب إذا مرضوا . ويقال ان بعض الحوادث التى تبدو وكأنها وقعت بالمصادفة إنما تكون فى الواقع تعبيراً عن احتقار الذات وتركها بغير حماية للدوس تحت عجلات السيارات ، وغير ذلك من أسباب الهلاك والقضاء على الحياة ذاتها .

ثالثا — تشويه السمعة الشخصية ، وذلك بأن يتعمد المرء التواجد فى مواقف مزرية تجلب عليه السمعة الرديئة . فلقد يقوم أحد المحتقرين لأنفسهم بالنشل غير المستتر وغير الحذر فيقع فى قبضة الشرطة فيرمى به فى السجن . ولسان حاله يقول لنفسه « إنك تستحقين كل مايقع عليك من مهانة فأنا احتقرك » .

رابعا — جلب إيذاء الآخرين والتشفى من الذات . فالشخص المحتقر لذاته قد يرتب المواقف التى تغيظ الناس فيضربوه أو يسخروا منه أو يؤذوه بكافة وسائل الإيذاء . والواقع أن كثيراً من حالات الماسوكية — أى تقبل ايذاء الآخرين للمرء ، إنما تكون تعبيرا لآشعوريا أو شعوريا عن احتقار الذات . فلأن الشخص يحتقر ذاته فانه يهيج الناس ضد نفسه للانتقام

منه ولزيادة هوانه وايذائه لأنه عن طريق ذلك الايذاءيصدر عن الآخرين اليه يكون قد انتقم من نفسه التي يحتقرها .

الوسوسة وانتقام الأرواح :

ترتبط الوسوسة فى أذهان بعض الموسوسين بالخوف من انتقام الأرواح منهم والايقاع بهم أو التآمر عليهم . وعلى هذا فان هذا النوع من الوساوس يمكن أن يسمى بالوساوس الميتافيزيقية أو الوساوس الروحانية . ذلك أن هذه الوساوس تتعلق بكائنات علوية أو سفلية لها صور معينة فى أذهان الموسوسين ولها وسائلها الخاصة فى التأثير فيهم كما تخيل لهم وساوسهم . وواضح أن هذه الوساوس تبعد عن الواقع المحسوس كما تبعد عن العلاقات الاجتماعية ، وان كانت نتائجها المتوقعة ترتبط بالأشياء المحسوسة أو بالعلاقات الاجتماعية التى يوجد بها الموسوس . فهو قد يعتقد أن الأرواح التى تنتقم منه تجد مجال انتقامها فى ماله أو فى ممتلكاته . فهى قد تعمل على إضاعة أرباحه أو سرقة أمواله أو إشعال حريق فى مخازنه ، كما أنها قد تجد مجال انتقامها فى علاقاته الاجتماعية ، فتعمل على تنفير الناس منه ، وكراهيتهم له بغير أسباب على الإطلاق أو لأسباب لاتؤدى فى الأحوال العادية إلى نشوء الكراهية .

أما الأرواح التى يخشى الموسوس من انتقامها فانها قد تكون أرواح أشخاص كانت تقوم بينه وبينهم علاقات متسمة بالشحناء والبغضاء والتنابذ قبل وفاتهم ، فتستمر فى حقدها وتربصها به ولكن بشكل روحانى وبفاعلية أقوى بعد أن تجردت وخلصت من قيود الجسد . ولقد تكون الأرواح المتربصة بالموسوس أرواحا يجندها ساحر ما وقد أخذ فى استعدائها ضده وتأليبها عليه . فصارت تتربص به الدوائر وتحوك ضده المؤامرات وتنتهز أقرب فرصة للانتقام منه أو للهجوم عليه . أما النوع الثالث من الأرواح التى يخشى الموسوس انتقامها فهى أرواح لايعرفها الموسوس ولايقف على كنهها ولكنه ربما يكون قد أغضبها من حيث لايدرى . فلربما يكون قد احتل مكانها أو أتى بتصرفات تغضبها أو ربما يكون قد لفظ بكلمة أو عبارة تكون

مؤذية على مسامعها أو ربما تكون قد شاهدت فى سلوكه ما ينم على تحديه لها وازدرائه بها أو تعريضه بكرامتها .

أما عن علاقة الموسوس بتلك الأرواح فانها قد تكون علاقة موهومة بحتة ، فهو يخشاها ولكنه لايستطيع أن يقرر لمن يسأله عن مشاهدته لها أو سماعه لصوتها أو لأى أثر عملى أو محسوس فى حياته . فخوفه هنا هو خوف ترقبي فحسب ، وليس خوفا نتيجة ادعائه بالوقوع على أى فاعلية لانتقامها منه بطريق مباشرة أو بطريق غير مباشرة . ولكن قد يزعم الموسوس أن لديه أدلة وبراهين محسوسة على أن الأرواح المتربصة به قد بدأت بالفعل فى الانقضاض عليه وإيذائه . فهو يستدل من حدوث أشياء ووقائع معينة على ما يزعمه من أدلة وبراهين على مهاجمة الأرواح له وتنغيص حياته عليه . فهو يقول إن زجاج الحجرة قد انفتح بشدة فحطم ما وراءه من أوان زجاجية ثمينة مع أن الهواء كان ساكنا ولم تكن هناك رياح عاصفة على الإطلاق . وقد يزعم الموسوس أن المرض الذى أصابه كان نتيجة غضب بعض الأرواح عليه وانتقامها منه فى صحته . وفى بعض الحالات الشديدة يصاب الموسوس بما يسمى بالهلوسات المرئية والمسموعة ، فيشاهد بعينيه ويسمع بأذنيه أشباحا أو أرواحا تروعه وتهدده أو تحاول إيذاءه بالفعل .

والواقع أن هناك مجموعة من الاستجابات المتباينة التى ينحو الموسوس إلى التلحف بواحدة منها . فهو قد يعمد إلى التقوقع والانكماش الشديد حتى لكأنه دودة حرير فى شرنقة فتجده مرتميا فى سريره وقد تكور تحت الغطاء هربا من الأرواح التى ربما تؤذيه إذا ما ظهر أى جزء من جسمه خارج الغطاء . أما الاستجابة الثانية التى يمكن أن ينحو اليها الموسوس فهى عدم الإتيان بأعمال بالذات يحددها له وسواسه . من ذلك مثلا عدم استخدام شوكة فى تناول الطعام لأن الشوكة ربما تفقأ عن غير قصد منه عين إحدى الأرواح . ولقد لايحدث الموسوس أى صوت أو ضجيج فى أثناء سيره بشقته حتى لايزعج الأرواح إلى غير ذلك من محظورات يفرضها هو على نفسه ويختلقها اختلاقا بداءة حيث لم يسبقه أحد اليها . وقد تكون استجابة

الموسوس بالأبخرة والتعاويذ يقرؤها حتى يسترضى الأرواح التى ألم بها الغضب منه .

ومهما يكن من أمر استجابات الموسوسين التى يتباينون فيها ، فاننا نجد أن الموسوس فى جميع الحالات يتسم بمجموعة من الخصائص النفسية والسلوكية الأدائية . فهو أولا يجد فى نشاطه الذهنى والوجدانى المحور الذى يلتف حوله لايريم عنه ولايبعد عنه إلى المحاور الأخرى الممكنة . فهو مثلا – حتى فى أشد حالات الاحتكاك بالآخرين – يكون منغلقا على ذاته وقد شحب وجهه وزاغت عيناه وبدت عليه إمارات الخوف وبردت أطرافه وجف ريقه وتفككت مفاصله . ومن جهة أخرى فان الموسوس الخائف من انتقام الأرواح يكون خفيض الصوت محتبسه . فهو لايكاد يبين عن أفكاره إلا همسا وكأنه يخشى إذا ما ارتفع صوته فان انتقام الأرواح يهدده أو تنكيلاتها تقع عليه وتصيبه فى الصميم . ومن جهة ثالثة فان الموسوس الخائف من انتقام الأرواح يظل واقعاً فى الحلقة الاختيارية غير الحاسمة . فهو وان كان يبدو معتقدا فى وجود الأرواح ، فانه لايستطيع حسم هذا الموضوع . ذلك أن مفهوم الأرواح نفسه لايكون واضحا جليا فى ذهنه ، بل إنه لايستطيع بعقله أن يقرر ما يتعلق بالواقع ومايتعلق بالخيال . فهو يعتقد فى الأرواح ولكنه لايقتنع بما يعتقد فيه . وليس هذا بالأمر المستغرب . فغالبية ما يعتقد فيه الإنسان إنما يكون اعتقادا مبنيا على وجدان وليس على اقتناع عقلى متجرد . فلقد نجد شخصاً أمياً يؤمن بالروحانيات . فاذا ما بدأ فى دراستها وتفهم مغزاها أو الوقوف على حقيقتها بعقله ، فان جذوة إيمانه تبدأ فى الخفوت والضمور . فعلاقة الفكر بالاعتقاد ليست علاقة مطردة الزيادة ، كما أنها ليست مطردة التناقص ولكنها أميل إلى التناقص منها إلى الزيادة .

وثمة نوع من التشبث يبديه الموسوس حتى لايقتنع بعدم وجود الأرواح أو بعدم وجود علاقة بينها وبينه فى الحياة اليومية ، وأنها فى سبيلها وهو فى سبيله ، وأنها لاتستطيع أن تؤذيه أو أن توقع عليه أى ضرر من أى نوع . والواقع أن هذا شأن معظم معتقداتنا . فنحن لانستطيع اقتلاع الاعتقاد من أنفسنا بسهولة كما هو حالنا بازاء الأفكار التى نصدقها . فبالنسبة لما نصدقه

بعقولنا ، فاننا نستطيع أن نحل أفكارا جديدة محل الأفكار القديمة،ونستطيع أن نطور فى تفكيرنا سواء من حيث المضمون أم من حيث طريقة التفكير . أما بالنسبة لما نعتقد فيه ، فان المسألة تختلف عن ذلك اختلافا بينا . فليس يسهل علينا أن نحل اعتقادا محل اعتقاد آخر . ولكن هذا ليس مستحيلا فى نفس الوقت . ولعلنا نقول إن سبيل تغيير المعتقدات لايكون بالعقل بل يكون بالاستمالة والايحاء فحسب . ومن الحقائق المعروفة فى الحياة اليومية أنك إذا هاجمت اعتقادا ما كانتقام الأرواح وأخذت تناقش الموسوس فى هذا الشأن وتدحض مزاعمه ، فانه سوف يبدى مقاومة قوية جدا بتجاهلك ،وقد يصل فى هياجه إلى حد الشجار معك واعلان مقاطعتك والنبو عنك إلى الأبد .

وأغلب الظن أن الموسوس يحاول إخفاء وساوسه عنك . فهو لايأتى متطوعا لكى يشكو لك خائفا من مهاجمة الأرواح له أو من توجسه خشية انتقامها منه ، بل إنك ربما تكتشف ذلك بنفسك باستدراجه فى التحدث اليك وقد اطمأن اليك تماما ، وتأكد من أنك سوف لاتخالف عن رأيه ولاتبدى له امتعاضا مما يحس به أو مما يدور بخلده من خواطر . ولعله يخفى عن جميع الناس وساوسه المتعلقة بانتقام الأرواح منه خشية أن يهيجها ويستثيرها فتزيد من انتقامها منه ، وتتربص به الدوائر . ولعله يخاف عليك أنت أيضاً إذا ما أفاض بمكنون نفسه وعبر عمايعتمل بين أضلعه من أفكار ومشاعر تجاه الأرواح ومواقفها المتباينة . فهو يعتقد اعتقادا عميقاً بأن ما يدور فى ذهنه من وساوس حول الأرواح إنما هو محفوف بالسرية التامة ولايجوز كشفه على الملأ أمام الناس . وثمة فى رأى الموسوس بالأرواح مجموعة من الشروط والمبادىء التى إذا ما التزم بها وتحراها فى علاقاته بها ، فانها سوف لاتصيبه بشر . ولكنه إذا خالف عن تلك الشروط والمبادىء ، فانها سوف تنقلب عليه إذن شر منقلب وتضره أشد الضرر وتنتقم منه أعتى انتقام وأشنعه . فاذا ما أخطأ وأفشى السر المكنون فى صدره عن أرواحه المزعومة ، فانه يأخذ فى استرحامها واسترضائها مؤكدا لها أنه أخطأ عن سهو وعن ضعف ، ولسوف لايعود إلى خطئه مرة أخرى . وهكذا نجد أن الموسوس بالأرواح لايعيش

مطمئنا بل يقضى وقته كله فى توجس وارتياب وتوقع للشر يصيبه فى الصميم ويعذبه أيما عذاب .

الوسوسة وترقب المصائب :

سبق أن عرضنا للوساوس المستقبلية ، وهى تلك الوساوس التى ترتكز على ما سوف يقع للمرء أو لمن يهتم بهم فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد. ويرتبط بهذا النوع من الوساوس المستقبلية نوع آخر يرتبط به ارتباطا وثيقاً هو ترقب المصائب الوشيكة . ولكن ما يهمنا فى هذا المقام هو التأكيد على نوعية من الوساوس الوجدانية التى تنعكس على صفحة العقل فتستحيل إلى أفكار ولكنها أفكار غامضة من الصعب تحديدها . فالوسوسة هنا هى وسوسة اعتقادية وليست وسوسة توقعية . والموسوس هنا يؤمن بأن شرا سينزل عليه على الرغم من أنه لاتوجد أية دلائل أو أية شواهد تدفع به إلى هذا التوقع . على أنه ينبغى أن نعترف بأن بعض مايحس به المرء من خطر وشيك أو من حوادث أو مصائب مرتقبة ، قد يقع بالفعل . ولكن ما نعمد إلى إيضاحه هنا هو ذلك الوسواس المستمر لدى الموسوس . فهو دائم الترقب للشر يلحق به ، ولايتوقع خيرا أو فرحا ، ولايستطيع أن يحس بخير يصيبه أو يصيب غيره ممن يحبهم . ولعل الأشخاص العاديين يحسون بالخير والشر جميعاً ، ويتوقعون باحساسهم ما هو مبهج وما هو مكدر أيضاً . ولكن الموسوس لايستشعر سوى الشر يلحق به ويهدد طريق حياته .

ولعلنا نربط هنا بين ما يسمى بحالات الاكتئاب وبين ترقب المصائب . بيد أن المكتئب قد يستشعر الحزن يخيم على آفاقه النفسية بحيث يتلون وجدانه بلون قاتم مقبض ، ولكنه لايترقب شرا وشيكا أو مصيبة تحدث له أو لغيره من حوله . ولكن الموسوس بترقب المصائب يجمع بين مشاعر المكتئب نفسيا وبين هذه النزعة التنبؤية التوقعية . فهو يصاب بالشعور المقبض وقد أخذ يستشرى فى قلبه وضلوعه وينحو به إلى العزلة والتقوقع حول الذات : ولكنه لايستبين بالضبط ماذا يمكن أن يحدث أو الخطر الذى يمكن أن يحدث الشر وينحرف به عن جادة الخير .

ولقد يحاول هذا النوع من الموسوسين إسقاط ما يعتمل بدخائلهم على غيرهم ممن لايهتمون بأمرهم . فالواحد منهم يهتم أكثر مايهتم بتصفح الجرائد عله يقع على جريمة اقترفت أو على شخصية مرموقة اغتيلت أو ماتت فى حادث . فهو يهتز اهتزازا شديدا لذلك ، وكأنه ينقل مشاعره عن كاهله ليلقى بها على غيره . ولقد يعمد الواحد من هؤلاء الموسوسين إلى مشاهدة الأفلام المفجعة وذلك لكى يخفف عن كاهله ومايثقل به قلبه من شر متوقع . ولعلنا نصف حالته بتصفح لسان حاله وهو يقول « ها ما كنت أتوقعه من شر وشيك قد وقع بالفعل ، ولكن الحمد لله . إنه لم يقع لى ولا لأحد من أحبائى ، بل وقع لأشخاص غرباء لاتربطنى بهم أية صلة وجدانية » . ولعل أن تكون هذه العملية التحويلية أو النقلية من الآليات اللآشعورية التى يستعين بها الموسوس فيسقط وسواسه على غيره لكى يتخفف من مرضه النفسى .

ولكن أنى له أن يتخلص من أثقاله النفسية ، وهى التى تتزايد . فموقف الموسوس فى عملية التحويل أو الإسقاط إنما تشبه موقف المصاب بمرض جلدى يهيج بشرته فيعمد إلى حكها للتخلص من الأكال الذى يعذبه . ولكن هيهات أن يشفيه حك الجلد مما يستشرى فيه من داء . فكلما شاهد الموسوس بتوقع المصائب ما يخفف عن نفسه مايهيج فيها من مشاعر لدى مشاهدته أفلاماً مفجعة أو كلما طالع أخبارا مكدرة تتعلق بالآخرين ، فان داءه الوسواسى —وان بدا للحظات وكأنه قد انزاح عنه — فانه فى الواقع يزداد شدة وضراوة وهجوما عليه .

وحتى إذا لم يفصح الموسوس بترقب الشر عن وساوسه لك ، فانك تستطيع أن تقف على ما يعتمل بداخله من هياج نفسى متشائم ، إذا أنت تتبعت كلامه وقصصه ، بل حتى بمجرد ملاحظة الكلمات والعبارات والإشارات التى يستخدمها فى الإبانة عن نفسه . فالكلمات والعبارات التى ينحو إلى استعمالها تكون كلمات وعبارات قاتمة تحمل نذر الشر والقتامة . فهو يدمن فى استعمال كلمات مثل « الموت والمرض والحريق والغرق والفقر والتهمة والمصيبة » ونحوها . ومن عباراته التى ترد على لسانه « فلان لم يرسب

فى الامتحان ، أو عبارة « هذا مش بطال » . وإذا سأل الموسوس عن صحة أحد المرضى فانه يقول « هل فلان نجا من المرض أو من العملية الجراحية ؟ أو هل فلان « لسة عايش ؟ » » ونحو ذلك من عبارات تصطبغ بالتشاؤم أو ترقب الشر . أما حركاته وانفعالاته فانها لاتبعث الراحة فى نفوس الجالسين معه أو المستمعين لحديثه . فهو يصبغ كلامه بصبغة تشاؤمية قاتمة .

والموسوس بترقب الشر يترجم مايسمعه أو ما يقرؤه حسب الصبغة القاتمة التى تشيع لديه . فهو يسمع عبارة « فلان شفى » على غير وجهها . إنه يسمعها « فلان توفى » ، وعندما يقرأ الموسوس بترقب المصائب هذا العنوان باحدى الصحف « إستقلال المستعمرات » فانه يقرؤه « استغلال المستعمرات » والواقع أننا ندرك الأشياء بعقولنا وقلوبنا جميعا ، ولاندركها بعقولنا فحسب . فما نحس به من عواطف ، أو ما تصطبغ به نفوسنا من وجدانات إنما تهيمن وتسيطر على مدركاتنا وتحيلها إلى ما يلائمها من ترجمات قاتمة غير سارة .

ومن الممكن فى الواقع أن نجد أسبابا غائرة فى طفولة الموسوس بترقب المصائب . فالظروف غير السعيدة التى قاسى منها الأمرين ، أو المفاجآت التى أوصدت باب الأمل أمامه فى تلك الطفولة وبخاصة فى لحظات كان البشر يخيم خلالها على الجميع . من ذلك مثلا موت الأب أو الأم فى أثناء الاحتفال بأحد الأعياد وقد عم الفرح المكان ونشر لواءه على قلوب جميع الموجودين ، ولكن الموت القاسى تعمد أن يختطف والد أو والدة الطفل فجأة فى هذا الجو المرح السعيد . فحدثت صدمة عنيفة هزت كيان ذلك المخلوق الصغير الغض ، واستمرت هذه المصيبة مرتسمة أمامه وإن كان قد نسى معالمها بالذات . ففى كل موقف يبدأ فيه البشر والحبور يداعبان الوجود من حوله ، وقد أخذ الناس المحاورون له يمرحون ويفرحون ، فان الموسوس الذى وقعت تلك الحادثة أو أشباهها له فى طفولته يبدأ فى الاحساس وجدانيا بمصيبة وشيكة سوف تقع ، ولكأن الموقف يتكرر من جديد . فمن يدرى ربما إذا هو اندمج وفرح واستبشر تقع له مصيبة كتلك التى وقعت له فى طفولته . بيد أن الخبرة المؤلمة التى مرت فى طفولة هذا الانسان تكون قد ترسبت فى

أعماق شخصيته . فهو وان كان قد نسي معالمها بعقله ، فانه لايستطيع أن يذيب ما التف وتبلور من وجدانه حول تلك الواقعة النكداء .

على أن هناك ما يمكن أن نسميه بالعوامل المساعدة في مثل هذه الحالات. فثمة العامل البيولوجي وما يتأتى عنه من مزاج معين يجعل الشخص ذا استعداد قوى لاتخاذ مواقف معينة ثابتة أو شبه ثابتة فى الحياة . فالمزاج الشخصى الدائم الذى يرتبط بتكوينه البيولوجى وكذا بما أفعم به من استعدادات وراثية ، إنما يكون بمثابة القوة المدعمة أو المادة التى تثبت اللون أو بمثابة العامل المساعد على تفاعل المواد بعضها وبعض فى عالم الكيمياء . بيد أننا لانستطيع الجزم بأن تلك الاستعدادات الموروثة أو تلك الأمزجة التى يفطر عليها المرء تكون وحدها كافية لاصابة أى إنسان بالوسوسة بترقب المصائب . فاذا ما اجتمعت الخبرات المفاجئة المكدرة فى الطفولة وبخاصة فى أثناء البهجة والسرور والانشراح بالإضافة إلى تلك الاستعدادات الوراثية والمزاجية ، فان الحالة الوسواسية بترقب المصائب تعمل عملها وتصير بمثابة سمة راسخة ودائمة فى الشخصية .

والواقع أن هناك تبايناً فى نوع الوسوسة بترقب الشر لدى الموسوسين بهذا النوع من الوسوسة على الرغم من اتحادهم جميعا فى شىء واحد هو أن الوسواس لديهم نوع من الاعتقاد الذى لايستند إلى مبرر أو شاهد موضوعى أو منطق عقلانى . فثمة وساوس تنصب على الصحة . وأصحاب هذا النوع من الوسواس يتوقعون انهيار صحتهم وارتماءهم فى أحضان المرض فجأة وبغير تمهيد ، أو ربما يتوقعون إصابتهم فى حادث. والنوع الثانى منهم تتركز وساوسهم على المال فيترقبوا الافلاس والفقر . والنوع الثالث يترقبون الخيانة الزوجية أو جفاء الحبيب أو غدر الصديق . والنوع الرابع يترقب أفراده الفشل فى الامتحان إذا كان الموسوس طالبا ، أو فى العمل إذا كان صاحب مشروعات . والنوع الخامس والأخير يتوقع الشر لأحبائه وبخاصة أولاده أو شريك الحياة . وهى جميعاً وساوس تتعلق بترقب المصائب المفاجئة .

الفصل الرابع عشر

الوسوسة التربوية

التدقيق الشديد مع الطفل :

هناك من الآباء والأمهات من يرسمون لأطفالهم فى أذهانهم مثلا عليا يرغبون فى تحقيقها فى شخصياتهم . ولكأنهم يعتقدون أنهم إذا لم يشاهدوا تلك المثل العليا أو الصور الذهنية متحققة بتفصيلاتها فى سلوك أبنائهم وبناتهم فانهم يكونون بذلك قدأخفقوا إخفاقاتاما فى تربيتهم وتنشئتهم . فهم يؤمنون بمبدأ الكل أو لاشىء . فليست هناك مراحل أو درجات وسيطة بين ما تخيلوه فى أذهانهم وبين ما لايرغبون فى مشاهدته فى سلوك أبنائهم من تصرفات أو فيما يلوكونه من ألفاظ أو كلمات . فأولئك الآباء والأمهات المدققون لايستشعرون السعادة تملأ قلوبهم ولا الطمأنينة تخيم على أنحائهم الا إذا هم شاهدوا جميع ما يترسمونه من صور ذهنية وقد استحالت إلى سلوك متمكن من شخصيات أبنائهم .

ومن الطبيعى أن يستشعر الطفل أحاسيس والديه ، فيخاف منهما أو يخاف من أن يخفق فى تحقيق السعادة لهما ، أو أن يكون مصدرا لشقائهما . ومن هنا فانه يدأب على تطبيق كل ما يأمرانه به فى طاعة عمياء ، وكأنه قد استحال إلى قطعة من الصلصال فى يد النحات ، فلا يقاوم لهما رغبة ولايخرج على أوامرهما قيد أنملة . بيد أن تلك المطاوعة أو الطاعة العمياء لاتعبر عن الواقع الداخلى للطفل ، بل تعبر فقط عن سلوكه البادى للعيان . أما دخيلة مثل هذا الطفل فانها تكون مشحونة بالصراعات الداخلية . فثمة حركة ديالكتيكية تحكم نمو الطفولة السوية ، أعنى النمو بواسطة المقاومة : فالوالدان طرف والطفل طرف آخر . وثمة مايشبه التصادم بين مايرغب فيه

الوالدان وبين ما يرغب فيه الطفل . ولعلنا نزعم بحق أن ما يجب أن تخلص إليه التربية هو ذلك الحل الثالث الذى ينشأ عن تصادم نوعين متباينين من الرغبات : هما رغبات الوالدين ورغبات الطفل .

فماذا يحدث عندما لاينبثق هذا المنحى الثالث نتيجة صراع رغبات الوالدين ورغبات الطفل ؟ لاشك أن الصراع يظل قائما ولكن لا بخارجية الطفل بل بدخيلته . ذلك أنه بالنسبة للحالات الطبيعية ، حيث تخرج محصلة أو نتيجة ثالثة ، لا هى رغبات الكبار ولا هى رغبات الطفل ، فان الصراع يكون قد وجد له حلا ، فتهدأ ثائرته ولايظل فى حالة من التقلقل والتمزق الداخلى .

ولا ندهش إذن إذا ما أصيب الطفل من هذا النوع الطائع طاعة عمياء بالوساوس العقلية والوساوس الوجدانية والوساوس الأدائية جميعاً . فالوسوسة كما سبق أن قلنا هى استمرار الموقف الاختيارى بغير أن يتسنى للمرء الخروج من نطاق إجالة الفكر إلى نطاق الحسم العقلى للموقف والوقوع على اختيار أو على حصيلة جديدة كنتيجة للصراعات الناشبة بالداخل . فلو أنه فعل ذلك لما كان اذن بحاجة إلى المعاناة تعتمل بدخيلته وتأخذ به كل مأخذ وتستولى على أعنة فكره ووجدانه .

والواقع أن شدة التدقيق مع الطفل يحرمه من نعمة استكشاف الواقع ثم العمل على تخصيبه . ذلك أن الطفل السوى لايكون متحركا من الخارج كما تتحرك قطع الشطرنج بيد اللاعب ، بل هو يتحرك من دخيلته عامدا إلى استكشاف الواقع من حوله وحده فى استقلال عن إرادات الآخرين بما فيهم الكبار بل والوالدان ذاتهما . فهو يصدر عن مكنون نفسه وليس عن فكر وارادة الآخرين من حوله . فثمة أولا — الفكر الشخصى للطفل ، ثانيا — عواطفه الشخصية . ثالثا — إرادته التنفيذية التى يضطلع بواسطتها بما يشقه لنفسه من طرق خاصة فى الحياة . بيد أن الطفل المطواع لايكون شأنه شأن الطفل السوى ، بل يكون محدود التفكير ومحدود العاطفة ومحدود الإرادة . فالمحاور التى يدور حولها إنما هى محاور ضئيلة ومحدودة بحدود ما يرغب فيه الوالدان .

وأنى لطفل هذا شأنه أن يغير أو أن يعدل ما نشأ عليه من طاعة عمياء بلا مقاومة فى مراحل عمره التالية ؟ انه فى الواقع يظل على هذا الحال حتى بعد أن يشب ويترعرع وينمو ظاهريا . وليس بمستغرب اذن أن يكون العالم من حول الطفل المطواع عالما ضيقاً كأشد ما يكون الضيق ، فلا تتفتح الآفاق أمام وجهه ، ولاتتسع حياته الذهنية والوجدانية والاجتماعية ، بل إنه يكون محروما من القدرة على توسيع الآفاق الواقعية المتاحة أمام حواسه . ذلك أن هناك عالمين لا عالما واحدا يعيش فيهما المرء إذا كان امرئا سويا : عالم الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة وهو العالم الذى يقدمه الكبار إلى الإنسان طفلا ومراهقا وشابا وبالغا وراشدا ، وعالم يخلقه الإنسان لنفسه خلقا أو قل العالم كما يقوم المرء بترجمته لذاته وتحديد أبعاد جديدة وذاتية له لم يسبقه أحد اليها. فهذا العالم الثانى يختلف باختلاف الأفراد ، بحيث يمكن القول إن لكل فرد من أفراد الناس عالما مستقلا خاصا به لايشاركه أحد فى خلقه أو فى الحياة فيه .

على أنه يجوز لنا فى نفس الوقت ومن جهة أخرى أن نقول إن الموسوس يخلق لنفسه عالما هو عالم الوساوس الخاص به . بيد أن عالم الوساوس يختلف اختلافا بينا عن العالم الابتكارى الذى نقصده . فعالم الوساوس الذى ينحبس فيه الموسوس هو عالم الصراع الداخلى بين رغبات الكبار وبخاصة الوالدين وبين رغبات الفرد الشخصية . فهو عالم صراع ونزاع ، وهو أرض معركة حامية الوطيس لاتعرف إلى الهدوء سبيلا . أما العالم الذاتى الذى نقصده الذى يتمتع به الشخص السوى فهو عالم بناء ذهنى إيجابى ، وهو العالم الذى يعيش فيه الطفل بخياله المبدع السعيد ، وهو العالم الذى يخلقه الشاعر والفنان والمخترع لأنفسهم ويعيشون فى ظلاله . فهو عالم متسم بالبناء والتشييد وليس عالما متصفا بالشجار والتنابذ والصراع بين الأضداد بغير بلوغ إلى نتيجة إيجابية . ولعلنا نقول أكثر من هذا إن العالم الايجابى الذى نعنيه هو ثمرة الصراع الدائم بين أطراف ثنائيات الوجود الكثيرة والتى لاتنتهى حصرا وعدا . فأنت دائم البناء والتشييد لعالمك الخاص ، ولايكون بناؤك وتشييدك إلا نتيجة

صراع مستمر ومحتدم بصفة دائمة فى دخيلتك. ولكنه صراع محدود ينتهى إلى بناء معين بصفة مستمرة ودائمة . ومن هنا يتكشف لنا الفرق الهائل بين عالم ذهنى ووجدانى يحيا فيه الموسوس بغير أن ينتهى من صراعه الناشب فيه إلى أى بناء ، وبين عالم آخر يعيش فيه الطفل والمراهق والشاب والراشد والكهل والشيخ غير الموسوسين وقد اخترعوه لأنفسهم ويعيشون فى إطاره ولكنه عالم بناء وتشييد ، وقد توصل كل واحد منهم إلى حل للصراع بين أقطاب الثنائيات الكثيرة والمتعددة التى تعتمل بالداخل أعنى بداخل كل منهم .

ومن الواضح أن شدة التدقيق مع الطفل تحرمه من نسج عالمه الخاص به فيظل فى حالة عراك مستمر كما قلنا فى نطاقه الداخلى . والواقع أن الإنسان يشبه دودة القز فى نسجها للحرير حول نفسها . فاذا أنت تدخلت فى نشاطها وأخذت تنقلها من مكان لآخر بحيث أنها ما تفتأ تصنع قليلا من الحرير حول ذاتها حتى تأخذ أنت فى نقلها إلى مكان آخر لأن جميع الأماكن التى تختارها لنفسها لاتعجبك ، فانك اذن تفسد عليها عملها وتحرمها من صنع شرنقة خاصة بها . فالعالم الخاص الذى نقصده هو كالشرنقة بالنسبة لدودة الحرير . فهى تشكل عالما خاصا بها تعيش فيه حتى تخرج من الشرنقة فراشة تكمل بها دورة حياتها . ولعلنا نقول إن العالم الخاص بالطفل الذى لايمكن أن يتأتى له الا إذا تركته وشأنه ، هو مرحلة حياتية يجب أن يمر بها حتى نزعم أنه قد سار فى نموه على النحو الصحيح .

ومن الواضح ان شدة التدقيق مع الطفل يجعله فى خشية دائمة من أن يعبر عن ذات نفسه وأن يشكل حياته بطريقته الخاصة . وهذا فى الواقع ما يجعل الطفل الخاضع للتدقيق الشديد شخصية ممسوخة بل وشخصية مزيفة غير أصيلة . وكيف تكون شخصية غير مزيفة وهى مجرد نسخة من صورة ارتسمت فى ذهن الوالد أو الوالدة ؟ الواقع أن مثل تلك الشخصية المزيفة سرعان ما تقع فريسة للوساوس لأنها تحس بالاغتراب عن ذاتها الحقيقية . فطالما أن الطفل يحمل فى دخيلته شخصية غريبة عنه ، فانه لايستطيع إذن أن

يعقد مصالحة معها ، بل إنه يكون فى الواقع شديد الخصومة لها ومناهضا لوجودها وغير موافق على ما يرتسم عليها من ملامح وماتنهجه من نشاط . ولاشك أن الشقاء يملأ جنبات الطفل الذى يحس بالاغتراب ، إنما يجعله نهبا للوساوس العقلية والوجدانية والأدائية جميعا .

قلق الكبار :

قلنا إن من دواعى التزام بعض الأطفال بالطاعة العمياء للكبار وبخاصة الوالدين الخوف على مشاعرهم حتى لاتنثلم. والواقع أن مثل هذا الخوف يمكن أن يزداد اشتعالا فى نفوس الأطفال عندما يلاحظون ما يشيع من قلق فى فى قلوب الكبار وعلى محياهم إذا هم لم يتمكنوا من إرضائهم أو تحقيق المثل العليا التى ارتسمت فى أذهانهم ، والتى دأبوا على محاولة تحقيقها بتفاصيلها فى أولئك الأطفال.ولاشك أن الأطفال الذين يسلكون هذا المسلك قبالة الكبار والوالدين بخاصة إنما يظلون فى الغالب ينهجون نفس النهج وقد شبوا وكبروا وترعروا. فهم يلتزمون بالطاعة العمياء والخضوع الآلى أو شبه الآلى لهم ولكل أمر يصدر عنهم ، ولكل رغبة تلتمع فى آفاقهم . فهم لايحاولون من قريب أو من بعيد تكوين شخصية مستقلة بهم تتباين أو حتى تتعارض مع شخصيات الكبار .

ولعل جميع الكبار الذين يقابلون الشخص الذى نشأ على هذا النهج يتلمسون فيه نفس الصورة السلوكية التى ارتسمت فى ذهنه صغيرا عن الوالدين . فهذا الشخص وقد بلغ الشباب أو حتى الكهولة يرى فى رئيس عمله أو فى أى شخص أكبر منه سنا أو مقاما أو مالا أو نفوذا نفس الصورة التى كان يراها فى الوالدين أيام كان طفلا صغيرا غضا وفجا . ولم لايرى ذلك وهو مايزال فى الواقع طفلا كبرت جثته وترامت أطرافه وبرزت لديه علامات الرجولة إذا كان ذكرا أو علامات ودلائل الأنوثة إذا كان أنثى ؟ ذلك أن النمو الخارجى المتعلق بالجسم،أو النمو المعرفى والمهارى الذى تكفله المدارس والجامعات،والنمو الاقتصادى الذى تكفله وسائل كسب العيش لاتضمن

بالضرورة نمو الشخصية وفطامها واستقلالها عن الكبار ، أو تباينها وشقها لطريق مباين أو حتى معارض لما دأب الكبار على شقه أمامها .

والواقع أن من أكثر أسباب الضمور النفسي وعدم الاستقلال الوجدانى عن الكبار هو ذلك القلق الذى يرهب الطفل أو المراهق أو الشاب أو حتى الكهل . والارهاب الذى نعنيه ليس التهديد بالخطر يصيب المرء ، بل هو التهديد بالخطر يحيق بالكبير الذى يحبه الصغير حبا لايكاد يوصف . فالطفل يخاف على الوالدين حتى لايصابا بأى ضرر ويكون هو السبب فى إحداث ذلك الضرر لهما . ويدعم هذا الشعور تلك القيم الاجتماعية والدينية التى تؤكد للطفل ضرورة الطاعة والخضوع للوالدين وعدم جلب غضبهما وتقديس وصاياهما وعدم الخروج على الخط الذى يرسمانه له حتى لاتغضب عليه السماء ويصاب بالكوارث المتباينة فى مستقبل حياته . ومن الطبيعى أن يظل الخوف يخيم على أفق هذا الإنسان من إغضاب الوالدين وما قد يترتب على هذا من نحس يلاحقه طوال حياته وحتى بعد مماته فى الآخرة .

ولسنا نعيب على القيم الاجتماعية انتحاءها إلى ذلك ، ولكننا نعيب على الوالدين إذا ما استغلا تلك القيم لتخويف الطفل وتهديده بالمستقبل الحافل بالغضب الآلهى ، ومن بعد ذلك ملاقاة العذاب فى جهنم وبئس المصير . إننا نعيب على التربية ولانعيب على القيم التى تقرر احترام الوالدين والخوف من غضب السماء إذا أساء الأبناء والبنات اليهما . ونعيب أيضاً على الكبار بكافة أنواعهم إذا ما استغلوا السلطة المكفولة لهم لمحق شخصيات الصغار . نعيب على الرؤساء إذا ما استغلوا احترام المرءوسين لهم ، ونعيب على كل صاحب سلطة أو سطوة محاولته محو البذور الأولى لتكوين شخصية المرء المستقلة ومحاولته هدم كل استقلال أو كل تباين أو كل اختلاف فى وجهات النظر يبديها من هم دونه معارضين بذلك ما يذهب اليه أو ما يحبه .

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن الكبار بعد الوالدين فى مجريات الحياة المتباينة قد يستعينون بنفس الوسائل التى كان يستخدمها الوالدان بازاء أطفالها . فهم

يبدون القلق كما كان يفعل الوالدان ، ومن ثم فان النتيجة التى كانت تقع للمرء طفلا صغيرا غضا ، هى بذاتها التى تنتج وهذا الإنسان نفسه قد كبر وصار ضخم الجثة من حيث الظاهر فحسب . ولعلنا نعيب أيضاً على الاتجاهات الشائعة فى مجتمعاتنا الشرقية بصفة خاصة ، وهى المجتمعات التى تجعل التطابق بين رغبات الكبار ورغبات الصغار أساسا لازبا لصلاح الشخصية . فكلما كان المرء أكثر تطابقا — أو قل أكثر خنوعا ومسخا لشخصيته — فانه يكون بالتالى أكثر قبولا من جانب الكبار . وعندما يأخذ الصغير فى إبداء ذاتيته اعتبر ذلك شقا لعصا الطاعة وعصيانا والتواء أخلاقيا بشعا . فالمرءوس من هذه الشاكلة يستحق العقاب أو الطرد من الفصل إذا كان طالبا بالثانوى أو الجامعة . ناهيك عن التشنيع على سمعته ووصفه بالمروق عن الأخلاق القويمة والعصيان والفجور .

وواقع هذا شأنه ليس عجيبا أن يصيب الناشئة بالوسوسة . فطالما أن منافذ التعبير عن الذات أو حتى تكوين تلك الذات قد سدت تماما ، فليس اذن من سبيل إلى الحيلولة دون التقوقع على الذات ونقل ما كان يجب أن يعبر عنه بالخارج إلى دخيلة المرء . فالوساوس التى تصيب الصغير نتيجة قلق الكبار ، وتحاشيا لذلك القلق ، إنما تبدو أكثر ما تبدو فيما يحط على كاهل الصغير من أفكار وسواسية دائبة الاعتمال بداخله .

ولعلنا نصور الوسواس التصارعى ينشأ فى عقل وقلب الشخص الموسوس بأنه تعارض قد يكون شعوريا وقد يكون لاشعورياً فيما بين الطاعة والعصيان ، أو بين مراعاة شعور الكبار والضرب بذلك الشعور عرض الحائط . ولاشك أن هذا الوسواس التصارعى لايتعارض مع ما دأبنا على تعريف الوسوسة به طوال هذا الكتاب ، بأنها الوقوف فى مجابهة موقفين اختياريين فى عجز عن الاختيار من بينهما . ومن هنا فان الصراع بين الموقفين المتصارعين يظل قائما بغير هدوء . وانك لتجد فرويد وغيره من علماء النفس الذين اهتموا بالصحة النفسية وقد أخذوا يعزون الأمراض النفسية إلى ذلك الصراع الفائر بالشخصية بغير قدرة على حسمه والانتهاء بازائه إلى موقف أو حل .

ونستطيع أن نتخيل ما يقع على مسرح الحياة النفسية للطفل أو المراهق أو الشاب أو الراشد من وساوس نتيجة الخوف من قلق الكبار على النحو التالى . فثمة الموقف التقبلى المطواع الذى ينتهجه الفكر والوجدان والتصرف : ولكن هذا الموقف التقبلى الاستسلامى لايكون فى نفس الوقت موقف الرضا عن الذات أو موقف التقدير لها . العكس هو الصحيح . فالشخص هنا لايستطيع أن ينظر إلى نفسه بالرضا أو بالتقدير ، بل ينظر اليها بالاحتقار والازدراء . وهذه النظرة الاحتقارية إلى الذات تثير القلق على الكيان الذاتى . فالشخص الموسوس يسلط الفكر والوجدان على نفسه خوفا من أن ينعكس احتقاره لنفسه على سلوك الآخرين بتجاهه وعلى موقفهم منه . ذلك أن الآخرين يستقرئون موقف الشخص من نفسه ويعاملونه على هذا الأساس . فعندما يحتقر الناس شخصا ما ، فان احتقارهم له يكون فى الغالب صدى أو ردفعل لاحتقاره لذاته . فهم يقرأون على وجهه احتقاره لنفسه ، فيحتقرونه بدورهم ، أو قل إنهم يقلدونه فى هذا التحقير لذاته .

فالموسوس يركز ذهنه ووجدانه على ذاته . ولقد يخشى من احتقار الناس له نتيجة احتقاره لذاته ، فيتخذ موقفا مضادا لما يعتمل بنفسه ، فيشتد إحساسه بالكرامة ويكون مرهف الحس بحيث أن أى كلمة عابرة تكون إهانة لاتغتفر ، وبحيث يكون حساسا للغاية بازاء حركات وايماءات وتصرفات الآخرين له . فالوسوسة هنا تتخذ صورة أخرى هى الصورة المعكوسة لما يدور بالخلد . فبدل احتقار الذات فان الموسوس يبالغ فى تقديرها وتعظيمها . ولكأنه فى هذه الحالة كالنعامة التى تدفس رأسها فى الرمال حتى لايراها الصيادون . فالموسوس يخبىء عن نفسه ما يحسه بعمق تجاهها .

ولقد يكون الخوف الشديد على قلق الكبار مفعما أيضاً بالتناقض الوجدانى . فبينما تكون الصورة الظاهرية لسلوك الطفل هى الخوف على الوالدين أو الكبار لأنه يحبهم ، فان الواقع الوجدانى اللاشعورى قد يكون عكس هذا على طول الخط . ذلك أن الكثير من الكلف ، والكثير من إبداء الحب ، بل والكثير من الطاعة والانصياع تكون شواهد على عكس هذا ، أو

قل إن الصورة السلوكية الخارجية كثيرا ما تكون صورة معكوسة لما يعتمل بالداخل . فالكراهية الشديدة تنعكس إلى الخارج فى هيئة حب شديد ، وتمنى الموت والازاحة من طريق الحياة قد يبدو فى ظاهرية السلوك على هيئة هلع وخوف على الكبير . ولسنا نغالى إذا قلنا ان الوساوس تسيطر على قلوب الصغار إنما تكون فى الواقع أشياء سرية يرغب الموسوس تخبئتها واخفاءها عن الأنظار .

انهيار صرح الأسرة :

ثمة نوعان من انهيار صرح الأسرة : النوع الأول – هدم فعلى ظاهرى وباطنى معا ، ونوع آخر باطنى فحسب مع بقاء الهيكل الخارجى للأسرة قائما . وعلى الرغم من أن البادى للعيان هو أن النوع الأول أكثر تأثيرا فى نفسية الطفل ، ومن ثم أكثر قدرة على إصابته بالأمراض النفسية ومن بينها الوسوسة ، فأن الدراسات النفسية الحديثة قد كشفت النقاب عن أن النوع الثانى من انهيار صرح الأسرة ، وهو النوع الذى يتسم بالمنازعات المستمرة بين أفراد الأسرة ، سواء بين الوالدين بعضهما وبعض ، أم بين الوالدين والجد أو الجدة ، أم بينهما وبين الأبناء والبنات الكبار ، أم بين الأسرة ككل وبين الجيران ، إنما يكون تأثيره فى بعض الأحيان أكثر شدة وضراوة وسوءا من تأثير النوع الأول الذى يكون صرح الأسرة فيه قد تهدم ظاهريا وباطنيا بالفعل . ذلك أن بعض حالات انفصام العرى والتفرق والتباعد المكانى تكون أفضل بكثير من بعض حالات استمرار هيكل الأسرة قائما من الناحية الظاهرية ، بينما تكون دخيلتها وجوهرها فى حالة من التصدع والتزلزل بل وفى حالة من الشقاق وما يتضمنه ذلك الشقاق من إرهاب يخيف الطفل ويشل حركة ذهنه ويحطم سلامة وجدانه ويضرب إرادته بالبلادة أو العجز .

ولاشك أن حالات تمزق أوصال الأسرة جميعا تشكل المناخ المناسب لنشوء الوساوس الوجدانية والوساوس الأدائية . فالطفل الذى يجد نفسه فى إطار أسرة ممزقة أو متصدعة أو مهددة بالتمزق أو التصدع سرعان ما ينسحب

إلى دخيلته وقد خيم عليه الغم وظل حائرا فى أمره لايعرف كيف يتصرف . إنه يجد نفسه فى مجابهة خيارات لايستطيع أن يقع على بعضها ويرفض بعضها الآخر .

والواقع أن الطفل الموسوس بسبب حالات انهيار صرح الأسرة يركز بالدرجة الأولى على الجانب الوجدانى . فهو يجد نفسه فى حيرة من أمره . ولعل حيرته تتبدى فى الحكم على أحد والديه أو على والديه جميعاً بالخيرية أو بالشرية . فهو يحار فى الحكم على من حوله بأنهم ظالمون أم مظلومون . فهو يرى أن الوالد هو سبب المشكلات التى تعانى منها الأسرة فى احدى اللحظات ولكنه يجد حكمه قد تغير فى لحظة أخرى ، فيحكم على والدته بأنها هى الظالمة ، بينما يحكم لوالده بأنه لايقول الا الحق ولايتصرف الا بما يجب أن يتخذه الوالد الحازم من تصرفات . فأين اذن يقع الخطأ ؟ ومن ذا الذى ينبغى أن يلقى عليه باللوم كله ؟ إنه يكون هذا مرة وتلك مرة أخرى ، وقد يقف الطفل مكتوف اليدين وهو عاجز عن إصدار أى حكم . فالخيارات الموجودة أمامه متغيرة القيمة دائما ، أو هى زائغة تفلت من قبضته كلما اقترب من خيار منها لكى يلقى القبض عليه ، ويلقى بالتبعة على المخطىء . فالصور الذهنية التى رسمها الطفل لوالديه أو لفرد ما من أفراد الأسرة تكون ذات ألوان باهتة لا من حيث هى مدركات ذهنية ، بل من حيث هى ألوان جذابة أو منفرة . فلو أنها كانت ألوانا جذابة أو منفره أو ألوانا محددة المعالم ، لكان اذن قادراً على الخيار من بينها . ولكن ألوانها المتسمة بها متقاربة أو متداخلة ، أو قل إنها تجذبه جميعا فى لحظة ما ، وتنفره فى لحظة أخرى وذلك لأنها ألوان عقيمة أو مراوغة .

ومن هنا فانك تجد الطفل بالأسرة التى انهار صرحها بالداخل فحسب أو بالداخل والخارج معا ، وقد أصيب بالتناقض الوجدانى المستمر . فهو يحب ويكره نفس الشخصيات . وكل ما يمكن قوله بازاء وجدانه وعواطفه إنه قد بلور وجدانه وصب عواطفه على تلك الشخصيات . فهو لايستطيع أن يتخذ موقف اللامبالاة الوجدانية بازاء كل أو بعض تلك الشخصيات .

وأنى له أن يكون لامباليا وغير مرتبط وجدانيا وعاطفيا بأى من أفراد أسرته وهو الذى فتح عينيه فوجدهم قبالته ، وقد لقى منهم اللذة والألم ، ووجد فيهم بعض مايحبه وبعض ما يكرهه ، وقد ارتبطت حياته بحياة كل منهم .

والخطير فى حالة الطفل الموسوس الذى نشأ فى أسرة مهدمة الصرح أنه لايستطيع أن يتخيل إمكان البعد والانفصال عن أى من أفراد أسرته . إنه قد يلقى الاهانات والرذل من أى منهم ، وقد يضربه الأب أو تضربه الأم ضربا مبرحا ، ولـكنه لايستطيع أن يستغنى عن أى منهما . وعدم استغنائه لاينجم عن أنهما يكفلان له اشباع حاجاته البيولوجية فحسب ، بل ينجم عن أنهما يكفلان له إشباع حاجاته النفسيه العاطفية . وهل يتسنى له أن يقع على مصدر آخر للحنان يعوضه عما يقدمان اليه من حنان ؟ مهما يكن من شىء ، فان فضلة من حنان يلقيان بها اليه أفضل من لاشىء على الاطلاق ، بل وأفضل من قسوة وازدراء يمكن أن يلقاهما من الآخرين وقد تجردوا من كل حنان يسبغونه عليه .

واذا نحن علمنا أن الطفولة لا تعرف النسبية فى الحكم الأخلاقى على الناس، حيث يكون الفرد الواحد فى الوقت الواحد إما جيدا وإما رديئا ، أو بتعبير آخر إن الطفولة إطلاقية الحكم ، فاننا ندرك مدى ما تتسم به مرارة الوسوسة يعانى منها الطفل ، وهو يحكم على والده أو على والدته بالخيرية كلها أو بالشرية كلها فى لحظة ما ، ثم ما يفتأ يحكم عليهما بعكس ما سبق أن أصدره من حكم فى لحظة أخرى . ومن يدرينا فلعل تلك اللحظات تكون لدى الطفل الموسوس متلاحقة. فهو فى لحظة مايرى فى أبيه الشخصية الملائكية وفى لحظة تالية يرى فيه الشخصية الشيطانية . وهكذا يكون موقفه من أمه ومن باقى أفراد أسرته. فهو يكون كالبندول يتذبذب من يمين الى شمال ومن شمال الى يمين الى غير نهاية بغير أن تستقر عاطفته على حال ، وبغير أن يتسنى له اتخاذ موقف وجدانى يتسم بالثبات والاستقرار ، بل وبغير أن ينتهى الى قرار وجدانى لا يريم عنه .

وحال كهذه ترهق الطفل الموسوس أيما إرهاق ، فيحدث ما يسمى بالتوتر النفسى . والطفل المتوتر نفسيا هو إنسان مرهق الفكر والوجدان وقد ماعت ملامح شخصيته لأن أحكامه الوجدانية مائعة . ويكفى للحكم بميوعة الشخصية بأن تتصفح ميوعة أحكامها على الناس من حولها وبخاصة الوالدين . وأليس جديراً بطفل كهذا أن يكون موسوسا فى أحكامه على كافة من يتصل بهم من أفراد ؟ الواقع أن هناك ما يسمى بالميل نحو التعميم . فمن بؤرة العلاقات بين الطفل ووالديه تنتشر النغمة الوجدانية السائدة بتلك البؤرة ، وهى نغمة متسمة بالتذبذب بين قطبين متنافرين . وهكذا نجد أن الشخص الذى نشأ فى أحضان أسرة منهارة الصرح—وقد ماعت عواطفة وتشتت وجداناته فى أنحاء متباينة فيفتقر الى الحب والتقدير — إنما يظل موسوسا فى علاقاته بجميع الناس . ولعله يفشل أيضا عندما يكبر وتكون له أسرة فتظل علاقاته بشريك حياته وبعد ذلك بأولاده مشوبة بالوسوسة الوجدانية ، بل ويظل صريعاً تحت وطأة أقدامها .

والواقع أن بعض حالات الوسوسة التى تصيب الأطفال والمراهقين والشبان نتيجة انهيار صرح الأسرة قد تجد لها تعبيرا مباشرا فى سلوك المرء ، بينما قد يتحايل بعضها الآخر للتعبير عن نفسه من خلال وسائل تحتية غير مباشرة . فلقد تظل الوسوسة واضحة المعالم مقروءة الملامح فنقول إن هذه وسوسة عقلية أو أن تلك وسوسة وجدانية أو أن ثالثة وسوسة أدائية . ولكن فى حالات أخرى تتلبس الوسوسة بمسائل موقفية فتبدو وكأنها سلوك سوى ليس عليه غبار . خذ أمثلة لذلك وقوع بعض المؤلفين فى مصيدة اللوازم اللغوية ، فتجد الواحد منهم يلوك كلمة بعينها أو ينحو إلى استخدام جملة بعينها . ولقد يستملح المستمعون إليه أو قارئو كلامه تلك اللوازم وقد عرف بها لكثرة استخدامه لها . وتكون الحقيقة السيكلوجية للكاتب صاحب اللوازم اللفظية هى استخفاء وساوسه الذهنية فى تلك اللوازم. فلكأن الوسواس العقلى يطل برأسه من خلال تلك اللوازم الكلامية .

ولقد تجد شخصا آخر يلبس وسواسه الوجدانى صيغة اجتماعية مقبولة ، فيصير مدققا جدا فيما يقوله أو يفوه به الآخرون . فيجد فى الكلمة النابية أو شبه النابية خطرا محدقا على المجتمع وعلى جميع القيم المتعارف عليها . فيظل صامتا أو شبه صامت خوف أن يفوه هو بكلمة فى غير محلها ، كما أنه قد يظل مترقبا زلة لسان يقع فيها أحد الموجودين فى مجلسه فيقيم الدنيا ويقعدها ويقلب المجلس ظهرا لبطن ولكأن القيامة قد قامت . وحقيقة شخص كهذا تكمن فى وساوسه التى تطل برأسها من خلال شدة تدقيقه مع نفسه ومع الآخرين من حوله . ولقد تجد أحد الموظفين وقد صار حرفيا فى سلوكه بحيث يأتى بنفس الحركات ومتبعا نفس الروتين بازاء العملية الواحدة ، فلا يجرؤ على إدخال أى تعديل على مناشطه الوظيفية . ولقد يمتدحه المحيطون به لشدة تدقيقه فى ترتيب أشيائه وأدواته والتزامه بروتين لا يحيد عنه قيد أنملة . ولكنك اذا فحصت مثل هذا الموظف ، اذن لاكتشفت أنه أسير وسواسه الأدائى ، ولكنه استطاع أن يلبسه ثوبا اجتماعيا مقبولا أو شبه مقبول .

الضغوط المدرسية :

ألمحنا فى الموضوع السابق الى ما قد يصيب الطفولة من توترات نفسية بسبب انهيار صرح الأسرة ، سواء كان ذلك الانهيار خارجيا وداخليا ، أم كان داخليا فحسب . والواقع أن هناك أسبابا متباينة وممكنة لحدوث التوترات النفسية لدى الأطفال والمراهقين والشباب من الجنسين . ولعل من أهم تلك الأسباب حاليا ما كان متصلا بالحياة المدرسية وما ترهق به الناشئة من هموم دراسية طوال العام ويكللها جميعا ذلك الهم الثقيل المتعلق بالامتحانات وترقب ما يمكن أن يؤول اليه من فشل أو عدم توفيق أو إحباط لذات الناشىء أو لمن يحيطون به من الكبار وبخاصة الوالدين .

على أننا لا نكتفى بذكر المسئوليات الدراسية التحصيلية المنوطة بالناشىء ، بل نرى أن نضيف اليها أشياء أخرى كثيرة تتعلق بالعلاقات الاجتماعية المتباينة التى قد لا تكون مواتية فى كثير من الأحيان . ولعلنا نجتزىء من تلك العلاقات بالذكر ما قد ينشأ من علاقات غير سوية بين الناشىء وبين أترابه

من جهة ، وبينه وبين مدرسيه أو إدارة المدرسة بعامة من جهة أخرى . فالحياة المدرسية ليست مجرد تحصيل دراسي ، بل هي إلى جانب هذا أيضا علاقات اجتماعية إما أن يتكيف لها الناشيء أو لا يتكيف لها ، وإما أن تتكيف هي للناشيء أو لا تتكيف له . فلقد يكون الناشيء بمثابة جسم غريب عن تلك الجماعات التي تضمه في إطار المدرسة ، فتنبذه وترفضه وتلفظه أو هي تحاول ذلك ، كما أن المؤسسة التعليمية ذاتها بمجموعاتها المتباينة قد لا تروق للناشيء فيحاول نبذها والتخلص منها والنأى عنها وهجرانها .

ولسنا ننسى أن العلاقة بين الناشيء وبين المدرسة قد تكون محفوفة بالخطر يحيق به ، فهي تهدد أمنه ، ولا توفر له السعادة في رحابها . لقد تعصف بأمنه بتلك العقوبات البدنية والنفسية أو باللآمبالاة والضرب برغباته عرض الحائط واعتباره كما مهملا ليس له أية قيمة . وبالطبع فان من الممكن أن تحاول المدرسة إيصال الرعب حتى مخدع الطفل بالبيت ، وذلك بأن تدأب على تحريض الوالدين عليه . فالمدرسة تعنف الوالدين لأنهما لا يراقبان الطفل بالبيت ، أو لأنهما لا يستخدمان القسوة معه . إنها قد تحضهما على ضربه وإيذائه اذا هو ركن الى النوم قبل أن ينتهي من واجباته المدرسية . ولقد تطلب اليهما تأديبه لأنه يسيء معاملة زملائه بالفصل ، أو لأنه يهمل في طاعة المدرسة في أمور أخرى غير الدراسة والاستذكار .

ومعنى هذا في الواقع أن الضغوط المدرسية يمكن أن تلاحق الطفل حتى بالبيت . فهي تنتشر بعباءتها حتى وهو يرتمي في سريره ليغط في النوم . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن الضغوط المدرسية يمكن أن تستمر في اعمالها حتى في أحلام الطفل وفي لاشعوره . فهو لا يستطيع أن ينام نوما عميقا بغير أن تهزه تلك الضغوط في أحلامه المزعجة . ولقد نجد الناشيء وقد صار شخصية مهزوزة جبانة هيابة بسبب ما ترسب في أعماقه من مخاوف تظل مخبؤة في طياته ولكنها تطل برأسها في تصرفاته وفي كلامه الموصوم بالتهتهة والتردد والارتعاش أو فيما يبديه من حركات واشارات وأوضاع جسمية في وقوفه وجلوسه ونومه .

والواقع أن الضغوط المدرسية بأنواعها المتباينة وتشعباتها الكثيرة وارهاقها للطفولة والمراهقة والشباب إنما تؤدى الى نشرء داء الوسوسة فى حياة الناشئة . ونستطيع أن نشاهد مجالات كثيرة فى حياة الناشيء تتبدى فيها الوسوسة . ولعلنا نلخصها فيما يلى :

أولا — وسوسة تتعلق بالاستذكار . فلقد تجد الناشيء وقد أخذت فكرة أو مسئولية الاستذكار أو الاحساس بالخوف أو الانقباض أو الكراهية يحس بها بازاء الاستذكار فى حد ذاته وقد تسلطت عليه لا تريم عنه طوال الوقت.فهو لا يذاكر بالفعل ، ولكن شبح الاستذكار يطارده ليل نهار . ولكأنه قد انحبس فى اطار به خياران اثنان لا ثالث لهما : الخيار الأول — أن يشق عباب الدروس فيلتهمهاالتهاما ، والخيارالثانى— أن يضرب بالاستذكار عرض الحائط ولا يعيره أى اهتمام . ولقد تشاهد التذبذب بين هذين القطبين المتنافرين بين لحظة وأخرى من لحظات حياة الطفل أو المراهق أو الشاب. فهو فى لحظة تأخذه الحماسة للاستذكار ، ولكنه ما يفتأ أن يفتر وتذبل حماسته التى كانت متوهجة كما لوأنه سوف يلتهم جميع الدروس فى لحظة واحدة .

ثانيا — وسوسة تتعلق بموقفه بين زملائه من الناحية الدراسية . فهو يخشى أن يلقى التحقير من مدرسيه وزملائه على السواء . ولقد تخيم عليه هذه الفكرة فلا يستطيع التخلص منها أو التخفف من وطأتها .

ثالثا — وسوسة تتعلق بالتصرف الذى يتخذه اذا ما قوبل بالاستهجان والتحقير من جانب مدرسيه وزملائه . وهنا نجد خيارين : الأول — الرضوخ للأمر الواقع والاستسلام ومحاولة أخذ المسألة ببساطة أو حتى بالضحك أو الابتسام ، والثانى — مقاومة هذا الوضع والثورة عليه ومقابلة الاهانات باهانات مثلها . على أن الناشيء الموسوس لا يستطيع فى الواقع أن يحسم أمره وأن يقع على واحد من هذين الاختيارين وينبذ الاختيار الآخر . إن فكره يظل كبندول الساعة يتأرجح بين هذين الاختيارين فى نطاق ذهنه وما يرتبط بكل منهما من وجدانات متباينة أو حتى متضاربة .

رابعا . وساوس تتعلق بالتهديدات التى تلاحقه حتى فى سريره بالبيت . فهو يجد نفسه أمام خيارين أيضا : أحدهما الوقوع تحت وطأة تلك المخاوف فى استسلام ورضوخ ، والثانى – مناهضة تلك المخاوف واحالة شحنة الخوف الى شحنة غضب وثورة وهياج ومقاومة وشق عصا الطاعة . فلماذا لا يقلب المائدة على رؤوس أولئك الذين يريدون قلبها عليه ؟ ولماذا لا يشكل من نفسه موضوعا لخوف أولئك الذين يخيفونه ؟ ولكن هل يختار الموسوس واحدا من هذين الخيارين ؟ إنه لو فعل ذلك لما نعت إذن بالوسوسة . ولكنه يظل حائرا بينهما لا يقر له قرار ، ولا يجد له محطا يحط عليه . فهو متنقل ومتذبذب بين هذين الخيارين ليل نهار وفى وقت يقظته ونعاسه على السواء .

خامسا – وساوس تتعلق بالامتحانات ونتائجها وما يمكن أن يترتب عليها من نجاح أو فشل فى الحياة برمتها . وهنا أيضا نلاحظ أن الناشىء يرسم لنفسه صورتين متباينتين تمام التباين. فهو فى لحظةما يتخيل نفسه فى قمة النجاح ، وفى لحظة أخرى يتخيل نفسه فى حضيض الفشل . على أن الموسوس لا يستطيع أن يرسو بعقله على واحد من هذين الميناءين . فهو لايستطيع أن يظل متخيلا نفسه فى أوج المجد ، ولا أن يظل متخيلا نفسه فى الحضيض والفشل الذريع . ومن الطبيعى أن هذا التقلقل بين هذين القطبين المتنافرين يؤدى إلى فساد نفسيته وضعضعة وجدانه واصابته بعدم الاستقرار الانفعالى ، وذلك بسبب تشتته بين قطبين متنافرين ، هما قطب النجاح وقطب الفشل . ولسوف نعود فى الموضوع القادم لهذا الوسواس فى معرض حديثنا عن التهديد بالمستقبل الفاشل .

ولعلنا نتساءل بعد هذا : من المسئول عن الضغوط المدرسية ينوء بها كاهل الطفل والمراهق والشاب من الجنسين ؟ قد يقول قائل : إن المسئول هو المدرسة بلا شك . فهى التى تضم الطفل والمراهق والشاب فى رحابها ، وهى التى تحمله أثقال المواد الدراسية وتشل حركة فكره وحريته ، وتقيد ذلك الفكر بشكائم الواجبات المدرسية ، بل إنها هى التى تعامله معاملة رديئة وتؤذيه فى بدنه ونفسه بما توقعه عليه من عقوبات بدنية ونفسية . وهى أخيرا

التى ترهبه بالامتحانات وتضع سياسة لتقويم أعمال التلاميذ والطلاب وتحكم على واحد بالنجاح والارتقاء الى صف أو مرحلة دراسية جديدة ؛ بينما تحكم على آخر بالرسوب أو حتى بالطرد من المدرسة أو بعدم استمرار الدراسة بالمراحل الدراسية التى يرغب فى الانخراط فيها . فهى المؤسسة التى تعوق تحقيق رغبات الناشئة .

بيد أن المدرسة سرعان ما تلقى باللائمة على البيت متهمة الوالدين بالتوتر النفسى تغلف به حياة الطفل وتزيد الضغط عليه . وأكثر من هذا فان المدرسة بما فيها من مدرسين كثيرا ما تقع تحت ضغط البيت . أليس من المشاهد اليومية زيارة الوالدين للمدرسة وقد حملا الشكوى من الابن أو البنت ، وأخذا فى مطالبة المدرسين بأخذهما بالشدة واستخدام الضرب لتنبيههما إلى خطورة الموقف وحملهما عنوة على متابعة ما تقدمه المدرسة من دروس بالبيت ؟ ومهما يكن من شىء فلا شك أن المسئولية تتوزع مناصفة بين المدرسة والأسرة فيما يصيب الناشئة من وساوس متباينة .

التهديد بالمستقبل القاتم :

قلنا إن الضغوط المدرسية تتضمن جوانب متباينة من ضمنها إشاعة الخوف فى قلوب الناشئة مما سوف يحمله لهم المستقبل من فشل وفقر وضياع إذا هم لم يجتهدوا فى دراستهم ، واذا لم ينصاعوا لما ترسمه لهم المدرسة من طرائق سلوكية وما تقرره من مناهج يأخذون بها أنفسهم فى الحياة. وحرى بنا فى هذا المقام أن نفتق هذا الموضوع من جوانبه المتباينة حتى يتكشف لنا التهديد بالمستقبل القاتم يصدر عن الأسرة والمدرسة فى علاقته بشيوع الوسوسة فى شخصيات الأطفال والمراهقين والشبان من الجنسين .

ولعلنا نبدأ بالتساؤل عما يقصده الكبار المسئولون عن الناشئة بتهديداتهم لهم بالمستقبل القاتم. هناك فى الواقع عدة أسباب أو عدة أهداف يرغب الكبار فى تحقيقها فى سوقهم لهذا التهديد الى أبنائهم أو تلاميذهم . وتتلخص هذه الأسباب فيما يلى :

أولا – قد يستهدف الكبار من تهديدهم للناشئة بالمستقبل القاتم حثهم على بذل جهد أكبر مما يبذلونه بالفعل . فعندما يشاهد الأب أو تشاهد الأم ابنها أو ابنتها فى حالة من الاسترخاء والتراخى والتهاون وللعب وإهمال الدروس ، فانهما يحاولان قلب حالة الأبن أو البنت من الاسترخاء إلى التوتر ، ومن الاطمئنان إلى الاحساس بالخطر ، ومن التواكل إلى الاهتمام .

ثانيا – قد يستهدف الكبار من تهديدهم ذاك معاقبة الطفل أو المراهق أو الشاب لإتيانه تصرفات أو استخدامه لألفاظ وعبارات أغاظت أو جرحت مشاعر أحد الكبار . فهنا نجد أن التهديد بالمستقبل القاتم بمثابة أداة انتقامية يتذرع بها الكبار لكسر جبروت وعتو الناشىء ووقفه عند حده بغير أن يتطاول أو يزيد من تطاوله وتحديه لسلطة الكبار .

ثالثا – قد يكون تهديد الكبار للصغار بالمستقبل القاتم قائما على أساس التعبير عما يساور أولئك الكبار من قلق بالغ ألم بهم وشاع فى أنحائهم وأخذ بهم كل مأخذ . فهم يسقطون على أبنائهم أو الصغار من حولهم ما يعتمل فى قلوبهم من مخاوف ترهبهم هم ، فيحاولون نقلها إلى الصغار لأنهم يعتقدون أن المنقذ لهم من تلك المخاوف هم أولئك الصغار إذا هم اجتهدوا فى دراستهم فأثبتوا بذلك بطلان تلك المشاعر المعتملة فى عقولهم وقلوبهم فتنقشع سريعا .

وهناك فى الواقع مناح متباينة يمكن أن ينحو اليها الكبار فى تهديدهم للصغار بالمستقبل القاتم . فهناك إلى جانب المستقبل العلمى نفسه وهو الذى يعنى النجاح فى الامتحانات بعد استيعاب ما تقدمه المدرسة من مناهج وما تكلف به الصغار من واجبات مدرسية ، المستقبل الاقتصادى حيث يكون هناك هدف – ربما يكون هو الهدف الأساسى لدى كثير من الآباء والأمهات – هو الحصول على عمل عن طريق الحصول على المؤهل الدراسى . فلكأن المؤهل الدراسى بمثابة وسيلة لبلوغ غاية أخرى هى الحصول على الوظيفة التى تدر ربحا ثابتا كل شهر . بيد أن الكسب المادى ليس كل شىء . فهناك فى أذهان الناس مثل اجتماعية يبجلونها ويصبون اليها . فالطبيب أو الجيولوجى له

وضعه المرموق فى أنظار الناس أعلى مقاما من وضع السباك أو النجار أو أى حرفى آخر مع أن الحرفيين يربحون أموالا طائلة تفوق ما يمكن أن يربحه الطبيب النطاسى أو الجيولوجى العالم بطبقات الأرض . والناس يحترمون ويبجلون النجوم وأصحاب الشهرة والمتفوقين فى المجالات المتباينة .

وثمة أيضاً مستقبل آخر يهتم به كثير من الكبار هو المستقبل الأخلاقى . فالسمعة الطيبة ونمو تلك السمعة وارتقاؤها وذيوعها ذيوعا حسنا بحيث يثنى معظم الناس على المرء، لهى أيضاً ضمن الآفاق المستقبلية التى يأخذها الكبار فى اعتبارهم . وطبيعى أن يكون المستقبل الصحى أيضاً ضمن تلك الآفاق المستقبلية التى يضعها الكبار فى اعتبارهم بالنسبة لأبنائهم وبناتهم . فهم يرجون لأبنائهم دوام الصحة بل ويرجون لهم اللياقة البدنية بحيث يتسنى لهم ممارسة كافة أنواع النشاط المطلوبة منهم على خير وجه . ولعلنا نجد أن الكبار يهددون الصغار بالمستقبل القاتم فى جميع الانحاء السابقة فى موقف أو أكثر من المواقف اليومية .

وليس من شك فى أن الإنسان — كل إنسان — بحاجة لازبة إلى قدر معين من التهديد يجعله على قدر معين من التوتر العصبى المعقول . ذلك أن الاسترخاء التام — شأنه شأن التوتر الشديد. فكلاهما مثبط للهمة ومفض إلى الفشل فى الحياة. والتهديد الذى نقصده — وهو التهديد المفيد — له شروط يجب أن تتوافر به حتى يكون تهديدا ناجعا للناشئة :

أولا — يجب أن يكون التهديد بالمستقبل القاتم فى توازن تام مع التشجيع والاستبشار بالمستقبل الباسم ، بمعنى أن يقال للناشئة إن فرص النجاح والتفوق متاحة لهم لأنهم يتمتعون بقدرة عالية فى الذكاء ولأنهم لايقلون عن زملائهم الناجحين المتفوقين. ويقال لهم فى نفس الوقت إن إهمال القدرات العقلية يضيعها ويجعل من الشخص إنسانا متخلفا عن أترابه . فاذا مازادت كفة التهديد كان اليأس ، وبالعكس إذا مازادت كفة الثناء والامتداح كان اذن التواكل والغرور الأجوف .

ثانيا — يجب أن يكون استخدام سلاحى التهديد والتشجيع بقدر وبغير مغالاة ، بل إننا نميل إلى القول بأن الإقلال من هذين العنصرين أفضل من الإكثار منهما والمبالغة فى استخدامهما .

ثالثا — يجب أن يأخذ الكبير حالة الصغير أو الناشىء لا كما يريد الكبير أن تكون أو كما يتخيل ، بل كما هى فى الواقع . وعلى هذا يقدم التهديد أو التحذير أو التشجيع والثناء . فليست هناك قاعدة أو إطار عام ينصب فيه جميع الناس بالتساوى . فثمة فروق فردية بعيدة المدى بين الناشئة . فهناك مثلا بعض الناشئة لايرغبون فى تدخل الكبار فى شئونهم من قريب أو من بعيد . فهم لايرغبون فى أن يسمعوا تشجيعاً أو تهديدا من الكبار . فهم يرغبون فى العمل وممارسة حياتهم بعيدا عن ضغوط الكبار أيا كانت .

والواقع أن الكثير من الوساوس التى تستولى على الناشئة يكون مصدرها إساءة استخدام التحذيرات والتهديدات يفوه بها الآباء والأمهات والمعلمون فيلقون بها على عواهنها بغير أن يوظفوها التوظيف الصحيح فى المواقف المتباينة ،وبغير أن يلقوا بالهم إلى ما يمكن أن تؤدى اليه أو أن تؤثر به فى عقول وقلوب الناشئة . ولعلنا نتساءل عن الكيفية التى يتم بها نشوب الوساوس فى نفوس الناشئة بسبب الكبار .

هناك أولا — الحالات التى يؤكد فيها الكبار أن الفشل قد وقع بالفعل ، وأن المستقبل القاتم الذى كان يخشى منه قد صار حاضرا وواقعا ، فلا حاجة اذن إلى ترقبه أو توقعه أو الخشية من حدوثه لأنه صار بالفعل واقعا بائنا لايحتاج للتدليل عليه أو استنتاج حدوثه فى المستقبل . فهذا الموقف يتخذه الوالدان أو المعلمون يمكن أن يقضى على كل أمل يساور الناشىء فى فتح باب الأمل فى مستقبل يغير من ملامح توقعات الكبار .

هناك ثانيا — الحالات التى يكون الطفل أو المراهق أو الشاب قد فشل فيها فيعمم فى ضوئها على جميع الحالات المستقبلية . فيستدل الكبار على المستقبل برمته بناء على شواهد الحاضر الضئيلة . وطبيعى أن الناشىء يحس بأن

استنتاجا كهذا من جانب الكبار صحيح لأنهم كبار ولأنهم يفهمون أكثر منه. فكيف يستطيع أن يتوقع لنفسه نجاحا فيخالف بذلك عما يتوقعه له الكبار ؟ فهو اذن يرتمى فى حماة اليأس ولا يحاول من جديد . ومعنى هذا بتعبير آخر ارتماؤه فى أحضان الوسوسة وقد صارت فكرة اليأس من المستقبل الباسم هى السائدة على شخصيته .

هناك ثالثا – تخيل الكبار أن عيوب الطفولة إنما هى صورة مصغرة لعيوب الأعمار التالية لنفس الشخص . فاذا ما ضبط طفل وهو يسرق شيئا استهواه من زميل له بالمدرسة ، فان الوالدين أو المعلمين يعتقدون أن ذلك الطفل السارق سوف يكون زعيم عصابة فى المستقبل . وكذا اذا ما غضب أحد الأطفال فاعتدى على طفل آخر فجرحه فى يده فإن الكبار يمكن أن يسارعوا إلى التعميم ، فيذهبوا إلى أن ذلك الطفل سوف يكون مجرما عاتيا وقاتلا قاسيا فى المستقبل . ولقد أثبتت الدراسات التتبعية لكثير من الأطفال الذين ظهرت فى سلوكهم بعض الانحرافات أن ما يبدو فى سلوك الطفل خلال طفولته لا يكون بالضرورة صورة مصغرة لما سوف يكون عليه حاله فى المستقبل . وهذا ينطبق على الخير والشر جميعا . فكثير من الأخيار كانوا منحرفين فى طفولتهم ، كما أن كثيرا من الأشقياء كانوا على خلق طيب فى طفولتهم . وبتعبير آخر فان قياس مستقبل الطفل على حاضره خطأ بالغ واستنتاج سقيم . بيد أن تصميم الكبار من حول الطفل على أن مستقبله سيكون قاتما لأن حاضره الطفلى به بعض الانحرافات ، انما يصيب شخصية ذلك الطفل المنحرف بما يسمى بثبوت أو رسوخ السلوك المنحرف ، وقد استولى عليه الوسواس المتعلق به .

الفصل الخامس عشر

العلاج النفسي للوسوسة

العلاج بالترويح والرحلات :

علينا أن نذكر دائما أن هناك ثلاثة أنواع من الأمراض النفسية : فهناك أولا أمراض تنتج أساسا عن خلل عضوى يتعلق بالمخ أو بفساد أصاب بعض الغدد الصماء كالغدة الدرقية أو الغدد التناسلية . أما النوع الثانى — فهو الأمراض الوراثية التى يرثها المرء عن أسلافه القريبين أو البعيدين على هيئة استعدادات تستحيل إلى واقع سلوكى عندما تجد الفرص المتاحة والظروف الملائمة لظهورها . والنوع الثالث—هو النوع الوظيفى الذى ينجم أساسا عن انتهاج خط سلوكى خاطىء أو عن خروج عن الخطوط السلوكية المتعارف عليها من جانب المجتمع الذى يعيش المرء فى إطاره .

ويهمنا فى هذا المقام أن نقرر أن الوسوسة كمرض نفسى إنما تنتمى إلى هذا النوع الأخير من الأمراض النفسية . فالموسوس لا يرث وسواسه عن أسلافه ، ولا يصاب بالوسواس نتيجة إصابة بالمخ ألمت به أو نتيجة فساد فى غدده الصماء . ولعلنا نقول إن العامل التربوى فى ظهور الوسوسة بسلوك المرء يشكل الدعامة الأساسية أو أن له نصيب الأسد فى ظهورها . ولقد نجسر بالقول بأن امتناع توافر العوامل التربوية تحيط بالمرء منذ الطفولة ، يحول دون ظهور الوسوسة على سطح الشخصية ، فلا تتبدى فى فكره أو فى وجدانه أو فى تصرفاته المتباينة .

والواقع أن الأمراض النفسية التى تقع فى اطار النوع الثالث — وهو ما يمكن أن نسميه بالأمراض النفسية التربوية أو الوظيفية — لا تعالج إلا عن طريق التأثير الاجتماعى فى الفرد المصاب بها . فليس بمجد أن تستعين

على معالجة الأمراض التربوية أو الوظيفية بالتأثير فى الكيان البيولوجى للمرء . فالوسوسة – مثلا – وهى تقع فى إطار هذا النوع من الأمراض النفسية–لا تجد لها علاجا فى الأقراص الطبية المهدئة ، كما أنها لا تجد لها علاجا باجراء عمليات جراحية بالمخ أو بالتأثير فى الغدد الصماء وما تقوم بافرازه من هورمونات . والعلاج الوحيد الممكن هو البحث عن مؤثرات تربوية جديدة تعمل عملها فى علاقات المريض بالآخرين .

ولعل من أهم وسائل العلاج النفسى خرط المريض فى جو مرح يخفف من الضغوط النفسية المعتملة بدخيلته ، والانتقال به إلى أماكن بعيدة عن المجال الاجتماعى الذى يقطن به . وعلينا فى الواقع أن نقدم الأسس التى يرتكز عليها العلاج بالترويح والرحلات ، وهى تتلخص فيما يلى :

أولا – التخفيف من الآثار المكدرة للوساوس . ذلك أن وسائل الترويح والرحلات تشيع البهجة فى النفس وتدخل عناصر جديدة مثيرة للانتباه وتنشط الذهن وتخفف من المكدر الذى يتسم به الموسوس غالبا .

ثانيا – إن المقومات الادراكية التى يتضمنها الترويح والرحلات تجذب انتباه الموسوس الى نطاق أو الى نطاقات إدراكية جديدة تشغله عما يستولى عليه من وساوس .

ثالثا – تتضمن مجالات الترويح والرحلات إقامة علاقات اجتماعية متباينة . فهى تخرج بالموسوس من حالة الانغلاق الاجتماعى الى حالة التفتح الاجتماعى . فمن الملاحظ أن الكثير من الوساوس تنشط وتسيطر على الشخص نتيجة بعده عن الناس ، أو نتيجة ضعف العلاقات الاجتماعية بالآخرين . والواقع أن مجالات الترويح والرحلات كثيرا ما تضم أشخاصا لم يسبق أن شاهدهم الموسوس أو لم يقم معهم علاقات اجتماعية سابقة . ومن ثم فان الموسوس ينسلخ من وساوسه لكى يقيم علاقات اجتماعية جديدة . وعلى هذا فان العلاقات الاجتماعية الجديدة تعمل على تحريك العلاقات الاجتماعية القديمة وكسبها لصفة الجدة . ولعلنا نشبه الموقف هنا بالنهر الذى يلتقى فى مجراه الجديد

ببركة من المياة الآسنة فيدفع بمياهها الفاسدة ويجددها بل ويحيل مضمونها المائى إلى مضمون جيد ، وذلك بأن تستحيل مياهها الآسنة إلى مياه جيدة نقية وصالحة للاستعمال البشرى والحيوانى على السواء .

رابعا — فى المواقف الترويحية والرحلات نجد أن ثمة عنصرين من عناصر التأثير الهامة تسود الموقف : العنصر الأول هو الايحاء ، والثانى التقليد . فالموقف الترويحى والعلاقات الاجتماعية التى تنتشر وتشيع بين أفراد الرحلة يتضمنان هذين العنصرين الأساسيين من عناصر التأثير النفسى . ولعلنا نجمع هذين العاملين فى عامل واحد ، فنقول إن الايحاء هو تقليد وجدانى ، وأن التقليد هو ايحاء عملى أو تصرفى . فعندما يختلط الموسوس بالآخرين من أفراد غير الموسوسين فى تلك المواقف ، فانه يصطبغ بصبغتهم ويستشف ما يحملونه من صيغ ويحيلها إلى سلوك داخلى ، كما أنه يقلد ما يمارسونه من تصرفات . وبذا فان وساوسه تقل فى قوتها ولا تظل على حالها من السيطرة على عقله ووجدانه .

خامسا — يعمل الترويح والعلاقات الاجتماعية بصفة عامة على تنشيط الذهن وعلى تحريك الوجدان . والواقع أن الوسواس يمثل حالة خمود ذهنى وجمود وجدانى . فطالما أن العلاقات الاجتماعية التى تتضمنها العلاقات الترويحية والرحلات تنشط الذهن والوجدان ، فانها تحيل عقل الموسوس ووجدانه الى عقل ووجدان غير آسنين وذلك بتخصيبهما وتنشيطهما وبالتالى فانه يتخلص من الوسوسة .

وجدير بنا أن نستعرض بعض الأمثلة للترويح والرحلات التى يتسنى بواسطتها ممارسة العلاج النفسى . فهناك أولا — حفلات السمر ، وهى الحفلات التى تتسم بالتلقائية والمشاركة العفوية من جانب المشتركين فيها جميعا بغير استثناء أى واحد منهم . ويكفى فى حلقة السمر اجتماع مجموعة مؤتلفة من الأشخاص المتقاربين فى السن والثقافة والمزاج والميول الطبيعية فى مكان ما . ونحن ننصح بعدم اشتراك الكبار مع الصغار فى حفلات السمر ،

وذلك لأن وجود أولئك الكبار قد يكون عائقا يقف حجر عثرة أمام انطلاق الموسوسين فى التيار الدافق الموجود والمتوافر بحلقة السمر . على أن من الضرورى أن تضم حلقة السمر بعض الشخصيات المرحة من الأتراب ، وهم أولئك الأشخاص الذين وهبوا قدرة على إثارة الضحك وعلى اثارة الموجودين بالابتهاج والغبطة بما يقدمونه من ألعاب وبقدرتهم على إقامة علاقات اجتماعية جديدة ، وعلى حمل المنزوين بعيدا عن الباقين على المشاركة فيما يجرى من مناشط وألعاب .

وهناك ثانيا — الأفلام المرحة وأفلام المغامرات . ذلك أن مشاهدة الفيلم المرح ، وكذا مشاهدة أفلام المغامرات ، تحمل المشاهد على التلبس بصيغ سلوكية جديدة . ولعلنا نؤكد بصفة خاصة على تلك الأفلام التى تتضمن فكرة التحدى والاستهتار بالتقاليد البالية أو الأوضاع الروتينية الجامدة ، أو التى تتضمن تحديا للعتاة وانتصارا على المتجبرين من جانب شخصيات ضعيفة لم يكن يعتقد أنها تستطيع الانتصار على الأقوياء . والواقع أن أفلام المغامرات تجعل الموسوس يتحدى لاشعوريا مخاوفه ومضايقاته ، بل تحمله على التجاسر بتحديها وضربها فى الصميم .

هناك ثالثا — ممارسة الترويح فى أثناء الرحلات البعيدة . فبالاضافة إلى ما تتضمنه الرحلة من ترويح ، فان التخلص من قيود المكان وركوب وسائل المواصلات السريعة ومشاهدة معالم جغرافية جديدة ، إنما يساعد على التخلص من الوساوس العقلية والوجدانية والأدائية ، ناهيك عن أن ترك المكان الذى اعتاد المرء ممارسة وساوسه فى إطاره فيتبدل يتبدل ليحل محله مكان آخر ، فان المكان الجديد لا يشجع على استنهاض الوساوس وإثارتها ، بل بالعكس فانه يساعد على إطفاء جذوتها وبتر أطرافها والقضاء على قوتها .

وهناك رابعا — الحفلات الرياضية الترويحية . ذلك أن هذا النوع من الرياضة لا يتطلب توافر شروط تتعلق باللياقة البدنية أو بمعرفة أصول اللعبة أو التمرس بها والتمكن من ممارستها ، بل يتطلب شيئا واحدا هو الممارسة ذاتها من جانب أشخاص لا يتمتعون جميعا بلياقة بدنية ولا يعرفون جميعا قواعد

اللعبة ، ولا يتمكنون جميعاً من ممارستها ممارسة جيدة . من ذلك مثلا مشاركة جميع القائمين بالرحلة فى الكرة الطائرة أو كرة القدم . ولكن يجب أن نضع شرطا واحدا هو التزام الجميع بعدم إبداء أى علامة من علامات السخرية بأحد اللاعبين وتشجيع الجميع على ابداء أكبر قدر من النشاط . ومثل هذه المناشط الرياضية تفيد فى حالات نفسية متعددة بضمنها حالات الوسوسة وهى تندرج فى باب الترويح وليس فى باب الرياضة البدنية . فبمجرد مشاركة الموسوس فى النشاط والحركة فانه يتخلص بالتالى من قدر كبير من وساوسه وهمومه النفسية .

التدريب المباشر :

إذا لم يؤد العلاج بالترويح والرحلات الى العلاج الناجع بحيث يتخلص الموسوس من وسواسه ، فان عليه أن يستعين بالتدريب المباشر ،سواء كان هو المدرب لنفسه ، أم استعان فى ذلك بغيره وخضع لمباشرة أحد الاخصائيين النفسيين فى هذا الصدد . وعلينا بادىء ذى بدء أن نحدد مفهوم التدريب المباشر حتى يتسنى لنا معرفة وسائل التطبيق المتباينة التى يمكن عن طريقها التخلص من الوساوس ويتكون التدريب المباشر مما يلى :

أولا — تحديد نوع الوسواس الذى أصاب المرء تحديداً دقيقاً . وهذا يتطلب من الشخص الموسوس أن يكون أمينا مع نفسهفى تحديد ينوع الوسواس الذى ألم به . ولقد يكون من المناسب أن يقوم المعالج—أو بتعبير أدق الموجه النفسى — باستخدام آلة التسجيل الصوتى لهذا الغرض ، وأن يتيح الفرصة له للتعبير عن كل ما يساوره من أفكار ومشاعر بانطلاق وعدم تحفظ . وهذا يستلزم الثقة التامة من جانب الموسوس فى المعالج ، بل ويستلزم التأكد من أنه شخص جدير بالحفاظ على أسراره . ويسير التسجيل وفقاً لمبدأ تداعى الأفكار ، ولا تكون مهمة الموجه النفسى الا إثارة الموضوعات لمساعدة الشخص على الإفاضة بما اختزن فى نفسه من أفكار وانفعالات . ويستطيع الموجه النفسى الوقوف على البؤرة الوسواسية التى تتمركز فى عقل وقلب

الموسوس من سياق الحديث المسجل . وهذا لا يتأتى له الا بمعاودة الاستماع إلى الكلام الذى سجله فى عدة جلسات متباعدة نسبيا .

ثانيا — ملاحظة الشخص الموسوس بغير علم من جانبه وذلك من سياق سلوكه وحديثه وتصرفاته وانفعالاته .

ثالثا — بعد أن يتم تحديد الوسواس يقوم الموجه النفسى بتنفيذ خطوات التدريب المباشر وذلك بتوسيع المجال الذى ينحصر فيه الوسواس . والموقف هنا يشبه عملية توسيع الملابس الضيقة التى تضايق المرتدى لها فيحس بالراحة نتيجة ذلك التوسيع .

ولنأخذ مثالا عمليا للتدريب المباشر بالشخص الذى تسيطر عليه نغمة موسيقية معينة ليل نهار بحيث يضجر من سيطرتها عليه واستعبادها له . إن التدريب المباشر يكون بتناول نفس تلك النغمة التى تشكل الوسواس وادخال تعديلات لحنية عليها بحيث تتدرج التعديلات اللحنية من أكثرها قربا من اللحن الأصلى إلى أكثرها بعدا عنه . ويقوم الموجه النفسى الذى يكون قد طلب مساعدة أحد الموسيقيين القادرين على تطوير اللحن الوسواسى وقد قام بتسجيل الألحان المعدلة حسب تباعدها التدريجى عن اللحن الأصلى على شريط تسجيل . وعند بدء جلسة التدريب المباشر يقوم الموجه النفسى بتقديم اللحن الأصلى كما هو مسيطر على ذهن الموسوس ، ثم يقدم بعد ذلك أول لحن معدل ثم يقدم اللحن الثانى فالثالث فالرابع فالخامس الى آخر الألحان المعدلة والمنبثقة من اللحن الأول :

والواقع أن توسيع اللحن — إذا صح التعبير — يعنى فى نفس الوقت زلزلة بنائه اللحنى كما ارتسم فى ذهن الموسوس وسيطر على وجدانه . ولا شك أن إدخال أى تعديل على الصورة الوسواسية يؤدى الى فقدان قوتها . على أن من الضرورى معاودة التدريب المباشر فى أيام متتالية . ونستطيع أن نتنبأ بأن الوسواس اللحنى ذاك سوف ينقشع تماما بعد خمس جلسات تدريبية على الأكثر ، وقد لا يتطلب الأمر الا ثلاثة جلسات تدريبية فحسب .

ولنأخذ مثالا آخر وهو فى هذه المرة يتعلق بوسوسة أدائية تتمثل فى الاستمرار فى الاغتسال خوف الاصابة بالمرض من ميكروبات موهومة. إن المبدأ التدريبي كما قلنا هو العمل على توسيع المجال فتضييع الصورة الجامدة للوسواس: فالصورة المرضية للاغتسال تتمثل فى استمرار غسل اليدين بالماء والصابون مع استعمال فرشاة تدمى الجلد. فكيف السبيل إلى توسيع الأداء حتى يضيع تماسك الوسواس. لقد يطلب الموجه النفسى إلى الموسوس بهذا الداء الأدائى أن يقوم بغسل قدميه بالماء والصابون بعد كل مرة يقوم بغسل يديه. وفى جلسة التدريب المباشر يتأمل الموجه النفسى مكان الاغتسال والأوانى المستخدمة فى ذلك، ويحاول ادخال توسعات أيضا فى هذا الباب. فاذا كان الموسوس يقوم بالاغتسال أمام حوض معين، فان الموجه النفسى يطلب اليه استخدام بعض الأوانى لهذا الغرض. وبدل أن يكون الماء باردا يكون الماء المستخدم ساخنا، وبدل أن يتم الاغتسال فى مكان بالذات تتعدد الأماكن. وبدل قطعة الصابون يستخدم مسحوق الصابون. ولا يسمح الموجه النفسى بأن تصير التغييرات التى أدخلها نمطية، بل عليه بادخال تعديلات مستمرة وصغيرة جدا، فيتأتى عن ذلك زلزلة الأساس الذى يقوم عليه الوسواس الأدائى: ولا شك أنه بعد فترة قصيرة يتساقط الوسواس ويبطل سلطانه وتضعف سيطرته على المرء ويتلاشى فى نهاية الأمر.

٨

ولنأخذ مثالا ثالثا، وهو فى هذه المرة يتعلق بالوسوسة الوجدانية. لقد يجد أحد الاشخاص نفسه فجأة وقد طفت على سطح وجدانه عاطفة جياشة نحو شخص فارقه بالموت أو بالحياة منذ فترة طويلة. لقد يكون ذلك الشخص فى طور الشباب، ويكون تعلقه الطارىء بذلك الشخص المفارق له قد حدث فى طفولته. فهو يحس بالألم يعتصر نفسه بسبب ذلك الفراق. وفى معظم حالات الشوق المفاجىء للشخص الغائب يكون الشخص الآخر من الجنس المقابل، وتكون ثمة علاقة حب وغرام قد ربطت بين الشخصين. ولكن الواقع حال بينهما فانقطعت الصلة بين الحبيبين. ولقد يشتد الحنين ويصير فكرة — أو بتعبير أدق — عاطفة مسيطرة على الشخص. ويكون نتيجة ذلك

فقدان الشهية للطعام وشرود الذهن المستمر وتجنب مخالطة الناس والانصراف عن أداء الواجبات الاجتماعية والوظيفية وعدم الاقبال على الاطلاع ولا على وسائل الترفيه . فماذا يمكن أن يعمله التدريب المباشر فى مثل هذه الحالة ؟ إننا نقول أيضاً بمبدأ التوسيع الذى قررناه فى صدر هذا الموضوع . على أن التوسيع المطلوب هنا ليس توسيعا فى الأداء ، بل هوتوسيع فى بؤرة الحب بحيث أن كل اتساع يقع فى تلك البؤرة يؤدى إلى التخفيف من تركيزها . فعلى المدرب أو الموجه النفسى هنا أن يقوم بتوسيع دائرة التعلق العشقى بدءاً من البؤرة وليس من خارجها . فعليه أولا أن يحدد ملامح وهيئة المحبوب بصفة عامة وذلك عن طريق عرض مجموعة من الصور أو الدمى أمام الشخص الموسوس وسوسةوجدانية إلىأن يقع على أقرب صورة أو علىأقرب دميةتشبه الحبيب المفقود . وبدءا من تلك النقطة يبدأ التوسيع الوجدانى . فنفس الصورة التى وقع اختيار العاشق الموسوس عليها تكون نقطة انطلاق التغيير أو التوسيع فيطلب من أحد الرسامين أو النحاتين رسم أو نحت مجموعة من الصور أو مجموعة من الدمى تشبه الصورة أو الدمية المختارة مع ادخال تغييرات طفيفة بحيث تتزايد تلك التغيرات فى ترتيب الصور أو الدمى . فترتيبالصور والدمى يتواكب مع زيادة التغيرات أو التعديلات من حيث الملامح والقسمات .

ومن الممكن أن يتم التدريب المباشر فى مثل هذه الحالات بتوسيع مجالات التعارف والتعامل مع الجنس الآخر . فبمجرد توسيع أفق العلاقات بأفراد الجنس الآخر ،فان النتيجة المرغوبة تحدث ،وذلك بالتخفيف من بؤرة التعلق. على أن من الواجب أن يكون التعارف مع أفراد من نفس السن التى حدث فيها التعلق . فلقد يساعد الموجه النفسى الشخص الموسوس بمثل هذا الوسواس باذابة وسواسه عن طريق تشجيعه على المساهمة فى رعاية أحد ملاجىء الأيتام حيث يجد طفلة أو أكثر (أو طفلا أو أكثر فى حالة النساء الموسوسات) فيها شبه جدا بذلك الحبيب المفقود . .

والواقع أن هذا الحل الأخير وان كان يندرج تحت التدريب المباشر ، فانه لايكون بالتوسيع الوجدانى ، بل يكون بالابدال . فالطفل أو الطفلة

الشبيهة تحل محل الحبيب المفقود . ونفس هذا الموقف الوسواسى التعلقى قد يوجد فى حالات فقدان أحد الأبناء أو إحدى البنات فى الطفولة . ولقد تثور ثائرة الشخص ويسيطر عليه الوسواس بالحنين الشديد للطفل أو الطفلة المفقودة بعد سنوات عديدة من فقده . فلا يكون ثمة علاج لمثل هذا الوسواس الوجدانى الا باحلال بديل محل الأصل . وهكذا يحل شخص بالفعل محل شخص بالذكرى وبالعاطفة . وهكذا نجد أن التدريب المباشر يصلح فى علاج كثير من حالات الوساوس، سواء كانت وساوس ذهنية منطقية أو حسابية، أم كانت وساوس وجدانية، أم كانت وساوس أدائية متباينة . ولكن النجاح فى التغلب على الوساوس لايتأتى الا بالتخطيط الجيد للتدريب المباشر .

التمثيل الكوميدى :

إننا نعتقد أن الشخص الموسوس هو فى نفس الوقت شخص تزيد لديه فى مخه القوة المسماة بقوة الكف inhibitory عن القوة المضادة المسماة بقوة الاثارة excitatory . ذلك أن المخ محكوم بهاتين القوتين المتضادتين . وفى الحالات السوية تكون قوة الكف مساوية لقوة الاثارة . ولكن إذا طغت إحدى هاتين القوتين على القوة الأخرى ، فان الحالة تخرج إذن من نطاق السوية لتندرج فى نطاق الانحراف النفسى . ونستطيع أن نقرر أن الموسوس يكون قد أصيب بالضعف فى الأجهزة المسئولة بمخه عن إحداث الاثارة ، بينما يكون متمتعا بالقوة فى الأجهزة المسئولة بمخه عن إحداث الكف .

والواقع أن الكف يدفع بالنشاط الذهنى والوجدانى إلى الداخل ، بينما تدفع الاثارة بذلك النشاط إلى الخارج . ولعل من أنجع الوسائل لتنشيط وتقوية قوة الإثارة مشاهدة التمثيل الكوميدى والمساهمة فيه . ذلك أن هناك سبيلين لتقوية الجانب الضعيف لدى المرء : السبيل الأول — هو السبيل الكيميائى الحيوى، والسبيل الثانى — هو سبيل التأثير من الخارج وذلك بالانخراط فى مواقف اجتماعية . وليس هذا بالأمر المستغرب . فلقد نتمكن

من توسيع الأوعية الدموية بتناول الكحول ، وهذا يكون بالتأثير من الداخل ، بينما يمكن توسيع تلك الأوعية الدموية بالجرى . وبذا يكون التأثير من الخارج .

وثمة فى الواقع مجموعة من الشروط التى يجب أن تتوافر فى التمثيل الكوميدى حتى يكون ناجعا فى علاج الحالات الوسواسية . ولعلنا نلخص تلك الشروط فيما يلى :

أولا — أن تكون الكوميديا المشاهدة أو الممثلة كوميديا تعتمد على المواقف وليس على التلاعب بالألفاظ . ذلك أن الموقف الكوميدى المشاهد أو الممثل ينتقل إلى السلوك بالايحاء والتقليد المباشر . أما كوميديا الألفاظ والتلاعب بالكلمات فانها لاتنتقل إلى سلوك السامع أو المشاهد الا ككلمات وتعبيرات ، ولا تؤثر فى السلوك الأدائى من قريب أو من بعيد .

ثانيا — أن تكون كوميديا المواقف مبنية على معرفة بالحالات النفسية . وبتعبير آخر فان مؤلف المسرحية يجب أن يكون على دراية تامة بالحالات النفسية ، ولايكون تناوله للمشاهد المسرحية تناولا سطحيا يقصد من ورائه إضحاك المشاهدين أو السامعين ، بل يكون بمثابة معالجة كوميدية لحالات نفسية معينة وبضمنها الحالات الوسواسية . والواقع أن الدراما السيكلوجية قد ذاعت حديثا بحيث صار ذيوعها أبعد شأوا من ذيوع الدراما التاريخية أو دراما المفارقات والمواقف الاجتماعية أو غير ذلك من دراما .

ثالثا — أن تكون كوميديا المواقف ذات أبعاد سيكلوجية متباينة فتكون ثمة مواقف ذهنية عقلية ومواقف أخرى عاطفية ومواقف ثالثة أدائية .

والواقع أن هناك مجموعة من الخصائص التى يتسم بها التمثيل الكوميدى تساعد على علاج الوسوسة . وهذه الخصائص تتلخص فيما يلى :

أولا — إن هذا النوع من التمثيل يعمد إلى تقديم تصوير كاريكاتورى يستطيع الممثل بواسطته أن يبرز الملامح السلوكية التى يريد معالجتها بشكل مبالغ فى تكبيره أو مبالغ فى التهوين من شأنه . وبذا فان ما يدق على إدراك

وتفهم الشخص الموسوس سرعان ما يتضح . والشأن هنا كشأن المدرس الذى يريد أن يشرح للأطفال تركيب الشكل الخارجى للناموسة ، فيحضر أمامهم نموذجا مكبرا للناموسة بحيث يستطيع أن يتناول أى جزء من أجزائها عامدا إلى إبرازه والقيام بشرحه . فبعد أن كانت الناموسة غامضة المعالم فى أنظار الأطفال ، فانها تصير واضحة المعالم ومحددة الصورة فى الذهن . وكذا الحال بالنسبة للمثل الكوميدى . إنه يحاول باستخدام صورة مكبرة — أو مصغرة فى بعض الحالات كما يفعل المدرس بازاء الكرة الأرضية فيحضر أمام تلاميذه نموذجا مصغرا للأرض بحيث يحمله بيد واحدة — نقول انه يحاول بذلك أن يعظم من شأن شىء أو أن يهون من شأن شىء آخر ، فتكون نتيجة ذلك الايحاء للشخص الموسوس بما يقدمه من تصوير كاريكاتورى للموقف ، بل وحمله على تقليد سلوك الممثل ولكن فى الحياة العملية .

ثانيا — إن هذا النوع من التمثيل — أعنى التمثيل الكوميدى — يمكن أن يكون وسيلة تربوية لعلاج حالات الوساوس ، وذلك بأن ترسم الشخصيات الممثلة ويقوم المؤلف الكوميدى بنسج المسرحيات التربوية البسيطة وفق تلك الشخصيات المرسومة ، ثم يقوم التلاميذ أنفسهم بتمثيل الأدوار المرسومة . ومن الطبيعى أن تتضمن تلك المسرحيات العلاجية جوانب متباينة من ألوان السلوك الذى يراد علاجه . وكذا من ألوان الاعوجاجات الأخلاقية والاجتماعية التى يراد نقدها واستبدال غيرها بها .

ثالثا — إن هذا الفرع من التمثيل الكوميدى يمكن أن يقوم برأسه كفرع علاجى من فروع علم النفس لعلاج الأمراض النفسية بصفة عامة ، ولعلاج الوساوس بصفة خاصة . ومن الممكن تطويعه والاتساع بمجاله وآفاقه إلى أبعد حد ممكن . فالتمثيل الكوميدى مرن ويتسع لعلم النفس وللفن جميعا . ومن الممكن أن تكون نفس المسرحيات الكوميدية المقدمة أدوات ترفيهية حتى بغض النظر عن فوائدها العلاجية . من هنا فانها يمكن أن تحتل مكانتها الرفيعة فى الفن وعلى المسارح وفى دور العرض ويمكن أيضاً إحالة الكثير منها إلى أفلام سينمائية رائعة .

بيد أن هذا المطلب بحاجة إلى تآزر بين علماء النفس المختصين بأمور الصحة النفسية وبين الأدباء القصاصين والمؤلفين المسرحيين والمختصين فى عمل السيناريو والحوار والممثلين والمخرجين بل والمشتغلين بفنون المسرح الآخرين كالمصورين والمسئولين عن الاضاءة وغيرهم .

ونستطيع فى الواقع أن نقرر أن العلاج النفسى فى المستقبل القريب سوف يعتمد اعتمادا بالغا على الدراما بصفة عامة وعلى التمثيل الكوميدى بصفة خاصة فى التصدى للأمراض النفسية بصفة عامة والوسوسة بصفة خاصة . ذلك أن التهكم على الموقف الشاذ يكسر من هيبته ومن حدته ويفوت عليه فرصة الاستيلاء على الشخصية والأخذ بعنانها . ولعلنا نزعم أن الشائع اليوم من الدراما السيكلوجية يعوزه الكثير من التقنين والدقة فى التناول . والشأن هنا فى الواقع كالشأن عند تعرض بعض الأفلام السينمائية العربية للعمليات الجراحية أو لكشف الطبيب على المريض . فمن له دراية ولو سطحية بتلك الأمور يستطيع أن يقف على جهل الممثلين بالتقنيات المستخدمة بل وجهلهم بطريقة استخدام أبسط الأجهزة وبموقف الطبيب الممثل من المريض .

فما هو ذائع من تمثيليات أو من مسرحيات أو أفلام سينمائية إنما يجتزىء بالقليل أو قل بالقشور من علم النفس وقد بنيت المواقف الدرامية على ذلك القليل أو على تلك القشور . والحقيق بالاتباع هو شق خط جديد مدروس دراسة تفصيلية ودقيقة للحالات النفسية والأعراض المرضية التى يراد من وراء استعراضها تقديم علاج نفسى بواسطة المشاهدة أو المشاركة فى التمثيل . وهذا يتطلب فى الواقع أن تسير الدراما وفق خطوات معتنى بها وقد حظيت كل خطوة بحظها الواجب لها من العناية . والخطوة الأولى هى أن يقوم عالم الصحة النفسية بتقديم تشخيص تفصيلى ودقيق للحالة المرضية . وليس من الصعب عليه أن يقدم أمثلة حية تكون قد مرت فى خبرته الشخصية . ولدينا فى ملفات علم النفس الكثير من القصص الحية التى عرضت بالفعل على العيادات النفسية . فمثل تلك الحالات المشفوعة بالدراسات النظرية للحالة الوسواسية تقدم إلى المؤلف المسرحى الذى يقوم بنفسه أو بمساعدة كاتب

متخصص فى السيناريو بتقديم العمل الدرامى . وبعد ذلك يأتى دور المخرج الذى ينبغى بدوره أن يتفهم العمل المسرحى برمته بدءا من خيوطه الأولى ، ولايكون مجرد قارىء للسيناريو بل يجب أن يتناول المرحلة الأولى — وهى المعلومات السيكلوجية — بالقراءة وإنعام النظر فيها حتى لا يسقط من حسابه فى أثناء الاخراج شيئا يبدو فى نظره تافها بينما تكون له أهمية خاصة من وجهة نظر علم النفس . وبعد ذلك يأتى دور الممثلين . وهؤلاء أيضاً يجب ألا يكون دورهم هو الأداء بغير بصر بالمقومات الأساسية السيكلوجية التى انبنت عليها الدراما ، بل يجب أن يكونوا على المام تام بالعمل بتفاصيله المتباينة وبمراحله التى مر بها . فاذا ما توافر التكامل بين جميع الأطراف المشاركة فى العمل ، فان ذلك العمل يكون بالتالى ذا فائدة ونجوع فى معالجة الأمراض الوسواسية .

القراءة السيكولوجية :

لقد استقر فى أذهان الناس منذ زمن بعيد رأى يقول إن من يعرف الخير يفعله ومن يعرف الشر ينأى عنه . ولعل من أكبر المنافحين عن هذا الرأى هو سقراط زعيم المثاليين من فلاسفة اليونان . فهو القائل إن الفضيلة علم والرذيلة جهل . والواقع أن هذا الرأى السقراطى قابل للكثير من النقاش بل والدحض . فالكثير من الفضائل يمارس بغير علم بفلسفة الفضيلة الممارسة ، كما أن الكثير من العلم الأخلاقى لايضمن للعارف ممارسة الخير . بيد أن ما يصح قوله بالنسبة للمجال الأخلاقى لايصح بالضرورة بالنسبة للمجال النفسى . ولعلنا نزعم أن الكثير من المخاوف تنقشع إذا ما وقف الخائف على أسباب ذلك الخوف ، كما أن الكثير من الأمراض النفسية تعالج بمعرفة ما تنطوى عليه تلك الأمراض من أسباب أدت اليها . ولعل أن يكون زعيم هذا الاتجاه العلاجى بالمعرفة هو سجموند فرويد الذى أسس علاجه على تبصير المريض النفسى بأسباب مرضه،وذلك عن طريق تذكر خبرات الطفولة المؤلمة أو المكدرة .

ونستطيع فى الواقع أن نسمى العلاج النفسى بمعرفة الأسباب بأنه العلاج بالتنوير . ولكأن ثمة ظلاما دامسا يحيط بطريق المرء فى حياته مما يضربه بتلك

الأمراض النفسية . فاذا ما انتشر النور وعم طريق المرء ، فان الظلام ينقشع ويتلاشى ما كان يخيم على طريقه من ظلمة فتتبخر أمراضه النفسية كأنها لم تكن موجودة على الإطلاق . وإذا كان هذا صحيحاً بازاء الأمراض النفسية بصفة عامة ، فانه ينطبق بازاء الوسوسة بصفة خاصة . فعندما يقف الموسوس على الأسباب الحقيقية لوسوسته فان تلك الوساوس سرعان ماتتبخر وتتلاشى من حياته .

ومن الممكن أن نقول إن علم النفس صار اليوم من أهم العلوم التى تهم جميع الناس ولاتهم فئة بعينها . على أننا نخصص فنقول إننا نقصد نوعية معينة من كتب علم النفس وليس جميع كتب علم النفس . فهناك ما يمكن أن نسميه بعلم النفس الأدبى ، وهو العلم الذى يتناول الشخصية الانسانية تناولا عاما ولكن على أسس علمية مكينة بحيث لايحتاج تناول الكتاب الذى يقع فى إطار هذا العلم إلى دراسة سيكلوجية أكاديمية متخصصة . فهو العلم الذى يستطيع الشخص العادى الذى حظى بثقافة عامة أن يستوعبه وأن يفيد منه . ولعلنا ندرج كتابنا هذا ضمن الكتب التى تقع فى هذا الاطار . فهو لايحتاج إلى متخصص يقوم بقراءته ، بل يحتاج إلى شخص مثقف ثقافة عامة يستطيع استيعابه والإلمام بأطرافه .

على أن هناك كتبا سيكلوجية عامة تتخذ لها منهجا إيحائيا أو وعظيا ، وكتبا أخرى تتخذ لها منهجا موضوعيا يخاطب عقل القارىء أولا قبل وجدانه . ونحن نعتقد أن المثقفين ينبون عن الكتب الايحائية الوعظية ويقبلون على النوع الثانى من الكتب التى تتسلح بالاستعراض الموضوعى للأفكار بغير إلحاح على القارىء بأن ينحو منحى معينا ويترك منحى آخر . ولعل المؤلفين من النوع الثانى الموضوعى يكونون قد آمنوا بحرية القارىء فى الاختيار من بين اتجاهات متعددة تعرض أمامه ، بل لعلهم يحترمون القارىء ، إذ يعتقدون فى قدرته على الإختيار الصحيح بغير الحاح من جانبهم على تقبل ما ينحازون اليه هم من أفكار أو اجاهات ، أو إلى ما يتلبسون به من عواطف وميول شخصية .

وثمة فى الواقع مجموعة من الشروط التى يجب توافرها فى القراءة السيكلوجية حتى تكون مفيدة فى معالجة الوساوس والأفعال القهرية ، أعنى الوساوس الأدائية . ولعلنا نلخص تلك الشروط فيما يلى :

أولا — أن يكون القارىء مستعدا لادخال تعديلات على سلوكه وأن يكون بالتالى مستعدا للتفاعل مع ما يقوم بقراءته . ذلك أن هناك من يقرأون وكأنهم متفرجون على أشياء لاتهمهم من قريب أو من بعيد ، بينما هناك من يقرأون وقد انكبوا على القراءة بالعقل والعاطفة والارادة جميعاً . فهم يقرأون بجماع شخصياتهم أو قل بجماع خبراتهم السابقة . فهم يتجاوزون مرحلة الفهم إلى مرحلة الاندماج أو الاستغراق فيمايتفاعلون معهمن خبرات جديدة يخوضون فيها بالقراءة . فلكأن الفهم هو الوسيلة المبدئية للخوض فى مرحلة تالية هى مرحلة الاستغراق الفكر / وجدانى .

ثانيا — أن تكون المادة المقروءة مناسبة لحالة المرء . فكثير من كتب علم النفس الأكاديمية لاترتبط من قريب أو من بعيد بحالة القارىء ، ومن ثم فانه يعزف عنها أو على الأقل لايستطيع أن يتجاوز المرحلة الأولى من المرحلتين السابقتين إلى المرحلة الثانية . فهو يظل واقفا فى نطاق المرحلة المعرفية ولايتجاوزها إلى المرحلة التالية الاستغرافية .

ثالثا — أن تكون القراءة السيكلوجية قراءة تأملية لا قراءة تحصيلية . والواقع أن هناك فرقا جوهريا بين هاتين القراءتين . فالقراءة التأميلية لاتستهدف حفظ ما يقرأ بالذاكرة لإعادة سرده من جديد وقت الحاجة إلى ذلك ، بل هى قراءة تثير الفكر الشخصى بحيث يأخذ القارىء فى السباحة بفكره فى أرجاء متباينة تبعد أو تقرب من الموضوع المقروء . فالقارىء التأملى يعتمد فى تأمله أثناء القراءة على مبدأ تداعى الأفكار من جهة ، وتداعى العواطف من جهة أخرى . فهو يترك لعقله وعاطفته فرصة السباحة الذهنية العاطفية كيفما يقذف به تيار التفكير التأملى الترابطى .

ولعلنا نزعم أن المكتبة العربية فقيرة فى هذا النوع من الكتب السيكلوجية التأملية وهى الكتب التى يمكن أن نسميها بكتب علم النفس الأدبية أو الكتب الترابطية أو الكتب العامة . وحتى المتوافر منها لا يفى بالغرض فى الغالب . ذلك أن المتخصصين فى علم النفس غالبا ما ينبون عن الكتابة العامة الترابطية ويؤثرون الكتابة المتخصصة ، ويفضلون القيام بعمل بحوث يستقون الجانب الأكبر من مادتها من الكتب الأجنبية . ولسنا نتهمهم بسرقة ما فى بطون الكتب الأجنبية لأن ما يستقونه من معلومات منسوب فى الغالب إلى أصحابها بما يدونونه من مراجع بهوامش كتبهم . ناهيك عن الكتب المترجمة برمتها عن احدى اللغات الأجنبية التى يمكن درجها فى هذا نطاق هذه النوعية من الكتب الترابطية العامة . فمثل تلك الكتب الأدبية العامة أو الترابطية لايفى بالغرض وذلك بسبب اختلاف البيئة المصرية أو العربية عن البيئة التى عاش فيها المؤلف ، ولأن الترجمة مهما كانت دقيقة وجيدة ، فانها لا تبين عن مقاصد ومزاج المؤلف بسبب الاختلاف فى الاتجاهات من جهة ، وبسبب اختلاف ثقافتهما من جهة ثانية ، واختلاف اللغتين المترجم منها والمترجم اليها بعضهما عن بعض من جهة ثالثة .

ونحن فى مصر والبلاد العربية بعامة فى حاجة ماسة الى الكتب السيكلوجية الأدبية الترابطية العامة يقوم بتأليفها لفيف من الكتاب الذين درسوا وهضموا أصول علم النفس وأسس الصحة النفسية بصفة خاصة وقد حظوا بمرانة خاصة فى التعبير فأتقنوا التأليف الذى يمكن أن نسميه بالتأليف النفسأدبى — إذا صح التعبير — وصاروا متمتعين بحساسيةخاصة لحاجات القراء المصريين أو العرب عامة. ولسنا نعفى المؤسسات الثقافية ودور النشر من مسئولية التخطيط لهذه النوعية من الكتب بحيث تغطى جميع الجوانب والمشكلات النفسية تغطية تامة . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن قراءة واستيعاب بضعة كتب من هذا النوع والتأثر بها والتفاعل مع مضمونها،إنما يكفل فى الواقع وقاية القراءمن الكثير من الأمراض النفسية ، ناهيك عن أن الاطلاع عليها يساعد جدا على التخلص مما يكون قد ألم بهم من انحرافات نفسية كالوسوسة وغيرها .

وعلينا أن نشير الى نقيصة أخرى تعتور مؤسساتنا الثقافية ، وهى هذه المرة لا تتعلق بالكتب بل تتعلق بالفهرسة . ولسنا نغالى إذا قلنا إن فن الفهرسة لا يقل خطورة وأهمية فى الحياة الثقافية عن وجود الكتب الثقافية نفسها . ولقد قطعت الدول المتقدمة شوطا بعيد المدى فى هذا المجال بحيث استغلت الحاسبات الالكترونية (الكومبيوتر) لكى تقدم لمن يرغب جميع المراجع بصفحاتها التى عرضت للموضوع المطلوب بحثه أو القراءة فيه . فاذا أردت أن تقرأ عن الوسوسة مثلا ، فان عليك أن تملأ بطاقة خاصة وتكتب عليها كلمة « وسوسة » وتضعها فى ثقب خاص فترد اليك بعد برهة وجيزة وقد سجل عليها جميع الكتب بصفحاتها التى تضمنت معالجة موجزة أو تفصيلية لهذا الموضوع . فاذا لم يتيسر لنا ما يتيسر للدول المتقدمة ، فلا أقل من أن نهتم بالفهرسة التقليدية حتى نجمع شتات المعلومات المتناثرة فنقدم بذلك خدمة سيكلوجية رائعة فى العلاج من الأمراض النفسية وبضمنها الوسوسة .

العلاج الجمعى :

من الحقائق المعروفة أن المرء فى أثناء وجوده فى مجموعة متآلفة يكون أكثر قابلية للإيحاء وأكثر ميلا للتقليد عنه وهو وحده كفرد قائم بذاته . فالتواجد مع الآخرين يضعف من مقاومته ومن تقوقعه على ذاته ومن استقلاله فى الفكر والعاطفة والارادة . ولكأن الانسان عندما ينخرط فى إطار احدى المجموعات يأخذ فى الذوبان أو الانصهار وفقد القوام الذاتى ، فينهدم الجدار القائم بينه وبين الآخرين . ولعلنا لا نخطىء إذا شبهنا وجود الفرد فى المجموعة بالأوانى المستطرقة التى يتخذ فيها السائل نفس الارتفاع فلا يزيد ارتفاعه فى إحدى الأوانى عنه فى باقى الأوانى حيث أن السائل يجرى فى عروقها جميعا . فاذا انخرط أحد العلماء أو أحد الفلاسفة فى ركب جمهرة من الجمهرات فى مواجهة حادث وقع فجمع الشمل وأدمج الموجودين جميعا وصهرهم فى بوتقة الموقف ، فان ذلك العالم أو الفيلسوف سرعان ما ينصهر هو أيضا ويفقد إنيته ولا يفكر بعقله العلمى أو الفلسفى ، بل يفكر بعقلية الجمهرة ،

وهى عقلية مستطرقة لا تدانى عقل العالم أو الفيلسوف عندما يكون مستقلا بعقله بغير ذوبان أو انصهار فى قوام الجمهرة بعقلها الضعيف المتدهور .

ولقد وقف علماء النفس على هذه الحقيقة فأخذوا يفيدون منها فى العلاج النفسى بصفة عامة ، وفى علاج الوساوس المرضية بصفة خاصة . فطالما أن عقل المجموعة أكثر قابلية للإيحاء وأقوى ميلا للتقليد ، فان العلاج الجمعى يكون اذن أسرع وأنجع من العلاج الفردى. وهذا يتطلب فى الواقع تصنيف المرضى النفسيين الى فئات متجانسة. فاذا ما استطاع المعالج جمع الموسوسين فى فئة واحدة ، فانه يستطيع بالتالى التأثير فيهم واستمالتهم نحو السوية بسهولة .

على أن هناك خطوات ينبغى مراعاتها فى العلاج الجمعى لفئة الموسوسين : الخطوة الأولى هى تحقيق انصهار أفراد المجموعة بعضهم فى بعض انصهارا تاما ، وذلك عن طريق إقامة وشائج بينهم وحثهم على تحقيق هدف أو أهداف مشتركة . ولعل فى حفلات السمر وما يشيع فيها من مرح ما يحقق ذلك على خير وجه وأفضله .

أما الخطوة الثانية فانها تتمثل فى تدريب المجموعة على تلقى أوامر المعالج وتنفيذه . على أن الأوامر التى يلقيها المعالج ينبغى أن تكون بصوت حاسم وبطريقة تتسم بالشجاعة . فالمجموعة تشكل قواما خارجيا يؤثر فيه المعالج بشكل كلى ، فينهج نهجا كتليا قطيعيا . والأوامر فى هذه الخطوة لا ترتبط من قريب أو بعيد بالوساوس ، بل تكون أوامر عامة . فهدف هذه المرحلة هو هدف تدريبى عام وليس هدفا علاجيا .

وتأتى بعد هذا الخطوة الثالثة والأخيرة وهى الخطوة العلاجية ، وفيها يتناول المعالج وسواسا واحدا يستعرضه بالتفصيل والنقد، ثم يحض الموجودين على اجتياز العتبة التى يقفون عندها مكتوفى الأيدى إلى المرحلة التالية . على أن من الواجب أن تكون الأوامر الملقاة حازمة وحاسمة ، وأن يكون علاج كل وسواس وفق مجموعة من التدريبات التى يتكرر تنفيذها بعد صدور الأوامر اليهم من المعالج . وهنا يجب أن نشير إلى ضرورة تحقيق التطابق فى

الأداء بين جميع أفراد المجموعة بغض النظر عن نوعية الوسواس الذى أصاب كل واحد منهم .

وعلينا أن نضع نصب أعيننا أن العلاج الجمعى ينبنى على أساس مجموعة من المبادىء نلخصها فيما يلى :

أولا — إن التدرب على أحد المواقف العلاجية يؤثر فى علاج الحالات المشابهة التى لم يتم التدرب لعلاجها . فاذا قام المعالج بتدريب المجموعة على التخلص من وسواس الإصابة بالمرض تدريبا جيدا ، فان أثر ذلك التدريب يمتد إلى نوع آخر من الوساوس قد يكون أصاب أحد أفراد المجموعة مثل الوساوس المستقبلية .

ثانيا — إن الأخذ بيد المرء ولو بخطوة واحدة نحو العلاج يمكن أن يشجعه على الاندفاع حتى آخر الشوط والتخلص من جميع وساوسه المتباينة . فلكأن العلاج الجمعى يشكل مفتاحا يكفل للمرء علاج نفسه بنفسه ، بل ووقاية نفسه من الاصابة بوساوس جديدة .

ثالثا — يعتمد العلاج الجمعى على مبدأ التعميم . فاذا ما تسنى بالعلاج الجمعى التغلب على الوساوس العقلية ، فان قلاع الوساوس الأخرى التى يكون الشخص قد أصيب بها كالوساوس الوجدانية أو الوساوس الأدائية سرعان ما تنهار . ذلك أن الوساوس والأعمال القهرية تنبنى بعضها على بعض وتتراكب بعضها فوق بعض ، فاذا أسقطت إحداها ، فانك تكون بذلك قد زعزعت البناء برمته .

رابعا — يكسب العلاج الجمعى المريض بالوسواس الطمأنينة من جهة والشجاعة والإقدام من جهة أخرى . ناهيك عن أن مشاهدة الآخرين من من الموسوسين يحمل على مشاهدة ما أصاب المرء من وساوس بل ويحمله على النقد الذاتى عن طريق النقد الموضوعى. فكأنه يرى حالته مجسدة أمامه فى الآخرين . ومثل هذا النقد أدعى الى التخلص من الوسوسة .

خامسا — إن العلاج الجمعى يضمن تقوية النزعة للنشاط نحو الخارج ، أو بتعبير آخر فان هذا النوع من العلاج يمكن أن يغنى عن استخدام الوسائل العلاجية العضوية التى تؤثر فى المخ بأن تخفف من وطأة الكف والنقد الذاتى . ذلك أن الموسوس هو شخص تحتدم لديه قوة الكف بينما تنقصه قوة الاثارة . فكونه ينخرط فى إطار مجموعة من الأفراد، فان هذا يساعدة على الانطلاق والتعبير عن ذاتيته بغير أن يشهر على فكره ووجدانه وارادته سلاح النقد وإبطال التعبير عن الذات والانطلاق الى الخارج .

ومن الواجب أن نشير إلى مجموعة من المحاذير التى ينبغى أن توضع نصب الأعين لأن عدم مراعاتها وإهمال الاحتياط منها يعرض هذا النوع من العلاج للفشل بل وقد يؤدى إلى الضرر واستعصاء الحالة على الشفاء بعد ذلك بهذه الطريقة . والمحاذير التى ننبه اليها على النحو التالى :

أولا — يجب ألا تكون العلاقة بين المعالج وبين الموسوسين علاقة رسمية. فحتى لفظ « معالج » الذى نستخدمه فى هذا المقام يجب ألا يستخدم ، بل يجب ألا يكون معروفا بالنسبة للفئة الوسواسية التى يراد علاجها . فكلما كانت الصداقة هى الأساس فى العلاقة ، وكلما آنس المريض فى المعالج روح المودة والتعاطف ، فان العلاج يكون أسرع وأنجع . ومن هنا فان الأحرى أن يكون المعالج فى موقع الرائد أو الموجه النفسى أو صديق المجموعة أو نحو ذلك من مسميات تبعد به عن فكرة المرض والعلاج .

ثانيا — يجب ألا تكون المجموعة التى تضم الموسوسين موصومة بالوسوسة. فلا يقال لهم مثلا « إن المجموعة التى تتشكلون منها هى مجموعة مصابة بالوسوسة » . والأحرى بالموجه النفسى أو المعالج النفسى أن يتخذ من المجموعات الاجتماعية الطبيعية مجالا لعمله . ومن ذلك مثلا قيام الاخصائى الاجتماعى بالمدرسة أو المصنع أو الشركة بمتابعة جميع أفراد المجتمع المدرسى أو مجتمع المصنع أو مجتمع الشركة،وأن يقوم بتصنيف بطاقات المتابعة النفسية تبعا للأمراض النفسية التى يشتمها من خلال المعلومات التى يجمعها منهم

أو ممن يحيطون بهم فى نطاق العمل أو بالمنزل. ولعله يستطيع أن يحصى حالات الوسوسة بحيث يكون من السهل عليه جمع أفرادها دفعة واحدة فى معسكر أو فى رحلة طويلة ، ثم يقوم بمباشرة العلاج النفسى بغير أن يدرى أحد من أفراد المجموعة أنهم جمعوا لهذا الغرض . وأفضل علاج نفسى هو العلاج التلقائى غير المباشر .

ثالثا — يجب إخفاء البيانات والنتائج عن أفراد المجموعة . فعلى المعالج الجماعى أن يحتفظ بسرية البيانات حتى عن أصحابها . فهو يجمع المعلومات فىخفية وعندما يحصل على معلومات جديدة فيجب عليه ألا يدونها فى حضرة صاحب تلك البيانات . فالحرى به أن يحتفظ بها فى ذاكرته ، ثم يعكف على تسجيلها عندما يخلو الى نفسه فى البطاقة النفسية الخاصة بذلك الشخص .

رابعا — وبالأولى فان من واجب المعالج الجمعى ألا يفشى أسرار المجموعة أو أسرارأحد أفرادها.فعليه ألا يقول لأقرب المقربين اليه إنه جمع أولئك الأفراد فى مجموعة واحدة لأنهم يشتركون جميعا فى سمة واحدة هى الوسوسة . إنه يستطيع أن ينتحل أسباباً أخرى ترويحية أوثقافية . ذلك أن مجرد إفشاء سر المجموعة التى يعالجها يمكن أن يؤدى الى فشله فى عمله العلاجى وفى إرشاده النفسى برمته .

خامسا — يحسن فى العلاج الجمعى مراعاة انسجام المجموعة من حيث السن والجنس والذكاء وغير ذلك من جوانب بالشخصية . ذلك أن المجموعة كلما كانت متقاربة ، فان انصهار أفرادها فيها يكون أيسر . ولعلنا نحذر من وجود أفراد متنازعين أو كارهين بعضهم لبعض أو يستعصون على الانسجام مع أقرانهم ، لأن ذلك يمكن أن يؤدى الى تفكك المجموعة وعدم استحالتها إلى وحدة منصهرة الأفراد . وبالتالى فان العلاج من الوسوسة يتعذر ، ولا يمكن المرور خلال الخطوات العلاجية الثلاث التى ذكرناها .

للمؤلف بمكتبتنا

١ ـ الشخصية القوية
٢ ـ الشخصية المحبوبة
٣ ـ رعاية الشيخوخة
٤ ـ رعاية المراهقين
٥ ـ سيكلوجية الشك
٦ ـ سيكلوجية الالهام
٧ ـ الشباب والتوتر النفسى
٨ ـ العبقرية والجنون
٩ ـ الحب والكراهية
١٠ ـ قوة الارادة

الفهـرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٣/٢٥٠٦
الترقيم الدولى ٢ ــ ٠٤٢ ــ ١٧٢ ــ ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) ــ تليفون : ٢٢٠٧٩

هـــذا الكتـــاب

يتضح من عنوانه انه ضمن الكتب السيكلوجية التى تساهم فى توفير صحة نفسية افضل وفهم اوضح لمن يولونه العناية بالقراءة الجادة وتأمل ما يتضمنه من وسائل وقائية ووسائل علاجية ·

على أن هـــذا الكتاب يمكن أيضا أن يندرج فى اطار نوعية من الكتب التى يمكن أن نسمها بكتب علم النفس المتفلسف أو المتأدب · ذلك أن المعالجة كما تتضح بداءة من فهرس الكتاب ليست معـــالجة محصورة فى نطاق الصحة النفسية · فهى معالجة أشمل وأوسع من ذلك بكثير ·

وعلى الرغم من ان لفظى « الشك والوســـوسة » متداولان على الألسنة والأقلام ، فان مضمون الكتاب يعتبر جديدا ، فثمة تعـــريفات جديدة ومبتكرة تماما ابتدعها المؤلف وأخذ يدافع عن الأفكار الجديدة التى يقدمها مستنبطة من تلك التعريفات الجديدة ·

والكتاب يعتبر من هـــذه الزاوية مناقشة أو مجادلة بين الشائع الذى لا يقتنع به المؤلف ، وبين الجديد الذى يقدمه على صفحاته · والدعوة مفتوحة لمن يرغب فى المساهمة فى مائدة هـــذا الحوار الذهنى النقدى المتجدد ·

عبد الحميد احمد غريب

دار غـــريب للطبـــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص · ب ٥٨ (الدواوين) ــ تليفون ٢٢٠٧٩